بول كيرتز

الفاكهة المحرمة

أخلاقيات الإنسانية



ترجمة: ضياء السومري

منشورات الجمل

بول كيرتز

الفاكهة المحرمة

أخلاقيات الإنسانية

ترجمة: ضياء السومري

منشورات الجمل

بول كيرتز: الفاكهة المحرمة أخلاقيات الإنسانية

بول كيرتز: الفاكهة المحرمة أخلاقيات الإنسانية،
ترجمة: ضياء السومري

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة

الحياة خارج جنة عدن

معرفة الخير والشر

لو أن الرب ميت، فهل سيستمر كل شيء؟ لو أن شخصاً يرفض الإيمان بخالق سماوي، فهل سيكون كل شيء مباحاً له؟ هل ستنهار الأخلاقيات من دون الإيمان والدين؟

في رواية الجريمة والعقاب لفيدور دوستويفسكي، يسطو راسكولينيكوف ويقتل إمرأتين عجوزين، لأنه لا يجد أية بنية أخلاقية تحد مشاعره. إن قاعدة المنفعة ـ الذاتية ليس لها حدود؛ لقد تحول المؤمن الشاب إلى عدمي. فيصيح دوستويفسكي، «إن الحياة والعالم ليس لهما من معنى من دون الرب». من دون قانون إلهي للجزاء والخلاص، لايجد دوستويفسكي أية أرضية للواجب الأخلاقي، لا إحساس بالواجب أو المسؤولية تجاه الآخرين. ليس ثمة قيم أخلاقية فيما وراء النزوة الذاتية او الرغبة. يصبح الوجود الإنساني مجرد ومضة بين نسيانين. كل شيء مباح، وتهيمن علينا متعة اللذة والمغالاة الذاتية. ليس ثمة معايير للخير والشر ولا للخطأ والصواب، وليس ثمة أية أغراض أخلاقية خلف الواقع البشري.

هذه الصورة الكالحة هي تقويم غير موثوق للحالة البشرية. بل على العكس من ذلك، لو أننا أكدنا على أن الرب غير موجود، ربما حينذاك فحسب يمكننا التعرف تماماً على أن البشر لديهم الاستقلال الذاتي وأننا مسؤولون عن أقدارنا

وعن غيرنا من البشر. ربما حينذاك فحسب يمكننا أن نستجمع شجاعتنا وحكمتنا كي نطور قيماً أخلاقية عقلانية مبنية على تثمين الطبيعة والوعي لمركزية الآداب الأخلاقية العامة. ربما حينذاك فحسب سيكون من الممكن لنا أن نخلق مجتمعاً علمانياً موثوقاً به ونعيش على وفق مبادئ وقيم إنسانية.

ينكر اللاهوتيون إمكانية الأخلاق من دون الرب. وتبعاً لأسطورة الإنجيل، هبط آدم وحواء من نعيم الرب لأنهما خالفا مشيئته. لقد سمح لهما أن يأكلا من كل أشجار جنة عدن إلا من شجرة معرفة الخير والشجر، وبذلك منع أي بحث مستقل ذاتياً للإنسان عن المعرفة الأخلاقية. لقد قال، «عليك أن لا تأكل من الشجرة التي في وسط الجنة. . . ولا تلمسها كي لا تموت». [تكوين ٣: ٣][1]. ورأت حواء أن تلك الشجرة ذات ثمر حلو، منظرها يسر العين، وهي الشجرة المرغوبة نظراً للحكمة التي تمنحها. ولذلك أكلت من الشجرة وأقنعت آدم بأن يأكل منها. ذلك ما أثار غضب الرب ودفعه إلى طردهما من الجنة ولعنهما: لتعاني حواء من أثر ذلك من آلام الولادة وليتحكم بها زوجها. وسيكدح آدم بحزن بعرق جبينه من أجل لقمة العيش. وسيموت آدم وحواء وذريتهما، وسيفقدان الخلود. يكمن الدرس الأخلاقي في أن الرب لم يرد أن يميز البشر بين الخير والشر بأنفسهم بعيداً عن السلطة الإلهية.

وعلى الرغم من ذلك فإن عدداً لا يحصى من الرجال والنساء المتنورين قد تخلوا عن أوهام الدين اللاهوتي وعاشوا في حياة أخلاقية. كانوا قد استلهموا المثل النبيلة والقيم الأخلاقية باستعمال معرفتهم بالخير والشر، استطاعوا أن يحصلوا على تقدير عميق لحياة خيرة، بضمن ذلك إحساس بالجماعة مع البشر الآخرين، وقد نذروا أنفسهم لخدمة المجتمع والأعمال الخيرية والعدالة. لم يتخلوا عن خططهم ولا عن مشاريعهم ولا عن الرغبة في الحياة. لقد تم إُبداع

(1) All biblical quotations are based on the King James Version unless otherwise noted.

العلم والتكنولوجيا والفلسفة والشعر وفنون الحضارة والثقافات الراقية من قبل البراعة والمحاولات البشرية. إكتشف جيل بعد جيل من الأبطال العلمانيين من غير المُغنّى بهم أن الحياة ثرية بالفرص وهي لذلك ذات معنى. وعلى الرغم من أنهم غير متدينين، فلم يتخلوا عن عمل الخير للآخرين، ولم يتنكروا للقيم الأخلاقية والمبادئ وهم يعيشون حياتهم.

ولكن اليوم، كما في الماضي، يسمع ابتهال من اتباع الدين فوق الطبيعي: أن من دون الرب يضيع الجميع؛ من دون الإخلاص للوصايا الإلهية الموحية سيتملكنا الفساد والخطيئة.

إن الرسالة الدينية تضلل؛ فالإيمان بالرب المتسامي هي الأسطورة المهيمنة على التاريخ البشري. لقد صمم الشعراء والأنبياء من خلال الخيال البشري كائناً إلهياً يعكس تصورهم عن الإنسان، كائناً أُختلق ليشبع توقهم العميق: أن الرب قد خلق الكون. ويؤكدون أن لابد من انبثاق كل الأخلاق منه. ثمة خطة إلهية معدة لنا، حتى لو أن الرب المتسامي قد اتشح بالأسرار، ومن غير الممكن اختراق حجبه إلا على وهن من خلال الاستعارات والرموز المستعملة في رسمه فواجبنا الأخلاقي الأساس هو القبول بالرب بكونه المصدر الوحيد للأخلاق.

إن بؤرة اللاهوت هي مبدأ الخلاص؛ أي أن الرب سوف ينقذ الإنسان من الخطيئة والموت ويمنحه السعادة الخالدة. وكي يحصل الإنسان على هذه المكافأة، يتحتم عليه الإيمان بالرب. ويعتقد بعض اللاهوتيين أن الإيمان وحده كاف من أجل الحصول على الخلاص؛ بينما يعتقد آخرون أن على الإنسان أن يقوم بعمل الخير لينال الخلاص. لكل من المسيحيين واليهود والمسلمين سبلهم المختلفة نحو الخلاص ولكن النتيجة واحدة.

هل أن أولئك الذين يرفضون اللاهوتية أشرار ومن دون أخلاق حميدة؟ من المؤكد أن الإيمان بالرب لا يكون ضمانة للأخلاق الحميدة، لأن ثمة أناساً لا حصر لهم ممن آمنوا بالدين ورغم ذاك عاشوا حياة لا أخلاقية. إن أروقة

التاريخ تردد صدى شناعتهم. لقد اقترف الأعمال الشريرة كل من المؤمنين ومن غير المؤمنين، من المسيحيين والملحدين، من اليهود والهندوس، من المسلمين والاستبداديين، من لاهوتيين وعلمانيين. إن سوء الأخلاق ليس له حدود. منذ قابيل الذي قتل أخاه هابيل، إلى كاليغولا وأتيلا وهون، من جنكيزخان وتوركومادا وقيصر بورجيا وهتلر وستالين، خضب اللاأخلاقيون الأرض بالدماء. من الزيف التصريح بأن القديسين في التاريخ هم وحدهم الذين ارتبطوا بالكنائس والمعابد وأن من هم خارجها وحدهم المخطئون.

إن الخطيئة الكبرى والسبب الذي دعا إلى هبوط الإنسان من النعيم، طبقاً إلى الإنجيل، هو الأكل من من شجرة معرفة الخير والشر، والانشغال بالبحث الأخلاقي ووضع أسس وقيم في العقل المستقل ذاتيا. ثمة تقليد تاريخي في الحضارة، على أية حال، عن أشخاص أخلاقيين أكلوا من الفاكهة المحرمة لهذه الشجرة السخية. وفي حياتهم خارج عدن كانوا قد اكتشفوا قيماً أخلاقية بارزة وحقائق يمكن أن تكون دليلاً لكل من السلوك المتعلق بالنفس والسلوك الذي يتعلق بالآخرين.

الأخلاق من دون الرب

بالنسبة لأولئك الذين من خارج عدن وينظرون إلى قصة عدن على أنها ميثولوجية، فالكون بلا أية خطة أو غرض سماوي. إنهم يؤمنون أن حاجتنا الأولية هي أن نحصد شجرة معرفة الخير والشر ولا نتجنبها. من الواضح أننا لو أزحنا التهديد أو الخوف من الجزاء الإلهي، فلن يكون من الضروري على الناس أن يسرقوا ويقتلوا؛ إذ من دون التصديق بالإلهي يمكن للفرد أن يكون نزيهاً وموثوقاً به وأميناً وعادلاً ويمكن للناس أن يطوروا الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين. وفي حياتهم الداخلية الخاصة لا ييأسون ولا يكونون عدميين. وليس بالضرورة أن يهزأوا من أصول الحياة العامة واللياقة وينحدروا إلى البذخ أو

يشتركوا بالعربدة. ثمة بواعث إنسانية عالية للسلوك الأخلاقي. لو أزيحت المؤسسات الدينية، فلن تنهار الأخلاق؛ ولن تتحكم بالحياة المنفعة الذاتية المتعلقة بالمتعة.

إن الإنسانية العلمانية الأخلاقية التي سأفصل الكلام فيها في هذا الكتاب مبنية على أساس النظرية العلمية للطبيعة والطبيعة البشرية وهي تقوم على أساس المعرفة العقلانية للخير والشر. إن الأديان الأرثوذكسية التي تجذرت في العهدين القديم والجديد والقرآن وما شابهها مما يسمى بالكتب المقدسة تستلزم تفكيراً دائريا. تفترض هذه الأديان ضمنياً مجموعة من القيم الأخلاقية القَبْلية، وهي تبحث عن تبريرها بالرجوع إلى مرجع متسامي. لكن هذا الكيان الغامض، بوضعه تحت التمحيص النقدي، ينظر إليه على أنه مانح لقيم باقية في الذهن من قبل ذلك. قلما يكون من الضروري لإنسان أن يخترع إلهاً يقوم هذا الإله بمنح الإنسان التعاليم الأخلاقية التي تنمو في عقله وضميره.

إن الناس الذين يشيرون إلى الإنجيل أو القرآن لتبرير إيمانهم بمجموعة من التعاليم أو المبادئ الأخلاقية يخدعون أنفسهم، لأن الأديان الموحدة هي ببساطة من خلق الخيال البشري؛ وليست لها استقلالية في الواقع. إن من الخداع الكبير أن نعد فعل الخير أو الشر، الخطأ أو الصواب، مجيراً باسم الرب بينما يكون الفعل في الحقيقة مرتبط بتراث تاريخي ثقافي ويتحول إلى القداسة لاحقاً أو يدان بقوانين كنسية أو مؤسسات مماثلة لها. إن فكرة الرب مرادفة لمثلنا الأخلاقية العميقة. كما إن مفهومنا لهذه الفكرة يقوم على أساس أنها المستوى الذي نقيس وفقه ألمنا ونؤسس عليه آمالنا. إننا نستدعي الرب لكي يجبرنا على ان نطيعه. يرى الرجال والنساء بانفسهم اللاأخلاقية او الأذى في السرقة أو القتل، لذلك يصادقون ضد هذه الأفعال بأن يسمونها الوصايا الإلهية: «لا تسرق» و«لاتقتل» التي يعزونها إلى الرب.

ولكن التقديسات الإلهية هي مجرد إنابة لتغيير مفاجئ أخلاقي عميق الموقع

ضد هذه الأفعال. كل الأنظمة الأخلاقية تنسج من الرغبات والحاجات الإنسانية. إن الكهنوتي يصر في قناعاته على أن مثله الأخلاقية ملهمة من الله وعليه فهي بعيدة عن التحريف. وذلك ما يضلل الخداع الذاتي العميق. ليس ثمة دليل على أن موسى قد تلقى الوصايا العشر من السماء، ولا دليل على أن الأمثلة الأخلاقية حول الموعظة على الجبل قد نطق بها الرب الذي ظهر على أنه المسيح، ولا دليل أيضاً على أن جبريل قد سلم القوانين القرآنية الأخلاقية إلى محمد ـ على الرغم من أن المؤمنين يصرون في قناعاتهم على أن هذه المعجزات قد حدثت.

في كتاب سابق، وهو «الإغواء المتسامي: نقد الدين وما فوق العادي»[1]، كنت قد بينت أن هذه الادعاءات بالوحي ليس لها أساس على الإطلاق. في تقديري أنها نتاج الحيل البشرية وتعبر عن الجوع داخل صدر الإنسان الذي يبحث عن المعنى المطلق ليكون جواباً على المآسي التي يواجهها في الحياة. إنها اساطير عن العزاء والسحر الذي يمكننا من الهروب من محدودية الوضع البشري، فناء الحياة ونهاية الموت. وهي تعزز بالأنظمة الأخلاقية الدينية التي تفرض علينا الصلاة الاسترضائية والدساتير الأخلاقية المحددة، محتفية بشعائر مراحل الحياة وتوفر تقديساً للمشاركة الجماعية.

والسؤال المشروع الذي غالباً ما يسأل هو: إن تكن (كل) الأنظمة الأخلاقية هي نتاج الثقافة البشرية وإن أزلنا إيمان خداع الذات الذي يقدسها، فهل يكون من الممكن إقامة حياة موثوقة أخلاقياً من الممكن فيها أن يتطور السلوك الأخلاقي؟ هل يمكننا أن نبني مجتمعات علمانية أخلاقية؟

إن هدف هذا الكتاب هو أن يبين *أن ثمة اساس إنسانس إيجابي للسلوك الأخلاقي*. من المؤكد أن كامل الأبعاد للحياة الأخلاقية من الممكن فقط أن

(1) Paul Kurtz, The Transcendental Temptation: A Critique of Religion and the Paranormal (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1986).

تدرك عندما نكسر روابط الوهم الديني ونتحول إلى مرحلة جديدة من التطور الإبداعي. إن الأخلاقية الموثقة المتواشجة مع بروز الحضارات في المستقبل يمكن أن تطور حين نبعد القيود القبْلية لماضينا القديم ـ محتفظين بالأفضل ولكن مستبعدين غير الضروري والمزيف ـ وننطلق إلى الأمام لخلق تقويم مشروع للقيم والمبادئ الأخلاقية العليا.

للأسف، أن النظم الأخلاقية للماضي، ثُبتت وقدست من السلطات الدينية والتقليدية. كل ثقافة تحتاج إلى منظومة أساسية من المبادئ الأخلاقية والقيم كي يعيش الناس وفقها. أنها تفرض سلوكاً وتحدد قواعد ما هو مشروع وما هو غير ذلك. إن الحياة الاجتماعية يمكنها أن تسير عندما يكون لديها مثل هذا النظام فقط. إن تلك القواعد الأخلاقية التي تعد الأكثر أهمية قد سنت ضمن تشريع وفرضت بالقانون. في التاريخ البشري الطويل، كانت الأخلاق قد زوجت بقوة شديدة إلى الدين، وقد منحت القيم والأعراف الدعم الكهنوتي والتبرير الديني.

إن السير نحو التغير الاجتماعي والتكنولوجي يجري سريعاً إلى درجة أننا اليوم لا نستطيع النظر إلى الوراء إلى الحضارات البدائية البدوية والزراعية في الماضي والأديان المبجلة التي نتجت عنها من أجل أن نتوجه إلى مبادئنا الأخلاقية، حتى وإن كان البشر يتوقون إلى شاطئ قديم جداً يمكنهم من أن يشعروا بالأمان. إن الأديان الأرثوذكسية تضع العراقيل في طريق التقدم الاجتماعي وتمنع التجديد الخلاق في مجتمعات ما بعد الحداثة التكنولوجية. إنها تعبر عن الموضوع التراجيدي الفاوستي بأن البحث عن المعرفة محدود، وأن الإنسان لا يمكن له ان يقتنع تماماً بنفسه وعنها، وأن شكوكه ستقوده حتماً إلى أن يدمر نفسه. الكثير من الناس الخائفين يرغبون لذلك في تقييد جني العلم الحديث والتكنولوجيا وإعادته إلى الزجاجة؛ إنهم يتوقون إلى المواثيق الأخلاقية المطلقة للسنة الماضية. إن هؤلاء الأتباع للبنى المتسلطة المتجذرون في العادي، غير القابل للتغيير، لا يثقون بأي مراجعات تجريبية في الأخلاق.

إن الأنظمة الأخلاقية اللاهوتية التي تريد المحافظة على الصيغ البالية للماضي مبنية على الاعتباطية والأساس المزيف. تتضارب الكاثوليكية الرومانية واليهودية الأرثوذكسية والأصولية البروتستانتية والاستبدادية الإسلامية، القائمة على المريدين المتحمسين، فيما بينها حول الأسس. فضلاً عن ذلك، أنها لا تسمح بمراجعة للدساتير الأخلاقية التي تخطتها العلوم الحديثة وقسم منها أمست فائضة عن الحاجات الحالية. لقد عارضت الأديان القديمة غالباً الاستقلالية الجنسية وحرية المرأة وتحرير الأقليات المحرومة والتسامح بشأن أنماط الحياة المختلفة وبناء المجتمع العالمي. إنهم يبحثون في تعزيز الجمود القديم للثوابت المستقرة. إنهم يمنعون أطفالهم من الآفاق الواسعة للتعليم، ويحرمون الاطلاع على القيم والأفكار الجديدة. ولكننا نحتاج إلى أن نتجاوز مثل هذه الأنظمة الأخلاقية المتصلبة المستندة إلى التأمل العليائي والصور المشعوذة للواقع. علينا أن نؤكد مرة أخرى ان «ليس ثمة من آلهة ستنقذنا، علينا أن ننقذ أنفسنا»[1] ـ خصوصاً من حماقات وأخطاء أسلافنا.

نحن، وليس الرب، المسؤولين عن قدرنا. وتبعاً لذلك علينا أن ننقذ عالمنا الأخلاقي. علينا أن نبحث في تغيير الأخلاقية العمياء والمرتبكة بأخرى أساسها العقل، نحتفظ بأفضل ما موجود من حكمة الماضي ولكن نبتكر مبادئ اخلاقية جديدة ونحكم عليها بناء على النتائج ونختبرها ضمن سياق التجربة الحية. إن الأخلاقية الإنسانية، مادامت تتخلى عن الأوهام الأسطورية وتواجه الحالة البشرية بما هي عليه، هي أكثر نزاهة ومسؤولية من الأخلاقيات العليائية.

ولذلك نحن في حالة تحد: هل من الممكن بناء نظام شرعي للأخلاق يتجنب الإيمان المتعالي؟ هل يمكننا أن نصمم مبادئ أخلاقية وقيم مستقلة ستمنح الناس أهدافاً ذات مغزى في حياتهم؟ هل يمكن للعلمانيين والإنسانيين

---

(1) Paul Kurtz, ed., Humanist Manifestos 1 and 2 (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1973).

أن يطوروا شعوراً ناضجاً بالمسؤولية تجاه الآخرين؟ إن مهمة هذا الكتاب هي الانطلاق وتحليل المميزات الرئيسية لعلم أخلاق الإنسانية.

المسيح وموسى ومحمد مقابل سقراط

ثمة سبيلان متعارضان للسلوك والأخلاق هما في نزاع ثابت في الثقافة الإنسانية. الأول متمثل جيداً في المسيح وموسى ومحمد، الذين أعلنوا أن مبادئ الأخلاق مستوحاة سماوياً وهم يفصحون عنها من دون جهد في التبرير أو التفسير العقلاني. السبيل الثاني متمثل في سقراط الذي بحث في استعمال العقل لتعريف وتبرير مثله الأخلاقية وإخضاعها باستمرار إلى التمحيص النقدي.

أول ما في الأخلاقية الدينية المتسامية، هو الإيمان بأن الأخلاقية يجب أن تكون متأصلة عن مصدر إلهي. وهذا متأسس على الإيمان بالوحي الإلهي، وهو مدعوم بتراث من الاعتقاد الذي يستند إلى السلطة. في الحضارة الغربية، هنالك الأساس اليهودي المسيحي للأخلاق، وفي العالم الإسلامي يكون الإعتماد على ما جاء في القرآن. التراثات الأخرى تجد عزاءها في نصوص مقدسة أخرى أستوحيت من الماضي السحيق أو حتى ابتدعت ـ أو كما يقول المؤمنون بها أنها «استظهرت» ـ في الأزمنة الحديثة.

الثاني، هو علم الأخلاق الإنساني، المتأسس أولياً على إدراك الإنسان للخير والشر، على الرغم من أنه، مثل الأخلاقية الدينية، قديم مثل الحضارة الغربية نفسها. إنه يجد أولوياته في النصوص الأغريقية ـ الرومانية، وتحديداً في فلسفة السفسطائيين وأفلاطون وأرسطو وأبيقور وأبيكتيتوس؛ إنه السعي لإيجاد القاعدة العقلية للسلوك الأخلاقي. وتستمر مسألة القاعدة العقلية للأخلاق عبر تاريخ علم الأخلاق ويمكننا أن نجده في كتابات سبينوزا وكانت وبنثام وميل ومور ورسل وديوي. على الرغم من ذلك، لابد للإنساني أن يعزز ثقته بقوة بالأخلاقيات العقلية في الشأن البشري. لأن النساء والرجال بنوا الكاتدرائيات

والمعابد والمساجد لتقديس رسالات المسيح وموسى ومحمد وقد عبدوها على أنها من وحي السماء. ثمة القليل من المعابد التي شيدت لتشريف العقل؛ لم يؤله لا سقراط ولا الذين جاؤوا من بعده من الأجيال التالية. إننا، على أية حال، بنينا كليات وجامعات ومعاهد للبحث ومنظمات علمية ومستشفيات ومتاحف، وقد استعملنا المعاهد والمؤسسات العلمانية والاجتماعية والسياسية في المجتمع الحديث للمساعدة في خلق حياة أفضل للجميع. ولكن، بالنسبة للكثيرين جداً في العالم المتمدن، لازالت الأخلاقية تخوض في الوحي الإلهي ـ ولا يمكنهم استيعاب كيف أن الناس يمكن أن تكون لهم أخلاق من دون أن يؤمنوا بالرب.

ألم نصل أخيراً إلى اللحظة التاريخية التي يمكننا فيها أن نطلّق، على نحو حاسم، الزواج التاريخي بين الدين والأخلاق؟ ألم يحن الوقت الذي يجب أن تتحول فيه الحياة السلوكية جذرياً عبر النقاش النقدي الأخلاقي. لقد بدأ هذا التحول في ما سمي بالعالم الوثني، ولكنه دمر في العصور المظلمة. ومنذ عصر النهضة، وفي فجر العلوم الحديثة، وعصر التنوير، حاولت التأثيرات العولمية للعالم الحديث أن تفصل الدين عن الأخلاق. ألم يحن الوقت الذي نساعد فيه على تسريع نمو علم أخلاق ذاتي ومستقل مبني على أساس الفكر النقدي ونضمن تأثيره من خلال إنشاء معاهد للمستقبل؟

الممتع أن الذين ينتقدون بصخب علم الأخلاق لدى الإنسانيين يبدون غير واعين للتراث الفكري الغني الذي تركه الفلاسفة الذين درسوا بعمق معنى «الخير والقيم والحق والعدالة» وكذلك الأسئلة المتعلقة بالإجبار والواجب والذاتية والموضوعية. الغير ثابت هي قابلية الأخلاق التأملية على التطبيق، لأن الفلاسفة قد أعلنوا أننا من الممكن أن نقوم باختيارات أخلاقية عقلانية مستقلة عن الإرشاد الديني وأن علم الأخلاق يمكن أن يكون حقلاً مستقلاً من حقول البحث. إن ما بعد علم الأخلاق ـ وهو الخطاب عن معنى المفاهيم الأخلاقية

ومعرفية الأحكام الأخلاقية ـ هو خطوة واحدة أزيحت من «معيارية» علم الأخلاق. أعتقد أن من غير الكافي فهم المؤسسة العامة للأخلاق؛ يجب علينا أن نستمد قيماً ومبادئ ملموسة وعملية. إننا نحتاج إلى أن نعرض مؤشرات عملية للأشخاص المتأملين والمهتمين بالأخلاق.

إن السلوك الأخلاقي العليائي الديني يدعو إلى الوصايا المطلقة المستمدة من الرب، ولكن هذه في الغالب ليست أكثر من إنعكاس لما هو سائد من التراث السلوكي لشعب ما. على العكس من ذلك فإن علم الأخلاق الفلسفي هو سعي لإيجاد بعض الأساس العقلاني للسلوك. ثمة اختلاف مميز بين هذين السبيلين نحو السلوك: الأول يعرض مجموعة من المطلقات التي لا تقبل الجدل للإرشاد نحو السلوك، ويأخذ الثاني هذه الأشياء كونها معلومات للتأمل فيها وتحليلها وتعديلها.

عندما ينشغل الفلاسفة في البحث الأخلاقي ويفكرون عميقاً في القيم الأخلاقية، يبدأ الاستبداديون بالشعور بالضيق؛ عندما يشير الشكوكيون أن في دراسة السلوك الأخلاقي ثمة غالباً الصراع بين الحقوق والواجبات والقيم وأن ما هو حري به أن يقوم يمكن أن يقرر فقط بالرجوع إلى المواقف الملموسة، فإن نقادهم يشجبون «علم أخلاق الموقف». إنهم يدعون إلى معاييرهم الأخلاقية الثابتة ويصرون أن من غير الحقائق الخالدة تكون الأخلاق خادعة. يتذمر اللاهوتيون أن بدل «يجب أن تعمل كذا» و«يجب أن لا تعمل كذا» لا نسمع من الملحدين غير المؤهلات العقلانية، والظروف الملطفة والفروق الدقيقة الواضحة في التعمق الفكري الأخلاقي. ويظهر حكم اللاهوتي على علم الأخلاق الإنساني بأنه جائع لليقينيات.

البحث الأخلاقي نشاط إنساني أساسي، وكل الذين يمثلون الناس مجبرين على أن ينشغلوا به قليلاً أو كثيراً، على الرغم من أن الاستبداديين يقاومونه خوفاً من أنه سيقوض قناعاتهم. ولكن من الواضح جداً أنه من الممكن أن تقوم حياة فاضلة

ومتعاونة ومسالمة بين الإنسان والآخرين من دون الركون إلى المطلقات المتسامية أو الحقن الدينية. من المؤكد أن الأخير هو في خطر دائم خوفاً من التعصبية التي تقوم نفسها ذاتيا، والتي يمكن أن تكون مصدرا للصراع الضاري، خصوصاً في عالم متعدد الأثنيات، حيث تكون هناك أنظمة قيم متنافسة.

إنني لا أقصد إدانة كل شيء حول انظمة السلوك الأخلاقي الدينية. ففي أفضل الأحوال، ألهمت الأخلاقية الدينية الولاء للآخرين والتقويم لأخوة الإنسان والالتزام بالإحسان، على الرغم من أن اللاهوتيين كانوا غالباً ما يميلون إلى النقد القاسي ومنقسمين في الإعلان عن أناجيلهم وثمة لاهوتيات مختلفة عن الفضيلة متضاربة فيما بينها، ليس ثمة من ضمانات أن الإيمان بأبوة الرب ستؤدي إلى واقعية أخلاقية لأخوة الإنسان. على العكس من ذلك فإن التطبيق المتزمت للنظم الدينية يمكن أن يولد أجواء حرب بين الأخوة. هنالك اختلاف بالطبع بين الأديان الأصولية، التي تؤكد على التزمت في القوانين، والسلوكيات الأخلاقية الدينية التأملية التي تأثرت بالقيم والمبادئ الإنسانية، كالتسامح، التي تفسر حاجاتها الدينية كونها دلالات استعارية، والأديان التي انسحبت إلى الجدل الفلسفي في تأطير الخيارات الأخلاقية. لا حاجة إلى القول، أنني أشد ما أهاجم في هذا الكتاب الأشكال الأولى من الدين لا الأخيرة.

إن تلك الأشكال المبنية على الأنظمة الأخلاقية المتسامية هي في أدنى التقويم السلوكي، خصوصاً عندما تمجد الطاعة للوصايا والولاء الجامد للقواعد بدلاً من الاختيار الأخلاقي المستقل ذاتيا. على الضد من ذلك، فإن علم أخلاق الإنساني، يبحث في تطوير أفراد بالغين متمكنين من التعمق في دراسة الأخلاق. وفيما يتعلق برغبة الفرد في افتراض بعض المسؤولية عن اختياراته هل يمكننا أن لا نقول أنها أو أنه قد توصل أو توصلت إلى مرحلة أكثر نضجا من التطور الأخلاقي؟ إن اختياراته أو اختياراتها ليست مستندة إلى طاعة عمياء لقانون ما، بل إلى عملية إيجابية مسؤولة من البحث الأخلاقي.

هل تقود الإنسانية إلى الفساد الأخلاقي كما يزعم منتقدوها؟ هل هي تحرر الشياطين الجشعة في صدر الإنسان؟ هل هي عديمة الإحساس لتهبط بالسلوك البشري، غير عابئة بحاجات الآخرين؟ إن الإنسانيين يمكنهم أن يتنصلوا بحق من تبني أشكال الخلود. وهم لا يرون أن من دون الإيمان بالنظام الإلهي ستنهار الحياة، ولا يرون أنه إن لم يكن هناك ختم الرب على الكون فلن يكون لأي شيء دلالة أخلاقية. إن العدمية ليست هي البديل الوحيد للاهوتية، وليست القضية أن الإمبراطورية الدينية ذات الوصايا وحدها يمكن أن تحد من بهيمية الإنسان. الكثير من اللاهوتيين العليائيين غير منتبهين أو لا يشعرون بالفروق الدقيقة العميقة للحياة الأخلاقية. إنهم ينعمون بهالة الجهل بالطبيعة المعقدة للخيار الأخلاقي.

الأمر الأشد أهمية أن «كل الأنظمة السلوكية والأخلاقية هي بشرية» في الأصل والمضمون والعمل. إن رجل الدين يخدع نفسه إن اعتقد أن قانون سلوكه الأخلاقي منزل من الرب. وهو مخطئ إن إحتج بأن المسيحيين المنتشين بالرب وحدهم واليهود الأرثوذكس والمسلمين المتزمتين أو الهندوس المتحمسين يمكن أن يكونوا أخلاقيين. مادامت الأنظمة الدينية عن السلوك الأخلاقي هي من صنيعة الثقافة البشرية، أوجدها وعززها الناس، فإن هذا يدحض الادعاء بأن البشر لا يمكن لهم الاعتماد على أنفسهم في خلق منظومة أخلاقية أو سلوك أخلاقي.

ثمة بالطبع ما هو بديل لكل من الأخلاقيات الدينية والإنسانية. أي الحياة غير السوية، التي يكون فيها الإنسان غير متطور على نحو مقرف وعديم الإحساس بحاجات الآخرين، أناني في قضية اللذة، أو مولع بالسلطة لنفسه. هذه هي حياة الإنسان الفرد الخالية من المبادئ، التي نادى بها ثرسيماخوس في «الجمهورية» وأدانها أفلاطون. هذه الحياة تؤدي إلى أكبر فوضى، إن سمح لها بالحكم المطلق، وستقود إلى الاستبداد والبؤس والكوارث. لقد أشار الفلاسفة

والإنسانيون دائماً إلى الشخصية التي تحطم ذاتها المتمسكة بالمتعة الفائضة والمتضخمة الذات.

ولكن بديل علم الأخلاق الديني ليس بالضرورة أن يكون عدم الأخلاق. إن النظم الدينية لعلم الأخلاق المسلم بها تتخذ خطوة إلى ما بعد البربرية السلوكية من خلال فرض درجة معينة من النظام قسرا على السلوك البشري من أجل الحد من وحشية الإنسان وبواعث الأنانية فيه وتحضره. قد يناقش أحد ما أن الأخلاق الدينية قد تعالج على الأقل عواطف الجشع. ولكنها قد فشلت في الوقت نفسه. لأن هذه الأنظمة بقيت اقل بدرجة أو درجتين من مرحلة أعلى منها في التطور الفكري والأخلاقي. إنني أقر أن السبيل العقلاني الإنساني للأخلاق هو ما يحتاج إلى التعريف والدفاع عنه لو أردنا التخلص من البنى المقحمة في الوهم الأخلاقي لجنسنا البشري. من المؤكد أن علم الأخلاق الإنساني يمكن أن يمنح أرضية أمينة للأخلاق اللائقة والرفيعة وللشعور بالمسؤولية الإنسانية؛ ويمكنه أن يكون ملهماً لمؤسسة ثابتة تعمل من أجل حقوق الإنسان والرفاهية للناس أجمعين.

[1]

فشل السلوكية اللاهوتية

علم الأخلاق المتسامي

يؤكد اللاهوتيون أن القانون الأخلاقي المستلهم من العالم المتسامي لا غيره يمكن أن يوفر الأرضية للسلوك الأخلاقي. ولأنهم غير قادرين على تصور أية أرضية أخرى للسلوك، فهم يعارضون بشدة أية جهود لتغيير تلك القوانين المنزلة. لكن مؤسسة نظامهم تستند إلى أرضية مهزوزة.

فما هو علم الأخلاق «المتسامي»؟ تاريخياً اتخذ أشكالاً عديدة، وعلى الرغم من أن الناس يتحدثون عن «التسامي» فهم لا يتفقون على ماهيته. إن علم الأخلاق المتسامي الصافي ليست له علاقة بأي مضمون إنساني ولا معنى له لأنه فارغ من أية مرجعية تجريبية وليست له أية صلة بالاهتمامات أو الحاجات البشرية.

الأفلاطونية

يعد أفلاطون بلا ريب الملهم الرئيسي للفلسفات التي تستند إليها الأخلاقيات المتسامية، إن لم تكن الأخلاقيات الدينية في الفكر الغربي. لقد اعتقد أفلاطون أن هنالك أفكاراً أو أشكالاً أخلاقية شاملة. ومن المفترض بالإنسان الباحث عن

الأخلاق أن يتخذ من هذه الأفكار دليلاً يقوده إلى أن يبحث في تنفيذها في العالم التطبيقي.

كان أفلاطون قد استلهم ذلك من بحث سقراط عن الحقيقة ومن إخلاصه لحياة العقل. يحاول سقراط في حوارات عديدة أن يعرف العدالة والتقوى والحقيقة والجمال والخير. ولم يكن مهتماً بالتعريف الخارجي من خلال الإشارة إلى توضيحات معينة لأي من هذه الأشياء، بل كان مهتماً بالتعريف المكثف حيث يتمكن الفرد من أن يدرك المعنى الحقيقي للمفهوم الأخلاقي؛ أي، مميزاته الأساسية.

يفترض أفلاطون عالماً من المثل يأخذ كل ما في الكون وجوده منها. إن العالم المادي هو ما عليه لأنه يشترك في النوع الشامل الذي يعرفها. كل الأشياء المعينة تبدو أن لها صوراً في عالم المثل. إن أفلاطون مولع بالأساس في المفاهيم الرياضية ـ التي تبدو مثالية وتوفر البناء الشكلي للطبيعة ـ لكنه مولع أيضاً بالمثل الأخلاقية، حيث يكون مثال الخير هو الأساس الأهم. لذلك يحاول أن يوفر أساساً أنطولوجياً للأخلاق متجذر في نظام متسام.

وأفضل ناقد لهذه النظرية هو أرسطو، الذي يتساءل: بأي شيء تساعد مثل هذه المفاهيم الشاملة الإنسان العادي؟ إنها لا توفر كثيراً من العون للنجار أو الطبيب والمهتم بعمل الخير في ميدانه الخاص ولابد له من التعامل بالخير الملموس بكونه غاية الفعل.

إن النقد الفلسفي لموقف أفلاطون معروف: فتفترض الأفلاطونية الواقعية ببساطة تسليماً أنطولوجياً. ليس ثمة دليل يدعم الادعاء أن ثمة عالماً للمثل موجود في الكون. حتى إن كانت المثل موجودة فلا قيمة عملية لها، وهي لا تشير إلى ما لابد لنا أن نفعله في المواقف الملموسة. لذلك فإن نظرية أفلاطون لا تعيننا في حل المآزق الأخلاقية ـ إن كان هذا ما نريده ـ وثمة اعتراضات جادة ضد نظريته في المعرفة والميتافيزيقا. فلم تنجح هذه النظرية في أن توفر أساساً

للأخلاقية، لأن أسسها المعرفية مثيرة للجدل. فليس من الواضح بأي وسيلة جدلية عقلية يمكننا أن نستوعب هذه المثل. لقد جعل أفلاطون عملية التعريف مادية من خلال تشييء العناصر في الخطاب ومنحها حالة أنطولوجية. لكن المصطلحات والمفاهيم لها معان في سياق اللغة فحسب والتي تطور من قبل البشر. لا يمكن للكلمات أن تجرد من التواصل البشري أو تقرأ في الكون. فالعدالة على سبيل المثال ليست كياناً لا طبيعياً يطوف في الفضاء الخيالي منفصلاً ومنعزلاً عن عالم الرجال والنساء؛ إنها فكرة مطبقة على المؤسسات البشرية التي اخترنا أن نصممها عبر اللغة.

على الرغم من نظريته المتسامية، فقد كان أفلاطون نفسه ناقداً قوياً لاستلهام الأخلاق من الدين. في «أيوثيفرو»يتساءل أفلاطون إن كان من الممكن استخلاص الفضيلة من أقوال وأمثلة الآلهة. إن الميثولوجيا الدينية المهيمنة قد سيطر عليها وأدارها الشعراء و قد وجد أفلاطون أن الأساطير الهوميرية لا يعول عليها.

كان أحد عمال الأجر اليومي قد قتل أحداً ما في مقاطعة والد أيوثيفرو. فقام الأخير بتقييد المذنب ورماه في حفرة، وأرسل في طلب الكاهن ليستشيره بما يمكن أن يفعله. ومات المذنب قبل وصول الكاهن؛ فيلوم أيوثيفرو أباه وغضب منه إلى درجة أنه طالب بمحاكمته على جريمة القتل. واستغرب سقراط من انقلاب أيوثيفرو ضد والده لأن البر بالوالدين أمر أخلاقي مفروض وواسع. فيسأل أيوثيفرو عن أسبابه. ويجيب أيوثيفرو بأن الآلهة قد أمرت بمعاقبة من يقترف جريمة. ولكن ألم يقتل زيوس والد كرونوس وقتل كرونوس والده؟ إن سقراط غير متيقن فيما إذا كان والد أيوثيفرو قد قام بالجريمة عامداً ويتساءل ما الذي ستفعله الآلهة في مثل هذه المواقف. إنه يتساءل ما هي التقوى؟ ويجيب أيوثيفرو بخطاب أخلاقي عرفي: إنتبه للآلهة واتبع تعاليمهم وانخرط بالاحتفالات الدينية.

أما سقراط، فإن الفضيلة أكثر جذرية من تقوى عرفية مدعومة بالتدين. على الإنسان أن يتبع تعاليم ضميره، يعيش بضوء عقله ويسعى لعمل الخير وهذا أكثر أهمية من اتباع التقاليد. لذلك فأن الأخلاق تسبق التدين العرفي، وهي ليست مستخلصة مما يمكن أن تكون الآلهة قد قالته أو لم تقله.

والنقد نفسه عن المطابقة الدينية العرفية نجده في الكتاب الثاني من الجمهورية، حيث يتلقى أفلاطون هجوم أديمنتوس إزاء نفاق هذه المطابقة ومعيارها المزدوج. فيمكن للمرء أن يقترف الشر ثم يعترف أو يعوض عن ذنوبه باسترضاء الآلهة والصلاة لها لتساعده وتغفر له. إن التكريس الأخلاقي لكل ما هو صحيح والمستند إلى العقل لابد له أن يسبق أي اشتراك ديني مثل هذا بالجريمة. ومع ذاك، فإن لسقراط تلميحات حول اللاأخلاقية. إن تكن هناك أخرى، فليس عليه أن يقلق، مادام نزيها. وإن لم تكن هنالك حياة، فالموت أشبه بالنوم الطويل الأمد. وفي كل الأحوال فهو لا يخشى الموت، ويؤمن أن المرء يجب أن يتبع عقله ويطبق العدالة الجوهرية بعيداً عن أية اعتبارات للمكافآت المحفزة. هذا هو الحوار الذي يقدمه سقراط حتى وهو يقترب من الموت، كما تمثل ذلك في «أبولوجي» ـ الاعتذار ـ و«كريتو» و«فايدو».

إن افتراض أفلاطون لعالم خيالي هو المصدر للأفكار الأخلاقية المطلقة تبعه طابور طويل من المنظرين الفلسفيين، هم الأفلاطونيين الجدد، الذين قسموا بدورهم الكون إلى عالمين هما عالم المظاهر وعالم الحقيقة. الأول يحتوي على الأشياء المادية في الزمان والمكان والتي تختلق وتموت، متداخلة على مستوى الملاحظة الحسية. ويشير الثاني إلى عالم آخر من الحقيقة المطلقة، لا نلاحظه مباشرة بل نتعرف عليه بالاستدلال أو بالحدس. بالنسبة لأفلاطون العالم اللامرئي لا يدرك إلا بالعقل، ولكن بالنسبة للآخرين، فلا يدرك حتى فيه؛ إنهم يتحدثون عن الحضور الصوفي، الذي قد لا يأتينا منه إلا بصيص.

ثمة عرف راسخ بأن بعضاً من ذلك العالم اللامرئي يسمو على العالم الطبيعي

ويكون أساساً لنظام أخلاقي يضم بناءاً وغاية شديدتي العمق. فضلاً عن ذلك فإن هذا يوفر أساساً أنطولوجياً ليس عن القيمة فحسب بل أيضاً عن الواجب. حتى «كانت»، الذي آمن باستقلالية علم الأخلاق ولم يفكر أن الأوامر الأخلاقية تستقى من الدين بل بالأحرى من قواعد عقلية مستقلة، قال أن بالالتفات ضمناً إلى ضميرنا الأخلاقي، تكون لدينا لمحة من عالم الشيء في ذاته وبعض التلميح إلى نظام أخلاقي. إنه واحد من الفلاسفة الذين يعتقدون بأن هنالك مثالية شاملة للسلوك الإنساني تسمو على النسبية الثقافية.

الأخلاقية الدينية

لا أرغب في أن أتوسع وأنتقد هذه النظريات الفلسفية هنا، ولكنني سوف أركز على نمط واحد من الأخلاقيات المتسامية: الأخلاقية الدينية. إن الإيمان بالنظام الأخلاقي المتسامي يتخذ معنى خاصاً للشخص الذي يؤمن أن الأخلاق يجب أن تكون لها قاعدة إلهية. تؤكد المسيحية، على سبيل المثال، أن الكون تطبيق لخطة خالدة. على الرغم من أن هذه الخطة مغلفة بالغموض فقد عرفنا الله مع ذاك بمبادئه الأخلاقية (من خلال المسيح منفذاً)، وما علينا سوى الطاعة. يعتمد الخلاص فيما إذا كنا نقبل حقيقة سلطة الرب وطاعتنا لأوامره الأخلاقية.

ثمة شكل قوي وضعيف من الأخلاق الدينية؛ وثمة داخل المعسكر الديني اختلاف حاد فيما إذا يتوجب علينا أن نتخذ التعاليم الأخلاقية كما هي موضوعة في الكتب المقدسة على أنها خطوط إرشاد واضحة ومطلقة للسلوك، أو فيما إذا يتوجب أن نفسرها بالمعنى الأكثر عمومية واستعارية. يؤمن اليهود الأرثوذكس، مثلاً، بالوصايا العشر والقواعد الدقيقة للسلوك المستوحاة خطوطها العامة من التوراة بكونه الأصل الإلهي، كي تتبع حرفياً بالقانون. ويقبل الأصوليون البروتستاند والكاثوليك الرومانيون المحافظون بالعهد القديم (ماعدا بالطبع

التوصيات المرتبطة باليهود الأرثوذكس)، ويتطلعون إلى المبادئ الأخلاقية النموذجية في العهد الجديد بكونها مرتبطة بسلوكهم. والأمر نفسه مع المسلمين المتشددين الذين يتقبلون إلى حد كبير ومن دون حدود القانون السلوكي والأخلاقي المنصوص عليه في القرآن والأحاديث المنسوبة إلى محمد.

ثمة مشاكل كثيرة في مناقشة التفسير الحرفي للكتب القديمة. ناهيك عن الأسئلة فيما إذا كان الرب موجوداً وفيما إذا كانت هذه الكتب من وحي الرب أو أنها ببساطة من خلق الثقافة البشرية. من وجهة نظري أن ليست هنالك أدلة كافية على وجود الرب ولذلك فإن النصوص الدينية لا يمكن لها أن تبتدع من رب ما بل هي بالأحرى وبكل بساطة من تأليف البشر. ومع ذلك فحتى لو قبلنا جدلاً بهذه المقدمات لأغراض النقاش، فستتبع ذلك الكثير من الصعوبات.

أولاً، من الواضح أن من أبوة الرب، هنالك تعاليم ووصايا أخلاقية متناقضة يتلقاها المؤمنون. لقد كتبت كتب العهد القديم عبر مئات السنين وهي تعبر عن تفكير أخلاقي وأعراف اجتماعية من فترات مختلفة. فنحن نرى تحولاً في القواعد ولذلك ثمة الكثير من الوصايا المتناقضة. فمن ناحية يقول الرب في الوصايا العشر [الخروج ٢٠: ١٣]، «لا تقتل». ولكنه بعد إثنا عشر فصلاً [Exod. 32: 27]، إله دموي يأمر الإسرائيليين: «فليتقلد كل رجل سيفه وادخلوا واخرجوا من بوابة لبوابة عبر المعسكر وليذبح كل رجل أخاه وكل رجل رفيقه، وكل رجل جاره». ومرة أخرى في الوصايا العشر [Exod. 20: 14] يقول الرب «لا تزن». ولكنه بعد أن يأمر جيش العبرانيين المنتصر بقتل الأسرى الميديانيين، بضمن ذلك الأبرياء من النساء والأطفال، سمح الرب للجيش (بضمن ذلك الرجال المتزوجين) بأن يحتفظوا بالعذارى لأنفسهم: «إلا أطفال النساء، اللائي لم يضاجعهن الرجال من قبل، إحتفظوا بهن لأنفسكم» [Num 31: 18].

إن التناقضات الأخلاقية بين العهد القديم والجديد كثيرة. وقد لعب الجزاء

العادل في العهد القديم «العين بالعين والسن بالسن» دوراً بارزا. وقد أبدل هذا الجزاء بالموعظة على الجبل في العهد الجديد بفلسفة «إدارة الخد الآخر»: يقول المسيح: «لا تقاوم الشر، وكل من سيضربك على خدك اليمين، أدر له الخد الآخر أيضا» [Matt.5: 39]. لقد تسامح العهد القديم مع تعدد الزوجات والمحظيات وباقي الممارسات التي كانت بلا شك شائعة في الأزمنة التي كتبت فيها أجزاء مختلفة منه.

كان الطلاق مسموح به في العهد القديم إن لم تعد الزوجة تناسب الزوج: «عندما يتخذ رجل من امرأة زوجة له وعندما يأتي الوقت الذي لا يودها فيه... فدعه يكتب لها كتاب طلاق ويضعه بيدها، ويخرجها من بيته». [Deut. 24: 1].

أما في العهد الجديد فالطلاق محدد بشدة. يقول المسيح: «من يسرح زوجته، إلا إن كان السبب الزنا، فهو يؤدي بها إلى الزنا» [Matt. 5: 32].

حاول الكثير من المسيحيين حل التناقضات بين العهدين القديم والجديد من خلال القول أن الأخير تبع السابق وأن الأخلاقية المسيحية عن الحب والتسامح احتلت مكان القوانين الأولى لجهوفا المنتقم والضيق الإدراك. الكتاب والدارسون اليهود أمضوا قروناً يكتبون ويحللون التلمود في محاولة لتفسير التوراة على نحو عقلاني. لو أن أحداً قبل بالتفسير الحرفي لكل من العهدين القديم والجديد، فلابد له أن يستنتج أن الرب قد غير رأيه.

فسر المسيحيون المفاهيم الأخلاقية والعقائد في العهد الجديد بطرق راديكالية متناقضة، وقد اختلفوا إلى ما لانهاية حول معناها. مثال ذلك أن البعض منهم قد سمح وحتى برر العبودية استناداً إلى أن العهد القديم قد سمح باتخاذ الأسرى عبيداً ونصح العهد الجديد بضرورة طاعة العبيد لأسيادهم. لقد ورد «أيها العبيد أطيعوا أسيادكم بكل الأشياء بكل قوتكم... وكل ما تعملونه إعملوه بجد، كأنكم تعملون للرب». [Col. 3: 22 - 23]. ومرة أخرى، «أيها العبيد كونوا خاضعين لأسيادكم وبكل خوف». [1 Pet.2: 18] ولوقت طويل كان الإنجيل قد

استعمل ليكون مبرراً لحق الملوك الإلهي. المسيح هو حاكم العالم وكذلك عد الملك حاكماً للعالم المؤقت: وقد استعمل هذا المبدأ لفرض الطاعة للسلطة السياسية للملك. وليس غير في الأزمنة الحديثة، وأساساً بسبب نقد الإنسانيين الليبراليين، تمكن المسيحيون واليهود من الدفاع عن الديمقراطية الليبرالية وطالبوا بالحقوق الفردية الإنسانية. ولكن من الصعب إيجاد المبادئ الأخلاقية الديمقراطية في النصوص القديمة.

قد يقدم الذي يؤمن بالدين الحجة أن على الرغم من أن الناس استعملوا الإنجيل في التاريخ من أجل الدفاع عن نظام سياسي واجتماعي معين فليس ثمة مسوغ لديهم لأن يفعلوا ذلك، وفضلاً عن ذلك، ليس ثمة علاقة بين الرب في الإنجيل والعبودية أو الملكية أو أي نوع من الأنظمة. ولكن عبر هذه الإشارة نفسها، هل ثمة *أي ارتباط منطقي ضروري* بين أبوة الرب، دعنا نقول، والمبادئ الأخلاقية التي سيتقبلها أغلب الناس في العصر الحديث؟ هل يمكننا استنتاج مبدأ لحقوق الإنسان من فكرة أبوة الرب؟ البعض من المؤمنين يشعرون أننا لا نستطيع فقط بل يجب أن نقوم بذلك، إذ بدون الكائن المتسامي، سينهار مثل هذا المبدأ.

نتوصل هنا إلى تفسير غير واقعي، شكل ضعيف من الأخلاقيات المتسامية. لأننا حين نسعى للوضوح، سنقع في التناقضات. مثال ذلك، ما الذي سيكون عليه دور المرأة في المجتمع؛ هل ستكون متساوية مع الرجل؟ يقلل العهد القديم من قيمة المرأة ويضعها في مستوى أدنى في النظام الاجتماعي وفي علاقة الزواج، كما نجد ذلك في تكوين: «إلى زوجك سيكون اشتياقك وسيسود عليك». [٣: ١٦] وفعل ذلك في العهد الجديد. فيعكس بول الأخلاقية البدائية التي عاشها حين يؤكد أن علاقة المرأة بزوجها عليها أن تكون علاقة طاعة. على النساء «أن يلزمن الصمت في الكنائس»؛ إن رغبن في أن يتعلمن أي شيء، عليهن أن يسألن أزواجهن في البيت [Cor. 14: 34 - 35].

يقول بول، «الزوج هو رأس الزوجة. . . . لذلك مادامت الكنيسة خاضعة للمسيح، فلتخضع الزوجات لأزواجهن كذلك في كل شيء» [Ephes. 5: 23 - 24].

من غير الممكن ـ ومن غير الضروري ـ أن نأخذ الرؤى الأخلاقية والممارسات والتقييدات المرافقة لها في المجتمعات البدوية قبل ألفي سنة إلى أربعة آلاف سنة والعمل على تطبيقها في المجتمع الحديث بحذافيرها ومن دونما أي تأهيل. صحيح أن الكثير مما جاء في العهد القديم ينم عن بصيرة أخلاقية بعيدة المدى، القاعدة الذهبية والحاجة إلى الشفقة ومراعاة الآخرين والعدالة للآخرين. ولكن هنالك الكثير من البدائية والتخلف. ومنذ زمن الإنجيل ثمة تقويم وممارسات أخلاقية ومواقف جديدة غريبة عن المجتمعات القديمة وهي لذلك تتطلب مبادئ أخلاقية جديدة. ولكن الكثير من ذلك قد أهمله اليوم الكثير من اللاهوتيين من دونما مبرر.

وثمة مسألة منطقية واحدة حري أن لا تكون مغرية: هل يحتاج الفرد إلى أبوة الرب ليكون الأساس للسلوك الأخلاقي؟ إن يكن الأمر كذلك، كيف نفسر الأنظمة الأخلاقية الأخرى، التي يتجذر فيها كلها الإيمان بإله واحد هو الله؟ يتضح ذلك في الدين الإسلامي، الذي يقوم على أساس القرآن. على الرغم من أن كل كلمة من القرآن يقال أنها قد أوحيت إلى محمد عبر الوحي، فإن الإسلام يبرر الممارسات التي يجدها المسيحيون واليهود بغيضة، مثل تعدد الزوجات وحق الزوج في أن يطلق زوجته إن لم تعجبه.

هل يتم الرهان على القضية التجريبية أو القضية المنطقية؟ من الواضح أن الإيمان بالله لا يعطي الضمانة للسلوك الأخلاقي ولا السلوك العام أو حتى الاتفاق حول ما هو صواب أو خطأ، خير أو شر؛ فيستمر وجود الاختلاف الثقافي الواسع والنسبية. إنها الأعراف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الموجودة التي غالباً ما تحدد أخلاقية فعل ما، وليس العكس. إن الرجال والنساء من الأجدى بهم أن يقرأوا في العالم اعتقاداتهم وممارساتهم الأخلاقية

الباقية. المسلمون، كالمسيح واليهود، يزعمون بأن ممارساتهم إلهية المصدر، ورغم ذلك فإن تعاليمهم الأخلاقية أتى بها مصلحون ـ وكانوا بلا شك ـ موسى وعيسى ومحمد.

ليست المسألة أن عبر الإيمان بالإله الواحد سوف يستخلص الناس التعاليم الأخلاقية نفسها. فكما رأينا تولدت عن ذلك تناقضات وأدت إلى حروب دامية لأن كل فريق يدعي أنه يمثل تعاليم الرب. هل يغفر الرب الواحد في وقت واحد ممارسات خصصت لجماعات كل واحدة على حدة؟ من الصعب أن نجد علاقة ضرورية منطقية بين الرب والأخلاقية. لذلك، على الرغم من أن المسلمين يؤمنون بالرب، فلم يدافعوا خلال مرور ١٤٠٠ سنة عن الحقوق الديمقراطية الإنسانية أو حرية الوعي وهي القيم الأخلاقية التي أصبحت ثمينة في الكثير من الدول الغربية اليوم. من المؤكد إن الأحوال الاجتماعية المرفهة تنشئ هذه الأفكار ومن المؤمل أنها، خلال مرور الزمن، ستطرد الإيمان والممارسات اللاديمقراطية العتيقة. ولكن إن حدث هذا فسوف يكون لأن المسلمين يدركون أن إدراك الأخلاقيات المحسوسة التي هي عقلانية ليست متأتية من القرى بل هي بالأحرى تتأتى من الاعتبارات العلمانية.

من خلال التاريخ الطويل للحروب الدينية والاضطهاد بين الكاثوليك والبروتستانت والمسيحيين واليهود، من الصعب أن نرى كيف أن الإيمان بالإله الواحد يمكن أن يكون ضمانة كافية ليكون هنالك اهتمام متلازم بالمعتقدات الدينية للناس الآخرين، التي يولدون عليها عموماً. للأسف الشديد فإن أساس الأخلاقية الدينية لا يناقش على وفق مقدمات لها طابع الشهادة الذاتية بل تعتمد على قوانين للإيمان والإلهام وعلى التراث الديني الذي طورته المؤسسات الكنسية، التي تزعم أنها ملهمة إلهياً ولكنها في الحقيقة اختلقت من قبل مجاميع معينة من الناس. فعلى سبيل المثال، أن الكاثوليكية الرومانية لديها تراث تشريعي طويل الأمد من الإعلانات البابوية المستندة إلى الزعم أن المسيح قد

بعث بيتر (البابا الأول) ليبني كنيسته ولذلك فإن كل الباباوات التالين سيكونون ناجحين في تفسيراتهم لإرادة الرب. فيما إذا قبل أي أحد أو لم يقبل أي نظام للإيمان فذلك في العادة يعتمد على التقاليد الاجتماعية أكثر ما يعتمد على أسس عقلانية. فالقانون الأخلاقي، إذن، مرتبط بالتراثات التاريخية، لكل من الجذور القديمة والتأويلات التراثية اللاحقة. من السهل أن نرى أنه ليس متأسساً في مفاهيم عليائية غير قابلة للتغيير.

الفكرة بأن الإيمان بالرب و/أو تراث ديني معين ضروري للسلوك الأخلاقي هي قابلة للنقاش إلى حد بعيد. حتى لو يقبل الواحد الإيمان بالرب أو أي تراث ديني معين بكونه التأويل الشرعي لكلمة الرب التي كشف عنها في التاريخ، فإن هذا ذاته مفتوح لعدد متعدد من التأويلات. فمثلاً، المئات المختلفة من الطوائف البروتستانتية قد توصلت إلى استنتاجات مختلفة حول أي من الممارسات الأخلاقية. وكذا الأمر بالنسبة للأرثوذكس والمحافظين والإصلاحيين واليهودية الإنسانية، وبالنسبة للمحافظين أو الكاثوليكيين الليبراليين الرومانيين، وكذلك بالنسبة للسنة والشيعة المسلمين.

الكثير من الدكتاتوريين في أمريكا اللاتينية اتخذوا مواقفهم على أنهم كاثوليكيين رومان مخلصين ويحضرون القداس كل يوم أحد؛ ولكن هكذا أيضاً يفعل الكهنة المخلصين من المعارضة الذين يدعون إلى تحرير اللاهوت. من السيء جدا سوق مجموعة بسيطة من القواعد الصارمة من أي تراث ديني للأمل أن هذه سوف تخدم في حل أي قضية أخلاقية أو مشكلة أخلاقية يمكن أن تحدث للبشر. كيف يمكن لهذه القوانين السحيقة في القدم أن تمكننا من أن نقرر بين الأنظمة الاقتصادية الرأسمالية والاشتراكية؟ أن المؤمنين يقفون على جانبين مختلفين في القضايا السياسية. في ثلاثينات القرن العشرين كان الجنرال فرانكو في أسبانيا والدكتاتور سالازار في البرتغال كلاهما كانا من الكاثوليكيين الرومانيين الورعين ويدافعان عن المجتمع التسلطي ويتعاطفان مع الفاشية، بينما

كان الكاثوليكي الفرنسي جاك ماريتان يدافع عن الالتزام بالديمقراطية. في أواخر القرن العشرين تحول الكثيرون من الهيئة الكهنوتية الكاثوليكية الرومانية من محافظين إلى ليبراليين في السياسة. ومن المؤكد أن أساقفة الكاثوليك في أمريكا في الثمانينيات قد عارضوا الأسلحة النووية ودعوا إلى نزع الأسلحة بينما اختلف معهم الناس العاديين من الكاثوليكيين المحافظين وبعض من البروتستانت أصروا على الدفاع النووي القوي. صادق الأساقفة الكاثوليكيون على برنامج ليبرالي ذو وعي اجتماعي واقتصادي وسياسي، بينما الناس العاديين من الكاثوليك مثل مايكل نوفاك وويلم سايمون وويلم بكلي قد عارضوا ذلك بشدة.

يبقى اللاهوتيون في الفاتيكان عنيدين في بعض القوانين الأخلاقية. إنهم يعارضون الطلاق والتحكم في الإنجاب والإجهاض بينما القساوسة البرتستانتيون وأحبار اليهود والكثير من الكاثوليكيين يفضلون واحداً أو أكثر من هذه الأشياء. وكذلك الحال، من الناحية العملية أية قضية اجتماعية ذات تشعبات أخلاقية، كالشذوذ الجنسي، والقتل الرحيم وعقوبة الإعدام، ثمة اختلافات واسعة في الرأي وينقسم رجال الدين في هذه القضايا كما يفعل العلمانيون. أن الاختلاف يكمن في أن المتدينين يدعون أن قوانينهم الأخلاقية هي كلمة الله ـ وقد قاموا بتفسيرها بالطبع على نحو خاص.

الأخلاقية المطلقة مقابل أخلاقية الموقف

كل ذلك يشير إلى أن على الرغم من وجود وصايا أخلاقية وقواعد ومبادئ مقبولة على نحو واسع ضمن التراث الديني وعلى الرغم من أنها شائعة بين مختلف أنواع التراث فإن المشكلة في كيفية تفسير أو تطبيق تلك القواعد تثير في الغالب المآزق الأخلاقية وتنتج اختلافات في الرؤى. ومثال ذلك، الوصية السادسة التي مفادها، «لا تقتل»، أو كما ترجمت على نحو أفضل في الترجمة

الإنكليزية الجديدة للكتاب المقدس، «لا تقترف جريمة القتل». هل يتحتم أن تؤخذ هذه الوصية بإطلاق من دونما أي استثناء؟ وإن كان الأمر كذلك، ما الذي يجب على المرء أن يفعله في أزمنة الحرب عندما تغزى بلاده من الأعداء الحاقدين؟ هل يمكننا الانهماك بضربة سباقية عندما نعلم أن العدو يعد العدة للغزو، أم نشترك فقط حين يحين وقت الدفاع العسكري؟ هل يسمح للشخص أن يقتل العدو؟ يقال لنا أن هذه ليست جريمة لأن هذا الفعل يقوم به شعب يدافع عن نفسه.

في الحرب العالمية الثانية قصف القادة العسكريون المدن الصناعية لأعدائهم ـ وقد تحطمت لندن وروتردام تقريباً من قبل الألمان وكذلك برلين وطوكيو وباقي المدن الألمانية واليابانية من قبل الحلفاء. وخلال هذه العملية قتل الكثير من الناس الأبرياء. فهل كانوا قتلى؟ قد يناقش أحد ما ويقول أن ذلك كان عملاً شريراً على الرغم من القضية الإستراتيجية التي وضعت لما يسمى ب المدن «المفتوحة». أتذكر أنني كنت في لندن عام ١٩٤٤ في أوج الحرب العالمية الثانية، وكنت في زيارة الأحياء المقصوفة خلف كاتدرائية القديس بول وشاهدت القصف على المدنيين من الناس، كان كل ذلك قد قصد منه كسر إرادة الشعب البريطاني. وبعد ذلك وبكوني عضو في الجيش الأمريكي رأيت حطام مدن كميونخ وبريمن وهامبورغ وعلمت عن الملايين الذين ماتوا في مثل تلك الغارات. وبعد هزيمة الألمان، قصفت الولايات المتحدة بالقنابل الذرية على هيروشيما وناكازاكي. لقد صعقت من تلك المذبحة، بينما أغلب زملائي من الجنود فرحون، لأنهم ظنوا أن ذلك سينهي الحرب.

لا أناقش هنا المبدأ الأخلاقي الذي يحرم أي قتل، بل أتساءل عن الكيفية التي يفسر بها المرء الوصية السادسة. هل هو مبدأ أخلاقي عالمي ومطلق؟ وإن يكن الأمر كذلك فكيف سنطبقه معتمدين هذا السياق؟ هل ندين كل أنواع القتل؟ هل يمكن استخدام عنف الثار كرد عليه؟ لو فرضنا أن أحداً يقتل «لسبب

عادل» فالكثير من الناس، (بضمن ذلك المسلمين والمسيحيين واليهود) يؤمنون أن ذلك الفعل مبرر حتى لو أصاب مدنيين أبرياء. منذ وقت طويل كنت أعارض الحكم بالإعدام لأنني أعتقد أنه ليس فعالاً في منع الجريمة. وبعد ذلك غيرت رأيي قليلاً، وقد أطبقه تحت شروط محدودة على جرائم شنيعة مثل جريمة القتل الوحشي. لكنني أحتار في المؤمنين بالكتاب المقدس الذين يقولون أنهم يوافقون على مبدأ تحريم القتل ولكنهم يرغبون بالفعل في التغاضي عن أي نوع من القتل في وقت الحرب ويشجعون على عقوبة الإعدام على أنها عادلة، ويستشهدون بالكتاب المقدس.

إن مبدأ «لا تقتل» يتخذ معنى خاصاً بخصوص القتل الرحيم لأن على الإنسان أن يبني القضية على أساس أخلاقي: لو أن شخصاً يحتضر بسبب مرض عضال لا علاج له، وهو يعاني من الآلام المميتة ويطلب المساعدة في تعجيل موته، عندها قد يتحتم علينا أخلاقياً مساعدة ذلك الشخص لتعجيل موته. والتبرير الأخلاقي لذلك هو الإحسان أو الشفقة.

من الواضح الآن أن من الصعب تحديد وضع المبادئ الأخلاقية *المطلقة*. إنها في الحقيقة أشبه بالبديهيات العامة للسلوك. يعتمد تطبيقها على سياقيتها. وهذا يصح فعلاً حيثما يكون هناك صراع بين الواجبات. فمثلاً، يكون من واجبنا أن لا نكذب، ومع ذلك، فأن تقوم بذلك قد يبرر في حالة ما. لو أن عمتك بذلت جهدها في أن تحضر لك الحلوى التي تكرهها، لربتما تعتقد أن مداراة مشاعرها وتخبرها بأنك أحببتها واجب أعظم من واجب أن تقول لها الحقيقة:

إن الحياة الأخلاقية مليئة بالمآسي. إنه ليس مجرد الاختيار بين الخير والشر أو الخطأ والصواب، لأن ثمة دائماً صراع بين خيرين أو صوابين، لا يمكننا اختيارهما كليهما، أو بين شرين ونحن نختار الأقل شرا. نحن في الغالب نختار بين مرشحين، لا نريد أياً منهما، ولكن لابد لنا أن نقرر من بعد معاينة أياً

منهما أقل إحباطا لنا. ما الذي يفعله شاب يتحتم عليه الاختيار بين متابعة تعليمه ليطور قدراته ليتمكن من الاعتماد على نفسه ويكون مستقلاً، وبين ترك دراسته للعناية بوالديه العجوزين؟ علينا أن نحترم أبوينا، ولكن أيضاً علينا أن نلتزم بتطوير قدراتنا إلى النهاية. علينا أن نفي بوعودنا، ولكننا ربما نكون قد تعهدنا بوعود سيئة وحين يأتي موعدها للتنفيذ ربما سنعتقد أن النتائج قد تكون كارثية. يوضح سقراط هذه الإشكالية في «الجمهورية»: قد يأتمنك صديق على سلاحه ويطلب منك أن تعيده له متى يريد. أنت توافق على ذلك، ثم يأتيك في أحد الأيام وهو في أوج الغضب طالباً السلاح في الحال وأنت تعلم إن أعطيته له سوف يجرح أو يقتل أحداً ما. هل يتحتم عليك أن تنقض عهدك؟ ربما يكون حساب النتائج أكثر إلحاحاً من الإيفاء بالعهد في مثل هذا الموقف لذلك تقرر أن لا تعيد السلاح.

تقول الوصية السابعة «لا تقترف الزنا». في رواية د. ه. لورنس «عشيق السيدة تشاترلي»، يصاب زوج السيدة تشاترلي بالعجز فلا يقوى على القيام بفعل الجنس مع زوجته. وصار أمام السيدة تشاترلي خيار إما أن تمارس الحب مع حارسها لإشباع رغبتها الجنسية العادية أو تطلق زوجها الذي تكن له الحب والرعاية. أيتوجب عليها أن تبقى عفيفة لبقية حياتها أو تكسر عهد الزواج؟ إنها تقرر أن تنغمس في الزنا، على الرغم من أنها فعلياً تطلق زوجها وتتزوج الحارس.

إن غرضي هنا ليس في حل هذه المعضلات بل لمجرد الإشارة أن أي قانون أخلاقي يحتاج إلى أن يفسر ويطبق، وربما ليس غير التأمل في علم الأخلاق هو الذي يساعدنا في مثل هذه المواقف. بفشل الكثير من الناس في تقدير التعقيد الحقيقي في الاختيارات الأخلاقية. غالباً ما أندهش عند النقاش مع منتقدي الإنسانية العلمانية من شكواهم من «أخلاقيات الموقف» من دون أن يفهموا ما هي.

ثمة توضيح يدعى «مأزق قارب النجاة» يستخدمه أساتذة الفلسفة في تدريس مبادئ علم الأخلاق. يوضح مأزق قارب النجاة مشكلة حقيقية، على الرغم من أن الأصوليين يحذروننا أننا في مناقشته تقوض أخلاقية الشباب. تغرق سفينة في بحر متلاطم ويدبر بعض المسافرين وعدد من طاقم السفينة أمرهم في قارب نجاة. ولسوء الحظ ثمة أناس على ظهر القارب الصغير أكثر مما يحتمل. من الواضح أن القارب إن لم ينغمر بالماء فمن الضروري أن يرمي بعض الناس بأنفسهم في المياه الثلجية أو المليئة بأسماك القرش. وهذا يعني الموت بالتأكيد. والمأزق الأخلاقي الذي يظهر هو: ما الذي يجب فعله؟

صرخت بي مرة أم مذهولة: «أنت تعلم الشباب بأن يرموا الناس من القارب».

وسألتها: «لو كنت في هذا الموقف يا سيدتي فما الذي ستفعلينه؟».

أجابت: «سنجتمع معاً ونصلي للمسيح».

أجبت: «في هذه الحال ربما ستغرقون جميعاً، بدل أن تنقذوا بعضاً منكم. يمكنكم أن تسألوا من يتطوع، ربما لإيجاد أية حلول. ثمة عدد من الاختيارات البديلة، قد تكن كلها رهيبة، بلا شك، ولكن أقل الشرور هو الأمر الأكثر ملائمة في مثل هذا الموقف».

في مثل هذا الانغمار في التأمل في علم الأخلاق، تكون الحساسية بالفروق الدقيقة والصعوبات بالاختيار الأخلاقي، ليس من الضروري أن لا تكون لا أخلاقية، كما يؤمن النقاد ويمكن أن تزيد من فهم الطلاب لتعقيدات التفكير الأخلاقي. إنه يوضح بجلاء أن المبادئ الأخلاقية تحتاج إلى أن تحسب بتوازن، وقد لا نكون دائماً قادرين على بحثها كلها في وقت واحد. ليس ثمة من بديل لتطوير بعض المعايير للتأمل في علم الأخلاق، ذلك لأنه العلامة على النضوج الأخلاقي.

الرب والواجب

يصر المحافظون الذين يدافعون عن الأخلاق الدينية أن من دون الإيمان بالرب وتراث ديني قوي، فإن المسؤولية الأخلاقية لن تُتبع وسوف يعمل الناس ما يريدون. ويقال لنا أن من السيء الإشارة إلى نخبة المثقفين والمؤرخين والأخلاقيين ـ كسقراط وأرسطو وابيقور وأبيكتيتوس وسبينوزا وكانت وميل ـ الذين لم يوافقوا على أخلاقيات الدين التقليدية لكن سلوكهم كان أخلاقيا. يكمن السؤال فيما إذا كانت الأسس العقلانية للأخلاق كافية لمعظم البشر. على الرغم من أن نابليون ومترنيخ يشككون بالادعاءات الدينية، إلا أنهم كانوا يعتقدون أن المؤسسات الدينية ضرورية كونها حصوناً للسلوك الأخلاقي بالنسبة للجماهير. إن الاعتقادات الدينية تميل إلى تعزيز مزايا محددة أساسية للدفاع عن مجتمع سياسي منظم. إعتقد أدموند أن ثمة نوعاً من الحكمة في السباق الذي يطوق المؤسسات الاجتماعية وتلك الممارسات التاريخية المحددة التي جسدت ما بقي من الرؤى الأخلاقية للأجيال السابقة من الرجال والنساء الذين، لمواجهة عبء الاختيار، طوروا قواعد عامة ودعموها بالعادة والقانون وقدسوهما بالجمود الديني وشعائره.

وثمة في تقديري بعض الأهمية في هذا النقاش. من المؤكد إنه ربما يوفر أقوى تبرير فيما يخص الأخلاقية الدينية. يبدو أن بعض القواعد الاجتماعية والاعتبارات التي تحدد السلوك المسموح به وتوفر بعض التوقعات والمقاييس للسلوك تلعب دورا وظيفياً مهما. يتساءل المذنب المحتمل، «لماذا يتوجب علي أن لا أسرق من الآخر؟» ويقال له أن ذلك انتهاك للعادة الاجتماعية. فضلاً عن ذلك، سوف يعتبر نذلاً من قبل المجتمع. إن الرفض الأخلاقي يوفر حافزاً قوياً للتكيف. ولكن لا يتأثر الجميع بهذا: ولذلك يسن نظام من القوانين الواضحة والمحددة. إن السرقة خطأ لأنها ضد القانون، وقد يلقى القبض على أحد ويعاقب لأنه انتهك للقانون. إن هذا يعيق قدراً كبيراً من

التصرفات الاجتماعية الهدامة. إن الخوف من العواقب هو دافع قوي لعدم السطو.

ولكن ماذا لو أن الفرد قادر على تجنب مراقبة المجتمع وسلطات القانون؟ هل عليه أن يقترف الجريمة إن كان يستطيع إخفائها؟ لو أنه حسب المخاطر والفوائد، صف طويل ـ وقصير ـ من الأخلاق الحميدة والقيم، وحسب نتائج انتهاك العادات والقوانين، قد يستنتج أن كمية المتع والملذات والسلطة والطموحات سوف تتوسع باقترافه تجاوز السلوك الأخلاقي واقترافه الجريمة ـ إن استطاع الهروب من الإدانة والعقاب ـ بدلاً من إطاعة القانون. هنا يقحم الجواب الديني نفسه. فحين لم تستطع السلطات الأرضية مراقبة واعتقال وعقاب المنتهكين للقانون فلسوف يقوم بذلك الرب الذي لا حدود لحكمه. معنى هذا أن ثمة مانح خالد للقوانين يعلم بما تفعله ولماذا ولا يمكن لأحد أن يخفي عنه شيئا. وبعد موتك، في يوم القيامة، سيؤتى بك إلى جدول أعمالك وسيحاكمك مانح القوانين العظيم، يعاقبك على ذنوبك ويكافئك على فضائلك. لقد حولت العادات والشرائع الاجتماعية إلى قوانين إلهية منحت من الرب. القبول الاجتماعي أو الرفض والعقاب الذي أقر قانوناً بدلت أو أقحمت بقرارات إلهية. الجواب الوافي للسؤال «لماذا يتوجب علي الالتزام بالأخلاق؟» هو أن الرب قد شرعها وأمر بها، أي أن من واجبك طاعة إرادته، وإن لم تفعل سوف تعاقب. ولذلك يستنتج الإنسان أن بحساب النتائج الطويلة الأمد يكون من مصلحته الذاتية عدم خرق القانون، ذلك لأن هذا القانون ليس مؤقتاً بل وضع بقوة إلهية. ومن هنا فإن من خلال الخوف من اقتراف الذنب، ومن خلال حساب المدى الواسع للسلبيات المترتبة عليها في المستقبل الآتي ما بعد الحياة وحتى من خلال حب الرب والرغبة في إطاعة أوامره من أجل الخلاص، قد يستنتج المرء أن عليه إطاعة القانون لأننا ببساطة قد أُمرنا من الرب أن نفعل ذلك.

إن السؤال المفتاح هنا هو فيما إذا كانت هذه الحجة كافية لحل ما يمكن أن يسمى لغز الواجب. هل سيتداعى إحساس الإنسان بالواجب لو أن الرب، بكونه مصدر الأخلاق، كان غائباً؟ هل يكون الإنسان أخلاقياً إذا عمل شيئاً ما أو امتنع عنه على أن تلك هي إرادة الرب بكل بساطة وليس ثمة من سبب آخر؟ هل هذه قاعدة مطلقة للمسؤولية الأخلاقية؟ وجوابي على كل هذه الأسئلة هو كلا.

والتوضيح البارز لهذه الفكرة هي قصة إبراهيم وإسحاق في الكتاب المقدس. [تكوين ٢٢: من ١ ـ ١٩]. حدث في وقت ما أن الرب أراد اختبار طاعة إبراهيم له. أمر الرب إبراهيم بأن يأخذ ولده الوحيد إسحاق، الذي يحبه بشدة، إلى أرض موريا للتضحية به. وكان إبراهيم مستعداً تماماً للتضحية. وفي صباح مبكر جمع بعض الحطب، وأسرج حماره وانطلق في رحلته، بعد أن أخذ إسحاق واثنين من خدمه معه. دخل إبراهيم الغابة وحيداً مع إسحاق وبنى مذبحا. أمسك بإسحاق وقاده إلى المذبح، وأخرج السكين لذبح ابنه متبعاً أوامر الرب. في تلك اللحظة ظهر ملاك الرب وأمره: «إرفع يدك عن الفتى، ولا تفعل به شيئاً: أدركت الآن أنك تخشى الرب، لأني رأيتك لم تمسك ولدك، ولدك الوحيد عني» [تكوين٢٢: ١٢].

ويخطر في الذهن سؤالان. هل كان من حق إبراهيم أن يضحي بإبنه بأن يقتله؟ كلا، إننا نعارض ذلك بشدة. ولكن ما الذي سيحصل لو أن إبراهيم أكمل ما كان يروم فعله؟ هل سيكون ذلك صواباً؟ كلا، نقول ذلك ثانية، إذ لو كان الفتى بريئاً كما (كان إسحاق في الحقيقة)، فليس من حق الرب أن يأمر بذلك، وأن إبراهيم غير مجبر لإطاعة هذا الفعل اللاأخلاقي. كان الرب مخطئاً في طلبه حقاً (حتى تبعاً إلى الأسطورة المسيحية، أن الرب قتل يسوع، ولده الوحيد الذي أنجبه (وقد يقول أحد أن ذلك كان فعلاً شائناً!). ولكن حين أمر الرب إبراهيم بأن لا يقتل إسحاق، تنفسنا الصعداء. لو نتأمل الموقف، لا

يمكننا إلا أن نستهجن قسوة الرب في اختبار إبراهيم ونعتبر إبراهيم قاتلاً لإسحاق. إننا نعتقد أنه أمر لا أخلاقي أن يضحي الأب بإبنه. ولكن مرة أخرى، هل هو أمر خاطئ (لأن) الرب أمر به، أم لأنه على وفق أسس مستقلة، فيما إذا قالها الرب أم لم يقلها؟

أي شخص ذو أخلاق متطورة سيدرك أن قتل الأب لإبنه البريء (الذي لم يخنه ولم يقترف جريمة القتل أو الخيانة ولا يحتضر بسبب مرض عضال) هو أمر ظالم فيما إذا أمر به الرب أو لم يأمر به. سأناقش لاحقاً، في الفصل الثالث أن هنالك مجموعة من الأخلاقيات التي حري بالشخص المتطور أن يدركها. هذه الأخلاقيات لها بعض القوة السلوكية في الأخلاقية، من الناحية الجوهرية، لأنها أساسية للمجتمع البشري وهي، آلياً، مبدأ تنظيمي يقود حياتنا وعملنا معا. لسنا بحاجة إلى كائن خارجي ـ سواء أكان حقيقياً أم وهماً ـ ليعلنها لنا.

لا أرغب في الدفاع عن مثل هذه المبادئ الأخلاقية لكونها حدسية أو هي بديهية؛ إنها مبنية في الطبيعة الفعلية للحيوان البشري بكونه كائن اجتماعي. إنني أقر بأن ثمة نفاذ بصيرة أخلاقي موضوعي وحقائق تظهر من التأمل ولسوف يدركها الإنسان المتطور أخلاقيا.

دعني أحاول التوسع من خلال تزيين قصة إبراهيم وإسحاق. دعونا نتخيل أن الإنسان يوافق أن من الخطأ قتله لإبنه، ولكنك لو سألته لماذا لأجاب، «لأن الرب يأمرنا بأن نفعل ذلك».

وقد أسأله«هل ذلك هو السبب *الوحيد* أو حتى *الأولي* لخطابك؟» ولو كان جوابه نعم لكنا نندهش من شخصيته الأخلاقية، وفيما إذا لم يكن هناك نقص أخلاقي في داخله إذ لا يرى بنفسه الأمر خطأ.

لكوننا نعيش في حياة اجتماعية مع آخرين وضمن عائلة، فنحن ندرك أننا نحتاج الناس الآخرين وهم بدورهم بحاجة إلينا، وأن على الآباء واجبات خاصة للحفاظ على صحة وحياة الأطفال. فضلاً عن ذلك، فإن نوعاً من

العاطفة يمكن، أو من الأحرى، ينمو بين الآباء والأطفال، بين الأخوات والأخوة، الأزواج والزوجات، الأصدقاء والأقارب، وحتى بين الغرباء وباقي أفراد المجتمع. ونتوصل إلى أن ثمة آداب بشرية أساسية من الواجب علينا أن ننفذها ـ مثال ذلك، لتجنب الابتلاء بمعاناة غير ضرورية للآخرين، نحاول أن نكون صادقين ومخلصين وعادلين. وثمة قائمة كاملة لمثل هذه الأخلاقيات.

إن مبدأ أن على الآباء عدم قتل أبناءهم هو واحد من أعلى المبادئ الأخلاقية. وإن يفعل أحد ما ذلك فهو ينتهك كل عادات السلوك السوي الضرورية للحياة في المجتمع. لسنا بحاجة إلى الرب ليعلمنا بذلك. ومن المؤكد أن فكرة أن إبراهيم كان يرغب في قتل إسحاق تستحق الشجب. كان عليه أن يعارض ويحتج. كان عليه أن يحاول في أن يجعل الرب يغير رأيه. وإن رفض الرب كان على إبراهيم أن يرفض الانصياع. إن رفض الانصياع لأوامر الرب التي هي من الناحية الأبوية لا أخلاقية لا يعد ذنبا، لأننا تعلمنا بالتجربة أن المبادئ الأخلاقية لها نوع من التلقائية الذاتية المستقلة تماماً عن الرب.

في زمن إبراهيم، لابد أن الإنذار بالتضحية بالطفل كان يعد تقدماً على الأخلاقية البدائية التي تتغاضى عنه وتمارسه. كانت القبائل البدائية، بسبب ابتلائها بشر كوني طارئ، ربما بسبب اليأس، قد مارست التضحية بالبشر من أجل إرضاء الآلهة. وكان ذلك خطأً، كما يقول، ولكن هذا الخطأ يعود إلى الضمير الأخلاقي وفق شروطه.

مما يثير المتعة أن قصة الكتاب المقدس تسمح بتضحية الحيوان لتكون بديلاً عن التضحية بالبشر. يرى إبراهيم كبشاً مشدوداً من قرنيه في الأجمة، ويقدمه أضحية للرب بدلاً من إسحاق. ويرد ذلك على نحو مرض في النص. وقد يعارض المرء أيضاً إعتماداً على أسس أخلاقية إلى هذا التصرف الذي لا مبرر له ـ ولابد أن نقول أن للحيوانات حقوقها أيضا. يجب أن لا تقتل أو تعذب من

دونما تمييز. لذلك، من الخطأ قتل كبش بريء من أجل شعيرة دينية ـ وبالتأكيد شاعت التضحية بالحيوان على نحو بغيض في أغلب أنحاء العالم. على أن الرسالة الأصلية للقصة أن إبراهيم من الفضلاء أخلاقياً لأنه يرغب في طاعة الرب مهما كان الأمر. إن الطاعة العمياء للأوامر الإلهية تعد غاية في التقوى الدينية والفضيلة الأخلاقية. هذا هو حجر الزاوية في الأخلاقية الدينية؛ لدينا واجب الطاعة لأن الرب أمر بذلك، هكذا بكل بساطة. إن الإنسان الناضج عليه أن يسأل عن السبب أو التبرير. وإن لم يكن هناك سبب، فليس من الأخلاق تنفيذ فعل بغيض.

عبر سنوات طويلة من تدريس الدروس الأخلاقية في الجامعة، غالباً ما كنت أقدم مأزق إبراهيم وإسحاق إلى طلبتي وأسألهم فيما إذا كانوا يعتقدون أن إبراهيم كان على خطأ أم صواب. عملياً كانوا كلهم قد اتفقوا على أن إبراهيم كان خاطئاً في تضحيته بإسحاق. ويمكنني أن أذكر استثناءاً واحداً مميزا: فقد أصر أحد الطلبة الصرحاء أن *مهما* أمر الرب لابد أن يؤخذ على أنه صواب، وإن أصر الرب على وجوب أن يضحي إبراهيم بإسحاق، أو أن على الآباء أن يقتلوا أبناءهم في اختبار الإخلاص، فذلك أمر صواب. وعندما يُسأل ليس لديه من تبرير غير إيمانه بأن الإلتزام بأوامر الرب يعلو على كل الاعتبارات الأخرى. ولكن لا أحد اتفق معه على حجته. وكان يبدو، في زعمه ذاك، يعرض ضميره الأخلاقي المتخلف؛ فمن المؤكد أن وجهة نظره بأن قمة الفضيلة هي طاعة القانون الأخلاقي كما حدد في التراث الديني هو أمر يخضع للشك. ولكن ثمة اختبار آخر للقضية: لو أن الرب قد أمرنا، على سبيل المثال، بالاغتصاب أو السرقة أو القتل، فهل سيجعل ذلك من تلك الأشياء أموراً صائبة؟ أم على العكس من ذلك، إن قال الرب لا تغتصب أو لا تسرق أو لا تقتل، فهل ذلك في حد ذاته سيجعل الأمر خطأ؟ لا بالتأكيد! ثمة عدد من المبادئ الأخلاقية والقيم علينا أن نفهمها ونبقيها في أذهاننا غير مستعدين للتخلي عنها. لا يمكن أن يطلب من المرء التخلي عما يعنيه أن يكون إنساناً أخلاقياً متطوراً. لذلك فإن

الإحساس بالواجب والمسؤولية له أساس واستقلال مغر عن الأسس الدينية. وأولئك الذين لا يرون ذلك يبينون عجزهم الأخلاقي. ما هي هذه الأرضية؟ لو أن الرب قد مات أو غاب، فما هو الأساس لإخلاصنا للأخلاق؟ هذه هي الأسئلة التي علينا أن نثيرها الآن.

[2]

البحث الأخلاقي

نوعان من السلوك الأخلاقي

من خلال نقاشنا ظهر لنا نوعان من السلوك الأخلاقي: أولاً، سلوك طاعة الأوامر بزعم أنها مأخوذة من مصدر سماوي؛ وثانياً، أخلاقيات متأسسة على تطوير رؤيا وبحث عقلاني نقدي.

على الرغم من أن الأنظمة الدينية تقدم من دون شك وظائف سيكولوجية وسوسيولوجية من خلال زرع الفضائل الأخلاقية في أذهان الأفراد والتأكيد على نظام اجتماعي، فإن الأخلاقية التي تتوقف عند هذه المرحلة بدائية وغير متطورة. إننا بحاجة إلى أن نتقدم إلى مرحلة أخرى من التطور الأخلاقي. وهنا قد نتوقف عند التاريخ الشامل للبحث الأخلاقي النقدي لنرى ما الذي ينتج عن التطور الأخلاقي. ويمكننا أن نتعلم الكثير من أعمال المنظرين النفسيين الذين لهم مراحل متطابقة من التطور في السلوك الأخلاقي، خصوصاً لدى الأطفال[١]. ومن خلال المعطيات التي لدى الذين يصرون للانصياع للقواعد السلوكية الجامدة لتكون هي الغاية والنهاية للسلوك قد يقال عنهم أنهم معاقين سلوكيا.

---

(1)

إن مصطلح السلوك الأخلاقي Morality قد أخذ بالأصل من الكلمة اللاتينية Mores الأعراف التي هي مفرد Mos العرف الذي يشير إلى العادات والتقاليد والسلوكيات. وكانت هذه هي القواعد التقليدية للسلوك، والاستخدامات المعتادة والقوانين الشفاهية التي تحكم جماعة الناس الذين يعيشون معا. كل مجتمع يحسب أنواع معينة من السلوك بكونها جيدة أو صحيحة أو عادلة أو فاضلة وأخرى على أنها سيئة أو شريرة أو خاطئة أو آثمة. وقد ترسخت مثل هذه الاتجاهات السلوكية الأخلاقية. وهي تغرس بعناية عند الصغار. إن الانتقال التام للسلوكية الأخلاقية يكون من الآباء والمعلمين، الذين يعملون على التأكد من استلام الشفرة الأخلاقية. إن السلوك الذي يعد جيداً يعزز إيجابياً باحتمالات المكافأة. بينما تتم معاقبة السلوك اللاأخلاقي. الاستجابات المشروطة تبني عادات التوقع والإيمان والممارسة في جيل واحد، والتي تمرر فيما بعد إلى جيل تال. وتعد سنوات التشكل الأولى هي الحاسمة في تأسيس أساس للسلوك الأخلاقي؛ ولكن عملية التثاقف هي عملية مستمرة. ومن الناحية الفعلية يكون الإطار المؤسسي الكامل مبني حول مجموعة من القيم والقواعد التي يسعى مجتمع ما إلى التعبير عنها وتطبيقها والمحافظة عليها. ومثال ذلك تدين المسيحية التاريخية أشكالاً معينة من السلوك الجنسي كونه «خطيئة» وأشكالاً أخرى تعدها «فضيلة» وتطور نظام اجتماعي كامل من خلال تعزيز هذه التوجهات. وكذا الحال مع اليهودية والإسلام والبوذية لهم مبادئهم في الصواب والخطأ. إن المبادئ السلوكية المتفق عليها تمجد وتقدس؛ بينما تلك المنبوذة فتمنع من خلال استخدام العقوبات: كالنبذ والمعاملة القاسية والعزل والنفي أو حتى الموت. كل من الدين والقانون يدعمان القانون السلوكي الأخلاقي ويتداخلان معه ويتأثران به. إن احترام القيم الأخلاقية الأساسية المقدسة أو المستوحاة إلهياً ـ كما يفعل رجال الدين ـ ودعم المفاهيم الأصولية لسلوك أخلاق ملائم من خلال إقحام قاعدة قانونية تسهم في استقرار المجتمع.

لقد أشار الأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون إلى النسبية الثقافية للعادات الاجتماعية والتنوع الواسع في أنحاء مختلفة من العالم. يؤمن شعب أزاندي الأفريقي البدائي أن بعض الأفراد من المجتمع هم من السحرة، قادرون على ممارسة تأثير سحري شرير على بقية المواطنين. إنهم يشتركون في شعائر عديدة من أجل معادلة القوى الشريرة السحرية عبر استعمال الأدوية السحرية[1]. المجتمعات الغربية المسيحية ترفض مثل هذه العقائد بكونها منافية للعقل، رغم أنها هي نفسها ترغب في الانغمار في الشعائر السحرية في الصلاة، ومن خلال أكل لحم المسيح وشرب دمه ـ إما رمزياً أو من خلال الإحالة. لذلك فإن الاعتقادات الدينية والممارسات تتنوع إلى حد كبير، كما هو الحال في الأزياء والكلام وباقي الأشياء. في بعض المجتمعات من غير اللائق على الرجل أن تكون له لحية على ذقنه؛ وفي أخرى لا يحلقونها. والمرأة في المجتمعات الإسلامية المتزمتة تعد مذنبة إن أظهرت وجهها على العامة من الناس؛ وفي المجتمعات الغربية يكونون في غاية الحشمة إن لم يكشفوا النقر الصغيرة في الركبة! وفي بعض المجتمعات يكون الشذوذ الجنسي مرفوضاً بكونه شيء بغيض وتترتب عليه عقوبة قاسية؛ وفي مجتمعات أخرى يتم التسامح معها قليلاً أو كثيرا. في بعض المجتمعات من المحرم التقبيل العلني؛ وفي أخرى يكون مقبولاً على أنه علامة ملائمة للحب والرومانسية.

في جماعة منعزلة متقاربة نسبياً، من الممكن الحفاظ على قوانين اجتماعية واضحة ومعروفة وحتى قاسية. من الممكن إجبار الانشقاقيين ووضعهم خلف الأبواب ويعاقب المذنبون بقسوة. ولكن من الواضح أنه من الصعب أيضاً القيام بذلك كليا. إن التغير الاجتماعي في حالة مستمرة؛ يموت الناس واحداً بعد الآخر، إما بالجوع أو الحرب أو الطاعون والأوبئة. إن السلوك الأخلاقي للكبار، على الرغم من أنه يورث للصغار، فمن الاستحالة أن يحمل المعنى

---

(1)

نفسه أو القوة نفسها. فضلاً عن ذلك، يحدث التداخل بين الجماعات؛ المسافرون من بلدان بعيدة، والغرباء الذين يلتقون يتفاعلون بأشيائهم الغريبة. وتدريجياً تستورد وتصدر الأفكار الجديدة والمفيدة أو الأفعال المرغوبة بصحبة البضائع والخدمات من خلال عملية التجارة. لذلك من الصعب لجماعة الحفاظ على عدم تغيير الوفاء لاعتقاداتها الأخلاقية. هذه هي الحال خصوصاً حين تتصادم جماعات في حالة الحرب وتسعى للانتصار أو تدمر الجماعات الأخرى. وقد يحدث تصاهر على نحو واسع، وقد تندثر ثقافة وتتشرب أخرى. من المحتم أن ثمة تداخل واستعارة للاعتقادات والممارسات؛ وبمرور الأيام حتى القوانين الأخلاقية المستقرة قد تفسح المجال للتغيير. على أية حال ثمة جهود مستمرة لتثبيت القوانين الأخلاقية، خصوصاً من قبل رجال الإعلام الدينيين والأيديولوجيين الذين يعملون على الضد من التغير السريع وينصحون أن لابد من العودة إلى أساليب الأيام القديمة. تحاول الكاثوليكية الرومانية ترسيخ تراث القوانين البالغة في القدم ويقاوم الكثيرون من قادة الكنيسة الجهود في تحديثها. وفي الوقت الراهن في البلدان الإسلامية يطيح الأصوليون بالأنظمة الحديثة التي يتهمونها بأنها قد خانت القرآن. وفي كل الأحوال، عندما يتم تحدي الأخلاقيات القديمة أو يتم تجاوزها يمكن للبحث الأخلاقي أن يبدأ. إن قيم العادات الأشد قدماً والحقائق الأخلاقية لا تبدو قادرة على الانسجام مع الشروط الجديدة. وعندما تواجه مع أنظمة بديلة، ربما يحدث نداء مفاجئ نحو التحول والإصلاح أو حتى الثورة.

أحد التوضيحات الدرامية لهذه الظاهرة نجدها في حواريات أفلاطون. وفيها يتصادم السفسطائيون، من بينهم بروتوغوراس وكاليكلز وثراسيماخوس، مع سقراط. لاحظ السفسطائيون، وهم المعلمون الجوالون الذين يتنقلون حول عالم البحر المتوسط، التنوع الواسع في الثقافات والاعتقادات وفي الأخلاق والسلوكيات وحقيقة أن كل مدينة كإسبارطة وكريت وطروادة وأثينا وسيراكوز - تعد تراثها الخاص مقدساً من الآلهة ومتفوقاً على تراث الآخرين. هل كانوا

جميعهم محقين؟ إن كان الأمر كذلك، فإن المبادئ والقيم الأخلاقية المتناقضة ستكون صحيحة وخاطئة في الوقت نفسه. هل الإنسان «الذي هو أثمن الأشياء» كما علم بروتوغوراس طلابه؟ وإن يكن الأمر كذلك، هل تكون الأخلاقية نسبية ببساطة حسبما يفضل الأفراد أو المجتمعات؟ النقاش الكبير في حواريات أفلاطون يكون بين التقليد والطبيعة. هل الأخلاقية بكل بساطة تقليد، كما أكد السفسطائيون، أم لها أساس في طبيعة الأشياء، كما تحاور سقراط وأفلاطون؟ لقد رأينا من قبل أن أفلاطون يفترض عالماً من المثل في جهد لحل المأزق.

ولكن من وجهة نظري، أن ما هو أكثر أهمية هي الحقيقة بأننا هنا نجد فجر البحث النقدي الأخلاقي. لقد أنشئ ذلك من قبل سقراط وكذلك من قبل السفسطائيين، الذين تحدوا الأبقار المقدسة للثقافة الهيلينية. لقد أدين سقراط وحكم عليه بالموت من قبل الأثينيين، لأنه تحدى الأرثوذكسية المتسلطة. النقطة المركزية أننا يمكن أن نرى التحول الحاسم من الأخلاقية التقليدية إلى البحث النقدي الأخلاقي ـ وكانت محاورات أفلاطون تمثل انعكاساً لما كان يحدث في الحضارة الهيلينية نفسها. الأمر المتفرد أن القوانين الاعتيادية (بضمن ذلك القواعد الدينية المعترف بها) ما كانت تعد مقبولة بكونها المصادر الأولى للدليل السلوكي الأخلاقي. وتوصل اليونانيون للشعور بأن قناعاتهم بشأن «الخير» و«العدالة» بحاجة إلى أن تدقق على نحو عقلاني.

واقتضى الأمر أن يأتي الجيل اللاحق حتى يتمكن أرسطو من تعريف الأخلاق ويتوسع في ذلك ليعده حقل البحث المستقل. لقد عرف أرسطو بأنه الهدف الذي يمكن للناس بحثه. وقد صنف هذا على أنه الرفاهية أو السعادة واستمر أبعد ليصف مزاياه الرئيسية ويشير إلى كيف وبأي معنى يمكن أن يتحقق. إن فهم الطبيعة البشرية بالنسبة لأرسطو وبحث الحياة العقلانية هو المصدر الرئيسي للسعادة؛ إن الحكمة التأملية والعملية تحتاج إلى أن تكون مصقولة إن كنا نريد أن نعيش حياة نبيلة ومزدهرة وفاضلة.

لقد وضعت هذين النوعين من السلوكية الأخلاقية من خلال منظور تاريخي. أولاً يستند إلى العادة والعاطفة والإيمان والسلطة؛ إنه يبحث في أن يطبع في الذهن مبادئها الشاملة في زرع الفضيلة لدى أعضاء المجتمع. على الرغم من أن الثاني بدأ هنا، مع المستويات الموجودة من قبل لمجتمع ما، إنه يتحول إلى مرحلة تالية، مرحلة اختيار تأملي. فضلاً عن ذلك، لقد استعار رجال الدين من الفلاسفة الأخلاقيين بغزارة وكانوا قد نظروا في تفسير أنظمتهم الدينية على وفق تعاليم أولئك الفلاسفة. من الواضح أن هذين البعدين الأخلاقيين ليسا منفصلين تماماً، وهنالك اختلافات في الدرجة. كل مجموعة من الناس يسيرون على وفق قواعد سلوكية موجودة من قبل لترشد تصرفاتهم؛ ويقوم الخطاب الأخلاقي بافتراضها. ليس من الضروري أن يقوم أي جيل بإعادة اكتشاف آداب السلوك، ولكن ليس ثمة من مجتمع يمكن أن يكون بمستوى إشكالاته السلوكية أو الأخلاقية، من دون نوع من الاستعمال للبحث الفكري؛ ثمة عملية مستمرة للتداخل بين المعتاد والعقل.

لقد أشار جون ديوي، أحد فلاسفة أمريكا في القرن العشرين، إلى هذا التناقض من خلال التمييز بين التثمينات Prizings والتقديرات Appraisals[1]. تشير إلى قيمنا السالفة، الأشياء التي استهلكناها وتمسكنا بها. وهذه عادة حالات سلوكية تحركها العاطفة، وتندفع نحو الفعل. إن نتاجات العادة لها مكافئ عاطفية قوي وتكون في العادة مقبولة ما لم تظهر إشكالية أخلاقية أو مأزق ما. في هذه النقطة ينشأ البحث النقدي الأخلاقي ونحن نبحث في تقدير تثميناتنا ونقدر ثمنها. ولذلك تشير «التقديرات» إلى عمليات أكثر تطوراً والتي فيها يقوم العنصر الإدراكي في التدخل القوي والميزان والحكم في قيمنا يشرعها ويدقق فيها.

---

(1)

المآزق الأخلاقية

إن القيم المعتادة للأخلاق الموجودة من قبل والاكتفاء الكبير بها لتكون مرشدة للسلوك تتوقف حتى يكون هناك تحد لها، نوع من التصادم بين الواجبات والقيم، نوع من عجز تلك القيم البالية في التوافق مع المشكلات الجديدة التي قد تظهر. وعموماً عند هذه النقطة التي ينشأ من عندها البحث، إما لإعادة البناء أو للدفاع عن عاداتنا في التصرف والإيمان أو لخلق انحرافات جديدة في الفكر والفعل. على الرغم من أن الإنسان يمكنه أن يتأمل عموماً في النظرية الأخلاقية على مستوى ـ الما بعد ـ وهذا نوع مهم من البحث الأخلاقي، في التحليل الأخير، فهو مرتبط بالسياقات الملموسة للتجربة الحية التي يبدأ بها التفكير الأخلاقي المعياري ويختبر على نحو تام. وعلى نحو خاص فإن الإشارة إلى المآزق الأخلاقية، كما تسمى، ينشأ النوع المكثف من التفكير الأخلاقي المتروي بوصفه نتيجة. الحياة مليئة بالصعاب ونحن نواجه بفظاظة من قبل الشخصية التراجيدية لبعض اختياراتنا. من المؤسف أن القواعد الموجودة لا تساعد في إرشادنا، وفي أحيان نكون واقعين في مأزق أخلاقي غامر لدرجة أننا نجبر على أن نختبر الأعماق الداخلية في أرواحنا نحو حل، وحتى حينذاك قد لا نجد جواباً مقنعا.

الشعراء الكبار والروائيون وكتاب الدراما قد قدموا ببلاغة كثافة وعمق مثل هذا التفكير الأخلاقي المتروي. في مسرحية شكسبير «أوثلو» يسيطر الشك على الشخصية المركزية بأن زوجته المحبوبة «دزدمونة» غير وفية له. وتذكى نيران الغيرة والغضب من قبل عدوه، إياغو، ويقتل أوثلو بالنتيجة دزدمونة، وهو الأمر الذي يدمره.

كم هو مؤثر حمل الاختيار، كم مرة نوزن به! الكثير من الناس يهربون من مواقف معينة ولا يتحملون مسؤولية الاختيار. إن الحرية الأخلاقية موجودة غالباً لتكون لا تطاق، والكثيرون يذعنون للعادات أو السلطة كي يقرر الآخرون

بدلاً عنهم. إن الهروب من الحرية والعقل هو أمر شائع للروح الخائفة وغير الراغبة أو غير القادرة على الاختيار. كم هي دافئة ومريحة تلك اليقينيات للمطلقات الأخلاقية على نحو خادع!

علي أن أشير إلى أن أكثر اختياراتنا الأخلاقية ليست مأساوية، ولا هي لا تقهر أو لا حل لها. ربما نبه بعض الفلاسفة إلى المآسي الأساسية للحياة من أجل عرض حقيقة مفادها أن نوعاً من العملية الفكرية التأملية شيء أساسي للحياة. مادامت المشكلة المحيرة للسلوك الأخلاقي هي المأزق الأخلاقي، وأن اختبار مبادئنا وقيمنا مرتبطة به، سيكون من الأفضل لي أن أشخص وأعرف بطبيعته الآن.

ما الذي ينشيء المأزق الأخلاقي؟

أولاً، ثمة في المأزق الأخلاقي نوع من مشكلة أو قضية تحتاج إلى حل. قد تتضمن هذه القضية صراعاً بين القيم الموجودة والعادات والقواعد أو المبادئ. في مزاجنا المعتاد في التصرف قد نواجه بعض الصعوبة أو العقبات، أو قد يتحدانا الآخرون الذين لا يتفقون مع طريقتنا في التصرف أو مع الأشياء التي نعدها صحيحة أو خطأ. إن طريقتنا المعتادة في التصرف التي قد تأتي من دون تفكير عميق، هي التي تكون موضع بحث. وعندها نقع في مطب. هل يتحتم علينا الاستمرار بما كنا دائماً نقوم به، أم نتخذ إجراءاً جديداً ونباشر العمل وفق مسار جديد؟ علينا أن نختار ونبرر هذا الاختيار لأنفسنا / وللآخرين. قد تكون بعض المواقف جديدة تماما، كما نجد ذلك، على سبيل المثال، في المشاكل التي نواجهها في الأخلاقيات الطبية وهندسة الجينات. ليس ثمة ما هو سابق يمكن أن يرشدنا بدقة إلى ما حري بنا فعله، ذلك لأن المشكلة قد تكون متفردة وغير مستقرة. بالطبع قد نرفض الاختيار أو التصرف، ولكن ذلك هو أيضاً نوع من الاختيار.

ثانياً، أن المأزق الأخلاقي، في حده الأدنى، يتضمن شخصاً (أو أشخاصاً) يطلب منهم أن يقوموا باختيار أو اختيارات. ويفترض هذا أننا «نستطيع الاختيار»، وأننا نملك مقداراً من الحرية كي نقوم بذلك. إن القاعدة الكلاسيكية للحتمية غالباً ما تشير إلى أن الاختيار وهم، وأننا مهما فعلنا فقد حتمته أسباب قبلية. إن تكن هذه هي الحال، فيقال أن الأخلاق مستحيلة، فإن كانت اختياراتنا تسببها حوادث سابقة، فلا نملك أن نتحكم بحياتنا، وليس لنا أن نلام أو نكافأ عما نفعله. ليس من الضروري أن نحل المشكلة الكلاسيكية بين حرية الإرادة بالضد من الحتمية كي نبين اللاجدوى من هذا النقاش. ليس ثمة من تناقض في التأكيد (١) أن الاختيار هو حقيقة الحياة الأخلاقية و (٢) أن اختياراتنا قد تسببت أو تأثرت بشروط أساسية واقعية. هذه هي الحالة خاصة إذا اعتبرنا أن «السبب» ليس بكونه قوة قاهرة (كما ألمح إلى ذلك ديفيد هيوم)، بل هي ببساطة مرافق شرطي فعال في السلوك[١]. إن لم تكن هناك ترتيبات منظمة في السلوك البشري، لا يمكننا الاعتماد على أي شيء؛ ولا يمكننا القيام باختيارات معقولة تعتمد على التوقعات لما يمكن أن يحدث. إن اختياراتنا يمكن أن تكون نزوات من دونما إيقاع أو عقل. لا يمكن لأحد أن يعتمد على أي شخص أو يقوم باستنتاجات معتمدة على الكيفية التي يتصرف بها أي شخص. ولذلك تفترض حرية الاختيار من قبل ذلك بعض التنظيم في السلوك البشري الذي على أساسه يكون بالإمكان القيام بأفعال مسؤولة.

الميزة الثالثة للمأزق الأخلاقي أن هناك سياقات «بديلة» للفعل لابد من أخذها بعين الاعتبار. إن لم تكن هناك اختيارات مشروعة ولا يوضع أمامنا إلا طريق واحد لا غيره، فعند ذاك لا يكون لفكرة الاختيار من معنى. مثل هذه المواقف ذات النهايات الميتة تحدث في الحياة، مثال ذلك، عندما يوضع شخص ما في السجن ولا يسمح له بأية حرية للحركة أو الخروج، أو عندما يحتضر شخص ما

---

(1)

ويكون من غير الممكن منعه أو منعها من الموت. ولذلك فإن المأزق الأخلاقي لابد أن يكون له مسربين ممكنين للحل. قد تكون الاختيارات معطاة، أي تحدث ضمن الموقف من خلال ظروف طبيعية أو اجتماعية، أو ربما تكون نتيجة اختراع مبتدع من جانب الباحث. والمأزق التالي، على الرغم من أنه ليست له علاقة بما هو أخلاقي، سيوضح الفكرة: لو أن شخصاً واجه مشكلة عبور نهر، يمكنه أن يخوض إن كان النهر ضحلاً، أو يعبره سباحة إن لم يكن التيار قوياً، أو يمتطي حصاناً ليعبره. ولكنه أيضاً قد يعمل طوفاً أو قارباً، أو يبني جسراً، أو يحفر نفقاً. وربما يمكنه أن يستأجر طائرة سمتية. والطرق الأخيرة هي نتائج اختراع الإنسان وهي من عمل المستوى التقني والقوى الاجتماعية للإنتاج.

لذا فإن البدائل المطروحة لدينا ليس من الضروري أن تكون معطاة ولكن قد تكون معتمدة على قدرتنا الإبداعية الخاصة. والنهايات التي نطمح الوصول إليها تعتمد على معرفتنا للكيفية والأساليب الفنية المتوفرة لدينا. إن المآزق الأخلاقية التي يبدو أن لا حل لها في يوم ما قد تتحول في يوم تال من خلال التوسع إلى الحلول البديلة. إن قدرة الإنسان في الفعل متأت من عمل الاكتشاف والاختراع في (الفن والتقنية). وهذا ما يكشف عن الشخصية التنقيحية للكثير من التفكير الأخلاقي وصعوبة الإمساك بمبادئ أخلاقية مرنة سوف تصر أبداً على أن تكون غير قادرة على التغير والتعديل.

ومن أجل إيضاح الفكرة الأخلاقية: نقول أن رعاية الشخص الهرم اليائس هي مشكلة إنسانية دائمة وقديمة قدم الحضارات. وهنالك العديد من الحلول. فمن الممكن أن يهيم الهرم حتى يموت كي لا يكون حملاً على الشباب، كما هي الحال لدى شعب الأنويت (الأسكيمو) الذين يعيشون على الصيد. في الحضارات ذات الموارد المتعددة، يعتبر البنون والبنات وباقي أفراد العائلة أن من واجبهم دعم المسنين من آبائهم، مادياً وعاطفياً، ماداموا غير قادرين على

العمل. وتاريخياً، تجد العائلة الممتدة متسعاً للأجداد والعمات والأعمام. وفي الثقافة التي يشيع فيها الاعتماد على النفس ويقدر فيها الاستقلال عالياً، يعد الأفراد أن من واجبهم أن يحتاطوا لشيخوختهم عبر العمل الجاد والاقتصاد. الشخص الذي يهتم بشأن سنوات تقاعده يعد عفيفاً من الناحية الأخلاقية.

هذه الوسائل أبدلت أو أكملت بإبداعات اجتماعية أخرى. إن الضمان الاجتماعي الذي يمول من العامل وصاحب العمل والذي تشرف عليه الحكومات، قد جعل مشكلة الشيخوخة أقل حرجا. هنالك خطط للرواتب السنوية التقاعدية وباقي سبل التأمين الاستثماري، حيث تقيم الاعتمادات المالية بالفوائد المتراكمة. فضلاً عن ذلك فإن علم الطب قد توصل إلى تقدم واضح في مواجهة الأمراض المستعصية للشيخوخة، وصار بإمكان الناس أن يعيشوا حياة منتجة وممتعة إلى ما بعد سن التقاعد بأمد طويل. وتولدت مآزق سلوكية أخلاقية جديدة من جراء الشيخوخة المعافاة. فقد صار هناك تنافس شديد على الوظائف عندما ازداد عدد الناس المنتجين الراغبين في الاستمرار في العمل. ومن هنا وجد توتر بين العمال الشباب الذين يجب أن يدعموا أولئك الذين يعيشون على الضمان الاجتماعي، والعمال المسنين الذين لم يتقاعدوا منافسين الشباب في سوق العمل. مع كل تقدم جديد تحل مشاكل سلوكية أخلاقية جديدة.

الإشكاليات التي تحدث في الأخلاقيات الطبية اليوم خصوصاً توضح ميزة التغير في العادات الأخلاقية. فمع التطور الهائل في التقنيات الطبية صارت تواجهنا الآن الكثير من المشاكل التي لم يكن لها وجود من قبل. صار بإمكاننا المحافظة على حياة مرضى الأمراض المستعصية أو الأطفال المعاقين بدرجة شديدة لفترة طويلة لم نكن نعتقد أنها ممكنة من قبل. وهذا ما خلق قضايا الموت الرحيم أو قتل الأطفال. هل يتحتم علينا استعمال مثل هذه الطاقة التقنية أو نسمح للناس بأن يموتوا باحترام إذا كانوا يرغبون؟ إن نوعية المآزق الأخلاقية

غالباً ما تكون عمل مباشر لتوفر الوسائل البديلة وكمية القوة التي علينا أن نختارها ونقرر مستقبلنا. سوف يسمح المجتمع التعددي والمرتبط بالتغير الاجتماعي التقدمي دائماً لمدى أوسع من الاختيارات الجديدة للأفراد أكثر من المجتمع التسلطي والمغلق والبطئ التغير.

رابعاً، في المأزق الأخلاقي، نكون قادرين على أن نقيم فكرياً ونثمن السبل البديلة للفعل. ويتضمن هذا حضور عملية إدراك مدروسة. ثمة اختلاف واضح بين العادات السلوكية الأخلاقية والمعايير والقيم المقبولة على اساس العادة أو التقاليد ومدعومة بالشعور والعاطفة من ناحية، وتلك المدعومة أو المعدلة بدرجة ما من العملية العقلية من الناحية الأخرى. ليس للمرء أن يلح بسذاجة على أن الأخلاق عقلانية ببساطة، ولا ينكر أن عنصر الموقف حاضر في السلوك الأخلاقي. يمكننا أن نشعر بقوة بالأشياء التي نستحسنها أو لا نستحسنها ونبقى نفهم أن العنصر الإدراكي للاختيار يمكن أن يدخل في العملية. إن الجانب الفكري مركزي للأخلاقيات النقدية، مثلما هو منفصل عن أخلاقيات التقاليد، إذ من خلال وسائل العقل يمكن أن تتحول القواعد العمياء إلى اختيارات واعية.

الطاعة السلبية للوصايا أو الأوامر العشر للمسيح من دون أن تكون قادراً على تحديد أو تقدير مثل هذه التعاليم لا يكاد يكون امتلاك وعي أخلاقي. عموماً أن تكون قادراً على تحويل مثل هذه السلوكيات إلى مبادئ للتحكم الذاتي يكون أمراً ممكناً للناس الأذكياء الذين يفكرون بروية بقيمهم ومبادئهم. إنني أسلم أن ظهور نوع من القدرة على التفكير الأخلاقي يمثل مرحلة متقدمة من التطور الأخلاقي.

المقوم الخامس في المأزق الأخلاقي أن اختياراتنا تتصرف بحسب ما يكون في العالم الحقيقي ولذلك تكون لها نتائج. إنها ليست مجرد تعبيرات للوهم التأملي العقيم. من المؤكد أن لها بعض الأثر على العالم الاجتماعي والطبيعي. لهذا فإن الاختيار مرتبط بما هو عملي، أي أن تتصرف أو تسلك.

إنه سببي في العمل، لأنه قادر على تغيير مسار الأحداث. لذلك يمكن للرجال والنساء أن يدخلوا في الطبيعة والمجتمع من أجل تغييرهما وإعادة بناءهما. لسنا مجرد متأملين سلبيين، نتأمل الكون. مادمنا نتصرف على نحو أخلاقي فنحن فاعلون إيجابيون، قادرون على أن نضيف للعالم أو نغير اتجاهه. وعليه فإن اختياراتنا العملية لها نتائج تجريبية يمكننا أن نلاحظها. الاختيارات التي نتصرف وفقها لها «نتائج»؛ وهذا ما يمكننا من أن نحكم بطبيعة اختيار ما وتأثيره. لذلك فإن المعايير ذات الترابط المنطقي، المنفعية، أو البراغماتية هي إلى حد ما مبدأ أساسي؛ لأنه أن تستحسن أو لا تستحسن عملاً ما عبر مصطلحات افتراضية شيء؛ وشيء آخر أن نرى كيف يتحول اختيار ما ونقيم نتائجه. إننا نطبق الاختبارات ذات الترابط المنطقي على النشاط البشري.

من الواضح أن المهم هو ما نفعله وليس ما نقوله. في التحليل الأخير، ليست مفاهيمنا أو نوايانا (مهما كانت مهمة) هي التي يعول عليها بل ما يعول عليه أكثر هي الأفعال التي نقوم بها إزاء الآخرين من البشر. قد نتخيل ما نود فعله، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نفعله كاملا. إن دوافعنا ورغباتنا قد تفوق قدراتنا بكثير ـ أو حتى رغبتنا ـ في الفعل ولكن الفعل وحده يمكن أن يخلق الحقيقة. قد يتخيل الرجل أكثر من عشر مرات أنه يعري ويضاجع إمرأة جميلة أو يحقق انتقاماً ضد عدو له. ولكن ليس لأحد أن يلومه ما لم ينجز الفعل أو حتى يحققه. إن العرض الملموس للسلوك بكونه نتاج للاختيار هو السلسلة الرابطة للأخلاقيات.

سادساً، إلى الحد أن الفعل يتبع اختيار يقوم به شخص بوضوح (فيما إذا كان بعد دراسة متأنية أم لا)، وتتبع ذلك نتائج، عند ذاك يمكن أن يعد الفرد «مسؤولاً» على نحو ما على أفعاله. وهذا معناه أننا نمتدحه إذا استحسنا عمله ونلومه إذا لم نستحسنه. إن مسألة المسؤولية وثيقة الصلة هنا، لأنه، كما أشار أرسطو في كتابه عن الأخلاق[1]، أن الإنسان مسؤول عن الفعل إذا كان قاصدا

---

(1)

ما فعله، إن كان واعياً للظروف التي تحيط بما فعله، وإذا لم يكن الاختيار متجاهلاً لها.

لابد أن أنوه أن هذا يختلف عن أي سلوكيات أخلاقية دينية، التي تعد الناس مذنبين بسبب أفكارهم. «ذلك الذي يشتهي امرأة في قلبه يمارس الزنا». ما لم أو حتى تطبق فكرة إلى فعل، لا يمكن للمرء أن يحكم في قيمتها الأخلاقية. فضلاً عن ذلك أن إدانة الناس على تأملاتهم الداخلية سيديننا جميعاً من دون شك. إن الاختبار الحقيقي للاختيار هو تمثله الفعلي في العالم، وبناء على ذلك يعد المرء مسؤولا.

لو أن شخصاً يسوق سيارة على طريق ثلجي ويدوس بقوة على الكابح فتصدم السيارة شخصاً آخر، فربما يعد ذلك حادثاً عرضياً تماماً خصوصاً إذا لم يكن قاصداً وندم على هذا الفعل بعد ذلك. إنه مسؤول عن ذلك بكونه السائق. وهو ملام حتى لو لم يكن قاصداً، لأنه كان مهملاً أو تحت تأثير المخدرات أو الكحول. وبالطبع لو تم البرهنة أنه كان متعمداً وناوياً فعلاً للتخطيط لقتل الشخص، سيعلن عن أنه مذنب بجريمة القتل من الدرجة الأولى وليس الثانية. في بعض الأحيان يكون من الصعب إيجاد الدافع أو النية.

على أية حال، الدرس الأساسي للأخلاقيات النقدية أن الناس يمكن أن يستفيدوا من أخطائهم ويغيرون سلوكهم في المستقبل ـ حتى لو كان من الصعب في بعض الأحيان أو من المستحيل فعلياً أن يفعلوا ذلك. إننا نقول بحزم لأنفسنا عن الأفعال التي اقترفناها، «لقد أخطأت» أو «فشلت، وكان علي أن أفعل غير ذلك». أو عن شيء ناجح نستحسنه، «لابد لي أن أقوم بالشيء نفسه في المستقبل، كم أنا ذكي». ونسعى بثبات إلى أن نعلم أطفالنا المبادئ الأخلاقية التي تعلمناها. نحاول أن ننمي الفضيلة ونزود الشخصية بالمعلومات ونغيرها. سلوكيات معينة (الانحطاط والكسل واللاأبالية تجاه حاجات الآخرين) نعدها مقيتة، بينما السلوكيات الأخرى (الأناقة والعطف والاهتمام

بالناس) تستحق الإطراء. وعليه فإن عملية التعليم مرتبطة بالاختيار الأخلاقي والأفعال. إن السلوك الأخلاقي من الممكن إصلاحه، وقابل للتحسين والتهذيب. تعرف هذا أنظمتنا التعليمية والقانونية، ونحن نطبق أشكالاً مختلفة من العقاب لأولئك الذين حكم على سلوكهم بأنه مؤذ أو يستحق العقاب؛ هنا تأتي قوة القانون لتحديد ومعاقبة السلوك الذي نظر إليه على أنه إجرامي.

بدايات البحث الأخلاقي

يمكن للبحث الأخلاقي أن يبدأ عند مختلف مراحل الحياة. ويقاوم بعض الناس ذلك مطوقين بسننهم الدينية. إنهم يناهضون البحث الأخلاقي لأنهم يخشون التغيير. فهو يهددهم فيبحثون في قمعه؛ ولكن لا أحد يقاوم البحث كلية. فأن تعيش وتعمل هو أن تعيش تحدياً في معتقداتك الأخلاقية وكيفية تطبيقها في مواقف ملموسة. إن مهمة الأخلاقيات الفلسفية النقدية هو الانشغال في بحث مباشر وواع. من الناحية الفعلية أن التاريخ الكامل للأخلاقيات الفلسفية قد كرس لجهد تأسيس الأخلاقيات على أسس عقلية. إنها مسألة معرفة الخير والشر. وقد نسأل من أين سنبدأ هذا البحث؟

لابد من عمل بعض التحديدات المهمة بين الأخلاقيات المعيارية وما بعد الأخلاقيات. تتعلق الأخلاقيات المعيارية مع إصدار وصايا إرشادية عن كيفية الحياة ومساعدتنا في تشكيل أحكام للقيم. سوف يخبرنا المفكر في علم الأخلاق المعياري ما هو الخير وما هو الشر، وما الصحيح وما الخطأ وما هو المجتمع العادل. لقد اجتهد الفلاسفة من مثل أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وميل في إيجاد حكمة عملية لإرشاد السلوك.

أما ما بعد الأخلاقيات فهو ينزاح خطوة عن القرارات الفعلية التي يتخذها الناس. إنه الجهد الذي يبذل في «فهم» كيفية أن يقوم الناس بعمل الاختيارات الأخلاقية، وكيف يعملون على تبريرها. ثمة مشكلتان مركزيتان في ما بعد

الأخلاقيات. الأول يهتم بتعريف المصطلحات والمفاهيم السلوكية: «هل يمكننا تعريف الخير والشر والقيم والصواب والخطأ؟» ويهتم الثاني بالسبل أو المعايير لإنشاء حقائق أخلاقية؛ إلى ماذا تشير هذه المفاهيم الأخلاقية مهما كانت؟ وتعد مشكلة التعريف معقدة للفلاسفة. وكما رأينا يعد الإفلاطونيون مثل هذه المفاهيم بكونها حقيقية على نحو موضوعي وقد افترضوا أن ثمة عالماً متصوراً ربما يمثلها. مثل هذه النظريات مرتبطة بالنظريات العامة لطبيعة اللغة. لقد عد جي. إي. مور مصطلح «الخير» بأنه خاصية لا ـ طبيعية تعرف عن طريق الفحص المباشر ولكنها غير قابلة للتعريف مع أي خاصية تجريبية أو طبيعية، ومن هنا فهي غير قابلة للتعريف. أي جهد في تعريفها، كما يقول، يقع في خطأ «المغالطة الطبيعية»[١].

فلاسفة آخرون مثل أي. جي. آير وجارلس ل. ستيفنسن، اعتقدوا أن ليس لهذه المصطلحات أي مرجع موضوعي مطلقا. إنها عاطفية وإلزامية، إنها ببساطة تعابير عن توجهاتنا التي نستخدمها في التأثير على سلوك الآخرين[٢]. هذا الشكل من الشكوكية الأخلاقية قد تمت مناقشته على نحو ساخن في القرن العشرين. يؤكد النقاد أن تأويلها محدود جداً، لأن مصطلحات القيمة لها وظائف عديدة غير التعبيرية والإلزامية. ثمة الكثير من الفروقات الدقيقة التي تحكم استخداماتها، ويكون لها معنى ليس لمجرد أنها وصفية بل تستخدم لإنجاز الكثير من الوظائف.

ومع ذاك فإن البعض من الفلاسفة قد حاولوا إيجاد تعريفات طبيعية للمصطلحات بالرجوع إلى السلوك؛ إن المهمة هنا هي البحث في فهم الظاهرة. تظهر القيم حيث تكون هناك حياة، وفيما يخص النشاط البشري

---

(1)
(2)

حيث تكون هناك عمليات واعية للاختيار. لذلك تشير القيم إلى أشكال من السلوك المفضل؛ أن تقول أن هناك شيء ما له قيمة للفرد أو المجتمع فذلك يعني أنه جرى تقديره وله ثمن إيجابي. ويطبق هذا بالعكس على تدني القيمة. لذلك تكون القيم موضوع أي اهتمام أو حاجة[1]. وعلى أية حال، مع التنوع الواسع في السلوك تطرح أنماط معينة من الأسئلة: فيما إذا تكون كل القيم متساوية في الثمن ـ وهذا سيعني نوع من الذاتانية ـ أو فيما إذا كان بالإمكان عرض نوع معين من المعايير النقدية من خلالها نحكم عليها. على الرغم من أن القيم لها صلة بالذي يقوم بالتقدير، ثمة درجات من الموضوعية فيما يتعلق بقيمتها الأخلاقية[2].

إنني أسلم أنه أن تقول شيء ما له قيمة لا يحتاج إلى أن نتلطخ بالذاتية. في الوصف المبسط لسلوك الناس، نجد مدى واسعاً للنشاط المفضل: الناس يقيمون كل شيء من شكولاتة الآيس كريم إلى هوكي الجليد، من المتعة الجنسية إلى المونا ليزا، من الكريكيت إلى التعاطف الأخلاقي. يكمن السؤال فيما إذا يمكن للمستويات المعيارية أن تستخدم لتقدير التنوع في التفضيلات والرغبات على وفق ميزان مقارن للقيم. هنا يتدخل المقوم ليس فقط من أجل الفرد في حياته الشخصية، بل من أجل المجتمع، حيث تكون القيم إما في صراع أو في إنسجام.

المشكلة الثانية الكبيرة لما بعد الأخلاقيات هو التأكد فيما إذا كانت هناك معايير لحكم نظم القيمة المتنافسة. هل تكون نوعية معينة من المستويات المعيارية أكثر مناسبة من الأخرى؟ إن يكن الأمر كذلك، كيف نسعى إلى تشريع أو صيانة أحكامنا في القيم؟ عدد كبير من المعايير يقدمه الفلاسفة لمساعدتنا في عملية اتخاذ القرار.

---

(1)

(2)

بمعنى ما، يكون هذا البحث معرفياً، لأننا مهتمون بالمعرفة الأخلاقية ومسألة الحقيقة. هل ثمة شيء يمكننا أن ندعوه بالحقيقة الأخلاقية ـ بالقياس إلى الحقيقة التجريبية أو العلمية ـ وإن يكن الأمر كذلك، كيف نسعى إلى أن نؤسس لحقيقة الزعم الأخلاقي؟ يبدو إن تأسيس الحقائق الأخلاقية أكثر صعوبة من الحقائق الفعلية العادية. يمكننا أن نبرهن لشخص ما أن طاولة ما مصنوعة من الخشب أو أنها صلبة، ولكن ليس بسهولة أن نقول أنها جميلة أو ذات قيمة. أعتقد أن هنالك معايير يمكننا أن نشير إليها وليست المسألة نزوة أو مسألة ذوق. إن حقائق القضية وثيقة الصلة بأحكامنا الأخلاقية، ولكنها غير كافية في نفسها، مادامت الاتجاهات المعيارية حاضرة. قد تحدد قيمة التفاح أو الكمثرى على أساس ميزات موضوعية، ولا يعتمد ذلك على ذوق الرائي وحده، رغم أن ذلك ليس مقوماً أساسيا. ثمة مميزات موضوعية للفاكهة، يمكننا على أساسها أن نضع حكمنا في التقدير. وكذلك الحال، قد نحكم في القيمة الأخلاقية لفعل ما جزئياً من خلال ربطه بحقائق الموقف. إن الشكوكية الكاملة والنهلستية (العدمية) لا يمكن الدفاع عنهما، لأننا نقوم بمطالب معيارية خلال الحياة. الشخص الذي يرفض فحص الحقائق الموضوعية التي يعمد إليها الادعاء المعياري يمكننا أن نقول عنه أنه معياري أعمى أو ضعيف.

لقد قدم الفلاسفة المعايير لوضع أحكام القيمة: لقد عرف أرسطو السعادة بأنها الخير المطلق، واستخدم بنثام وميل أعظم الخير بكونه أعظم أجزاء المعايير، واستخدم كانط القاعدة المعيارية. لا أظن أن الجهد في إيجاد مستوى واحد أو معيار على أنه حجر المحك للاختيار الأخلاقي قد نجح. كل هذه الجهود تبسيطية، لأنها تحاول أن ترجع الاختيار الأخلاقي إلى مبدأ أو قيمة مطلقة، بينما الاختيار الأخلاقي متعدد. أنه أعقد بكثير مما سمح به الفلاسفة الأخلاقيون، لأنه يتضمن اعتبارات متعددة التي نحتاج إلى صياغتها ضمن الموقف. لقد قام الفلاسفة الكبار بإسهامات في البحث الأخلاقي، لكن المبادئ التي قدموها عادة ما تعرض معياراً واحدا يمكن أن يوضع مع معايير

أخرى. إنني هنا أقترح نوعاً من الانتقائية الأخلاقية، يمكننا من خلالها أن ننتخب أفضل الرؤى من نظريات مختلفة.

لأغراض تحليلنا أرغب في التركيز على حقيقة أن ثمة في العادة عددا كبيراً من المبادئ التي من الممكن أن نلتزم بها. من المؤكد، أن في وضع أخلاقي، يكون تصادم قيمنا ومبادئنا هو الذي يقع تحت النظر، ونحتاج إلى أن نزنها ونقدرها كلها في حالة قيامنا باختياراتنا. إن المجتمعات تطور أي جزء من مبادئها الأخلاقية التي يلتزم بها الناس: إن من مهمتنا، في غالب الأحيان، أن نحكم فيما بينها.

ولكن ما الذي أعنيه بمصطلح «مبدأ»؟ أعرّف المبدأ الأخلاقي بكونه القاعدة التي نلجأ إليها لنرشد السلوك. إن المبدأ الأخلاقي مبدأ «عام» بمعنى أنه يشير إلى مدى كامل من الأفعال التي تنضم تحت عنوانه. لست راغباً في أن أقول أنه مطلق أو شامل، فبالنسبة لأي شخص قد يكون المبدأ متصادماً مع مبادئ أخرى، وقد تكون هناك استثناءات في بعض الأحيان. إن مصطلح «عام» مستوفي، لأن المبادئ يمكن أن تعمم بمعنى أنها تقدم لتنشر أنواع معينة من السلوك لها مميزات متشابهة. واستخدم و.د. روس مصطلح (البديهي) ليطبقه على الواجبات العامة التي نكون مجبرين عليها، على الأقل بالفرض، ما لم تدحضها اعتبارات أخرى. وسأوسع مصطلحه لأقول أن هنالك مجموعة من «مبادئ البديهيات العامة» التي نكون مجبرين عليها بمعنى أننا يتحتم علينا اتباعها. هذه المبادئ ليست حقيقية أو ملموسة من ناحية الوجوب. فيما إذا كان هناك وجوب أو لم يكن فذلك يقرر بعد تقدير متأمل للمبادئ والقيم المتنافسة ضمن سياق البحث.

هذه المبادئ معيارية بمعنى أنها تؤسس عادات ترشد سلوكنا. إنها توصيات للفعل ولها «وجوب» مرتبط بها. فضلاً عن ذلك فهي عاطفية وإدراكية في الوقت نفسه في القوة والعمل. أن نقول أن أحداً ما مرتبط بمجموعة من

المبادئ الأخلاقية فهذا معناه أن هذه المبادئ لها التأثير الذاتوي على دوافعه؛ لها قوة المزاج النفسي. أن تقول أن رجلاً أو امرأة لها مبادئ تستند إليها فهذا يشير إلى نوع من القناعات المتجذرة عميقا.

هذه المبادئ يمكن أيضاً أن تكون مدركة ـ أو على الأقل يمكن أن تعمل ـ لأنها يمكن أن تختبر جزئياً من خلال نتائجها وتحول أو تبدل نتيجة لعملية البحث. لذلك يمكن للعقل أن يكون تأسيسياً في حالة الموقف ومشتبك في العمق ومتأثرا بالمواقف النفسية. إن الفكر المتأني يدخل في العملية، نشرع بها ونصون مبادئنا الأخلاقية ونجعلها جزءاً من كينونتنا.

إنني أقر أن هنالك مصدرين رئيسيين للحياة الأخلاقية. أولاً ثمة مجموعة من المبادئ الأخلاقية، التي هي قواعد عامة تحكم سلوكنا ونحن نلتزم بها بديهيا. وثانياً، ثمة مدى واسع من القيم التي نلتزم بها أيضا. وكيفية ارتباط مبادئنا وقيمنا ببعضها البعض هي المشكلة التي سوف أتناولها؛ سأقترح الآن فقط أننا نحتاج إلى أن نزن كلاً من مبادئنا وقيمنا في أي موقف باشرنا فيه عملنا في مجرى البحث الأخلاقي.

[3]

آداب السلوك العامة

المبادئ والسلوك والأخلاق

سأركز الآن على المبادئ الأخلاقية السلوكية Morals ومبادئ علم الأخلاق Ethicsوالدور الذي تلعبه مثل هذه المبادئ في حياة الفرد، خصوصاً فيما يتعلق بشؤون الرجل والمرأة مع الآخرين في المجتمع. على الرغم من أن المصطلحين يستخدمان غالباً بالتبادل، ثمة نوع من الاختلاف بينهما: مبادئ «علم الأخلاق» ربما يقال أنها تختلف عن مبادئ «السلوك الأخلاقي» مادامت الأولى قد حددت من قبل الإدراك النقدي والبحث الفكري. كل من الأخلاقية السلوكية وعلم الأخلاق هما، عموماً، متجذران في السلوك البشري.

هل ثمة أي نوع من المبادئ الأخلاقية التي تطبق على البشر، مهما كان المجتمع؟ هل لدينا شيء ملزم نتبعه؟ وبكلمات أخرى، هل يمكننا اكتشاف أية «مبادئ عامة لآداب السلوك» ظهرت في السلوك البشري؟

كما رأينا، أن مبادئنا الأخلاقية والسلوكية هي بديهيات عامة ترشدنا نحو السلوك. إن مصطلح «مبادئ» يأتي، من ناحية أصل الكلمات، من الكلمة اللاتينية "Principium"، التي تشير إلى البداية أو الأساس، أي المصدر أو الأصل أو الحقيقة الأولية. أن نشير إلى مبادئ شخص ما بمعنى السلوك الأخلاقي لديه وهذا يعني العادات الأساسية التي يعيش بها، تلك التي يبقيها في

ذهنه ويهتم بها بعمق في حياته. الشخص ذو المبادئ له مبادئ أخلاقية في السلوك، يرغب في الاعتماد عليها عندما يحتاج إليها، وربما، لو امتلك الشجاعة، يقاتل من أجلها. إنه مخلص لاعتقاداته الأخلاقية عن الكيفية التي حري بأن تعاش بها الحياة. إنه موثوق ويمكن الاعتماد عليه ـ ما لم يكن مبالغاً في رؤية نفسه بأنه أقوم خلقاً من الآخرين. قد لا يتفق الإنسان مع المبادئ التي يعيش بها، ولكنه على الأقل يمكنه أن يعول عليها كي يتصرف وفقها. الشخص الذي بلا مبادئ هو الشخص الذي بلا تردد؛ ليس له ما يرتاب منه حول الانتهاك لمعايير العدالة والاستقامة.

إن الأفراد الذين تناسب مبادئهم نوعاً واحداً من السلوك الأخلاقي ـ أي، القانون الأخلاقي المتأسس على الدين ـ يتخذون مبادئهم لتكون مطلقة وقواعد إلهية شاملة من واجبهم إتباعها. بالنسبة للباحثين الأخلاقيين، لن يتخذوا أي مبدأ ليكون غير قابل للتغيير؛ لا يؤخذ على أنه توجيه للجميع ليتبعوه بشكل متماثل. إن الفرد لديه واجب مشروط وليس واجباً مطلقا؛ إنه أقرب إلى أن يكون فرضية أكثر مما يكون أمراً إجبارياً، إنه مفتوح للتأويل النقدي والتقويم قبل أن يطبق في سياق ملموس. هذا لا يعني، على أية حال، أن المبدأ العام يمكن أن ينتهك بسهولة؛ فما أن يكتشف أو يتطور لا يمكن أن يؤخذ على وهن أو يترك. لو أنه متجذر عميقاً في السلوك، لا يمكن أن يهمل بشكل أعمى أو يرفض من دون نوع من التبرير. إن المبدأ العام حري به أن يتبع ما لم تكن هناك أسباب معقولة تنفي عدم الحاجة إليه.

نحن نعرف عدداً من آداب السلوك التي من الأحرى تطبيقها على سلوكنا، خصوصاً فيما يتعلق بالآخرين. إنني أشير إلى أشكال من السلوك التي هي على العموم ملائمة ومناسبة. وتتضمن مبادئنا السلوكية ماهية هذه الآداب. فمبدأياً، على سبيل المثال، علينا أن نكون عطوفين، ولكن في بعض الأحيان قد يستغل أحد ما الطيبة أو لا يستحق سماحتنا. مبدأياً، علينا أن نكون ممتنين لما قد يفعله

الآخرون من خير لنا، على الرغم من أن الإقرار بالعرفان لمساعدتهم أو مكافأتهم قد لا يكون كافياً أو يأتي متأخرا. أن تكون هناك مبادئ عامة للسلوك البشري هو شيء يدركه الكائن الأخلاقي المتطور؛ وكيفية أن تترابط هذه المبادئ الواحدة بالأخرى، خصوصاً عند التصادم، والذي حري به أن يتحقق، هو شيء آخر. فقد نعد بإخلاص بوعد وقد نمر بوقت عصيب أو ظروف متغيرة فيكون من الصعب الإيفاء به أو، إن كنا فعلنا ذلك، سنجعل من المستحيل بالنسبة لنا أن ندرك المبادئ والقيم الملزمة الأخرى.

من بين الأسباب التي نقدمها لنظهر لماذا يتوجب علينا أو لا يتوجب أن نقوم بشيء ما هي صلة المبدأ بالقضية. يؤكد المنفعيون حقيقة أن في اتخاذ القرار بشأن ما يتوجب عمله هو أن نحتكم إلى الفعل فيما إذا كان يكثر الخير ويسهم بالمتعة أو السعادة. وهذا اعتبار مهم نحتاج إلى أن نحسب له الحساب. على أية حال، ثمة خطورة أن بعض المنفعيين، خصوصاً في الأنظمة التي تتجه نحو الأوتوقراطية، ربما يرغبون في التسوية من خلال مبادئ أخلاقية أساسية ورصينة من أجل إنجاز ما نحسبه الأفضل، أو أهداف اجتماعية معينة يدركون أنها مرغوبة.

لكن المبادئ الأخلاقية لها استقلال ذاتي من داخلها، بمعنى أنها ببساطة ليست ملحقة، تلتجئ إلى الإرادة أو تستغني عنها. إنها قيمة غريزية ولا تعد ببساطة وسيلة لبحث أهداف معينة؛ إنها جزء من الأهداف. إن مبادئنا الأخلاقية قد تعمل بالتأكيد على أنها قيم قيمتها في نفسها. وعلى سبيل المثال نحن لا نستطيع أن نختار لنكون نزيهين أو غير نزيهين لمجرد أن نخدم أغراضنا أو حتى غرض أعظم؛ تقيم النزاهة في نفسها بكونها جزءاً من شخصية الإنسان وهي مبدأ عالي القيمة في ميزان قيم الإنسان. قد تتشابك المبادئ والقيم. ولكن رغم ذاك ليس من الضروري أن تكون المبادئ هي القيم نفسها، لأن القيم ليست عامة، ولا هي تضع قواعد بديهية للسلوك.

إن السؤال المركزي حول المبادئ الأخلاقية والسلوكية يتعلق بأساسها الوجودي (الأنطولوجي). إن لم تكن مستقاة من الرب ولا راسخة في نوع من الأرضية المتسامية، فهل هي سريعة الزوال حقا؟ إن تكن هي ببساطة نسبية لاهتمام الإنسان، فهل يمكن أن تنتهك وتفلت من العقوبة؟ ما الذي يحدث إذا اصطدمت ببعضها البعض أو حدث صراع بينها؟ كيف سنقرر أن أياً منها ستكون له الأفضلية في الأولوية والشرعية؟ هل سينهار السلوك الأخلاقي إن لم تكن هناك مبادئ أولية مطلقة ثابتة في رحم الواقع؟

لا أعتقد بذلك. إن المبادئ الأخلاقية والسلوكية التي نعيش بها والتي نلتزم بها هي «واقعية»؛ أي أننا يمكننا أن نكتب تقارير وصفية واقعية حول مركزيتها في السلوك البشري. وبهذا المعنى هي جزء من «الطبيعة» كباقي أنواع الطبائع. ثانياً، مثل هذه المبادئ هي نسبية للبشر، لاهتماماتهم وحاجاتهم وقيمهم. أن نقول أنها نسبية لا يعني أنها ذاتية تماما، أو أنها يمكن أن تطرد بالإرادة، أو نتخلى عنها من خلال النزوة. إنها تعني ببساطة أنها أفعال السلوك الإنساني، وأنها تظهر في التفاعل البشري. ليس ثمة من معنى أن نتحدث عنها بأسلوب تجريدي منفصل، بمعزل عن سياقاتها في السلوك البشري. من المؤكد أن الالتزام بالمبادئ الأخلاقية يصبح مهماً جداً في الحضارة الإنسانية حتى أنها بدأت تتخذ نوعاً خاصاً من الواقع الموضوعي وجزءاً متمماً للأجواء السوسيو والبايو ـ ثقافية. فلها أسس طبيعية وموضوعية.

النسبية الموضوعية

ربما يحدد المصطلح « النسبية الموضوعية» الحالة الأنطولوجية أفضل تحديد: أن المبادئ الأخلاقية والسلوكية لها نوع من الوظيفة الإجرائية، تنطبق على الرجال والنساء وهم يتفاعلون في بيئة طبيعية وثقافية اجتماعية. وهذا ينطبق بالتساوي على ما يسمى بالأنظمة العليائية للسلوك الأخلاقي؛ وعلى

الرغم من ذلك قد يختار المؤمنون أن يعزوها إلى نوع من النظام الإلهي المجرد، وهذه أيضاً نتاج الثقافة البشرية.

عندما أستعمل المصطلح «نسبي» فأعني بذلك ثلاثة معاني. أولاً أن المبادئ الأخلاقية والسلوكية لها مرجعيات اجتماعية وثقافية ونوع من الإطار المؤسسي. ثانياً، إنها تتبنى المعنى والقوة فقط لأنها تعتمد على طبائع متوارثة أو مغروسة لدى أشخاص معينين. وتبعاً لذلك، هي أيضاً نسبية لفرد موهوب. ثالثاً، أن مثل هذه المبادئ «اتصالية»، بمعنى أنها تأخذ معانيها ومضمونها فقط لأنها «متصلة» بالبشر.

إن مصطلح «النسبية» قد استعمل بوصفه مصطلحاً مخزياً من قبل نقاده، وأن الصفة «المجرد» قد طبقت على النسبية بسبب الخوف من أن الاهتمام بأسس قانوننا الأخلاقي نسبياً قد يقود إلى إضعافه على نحو مزر أو يوضع في خطر. علينا أن لا نخلط بين النسبية والذاتانية، فعلى أية حال، تشير النسبية إلى الحقيقة التجريبية التي مفادها أن المبادئ متجذرة في التجربة الإنسانية وليست منعزلة عنها، بينما لا يمكن للذاتانيين أن يجدوا الأساس في انتقاد ومديح المبادئ. ولكن علي أن أشير إلى أنني أعتقد أن ثمة معايير موضوعية في عمل ذلك ـ بعيداً عن مصطلح «الموضوعية». لذلك فإن النسبية الموضوعية مختلفة عن النسبية الذاتانية، وعلى الرغم من أن الأخيرة قد تقود إلى ترويج الشكوكية أو العدمية، فإن الأولى لا تفعل ذلك.

إن مصطلح «النسبية الثقافية» قد قدمه الأنثروبولوجيون لوصف المدى الواسع للمبادئ والتقاليد في الثقافة الإنسانية. وتنتج عن ذلك وجهة النظر بأن علينا أن لا نفرض معاييرنا الخاصة على الثقافات الأخرى ـ بالتأكيد حين ندرسها ـ وأن نوعية من المعايير يكون من الناحية الأخلاقية قابلاً للحياة مثلما النوعية الأخرى. وكما سنرى أن النظرية ما بعد المعيارية لا تتبع، وأنه على الرغم من أن بعض المبادئ على نحو ما نسبية بالنسبة للثقافة، فإن هذا لا يعني أننا نقاد

إلى النسبية الثقافية بمعنى أن الثقافات معفاة من التدقيق الأخلاقي النقدي، أو أننا جميعاً في النقطة نفسها من مستوى التطور الثقافي. مرة أخرى هنالك نوع من النسبية «الموضوعية» الثقافية المنعزلة عن النسبية «الذاتية» الثقافية.

ما هي بعض المزايا الموضوعية للنسبية؟

أولاً، أن الأوامر السلوكية الأخلاقية لها أساس «اجتما ـ بيولوجي»؛ فهي متجذرة في طبيعة الحيوان البشري وفي عمليات التقويم التي تتكيف وتعيش بها الأنواع. إن البشر حيوانات اجتماعية، ويطلب شبابنا فترة ممتدة للنشوء من أجل هذا السلوك. على سبيل المثال، أن الباعث الغريزي للأبوين في تغذية وحماية صغارهم المترسخ في كل الأنواع هو رعاية أمومية. والشيء الآخر هو العلاقة بين الجنسين التي تتضمن بعض الرعاية العاطفية لموضوع الإرتقاءات في العشق (المتعة في الدفء واللمس والملاطفة والعناق) فضلاً عن عدد من أفعال التودد النفسية. هذه التوجهات الغريزية لا ينفرد بها الإنسان.

لقد وجد أي. أو. ولسون أنماطاً بدائية مشابهة في أنواع اجتماعية أخرى: فالنمل يموت دفاعاً عن الملكة، وأن علاقتهم بالوجود المشترك قوية لدرجة أنهم لا يمكن أن يوجدوا منعزلين عن المستعمرة. وهذه بالطبع غريزة وليست من الأخلاق ذات الوعي الذاتي، ولكن أنماطاً مشابهة يمكن أن نجدها عند أنواع راقية المستوى، مثال ذلك علاقات الحب لدى الحيوانات الراقية كالإنسان والقرد وكذلك الذئاب والأسود وباقي الأنواع، إزاء صغارها وإزاء بعضهم البعض[1].

لذلك فإن جذور السلوك الأخلاقي والفهم لأوليات الآداب الأخلاقية اللازمة للتفاعل وجهاً لوجه موجودة في عمق الهيكل البيولوجي للنوع البشري. على

---

(1) E.O. Wilson, Sociology: The New Synthesis (Campridge: Harvard University Press, 1975).

الرغم من أن ثمة جدل حول نوع القواعد الأخلاقية المقبولة من مختلف المجموعات الإنسانية، فإن «البعض» من تلك القواعد تظهر ـ على سبيل المثال، في علاقات الوالدين مع أبنائهم، أو في علاقة الشريك الجنسي بالآخر. إذا عرفنا الحقيقة التي مفادها أن الأفراد لهم حاجات بايولوجية عامة ويواجهون مشاكل مشابهة في البقاء، فقد تطورت عادات على الرغم من الخلاف الثقافي الواسع. يحتاج البشر إلى أن يجتمعوا أو أن يصطادوا أو أن يزرعوا الطعام من اجل أن يبقوا ومن أجل أن يسكنوا ويلبسوا أنفسهم ضد عناصر الطبيعة ليحموا أنفسهم من الحيوانات المفترسة و من تسليب القبائل الأخرى، وكي يرتبطوا ببعضهم البعض جنسيا، من أجل التكاثر، وكي يتعاملوا من المسنين الذين لم يعودوا قادرين على العناية بأنفسهم، وكي يواجهوا المحن والموت برباطة جأش وثبات. وإذ قامت بعض الأخلاقيات العامة بالمهام العامة في الحياة فقد طالها التطور. وإذ تحددت طبيعة الإنسان بكونه حيوان اجتماعي، لذلك من الأساسي أن تؤسس الجماعات البشرية قواعد معينة تحكم الطريقة التي يعيش بها الأعضاء ويعملون معا ويحددون المقاييس للسلوك الاجتماعي المقبول، ولذلك يكون نوع من الإحساس الواضح بالأدوار والتوقعات مفهوماً.

من هنا فإن القوانين الأخلاقية لها وظيفة تكيفية؛ يمكن للمرء أن يفترض أن أولئك الجماعات الذين لهم نوع من التنظيم الفعال للسلوك كانوا قادرين أفضل على البقاء والتكاثر والتنافس مع الأنواع الأخرى أو الجماعات البشرية، ولذلك تنقل هذه السمة المفضلة وتلك الاستجابات السلوكية التي تعلموها إلى الآخرين. يمكن للفرد أن يتخيل سيناريو ممكن في الماضي المظلم لأسلافنا، عندما ظهرت الإلتماعات لما سأسميه الآداب الأخلاقية العامة: كن عطوفاً واحترم مشاعر الأفراد الآخرين من قبيلتك؛ كن نزيهاً وصادقا؛ لا تجرحهم ولا تشوههم أو تؤذهم من دونما سبب؛ كن مخلصاً وأحفظ وعودك، وإلخ. واختبار صحة هذه المبادئ هو نتائجها. تلك القبائل التي طورت مثل هذه

القواعد كان لديها القليل من النزاعات واستطاعت البقاء أكثر من تلك التي لم تفعل ذلك. إن التعاون مثمر جداً للجميع؛ وله المنفعة على المدى الطويل. وهذه ليست الميزة الشاملة التي تهيمن دائماً، ذلك لأن ميلنا نحو السلوك الأخلاقي لابد له أن يتنافس مع الاتجاهات الأخرى والإغواءات في قلب الإنسان. ومع ذاك، فإن أدنى العلاقات الأخلاقية تحتاج إلى التشغيل لو أريد بقاء المجموعة البشرية.

ويمكن أن نرى أشكالاً مشابهة من السلوك الأخلاقي في الأنواع الأخرى التي تتضمن التشابه القوي مع السلوك الإنساني. مثال ذلك، تدافع البطة الأم بشراسة لحماية صغارها من الأذى. فضلاً عن ذلك، بدأت الأنواع بتكوين نظام تسلط طبقي. فعلى سبيل المثال، يحكم جماعات الشمبانزي ذكر متسلط يدافع عن إناثه من تهديد الذكور الأخرى. وبالنتيجة فقد يطرد هو من قبل ذكر آخر، ويبعد عن جماعته، ويترك لمواجهة الموت. إن السلوك المتجذر اجتما ـ بايولوجياً وجينياً له ما يشابهه في التطور الأول للأنماط الأخلاقية لدى الجماعات الثديية والعائلات الممتدة. لذلك ثمة نوع من النسبية البايولوجية بالنسبة للأخلاق مشروطة بمحددات التكيف والبقاء.

ثانياً، هو بالطبع ظهور القواعد الاجتما ـ ثقافية المعقدة التي تذهب أبعد من الأوامر البايولوجية الأساسية. في الأنواع البشرية، يكون من الصعب أحياناً تمييز المدى الكامل للوظائف الاجتماعية عن الوظائف الاجتما ـ بايولوجية البسيطة، ولكن في نقطة معينة تنشأ الأنظمة الاجتما ـ ثقافية المعقدة. مع تطور اللغة خصوصاً في استعمال الرموز والاستعارات، توسع العقل الإنساني وتعلم أن التجربة من الممكن أن تحفظ وتنقل إلى أجيال المستقبل. وطبق هذا خصوصاً على تطور مجموعات من القواعد الأخلاقية. وبمرور الوقت أضحى من الصعب تفريق الأخلاق عن التعقيد. تطورت المستويات العليا من القواعد الأخلاقية، وصارت تفرض، أكثر من قبل، على حاجاتنا الرئيسية البايولوجية،

أو قواعد الوظيفة المباشرة للبقاء. إن السلوك الأخلاقي يكسب بعداً جديداً عند مستوى الثقافة، لأنها ستكون مدروسة، تتوسع عبر التدقيق والتمييز. تصبح مزروعة في السلوك البشري. على الرغم من أن هنالك حاجة ضمن القبيلة إلى فرض قواعد أخلاقية معينة إن أريد للقبيلة كلها أن تبقى، فإن هذا لا ينطبق دائماً على القبائل الأخرى في تداخلاتها واحترباتها الكثيرة.

وعند ذاك كانت مرحلة جديدة من السلوك الأخلاقي قد تطورت: علينا أن نعامل الغريب في بلادنا كأخ لنا؛ علينا أن لا نسئ معاملة الغريب في أوساطنا. ويمكن للمرء أن يرى هذا التأكيد النبيل للمبدأ الأخلاقي الجديد في العهد القديم، الذي أوجده وسنه الأنبياء العبرانيون. إن الإلتماعات الأولى عن شمولية الأخلاق بدأت تظهر.

يشير هذا إلى حقيقة مفادها أن المبادئ الأخلاقية نسبية لمستوى الحضارة التي تطورت. إن بروز مرحلة عليا في الوعي الأخلاقي قد فرض من دون شك على أسلافنا من خلال الوقائع التي تشير إلى أن مع اختلاط أناس القبائل، كان ثمة أشكال مختلفة من التفاعل من ضمنها التجارة وتبادل السلع. وحين تهدد ذلك الحرب والصراعات، ثمة الحاجة الواعية لخلق شروط للسلام والوئام، وإلا فليس هناك من حياة آمنة.

لذلك صار لابد من الارتقاء بالأخلاقيات القبلية الضيقة. وأحد المآسي الكبيرة عند الإنسان أن هذه الحقيقة الأخلاقية لم تدرك تماماً لحد الآن؛ ذلك لأن البلدان والأديان والجماعات الأثنية مازالت متحاربة مع أحدها الآخر وراغبة في استعمال وسائل خسيسة لكسب الأفضلية. على أن المعرفة الأخلاقية تشير إلى الحاجة إلى الشمولية في السلوك، وهي تخاطب جميع الرجال والنساء مهما كانت مرجعياتهم الاجتماعية والثقافية.

ثالثاً، المبادئ الأخلاقية التي ظهرت لها مصادر «تاريخية»: إنها نتاج الحضارة، وامتدت في البلدان في آخر الأمر ولتصبح تراثاً عاماً لأنحاء كبيرة من

العالم. والتوضيح الأفضل لهذا في الثورة ضد العبودية. لقد برز المبدأ الأخلاقي: لا تستعبد بشراً آخر، حتى وإن كان من سلالة أخرى، أو جاء من طبقة ذات فقر مدقع، أو كان عضواً في جماعة أثنية لا تقوى على مقاومة العبودية أو الأسر. الحقيقة أن هناك القليل من الإدانة للعبودية أو لا توجد بالأحرى مثل هذه الإدانة في الإنجيل أو القرآن، وقد كانت مقبولة وقد مورست على نحو واسع في القرن التاسع عشر في البلدان المسيحية والعربية وهو يشير بوضوح إلى أن: الكثير من المبادئ الأخلاقية لم تتطور في التاريخ البشري إلا مؤخرا. وينطبق هذا أيضاً على ما يخص الإدراك بان النساء مساويات للرجال ويستحقن المساواة في المعاملة، على الرغم من أن هذا غير مقبول بشكل مطلق أو حتى يطبق في حين تتم الثرثرة فيه كثيرا.

إن المبادئ الأخلاقية تظهر في مراحل معينة من التطور التاريخي. إنها نسبية بالنسبة للثقافة والحضارة التي تظهر فيها أولاً وتمنح فرصة للاستماع. لا يمكن أن تنتهك بالفرار من العقوبة من قبل قبيلة أو بلد أو جنس بشري، من دونما إدانة من القسم الكبير من البشر. واليوم ثمة لها مطالبة جادة من الضمير الإنساني. أن نتنكر لها على أساس المثل العليا أو على أساس إلهي لا يعني أنها غير متجذرة في التاريخ البشري.

إن فهم مبدأ سلوكي أو أخلاقي قد يتطلب نضالاً طويلاً وشاقا. من المؤكد أن بعض المبادئ قدر لها أن تكون حاسمة في مراحل معينة من التاريخ البشري والمعارضة لها تكون شديدة حتى أنها لا تستقر إلا بعد معارك دموية طويلة. هذا يعني أن الآداب الأخلاقية التي أدركنا أنها ضرورية، في أدنى مستوى لها على الأقل، تعلن وتمتد إلى كل البشر، وأن قاعدة حقوق الإنسان تطور من أجل الإنسان عموما. إن القوانين الأخلاقية لمختلف الثقافات ليست متكافئة، ويمكننا مع بعض التبرير أن نؤكد أن البعض قد توصل إلى مستوى أعلى من الآخرين في الوعي الأخلاقي.

أحد الحقائق الأشد اضطراباً حول البشر هي تحيز الأفراد إلى نوعهم. ربما يكون هناك تفضيل طبيعي وحتى ضروري ينشره الأعضاء بين جماعتهم. فالوالدان لديهما واجب متفرد في حماية وتغذية صغارهما، وهذا واجب أقوى من الواجب تجاه صغار الآخرين؛ وثمة مقابل ذلك واجبات يشعر بها الأبناء. هذه العلاقة القريبة هي مما لاشك فيه مفيدة وضرورية لبقاء ونمو الأنواع. والتفضيلية نفسها يمكن أن ترى عموماً إزاء امتداد العائلة: الأخوات والإخوان والأجداد والأحفاد وأبناء العمومة وأبناء الإخوان والعمات والخالات والأعمام والأخوال. مرة أخرى، أن مما لا يدعو للشك أن لهذا نوعاً من وظيفة بايو ـ اجتماعية، خصوصاً حيث يعقد أفراد جماعات من الأقارب معاهدة تستند إلى مشتركات من الاهتمامات والحاجات، ويكونون ملتزمين بمركزية عامة.

ما هو غير مستقر إمتداد هذه المعاهدة في الوفاء إلى المجتمع الأكبر ـ كالقبيلة، أو البلد، أو السلالة التي هو جزء منها ـ على حساب الجماعات الأخرى. ويشير هذا إلى تقدم أخلاقي، لأنه على الأقل يأخذنا إلى ما هو أبعد من حاضرنا والمواجهات المباشرة والمرفقات المحدودة ويوصلنا إلى مجتمع أكبر. على الرغم من ذاك، فإن الكراهية الشديدة تجاه أولئك الذين من خارج جماعة الفرد يمكن أن تسبب الكثير من البؤس لحياة الإنسان، ويمكن لذلك أن يثير العنف.

لقد وجد كونراد لورنز أن أفراد من مستعمرة للفئران قادرون على أن يعرفوا من خلال الرائحة المعروفة لمسكنهم أولئك الفئران الذين لهم قرابة دم معهم فيتصرفون معهم بطمأنينة، بينما يتصرفون بعدائية قاتلة مع الفئران الذي قد يأتون إلى مستعمرتهم من مستعمرة أخرى وقد ضلوا الطريق[1]. قد يأمل المرء أن لا تكون هناك مشابهة حادة بين سلوك البشر والفئران في هذه الحالة، ولكن التجربة العملية تشير إلى الودية تجاه أفراد القبيلة الواحدة والعدوانية تجاه

(1) Konrad Lorenz, On Aggression (New York: Harcourt, Brace&World, 1966).

الأغراب. وليس هذا متجذر ببساطة في قرابة العصب، على الرغم من أنه من الواضح أن الكثير من الأمم التي تتقاسم تراثاً مشتركاً قد يضمون جماعات متعددة، وأنهم قد يحافظوا على ولاء للجماعة الأصلية ضمن هذه التعددية ويضمرون الحقد للجماعات الأخرى بالقوة نفسها. والدليل على ذلك المجازر الدموية في أوربا بين فرنسا وألمانيا في ثلاث حروب وفي الحرب الدموية بين أمتين إسلاميتين هما إيران والعراق.

ولحسن الحظ ثمة أشكال من المنافسة أقل خطورة، مثال ذلك المنافسة بين الفرق الرياضية. قد يقع صدام بين فريقين لكرة القدم من مدينتين مختلفتين أو دولتين من أجل الفوز أو المجد، وعند رؤيتهم يستثار مناصروهم بمستويات شديدة تكون لا عقلانية في الغالب، ولكن لا تحدث الحرب.

إن التصادم بين الجماعات وظهور الطلبات الأخلاقية متجاوزة الكيانات الضيقة هو عملية تستمر ببطء. ويبقى هناك طريق طويل لابد من قطعه قبل أن يتأسس مجتمع أخلاقي حقيقي لكل البشر. هل السلوك البشري عدواني وهدام بطبيعته وأن الانحياز للتجزيئية، لنوع خاص منها، مسألة عميقة ولا يمكن التغلب عليها؟ إن تاريخ الحضارة يشير بوضوح إلى التأثير المتعذر إزالته للأثنية في النشاط البشري، ولكنه أيضاً يبين أن من الممكن تجاوزه، إلى حد ما على الأقل. إن القواعد الصارمة التي تمنع التزاوج بين مختلف الأديان والأثنيات أو الأعراق قد تم تحطيمها في بعض المجتمعات، والتي مكنت من خلق ولاءات وانتماءات وطنية جديدة. وبهذا المعنى فقد مكن التفاعل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ـ وخصوصاً التنقل والسفر ـ من لقاء الناس الذين من أمم مختلفة. فضلاً عن ذلك فإن النقد الفكري الأخلاقي يلعب دوراً حاسماً، إذ هناك بروز الإدراك لحقوق الإنسان الشاملة (أو البديهيات العامة).

يرتبط هذا بمفتاح مبدأي أساسي: «كل شخص يستحق المساواة في التقدير كونه إنسان، ولهذا فله احترام مساوي وقيمة مساوية». هذا الطلب مستقل من

عضويته في مجموعته (أو مجموعتها) أو عرقه أو دينه أو طبقته أو بلده أو جنسه. من هنا ثمة مجموعة من حقوق الإنسان التي يمكننا أن نحدد أنها تدرك تحقق المبادئ الأساسية. إن المصطلح «حق» يعني أن الناس يستحقون التميز والاحترام ضمن الجماعة الإنسانية ويجب أن لا تنتهك حرياتهم أو يحرموا منها. وسأبين في الفصل السابع ما هي حقوق الإنسان الرئيسية؛ وهي لا تتضمن الحقوق الأخلاقية فحسب بل تتضمن كذلك الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

تبرير المبادئ الأخلاقية

السؤال الذي من الممكن طرحه الآن هو: لو سلمنا بأن المبادئ السلوكية الأخلاقية، بضمنها الآداب العامة وقاعدة حقوق الإنسان، قد تم إطلاقها وارتبطت بنظامنا البايولوجي الإنساني وبتاريخنا الثقافي، كيف سنقرر أياً منها سيقبل وما هو المعيار الذي سيمكننا من إجازتها؟ هذا سؤال معرفي صعب، ناقشه الفلاسفة. دعوني أقترح ما هو خارج القضية:

1. *أن المبادئ الأخلاقية لا يمكن أن تستمد من مفهوم الرب:* أولاً، لأن وجود الرب خاضع للنقاش. ثانياً، ليس كل الرجال والنساء من مختلف الثقافات يشتركون في الاعتقادات الدينية نفسها. ثالثاً أن الإقرار بأبوة الرب ليست ضمانة على ظهور قواعد موحدة للسلوك الأخلاقي. لقد «استنبط» اللاهوتيون قواعدهم السلوكية الأخلاقية على نحو مختلف عن تلك القواعد التي لدى المؤمنين الآخرين. ومثال ذلك لاحظ الاختلافات الحادة في الأفكار التي عند اليهود والمسيحيين والمسلمين فيما يتعلق بالزواج والطلاق.

2. *أن المبادئ الأخلاقية ليست بديهية أو يقينية عن طريق الحدس:* الصعوبة

التي نجدها في موضوع الحدس أن ليس كل أحد يجد المبادئ الأخلاقية مسألة بديهية. وفي الغالب أن ما يؤخذ على أنه واضح بديهياً هو بكل بساطة قناع لإنشاء اتجاهات ثقافية وعادات وتقاليد ومعتقدات، أو إحساس عام غير نقدي. الميل إلى البديهي ليس من دون ثمرة، على أية حال، لأن المبادئ الأخلاقية تلعب دوراً فاعلاً في الثقافة الإنسانية وتعد مهمة جداً إلى درجة أن أولئك الذين يهزأون منها أو لا ينجحون في رؤية شخصيتهم الإلزامية يلامون مباشرة على أنهم سيئوا الخلق.

3. *إن المبادئ الأخلاقية ليست ببساطة اتجاهات ذاتية عاطفية أو حالات غير سهلة الانقياد لأي تبرير نقدي.* ثمة معايير موضوعية مهمة نستخدمها لتقويم المبادئ الأخلاقية.

كيف إذن يمضي الفرد في مدح أو تبرير مبدأ ما؟ حتى في السؤال عن تبرير هو المباشرة في مسيرة من البحث الأخلاقي وافتراض مسبق لدرجة معينة من الموضوعية. في هذه العملية المدروسة، يفترض الفهم دوراً مهماً، لإكمال الإيمان المجرد أو السلطة؛ وهذا يعني أن العقل، في معنى ما، يصبح تأسيسياً في أي حكم يبرز عن البحث. وفي ما يتعلق باختبار القواعد والمبادئ بوساطة الاعتبارات العقلانية والشاهد المتعلق بها، فهي تتحول من الافتراضات والمبادئ السلوكية غير المختبرة إلى مبادئ أخلاقية نقدية. إن المبادئ السلوكية الأخلاقية التي تحكم سلوكنا متجذرة في العادة والتقاليد والشعور والسائد. تبرز المبادئ الأخلاقية في التربة الغنية نفسها للتجربة البشرية، ولكنها الآن تسقى بشكل واع وتشذب بالفكر النقدي.

في هذه العملية، لا يبدأ المرء منذ البداية، ولكن في حركة عين سريعة، في وسط الحياة وفي سياق لمجاميع من القواعد والعادات المتأسسة والسابقة يترجم الفكر القواعد العشوائية في أحكام معلومة مصممة على وفق ضوء العقل. هذه

النقطة حيوية. إن الثورية الراديكالية، خصوصاً في المجتمعات الفاسدة، ترغب في تدمير كل البنى الاجتماعية الموجودة من قبل، التي يعتبرها إفساد أخلاقي؛ إنه يرغب في مسح الأحداث ويبدأ من جديد. يمكن للمرء أن يقدر كراهية الفساد والاضطهاد والأنظمة البائدة المنافقة؛ وفي أوقات، قد تكون هناك حاجة إلى أفعال عنف للمحافظة على العدالة الاجتماعية. ومع ذاك فإن هذا لا يعني أن كل القواعد والمبادئ والقيم يمكن أن ترمى؛ ربما البعض منها، ولكن لابد من الإبقاء على الأخرى بكونها تعبيرات عن الحكمة الأخلاقية الجماعية للعرق.

وعليه، فإن فكرتي الأولى أن الجنس البشري، بضمن ذلك المجتمعات المحددة التي ضمنه، لديه من قبل عدداً من المبادئ المفهومة والمقبولة على أنها ملزمة. هذا ما يشير إلى الأسبقية، إلى القانون العام، وإلى الصيغ المقبولة للسلوك المستحسن من جماعة اجتماعية وربما تسن بقانون. إن التجارب الأخلاقية، والقيم، والمبادئ المقبولة من قبل من البشر في سياق تاريخي توفر نقطة بداية للأخلاقية.

إن يبدأ العقل هنا، فهذا لا يعني، على أية حال، أنه يجب أن يبقى هنا، لأن ما يمنح مؤسس على مشاكل الماضي وعلى حلول الأجيال السابقة. إن السلوك الأخلاقي في الماضي عمل بالاتساق مع وجهة النظر الفلسفية والعلمية التي كانت سائدة حينذاك؛ وبقدر ما يمكن أن تكون المعرفة العلمية والعملية خاطئة أو محدودة، فهي لذلك تصحح من ذلك الحين أو يضاف إليها، كذلك المفاهيم الأخلاقية للماضي قد تتطلب التعديل. وكذا الحال، فإن الكثير من المبادئ السلوكية الأخلاقية قد قدمت أو طورت ببطء لمساعدة الناس في التعامل مع مشاكلهم، ولكنها ربما لم تعد مؤثرة اليوم، وبالتأكيد شاذة عمليا. فضلاً عن ذلك، قد تظهر مشاكل جديدة لا يكون الدين القديم أو السلوك الأخلاقي القديم قادراً على التعامل معها. قد لا تتطابق الحقائق القديمة مع الوقائع الراهنة. ثمة تخلف متجمد يثار على الاستمرارية في مجال السلوك

الأخلاقي: فتتحصن العادات بعمق يمسي من الصعب تغييرها. البعض من مبادئ النظام السلوكي الأخلاقي، مهما كانت قديمة، هي مما لا شك فيه أفضل من عدم وجودها، وهي في كل الأحوال، ضرورية للترابط اجتماعي. مع ذاك، هنالك الكثير من العادات، مهما كانت موقرة، متعظمة إلى مجرد أهواء وقد تحتاج إلى المراجعة أو التخلي عنها إن لم يفسد المجتمع بالاضطهاد.

كيف سنتغير وما هي الأسباب؟ أولاً، أنا أسلم، بالانحياز ل «الدليل الحقيقي». ولأوضح: أن الكثير من الناس يؤمنون بعقوبة الإعدام بكونها المبدأ الأخلاقي العام الذي يطبق في التعامل مع القتلة. وقد يدعمون اعتقاداتهم بالإشارة إلى القول المأثور في الكلام القديم المقدس، «العين بالعين والسن بالسن»، الذين ينطقونه على أنه مبدأ يؤمنون به بعمق. إن الاعتقاد بأن القتلة لابد أن يعدموا من قبل الدولة، قد يكون مرتبطاً أيضاً وعلى أية حال جزئياً بالقناعة أن الإعدام وحده يمكن أن يمنع القاتل، وأن المجتمع إذا تخلى عن هذا الأسلوب من العقوبة فسيكون في خطر.

السؤال الحقيقي يمكن أن يحل فقط، إن قدر له أن يحل، من خلال الدراسات الاجتماعية والنفسية التي تسير وفق العلم. هل أن المجتمعات التي تفرض عقوبة الموت لديها نسبة أقل من جرائم القتل من تلك التي لا تفرضها؟ هذا سؤال تجربة. يمكن للمرء أن يتأمل في الجواب، ولكن البحث العلمي التفصيلي وحده يمكن أن يحل السؤال. والنقطة الأساسية الأخرى هي هذه: هل أن الشخص الذي آمن بعقوبة الموت لأنه أعتقد أنها تمنع الجريمة سيكون راغباً في التخلي عن اعتقاده لو تبين له بالتأكيد أنها لن تمنع الجريمة؟ وبالعكس، هل يمكن لأولئك الذين يعارضون عقوبة الإعدام بكونها أسلوباً همجياً ولا جدوى منه في التعامل مع القتلة سيقتنعون بتغيير أفكارهم لو تبين لهم أن عقوبة الإعدام تمنع الجريمة فعلا؟

لن أورد الدليل على المؤيد أو المعارض. إنني أشير فقط إلى دلالة المعلومات الواقعية في تحول الاتجاهات السلوكية الأخلاقية. «لا» ارغب في المناقشة بشأن أن المرء يمكنه أن يستنتج المبادئ الأخلاقية من الوقائع ـ فذلك سيكون نوعاً من المغالطة الطبيعية ـ ولكن سأناقش أن معرفتنا بالوقائع مرتبطة بأحكامنا. لا يمكن للمرء أن يستمد ما «يجب» أن تكون عليه القضية عبر معرفة «ماهية» القضية. ومع ذاك، فإن معرفة كل الوقائع للموقف تساعدنا بالتأكيد على اتخاذ قرارات أكثر حكمة.

التوضيح الآخر للفكرة يتعلق بالسؤال فينا إذا يتوجب على المثليين نيل الحقوق نفسها التي ينالها غيرهم من المغايرين، وفيما إذا، على سبيل المثال، يتوجب على اللواط أن يستمر بالمنع قانوناً، كما هو الآن في الكثير من الولايات الأمريكية ولدى بعض الأمم. وهنا يطرح سؤال واقعي حاسم: هل أن المثلية مقرورة جينياً؟ هل أن أولئك الذين يعبرون عن تفضيلهم لأفراد من مثلهم مطبوعين بأسباب بايولوجية وبالنتيجة أن الميل الجنسي للشخص قد نشأ معه منذ الولادة؟ ثمة دليل آخر أن المثلية الجنسية موجودة عند أنواع أخرى من الكائنات، وهو ما يدل على الأساس الجيني. وقد افترض ي. و. ولسن حتى وظيفة تكيفية محتملة اجتما ـ بايولوجية على ظهور أنواع من المثليين الجنسيين في باقي الأنواع. مهما كانت حقيقة أو زيف هذا الادعاء، فإن يكن الناس قد ولدوا بهذا الميل الجنسي أو تناما عندهم مبكراً حتى صار من الصعب عليهم السيطرة عليه أو لا سيطرة لهم عليه، فهل من حق المجتمع أن يدين أو يمنع هذا السلوك؟

تعد الكنيسة الكاثوليكية أمر المثلية سلوكاً آثماً وتحث المثليين على العفة والتبتل. وكذا الحال، الجهد في التشريع ضد المثلية مبني على أساس المقدمة المنطقية أن أولئك الأفراد قد اختاروا طوعاً أسلوبهم الحياتي ويجب أن لا يختاروا أن يكونوا مثليين. من المؤكد أن ليس هناك أي نوع من الاختيار في

الصورة: كل فرد لابد له أن يختار كيف يعبر عن رغبته الجنسية، مهما كانت توجهاته الجنسية؛ لابد له أن يقرر فيما إذا تكون له علاقة مثلية أو مغايرة. وكذلك، وضمن ظروف معينة، كما هو الحال في الجيش أو في السجن أو في الدير، فإن السلوك المثلي الجنسي قد يستفحل بين الأفراد الذين لا يستطيعون التعبير في حالات أخرى عن الميل الجنسي المثلي. ولكن مع ذاك فإن بعض المعرفة العلمية لأسباب المثلية الجنسية تظل ذات صلة. لأننا لو اكتشفنا أن مثل هؤلاء الأفراد غير قادرين على تغيير ميولهم الجنسية، سيكون من التعسف على حقوقهم بكونهم من البشر أن يمنعوا عما هو بالنسبة لهم جزء من ذواتهم «الطبيعية».

وهذا ليس معناه أن المجتمع لا ينظم السلوك الجنسي المثلي غير الشرعي على نحو صريح، خصوصاً عندما تكون صحة المجتمع في حالة حرجة، وكذلك لا يعني عدم حماية الصغار من السلوك الفردي. مثال ذلك، أن الخطورة الشديدة لأمراض معينة، كالأيدز، بين المثليين جنسياً تطرح أسئلة عن السيطرة الاجتماعية: فهل يجب غلق الحمامات الجماعية، هل يجب أن تنضم الدعارة الرجالية أو تمنع، أو تفرض الاختبارات الإلزامية والعلاج كطريقة للسيطرة على المرض؟ إن لم يستطع الكثير أو أغلب المثليين جنسياً على تغيير ميولهم الجنسية، فهل يتحتم عليهم أن ينالوا الحقوق نفسها لمغايري الجنس ليلبوا حاجاتهم الجنسية؟ مثل هذه الأشياء المعقدة لابد أن تخضع للبحث الحقيقي والتحليل، على أن لا تخضع القرارات بكل بساطة فيما إذا يجد مغايري الجنس سلوك مثليي الجنس مقيتا.

الاختبار الثاني للمبدأ الأخلاقي هو «المقارنة»: إنه يضع وصفة عامة لمعالجة الناس أو للسلوك وفقاً لهم. ولكن المبادئ قد تخضع للتحول إن اكتشفت مبادئ أفضل. لا ريب أن بعض الناس يعتقدون أن ثمة، فكرياً على الأقل، حزمة من المبادئ الأخلاقية ـ على سبيل المثال تلك التي تتعلق بالمساواة والعدالة ـ التي يمكننا اكتشافها في مرحلة ما، وستعكس هذه المبادئ مبادئ

لكل البشر. كانت هذه هي قضية أفلاطون في «الجمهورية» بينما يبحث عن تعريف فكري طوباوي لـ «الخير». وأعتقد أننا هنا نحتاج إلى أن نكون حذرين جدا، إذ هناك خطر كبير جداً من هيمنة محتملة لأنموذج متسلط ثابت. كما قلت أن الأخلاقية ومبادئ الأخلاقية ينبغي أن تكون مفتوحة على التغيرات مع مواجهة المجتمعات لمشاكل جديدة مختلفة عن تلك التي في الماضي. ومن هنا تأتي الحاجة إلى مقتربات إعادة النظر والتجريب لأغلب الإشكاليات الأخلاقية. وعموما، من الواضح في الوقت نفسه أن الكثير من المبادئ الأخلاقية والسلوكية التي أطلقت، مادامت تتعلق بالمشاكل والحاجات الإنسانية العامة، سوف تبقى تمثل التراث الجماعي والحكمة الأخلاقية للجنس البشري ولا يمكن العبث بها أو تهجر على طريقة الفرسان.

ثالثاً، أنجع اختبار للمبدأ الأخلاقي لم يحدد بعد، ومن هنا تأتي الحاجة إلى اختبار «النتائج» لقواعد السلوك. بإمكاننا أن نحكم على المبادئ ليس ببساطة عبر ما تقرره أو تنطق به، ولا عبر إخلاصنا الورع تجاهها، ولكن عبر كيفية عملها في الواقع. ويمكننا الاستعانة هنا بالقول المأثور في الكتاب المقدس: من خلال ثمارها قد نعرفها أفضل ونحكم عليها.

هذا الاحتكام إلى النتائج هو اختبار براغماتي (منفعي). فقد يبدو المبدأ جميلاً على الورق، ولكن قد ينتهي إلى كارثة حين تتم ممارسته. ولتوضيح ذلك، فكرة المشاركة الديمقراطية التي يلتزم بها الكثير من الناس في العالم الحديث. يضع المبدأ الأخلاقي أن كل الأفراد في منظمة لابد أن يكونوا متساوين في الأصوات عند تقرير سياسات تلك المنظمة والأسلوب الذي تتم إدارتهم فيه. هل يعني ذلك أن كل واحد له صوت مساو لغيره؟ يبدو ذلك أمر عادل على المستوى السياسي، خصوصاً عند الحماية من الحكومات المستبدة؛ ذلك لأن الحق في المعارضة والحق المشروع في المعارضة معيقان قويان ضد الأنظمة الاستبدادية.

ولكن فيما إذا كان مبدأ المشاركة يمكن أن يمتد من دون أهلية وبالطريقة نفسها إلى كل المؤسسات الاجتماعية مسألة قابلة للنقاش إلى حد بعيد. فمثلاً، حركة ديمقراطية المشاركة غير المحدودة في الجامعات والكليات يمكن أن يجلب فوضى ومستويات أدنى من التميز. من المفترض مشاركة الطلبة في مناقشات السياسات والمناهج. يجب أن لا يعاملوا بكونهم مجرد مستهلكين سلبيين من دونما قابلية لتقويم سديد مضمون التعليم الذي يقدم. الطلبة المتفوقون، على الأخص، سيحتاجون بالطبع إلى هدايا ونوعية خاصة من التعليمات.

ومع ذاك، تطبيق المشاركة الديمقراطية، من دون معرفة الكفاءة الواضحة في الملكات في تقويم المضمون التعليمي للبرامج يمكن أن يقود إلى سلوك متهور، كما كانت الحالة في الستينيات في الكثير من الجامعات.

ومن خلال الإشارة إلى اختبار النتائج، فلا أعني ببساطة مبدأ منفعة أعلى سعادة. وإن أخذنا الأمر حرفياً، فإن هذا يمكن أن يؤدي إلى نتائج مؤسفة. فعلى سبيل المثال، هل يمكن للأكثرية، أن تنكر حقوق الأقليات المتمردة؟ كلا بالتأكيد، لأن هناك مبادئ معينة وحقوقاً يجب أن لا تهدر، مهما كانت مفيدة للأكثرية. قد يقول البعض أن السبب وراء عدم الرغبة في سلب الأقليات حقوقهم هو بسبب المدى الواسع للنتائج السلبية، وأن الاختبار الكامل يبقى هو مبدأ أعلى سعادة. ولهذه الحجة بعض المعقولية، ولكن قد يكون جواب المرء أن على الإنسان أن لا يسلب حقوق الآخرين بناءاً على أسس جوهرية وليس مجرد نفعية.

على أية حال، ستكون حجتي أن اختبار النتائج هو «جماعي» وليس منفرداً، لأننا نبقي «الكثير» من القيم والمبادئ التي نرغب في الاحتفاظ بها؛ ومن هنا فإن البحث في استنتاج مبدأ منفرد قد يعرض للخطر المجموعة الكاملة من قيمنا ومبادئنا. وفي حقيقة الأمر، فإن طيفاً واسعاً من القيم والمبادئ في سياق خاص

من البحث قد يكون في حالة خطر؛ قد نرغب في المحافظة عليها أو تعزيزها، ومن الضروري الفحص بعناية ما الذي سيفعله المبدأ الخاص لها.

هنا يكون الاختبار الاستنتاجي تجريبياً أيضاً، لأنه من المفترض أن تكون هناك إمكانية أن يلاحظ في العالم فعلا. وحقيقة، أننا يمكن أن نتأمل حول ما يمكن أن يحدث لو تم تبني مبدأ معين، ولكن ليس غير الاختبار الملموس للمبدأ يكون حاسما. ونحن أحياناً قد لا نستطيع أن نباشر في سياق الفعل التجريبي، إذ قد تتبعه خطورة كبيرة. فمثلاً، قد يتساءل قائد سياسي ذو نفوذ، في تقدير الاختيارات، ما الذي سيحدث فيما إذا حدث تبادل نووي بين القوى الكبرى؟ هل سينمحي الوجود البشري؟ مثل هذا الاختبار يكاد لا يكون عمليا.

ثمة معيار رابع لتثمين قيمة مبدأ ما، وهو يعود إلى «الاتساق». كان الاختبار الشهير لكانط عن مشروعية مبدأ أخلاقي تعتمد على شموليته؛ فيقول، قبل أن نقترف فعلاً ما علينا أن نتأكد فيما إذا تقترح الحكمة التصرف على وفقها وهو ما يمكن أن يكون القاعدة الشاملة لكل البشر. لقد عد هذا اختباراً منطقياً شكلياً صرفا. إن تتناقض القاعدة مع الإطار العام الكامل للأخلاقية، فلسنا مخولين أن نقوم باستثناء لأنفسنا. فمثلاً، لا يمكننا أن نكذب أو نخدع أو نقترف القتل، فلو أصبحت هذه قوانين شاملة سيكون السلوك الأخلاقي مستحيلا.

وقد أشار النقاد إلى صعوبتين في معيار كانط. الأول، أن هنالك صعوبة في التأكيد على أن أية أحكام هي مطلقة، فقد تكون الاستثناءات مبررة على أسس أخلاقية. هذه هي الحال على الأخص حيثما يكون هناك صراع في الواجبات. ومن هنا، وكما ناقشت ذلك من قبل، المفروض أن تفسر القواعد، على أنها واجبات بديهية عامة وليست أوامر مطلقة. فيما إذا نحن فعلاً لدينا واجب في أن نعمل شيئاً يعتمد على السياق. لذلك فإن الأمر المعياري لكانط شكلي جداً وفارغ فلا ينفع ليكون دليلاً وحيداً للسلوك. ثانياً، أن اختبار قاعدة ما ليس اتساقاً شكلياً مع نظام أخلاقي، كما ظن كانط، بل يعتمد على اختبار نتائج

الفعل. ذلك لأن النتائج ينظر إليها مخربة للأخلاقية بإحساس تجريبي أن عامل العقل يقرر للأسلاف. إن الأمر المعياري لكانط لا يخدمنا في صناعة ـ القرار الأخلاقي على أنه واحد من العوامل التي تؤخذ بالاعتبار، من بين عوامل أخرى، بل ليس كمعيار وحيد أو حاسم.

ورغم ذلك، ثمة اختبار منطقي مهم، وهو اختبار الاتساق «الداخلي» لمبادئنا. ليس ثمة مبدأ أخلاقي منفرد لابد أن يحاكم بانفصال مجرد، من دون اعتبار أثره المنطقي على المبادئ الأخرى التي نلتزم بها. لذلك علينا أن نتساءل فيما إذا يكون المبدأ الجديد يتناقض مع المبادئ الأخرى. وإن يكن الأمر كذلك، ربما نجد أنفسنا منافقين أو نكيل بمكيالين. وعلى سبيل المثال، لو ثبتنا أن البشر مؤهلين لاعتبارات متساوية ولكننا أبعدنا النساء عن هذا المبدأ، فإننا نحدد تعريفنا بالبشر بالرجال فقط، ومن الواضح عندها أننا نسقط نصف البشر. ومن هنا فإننا إما نتخلى عن مبدأنا العام أو نعيد تفسيره كي نشمل بذلك النساء. إن الميل نحو الاتساق هو أسلوب أساسي للتقويم، وإعادة النظر وتعميم المبادئ. وهذا ما يستعمل من قبل القضاة في المحاكم، خصوصاً في المجتمعات الديمقراطية، وقد استعمل تاريخياً في معركة معرفة الحريات والحقوق الجديدة. لذلك فإن الاتساق معيار أساسي فضلاً عن الميل نحو الوقائع والنتائج التي تنتج عنها في تثمين المبادئ.

ولابد من الانتباه إلى تحذير عند هذه النقطة: إنها الحاجة إلى الحماية من استبداد المبادئ. إن المبدأ الأخلاقي، عند الإعلان عنه وعند التأكيد عليه، ربما يعد حيوياً جداً للعدالة الإنسانية التي يعتقد أن لا استثناء يمكن أن يطال تطبيقه. وعلى أية حال فإن قاعدة الاتساق في بعض الحالات يمكن أن تكون مضطهِده، لأنه حين يطبق المبدأ على الحياة الفعلية ربما يكون مدمراً لثوابت القيم والمبادئ الأخرى التي نلتزم بها، ربما يسود نوع من الحماس الذاتي ويسود التعصب الأخلاقي.

يمكن للمرء أن يفكر بمبادئ صارمة حتى أمست شعارات لثورة راديكالية أو اضطهاد رجعي. إن الشعار، «كل القوة للشعب» قد يبدو جيداً من الناحية النظرية كونه قاعدة عامة، ولكن حين يوضع في الممارسة من قبل الغوغاء غير المنظمين أو المحكمة الثورية فقد يقود إلى الدولة الاستبدادية.

ويتم الإعلان أن «كل عمليات الإجهاض خاطئة» بكونه مبدأ شامل تلتزم به جماعات الحق في الحياة التي تبحث في الحفاظ على ما يرون بأنه مقدس في الحياة. إنهم يرغبون في الدفاع عن «حياة الجنين البريء»، ولكنهم يرغبون، بشهامة، في تقويض حقوق النساء في حريتهن في التناسل. في بعض المواقف، فإن الإكراه بالحمل قد يؤذي المرأة (كما هي الحالة في الاغتصاب وسفاح القربى)، أو إنجاب أطفال مشوهين؛ لا يقترح أصحاب الحق في الحياة شراء الحبوب الطبية في مثل هذه المواقف أو رفع المواليد أنفسهم. ومع ذاك يصر المدافعون عن الحياة على الإخلاص المطلق لمبدأهم. يشير منافسوهم، باستعمالهم لمعيار الاتساق، أن الكثير من أولئك الذين ضد قتل الأجنة يدافعون عن أشكال أخرى من القتل كالإعدام أو قتل المدنيين الأبرياء في أوقات الحرب.

وتوضيح آخر عن اللجوء إلى الاتساق هو محاولة تطبيق المبدأ الليبرالي مع الشمولية اللاعنصرية من دون النظر إلى عواقبه. أن «الأفراد عليهم السيطرة على حياتهم الخاصة» يبدو قاعدة مقنعة للتحكم بسلوكنا، ذلك الذي علينا أن نحترمه. على أن ذلك لو اتخذ بكونه شيئاً مطلقاً ومن دون استثناء، ربما يؤذي في بعض الحالات كلاً من الفرد والمجتمع. أتذكر مناقشة لليبرالي معروف أصر على أن كل المدمنين على المخدرات، بضمن ذلك الهيروين والكوكائين، لابد لهم أن يخضعوا للتشريع؛ كي يتسق ذلك مع أولوية الحرية الفردية، وعلى الدولة أن لا تبحث في تنظيم السلوك الشخصي بأي حال من الأحوال.

وتساءلت؛ «ماذا إذا كان تشريع مثل الإدمان على المخدرات يؤذي مباشرة أقلية لا نفع منها من الشباب الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة»؟

وكان جوابه، «أظن أنه سيتحتم عليهم تعلم الدرس. ربما سيتحتم على جيل كامل من الشباب أن يضيعوا». كان يعتقد أن هذه السياسة متسقة مع فلسفته الليبرالية، ولكن يبدو لي أنه في عدم السماح بأي استثناء، أصبح ضحية لمبدأه، فهو غير راغب في تقويمه في ضوء المبادئ والقيم الأخرى وهو أثير لديه ويفشل في محاكمته اعتماداً على نتائجه الفعلية.

باختصار حتى لو تخلينا عن الأخلاقية المتسامية، وحتى إن تكن الأخلاق الجديدة نسبية في اهتمامات الناس وحاجاتهم، فلسنا نسير نحو الذاتية في الأخلاقيات. ثمة نوع من النسبية الموضوعية التي يمكننا الاستناد إليها وثمة مستويات موضوعية للحكم على المبادئ الأخلاقية التي تهيمن على حياتنا.

مخطط للآداب العامة

هل يمكن للمثقف النقدي الأخلاقي أن يكتشف أي مبادئ بديهية عامة يمكن أن تسمو على حدود النسبية الثقافية وتنطبق على كل البشر، مهما كانت حالتهم الاجتماعية؟ هل ثمة أية مبادئ أخلاقية يمكننا أن نؤكدها كي تكون صادقة بموضوعية، مستقلة عن وجود الرب الذي أعلن عنها لتكون ملزمة للناس؟ إنني أسلم أن ثمة ما يسمى «آداباً عامة» هي أساسية للتبادل البشري. من المؤكد من الناحية الفعلية أن كل الثقافات الإنسانية قد توصلت إلى إدراك أهميتها، لأنها تضع أوامر ضرورية للترابط الجماعي والبقاء. الأفراد الذين يتقبلونها ينالون الثناء وأولئك الذين يخرجون عنها يدانون ويلامون على أنهم لا أخلاقيين وضالين أو أشرار.

أن نثبت أن أشكالاً معينة من السلوك هي من الآداب وتستحق الاحترام أو ملائمة، وأن أشكالاً أخرى هي ليست من الآداب وغير ملائمة، وحتى خسيسة، أمر ليس ببساطة نزوة أو تعبير عن ميول ثقافية، بل هو، كما أعتقد، وظيفة لمستوى من التطور الأخلاقي الذي له أبعاد ثقافية متقاطعة. رغم ذاك ثمة

تنوع واسع في السلوك البشري؛ وثمة إشكاليات عديدة حول ما هو ضمن الآداب وما هو ليس منها، وهنالك أيضاً تنوع كبير في الحكم الأخلاقي. وعلى الرغم من ذلك، ثمة قاعدة أساسية من المبادئ التي لابد من إدراكها بكونها ملزمة للسلوك البشري. قد نطبق مصطلح «العام» على تلك (الآداب) كتفويض لها، لأننا نتكلم فقط عن المبادئ الأساسية التي نعمل بها على نحو واسع، تاركين الكثير من المستويات من المبادئ الأخلاقية مفتوحة لمزيد من الاختبار النقدي. إنني أستعمل مصطلح «السلوك الأخلاقي» "Moral" لا «الأخلاقيات» "Ethics" لاعتقادي أن الإدراك بأن ثمة مبادئ سلوكية أخلاقية واضحة أساسية من تلك التي من الأحرى أن تسود بين الأفراد المتحضرين قد أضحى راسخاً في التقاليد الاجتماعية السارية المفعول. هذه المبادئ تدعم بالعادات والمراسيم، وتشرع بقانون، وتعد حتى مقدسة من قبل الأديان المختلفة.

وبعيداً عن أن تكون مستقاة من مصدر متسامي، تعد الآداب منزلة من السماء وقد استوحيت بدقة «لأنها» اعتبرت لها الأولوية القصوى للمجتمع البشري. وحقيقة أنها قد تحولت إلى اللغة الإلهية فهذه علامة أخرى عن مدى تقديرها. وعلى أية حال يمكن أن يكون لها فهم موثق وأرضية مستقلة؛ هذه المبادئ مبررة عبر الاعتبارات العقلانية وهي ترتكز على حكمة عملية أخلاقية. من المؤكد أنها تعبر عن أعمق ما في الحكمة لدى الجنس البشري ويمكن لها أن تكتشف من قبل أي أحد يهضم ثمرة فاكهة شجرة المعرفة التي تميز بين الخير والشر. من الممتع أن اللاهوتيين والإنسانيين يشتركون في إلتزامهم بالآداب السلوكية الأخلاقية، ذلك لأن الناس من كل المعتقدات يرثون الحكمة الشائعة، على الرغم من أنهم قد يختلفون حول الأسس الجوهرية للسلوك الأخلاقي.

المخطط التالي لمبادئ السلوك الأخلاقي يجب أن تحمل على ميزان أولوية الصعود والهبوط. النظام الذي نظمت فيه هو ببساطة نظام الملائمة، إذ في أي

موقف خاص، هنالك مبدأ أو أكثر قد يفترض الأسبقية أكثر من غيره. لابد أن تفسر المبادئ على أنها دلائل عامة للسلوك أكثر مما هي أوامر مطلقة أو شاملة، لكن ذلك لا يعني أن قوة إلزاميتها تضعف؛ إن الكائن العاقل الأخلاقي يمكن أن يدرك أهميتها ليس أقل من المؤمن بالرب. من المهم أن نقدمها بوضوح، فالفلسفة الأخلاقية يجب أن لا تكون ما بعد نظرية أو ممارسة مجردة بل يجب أن تكون لها علاقة معيارية بالسلوك. إن من الأهمية الخاصة بالنسبة لمبدأ الإنسانية توفير مبادئ للسلوك الأخلاقي.

تهتم مبادئ السلوك الأخلاقي بعلاقتنا بالآخرين من البشر الذين يعيشون في جماعات؛ وهي ستكون لها أهمية قليلة بالنسبة لناسك يعيش منعزلاً في كهف أو جزيرة قاحلة. البعض منها يمكن أن يطبق على الكائنات الأخرى الحساسة، لذلك من المنطقي الحديث عن حقوق الحيوان. على الرغم من أن المبادئ السلوكية الأخلاقية هي أشكال للسلوك الاجتماعي، أنها تحتاج إلى أن تبنى ضمن شخصية الفرد إن كان لديها أي فعالية أو قوة.

ثمة بعض الخلط لهذه المبادئ، والبعض الآخر يصنف ضمن مبادئ أخرى. ومع ذاك، من المهم أن يتم تعريفها منعزلة ويتم تصنيفها. القائمة التالية يجب أن لا تؤخذ على أنها نهائية أو كاملة. مما لا شك فيه أن هنالك مبادئ أخرى قد تضاف. ولكن التالية توفر على الأقل مخططاً أساسياً للسلوك الأخلاقي والاختيار.

1 ـ الاستقامة

1. *الصدق:* ميزة أن تكون صادقاً؛ تقول الحقيقة؛ دقيقاً في تمثيل الواقع. تعد هذه الميزة أساسية لكل العلاقات الاجتماعية الإنسانية، ذلك لأن الناس لا يمكن أن يعيشوا أو يعملوا معاً إن كانت هناك أمور مدبرة في الكبح، والتزييف أو محو الحقيقة. السلبية: هي أن تكذب، أن تكون مخادعا.

من المدهش أن هذا المبدأ لم يظهر في التقرير الصريح في الوصايا العشر، على الرغم من ظهور ما هو قريب منه: «لا تشهد شهادة زور ضد جارك». ولم يكن هذا المبدأ مركزياً بالنسبة للموعظة على الجبل.

وعلى الرغم من ذلك فإن قول الحقيقة هو من الآداب الأخلاقية العامة المتوقع وجودها في كل المجتمعات المتحضرة وربما في أغلبية ما تسمى بالمجتمعات البدائية. عندما يخدع الناس بعضهم بعضا، من الصعب الوثوق بهم. إن الكذب يجعل التواصل الحقيقي بين الناس مستحيلا. عندما لا نعلم متى نصدق شخصاً ما، لا يمكننا أن نعتمد على أي ناحية من سلوكه أو سلوكها.

قد لا يتفق الناس حول ماهية الحقيقة. فهم قد يختلفون حول وقائع قضية معينة، أو كيف يفسرون هذه الوقائع، أو ماهية أسبابها، ولكنهم مجبرون على الإقرار بالحقيقة كما يعرفونها ـ أو يعتقدون أنهم يعرفونها ـ من دونما نية مدروسة لخداع الآخرين. الشخص الذي لا يتبع هذا المبدأ هو إنسان كاذب.

إن قضية الكذب الأبيض غير المؤذي ليست واردة هنا؛ وكذلك الحال مع المشاكل الأخلاقية التي تظهر عندما يكون الكذب ليس من مصلحة الشخص نفسه بل من أجل الآخرين، خصوصاً عندما لا يتقاطع مع المبادئ الأخلاقية العامة الأخرى التي لها الإلزام نفسه. ثمة استثناءات لأي قاعدة عامة، لكن مثل هذه الخروقات تحتاج إلى أن تسوغ قبل إمكانية إلغاء القاعدة. رغم ذاك، هذا لا يلغي الفهم الواسع الانتشار بأن كل الأشياء تعد متساوية، لدينا واجب بديهي بأن يكون الشيء صادقا.

في السياقات الاجتماعية، قد يقسم أحد ما بشهادة مكتوبة، أو يحلف، ليشهد أنه يقول الحقيقة، أو يخضع لاختبار اكتشاف الكذب، إن يكن في ذلك قناعة أن مثل ذلك سيضمن الصدق. إن الصدق أساسي في العلوم والفلسفة، وأي نظام يتعلق باكتشاف الحقيقة. ذلك أمر أساسي بالنسبة للمجتمع المفتوح

والحر ولكنه مفقود في الأنظمة الاستبدادية والقمعية، التي تسعى فيها النخبة إلى أن تغطي على السلبيات وتضطهد المعارضة وتراقب أية محاولة لكشف الحقيقة في الكلام أو المطبوعات. مثل هذا الكذب هو انتهاك للمبدأ الأخلاقي الأساسي، ليس فقط من وجهة نظر الفرد بل أيضاً من وجهة نظر المجتمع.

2. *الإيفاء بالوعد:* إحترام العهد؛ هو الوعد الحي وفقاً لموافقة الفرد. في الحياة اليومية، إن وعد إنسان بوعد لإنسان آخر، سيكون من اللاأخلاقية أن ينقض ذلك الوعد. السلبية هي في عدم احترام الإلتزمات المترتبة على الشخص؛ أن تكون مهملاً وغير صادق، أن لا تكون كلمة الإنسان صادقة، أن تقسم كاذبا.

إن الوعد هو إعلان يقوم به شخص لشخص آخر، ويتوقع الأخير أن هذا الوعد سوف يوفى به إما بالتنفيذ «أعدك بأنني سوف أعيد لك المبلغ» أو بالامتناع عن فعل ما «أعدك بأن لا أخبر أحدا». إنه التزام قد يعتمد عليه الآخرون. قد يتضمن قسماً كبيراً، تصريحاً أو تأمينا. تترتب مسؤولية على الإنسان الذي يعد إزاء الإنسان الذي وُعِد. بضمن ذلك إدراك أن الظروف قد تتغير ولا تتاح للإنسان الوسائل التي تمكنه من أن يفي بعهده الذي أقسم عليه.

قد يتضمن ذلك الإيفاء بالعقود، إذ يتعاقد فريقان أو أكثر في اتفاقية أو معاهدة يتفق فيها كل من الفريقين على تنفيذ أو تحاشي أفعالاً معينة، وفيه أيضاً حين يفشل أحد الطرفين في تنفيذ واجباته في العقد، يكون في موضع المخل بالعقد. لدينا ليس الواجب الأخلاقي فحسب بل القانوني في أن نتقيد بالاتفاقيات التي دخلناها باختيارنا وغير مجبرين. يتضمن ذلك الآداب الاجتماعية التي تدخل فيها فرق متعاقدة مثل القسم في مسألة الحكم وتصريحات الزواج. لو أن أحد الأطراف أخل بالعقد جوهرياً يكون الطرف الآخر في حل من بنود العقد. البعض من الناس قد يعد بوعود لا يمكنه الإيفاء

بها. فقد يقومون بذلك كي يريحوا آخرين، وفي هذه الحالة تكون دوافعهم من أجل الخير؛ أو أنهم قد يقومون بذلك لخداع الآخرين، من أجل أن يجعلونهم يشترون السلعة أو يتعاقدون لخدمة ما، وفي هذه الحالة تكون دوافعهم حاقدة.

3. *الإخلاص:* هي ميزة النزاهة، الصراحة، التخلص من الأنانية، والإخلاص في العلاقات مع الآخرين، خصوصاً على وفق القاعدة الشخصية رجل لرجل. السلبية هي عدم الوفاء والنفاق والزيف والخداع.

إن الإخلاص أمر أساسي في بناء الثقة. إنه علامة على الاستقامة الأخلاقية. إن الإنسان المخلص موثوق به في تعاملاته مع الآخرين؛ إنه ليس مخادعاً أو متلاعباً في إخفاء الدوافع المبيتة. فبين العشاق والأصدقاء يكون الإخلاص أساسياً إن لم تتحطم الثقة. إن لم يستطع الإنسان أن يثق بما يقوله الآخر سيكون من الصعب التعاون في القضايا المشتركة. الشخص غير النزيه يدخل الآخر معه ويسيء استخدامه لبحث مآربه الشخصية. وفي الحالات المتطرفة قد يكون ماكرا. من الناحية الأخرى، قد تكون هناك بعض الحدود في درجة الإخلاص الممكنة في العلاقات الإنسانية. قد يكون الإنسان بلا ألاعيب أو يطمس ذاته بدرجة كبيرة في تعامله مع الآخرين. فقد يتعجل الثقة بالآخر أو يبوح بمشاعره على نحو جاهز من أجل أن ينزع سلاح الآخر أو يحرجه، بينما الآخر لا يشاركه في مشاعره. إن الإخلاص علاقة ضرورية للعلاقات الإنسانية، وعلينا أن نتبعها، على الرغم من أننا لا نحتاج إلى أن نعري دواخلنا الروحية لأي شخص أو أحد في الفرصة الأولى.

4. *النزاهة:* ميزة للاستقامة أو العدالة في التعامل مع الآخرين. «إن النزاهة أفضل سياسة» هو قول مأثور مقبول على نحو واسع في الحديث ولكنه لا يحترم عند السلوك. حين تنعدم الثقة بين الناس ستنهار التفاعلات الاجتماعية. السلبية هي أن لا تكون نزيهاً، مخادعاً ومحتالاً وكاذباً وملتويا.

إنني أستعمل مصطلح «النزاهة» هنا كي أخص مبدأياً أن لا استعمل وسائل خادعة في الحصول على منافع مادية. من المهم في العلاقات الإنسانية أن نكون قادرين على أن نثق بكلمة الشخص الآخر. لو أن أحد ما يقول شيئاً ثم يستدير ويفعل شيئاً آخر، فإن مثل هذا الشخص غير مستقيم. إن يخفي دوافع كامنة فيه ويسعى إلى أن يغش أو يحتال على الآخر، عند ذاك لا يمكن الوثوق به. إن عدم النزاهة مختلفة عن عدم الإخلاص، على الرغم من هذه الرذائل تتداخل، إذ يتم اللجوء إليها من أجل الحصول على منفعة. الشخص غير النزيه يرغب في اقتراف النصب. ربما يخدع أو يبيع أعلى من السعر. إن سلوكه غير محترم وسرعان ما يفقد مصداقيته واحترامنا له. إن الفائدة هي التي تغوي في عدم النزاهة. الناس غير النزيهين يكونون منافقين ومتعددي الوجوه؛ إنهم غير مخلصين ويرغبون في الكذب وعدم الإيفاء بالوعود. وعلى العكس من ذلك، فإن النزيه سيقول الحقيقة وينفذ التزامات تعاقداته مادام يستطيع ذلك. إن الأمانة في التعامل مع الآخرين أمر جوهري إن أردنا الحفاظ على سمعتنا. وحين يشتهر شخص بالتعامل الكاذب، فإنه يخاطر بحياته المهنية.

في المجال الاقتصادي، فإن بيع المنتجات المغشوشة والكذب على الزبائن أو خداعهم هي أشكال سيئة من عدم النزاهة. وعلى المستوى السياسي والاقتصادي، فإن عكس النزاهة هي الابتزاز والفساد.

٢ ـ الثقة

1. *الأمانة:* ميزة أن يكون الإنسان مخلصاً؛ مبدياً الولاء والإخلاص. ينطبق هذا المبدأ بارتباطات الإنسان بالأصدقاء والأقارب والجماعة. وعكسها: اللاأمانة، والخداع والغدر أو الخيانة.

نحن في العلاقات البشرية نبني معاهدات في الاهتمامات المشتركة، إننا نتقاسم القيم، ونحن ملتزمون بالأهداف ذاتها التي نناضل سوية من أجلها.

فالناس تتوقع من الشخص أن يستمر في ولائه للآخر في علاقة متساوية الواحد بالآخر، أو بالجماعة إن يكن له ولاء مضمون وقد استلم فوائد متبادلة. إنه لا يخون الثقة ـ خصوصاً للمكسب الشخصي أو المنفعة الشخصية ـ ما لم يكن لديه مبرر دامغ. إن واجبنا في أن نكون مخلصين يتأسس على التزاماتنا السابقة، التي نتحمل المسؤولية في دعمها.

إن الأمانة مبدأ أساسي في حالة الزواج المتآلف، حيث يصرح الشريكان بالثقة والحب كل واحد للآخر. وهو ينطبق على الإخوة والأخوات والوالدين والأبناء وباقي أفراد العائلة. إن الأمانة هي العهد الذي يتمسك به الأصدقاء في حالتي الاتفاق والاختلاف. هذا يعني أن هنالك نوع من الثبات في الالتزام والرسوخ في الترابط، بدلاً من النزوات والصبيانية في السلوك. لا تنطبق الأمانة على الأشخاص فحسب بل على إلتزام الفرد بمبادئه، أو إلتزامه بجماعة أو وطن. إننا لا نتحدث عن الولاء الأعمى أو الإخلاص المتعصب، بل عن الأمانة التي هي المسؤولية والتفاني. إنه إلتزام ناضج على الضد من اللاإنضباط والتردد وعدم الإخلاص. مهما تكن العلاقة بين الشخص والآخرين أو بجماعة ما، فمن المتوقع منه أو منها عدم الخيانة. إن مبدأ الأمانة يحتاج إلى أن يوسع إلى جماعات بشرية أوسع، على الرغم من أن له جذور لدى العلاقات الصغيرة بين الأشخاص.

عندما يقترف فرد موثوق به أو جماعة موثوق بها تجاوزاً أخلاقياً كبيراً (كالخيانة أو القتل)، فقد يحكم الإنسان بإمكانية تأجيل الأمانة باسم مبدأ آخر أكبر أو سبب أكبر، على أنه يجب تقديم تبرير واضح إزاء ذلك.

2Á *الاعتماد:* ميزة أن يكون المرء يمكن الاعتماد عليه ومسؤولا. أهمية الاعتماد في الشؤون الإنسانية أمر معروف جيدا. وعكس ذلك: أن يكون المرء غير موثوق به ولا يمكن الاعتماد عليه وغير مسؤول.

إننا نعتمد على الأشخاص في أن يقوموا بأشياء وعدوا بها، وقد استخدموا

من أجلها أو أوكلت لهم المسؤولية فيها. من المفترض أن يؤدي الناس أدواراً مختلفة في المجتمع، وفي حالة تقسيم العمل نتوقع منهم أن ينفذوا واجباتهم بنزاهة. الوالدان عليهما واجباتهما إزاء تنشئة ورعاية أطفالهما. المدرسون مسؤولون عن تعليم الصغار، الناس عامة لديهم واجباتهم في مكاتبهم وعليهم القيام بها. إننا نتوقع من مكتب الموظفين ومن الأطباء والمحامين والإداريين وغيرهم، أن يكونوا موثوقاً بهم في القيام بأعمالهم بأفضل صورة. إن يكونوا كسالى وغير موثوق بهم وغير مبالين ـ وإن كنا لا نعتمد عليهم ـ خصوصاً عندما يوافقون على تسلم وظيفة، فعند ذاك ينبذون وينتقدون مباشرة. في العلاقات البشرية، نمنح الثقة لأفراد معينين؛ إن خانوا ثقتنا بهم يكون من الصعب علينا، عند ذاك، أن نعيش أو نعمل بالتعاون معهم. إن السلوك اللامسؤول يستحق اللوم. وطبقاً لذلك، ما أن توضع الثقة بأحد للقيام بواجبات محددة، فهو مجبر على تنفيذها أو تحتم عليه المسؤولية تعيين شخص مناسب غيره إن تعذر عليه ذلك.

٣ ـ النزعة إلى عمل الخير

1 . *الود:* أن تكون للفرد نوايا نبيلة، الميل للفضيلة؛ أن يبدي الثقة. من خلال تعاملنا مع الآخرين، من الضروري أن تكون لنا وجهات نظر إيجابية إزاء أولئك الذين يستحقونها، وأننا نعبر عن النوايا الحسنة تجاهها. عكس ذلك؛ أن يكون المرء خبيثاً؛ ويظهر الميل للشر، والعدوانية؛ أن يكون غير موثوق به ومشكوك فيه.

يعني هذا المبدأ أننا علينا أن تكون لنا مشاعر طيبة حول الآخرين، نتمنى لهم الخير ولا نبحث لهم عن الأذى. ويشير هذا إلى أننا علينا دائماً أن نحسن الظن بالآخرين ما لم يكونوا من الأنذال، وحتى حينذاك، فقد تكون لهم بعض الفضائل التي يمكن أن نكتشفها. علينا دائماً أن نحاول، إن تمكنا من ذلك، في أن نجد شيئاً ما جيداً نقوله عن الآخرين، ونبحث في تثمين فضائلهم بدلاً من أن

ننقد أخطاءهم. فضلاً عن ذلك، علينا أن نكون مسرورين حين يزدهر حاله ونسعد حين يكون سعيداً. علينا أن لا نفرح بتعاسة الآخرين. وعموماً، ذلك يعني أن نبدي نوعاً من الحب والاهتمام أو الاحترام العميق لحاجات الآخرين.

وطباق ذلك هو الحقد والرغبة في أن يؤذي الناس أنفسهم، وأن يفشلوا في جهودهم أو أن يعانوا من الأذى. تقول الوصية العاشرة أننا لا يجب أن نرغب في أشياء الآخرين. ومن بين أصعب رذائل الإنسان التي لا يستطيع كبحها هي حسده لما لدى الآخرين، أو غيرته مما لدى الآخر من إنجازات ومواهب أو ممتلكات. هذه المشاعر قد تكون مستهلكة ومدمرة للعلاقات الحيوية في الثقة أو للتعليم المؤثر أو للعمل والوظيفة. ولو سمح في أن تنمو بلا حدود، فيمكن أن تدمر الأشخاص وتسهم في تآكل الأمم. إن مبدأ النزوع للخير هو التوجه نحو السماح للآخرين في أن يعيشوا ويسمحون للآخرين في أن يعيشوا. الشخص المحب للخير لا يرغب في أن ينكر للآخرين حقهم في امتلاك ثروة معينة أو نجاح ما لأنه هو نفسه يفتقد لهذه الأشياء. إنه بدلاً من ذلك، يرغب الأفضل للجميع. الشخص الذي يرغب مخلصاً في الخير للآخرين سيجد في الغالب أن دوافعه يساء فهمها من الناس الذين يفتقدون لهذه النزعة؛ على الرغم من أنه مخلص في أهدافه، وقد يتهمه الآخرون بالغدر نفسه الذي يميلون إليه.

المعاكس للود هي الكراهية، التي قد تقود إلى الاستهلاك وغليان الغضب لدى الأعداء والمحبين الذين نكثوا عهودهم والأصدقاء السابقين والمتنافسين. على الرغم من أن الإنسان قد يتبارى في المنافسات الرياضية أو التجارية أو في زمن الحرب، فعلى الإنسان أن يناضل للمحافظة على نوع من العدالة والودية بين كل متنافس وآخر. إن خسر أحد، فلابد أن يكون بكرامة، ليس من الحري أن يرغب الإنسان في التعادل أو يحمل بعض الضغينة غير الملائمة. هذا يعني أن السلوك الحاقد خاطئ لا محالة. على المرء أن لا يبحث عن الانتقام، أو يجعل الآخرين يدفعون ثمن فوزهم أو سوء طالعه.

أحد أشكال الودية الأكثر عمومية من التعبير عنه على المستوى الشخصي هو *النزوع إلى عمل الخير*، حب الإنسانية والرغبة في زيادة الخلاصة الإجمالية للسعادة الإنسانية. ويعبر عن ذلك بالأعمال الخيرية والإنسانية في مشاريع ذات قيمة.

2. *عدم ارتكاب المحظورات كما هو مطبق على الأشخاص:* المنع من ارتكاب الأذى للآخرين أو جرحهم. يرتبط هذا المبدأ بالودية؛ إنه ينكر الحق في إيذاء الناس من دونما ضرورة، وهو ما يتطلب أننا نتباحث في جلب المنافع لهم. وعكس ذلك الإيذاء أو ارتكاب أفعال أو أعمال شريرة ضد الآخرين.

إن عدم ارتكاب المحظورات يتضمن القائمة الضرورية التالية من الممنوعات الضرورية في أي مجتمع متحضر. أي أحد يهزأ منها يتجاوز المبادئ الأساسية للسلوك الأخلاقي. وهذا ينطبق ليس على الأعضاء الذين ضمن دائرتنا الخاصة من قبيلة أو أمة فحسب، بل على كل الرجال والنساء مهما كان العرق الذي ينتمون إليه. إنه مبدأ الأخوة، الذي انتهك للأسف في أزمان الحرب، حين تم التخلي عن قواعد سلوك الآداب العامة.

لا تقتل الآخرين من البشر.

لا تقترف العنف الجسدي ضدهم.

لا تحرمهم من الطعام أو السكن أو ارتداء الثياب أو بقية ضروريات الحياة.

لا تكن قاسياً أو حقوداً أو حامل ضغينة.

لا تستعمل الخشونة أو العقوبة اللاإنسانية لأي أحد، حتى لأولئك المتمادين في تجاوز هذه المبادئ.

لا تعذبهم أو تصبهم بمعاناة نفسية غير ضرورية.

لا تخطف أي أشخاص أو تأخذهم رهائن، أو تحتجزهم رغماً عنهم.

لا ترعب الناس الأبرياء من خلال تهديد حياتهم أو بقطع أجزاء من جسدهم.

لا تغتصب (أنظر أدناه «التوافق الجنسي»).

لا تطعن أو تشهر بأحد من أجل تدمير سمعته المهنية.

لا تغتب أحداً أو تعرض به؛ لا تنشر الأكاذيب والإشاعات أو الافتراء.

لا تسئ معاملة الأطفال والذين لا حول لهم أو الضعفاء أو المعاقين من غير القادرين على القتال أو الدفاع عن أنفسهم.

لا تؤذ أحداً على سبيل الانتقام والثأر بناء على أخطاء قديمة.

3. لا ترتكب الأخطاء على الأملاك الخاصة والعامة: مبدياً الاحترام لملكيات الآخرين التي حازوها بنزاهة، من دون خوف من السرقة أو التسليب. وعكس ذلك: أن تسطو أو تسرق أو تسلب.

إن فعل السرقة للممتلكات القانونية يعد جريمة تقتضي العقوبة قانوناً في كل المجتمعات التي تقر بالممتلكات الخاصة. أكثر الأشكال تطرفاً من السطو هو استعمال القوة أو الرعب في إجبار شخص ما على التخلي عن ما يملكه عبر وسائل قد تتضمن تهديد حياته أو بتر عضو من أعضائه. السلب أو النهب في وقت الحرب قد يتضمن التخريب أو الابتزاز، وغالباً على مدى واسع. ويتضمن في حالة التطرف نهب وإتلاف منطقة كاملة. وقد يحدث أيضا من يد العصابات الذين ينهبون والقراصنة الذين يبحثون عن الغنائم، والمختطفين الذين يبحثون عن الفدية، أو حتى المولعين بالحرائق الذين يدمرون الممتلكات بكل حقد.

قد يحدث السطو خلسة عندما يكون الضحية غائباً، ولكن لا جدال إن ذلك عمل خاطئ. وشكل آخر من السطو هو المخطط له من أجل سلب ما يملكه الناس.

عندما نقول أن على الناس احترام ما يملكه الآخرون، فنحن نشير إلى الممتلكات الشرعية وليست غير الشرعية التي أخذت بوسائل غير قانونية.

وكذلك يمكن للمبدأ أن يمتد إلى الأملاك العامة. والتحريم هنا هو ضد النهب المنظم والتشويه وإساءة الاستعمال أو الإهمال للممتلكات العامة التي تخص جماعة أو جمعية أو الأملاك العامة الخاصة بالدولة.

4. *الاتفاق الجنسي*: أن يكون هناك اتفاق متبادل، ممارسة طوعية للجنس. وهو نوع من مبدأ عدم ارتكاب الخطأ كما هو مطبق في سلوك الممارسة الجنسية الخاصة بين البالغين. وعكسه: الاغتصاب، الذي يتطلب القهر الجنسي، أو الإيذاء الجنسي أو العنف.

إن فعل الاغتصاب هو انتهاك لحقوق الفرد كونه إنسان حر وقد تم الاعتداء عليه من قبل مجتمع متحضر. هذا يعني أن العلاقات الجنسية تعتمد على الاتفاق من كلا الطرفين. وهذا يعني كذلك أنه سيكون من غير المفيد استعمال الإكراه أو الإجبار في ممارسة الجنس. وبضمن ذلك استعمال الإكراه في إجبار شخص ليخضع لأي درجة في اختراق أي فتحة في الجسم. وفيما إذا كان ذلك ينطبق على المتزوجين فهو أمر خاضع للنقاش. وعلى العموم فلم يطبق ذلك على المتزوجين، وأن أولئك الذين يجبرون شركائهم على ممارسة الجنس لا يعدون من المغتصبين؛ واليوم تفكر الكثير من النساء أن تعريف الاغتصاب حري به أن يتوسع لحمايتهن من الأزواج المتوحشين ـ وبالتأكيد من الأزواج المنفرين.

وضمن هذا المبدأ هو الإدراك بأن الاتفاق الجنسي يجب أن يستبعد الأطفال الذين هم دون سن الاتفاق. (أنظر الفصل الثامن، حول الخصوصية). إن استعمال القوة أو الخداع من أجل ممارسة الجنس مع الأطفال أمر محرم حتماً ويعد من أحط الجرائم. وتتم العقوبة بشأنه بشدة في المجتمع المتحضر.

الشكل الأكثر سعة لمبدأ الاتفاق الجنسي يخضع الآن لحوار مكثف، فيما إذا كان المجتمع سيسمح للعلاقات الجنسية غير الزوجية، وخصوصاً العلاقات

الشاذة. وتاريخياً، الكثير من المجتمعات نظمت ما يعنونه بالأشكال المنحرفة من السلوك الجنسي، والدعارة والممارسة الجنسية والإيتاء من الدبر أو الفم (فيما إذا يكون متغايراً أو منحرفاً)، واللواط. ورغم ذاك من الصعب تنظيم أغلب أشكال السلوك الجنسي، لأن أغلب الممارسات الجنسية تحدث على نحو خاص.

إن المبدأ الممتد سيسمح لأي نوع من العلاقة الجنسية بين البالغين المتفقين ويمنع الدخول عنوة إلى غرفة النوم وممارسة الأنواع المختلفة من التفضيل الجنسي. المشكلة الأخرى التي تظهر هي فيما إذا كانت الدولة ستنظم العلاقات الجنسية بين البالغين من العائلة نفسها (الأخوة والأخوات والعمات والأعمام والخالات والأخوال) وكل حالات اللواط، حتى في حالة الاتفاق بين الطرفين. (أنظر الفصل الثامن). هذه التعابير عن التوجه الجنسي، هي على أية حال غير معروفة تحت بند الآداب الأخلاقية العامة، وامتداد مبدأ الاتفاق الجنسي إليها هو تطور حديث.

الإحسان: العطف والشفقة والإيثار والحنو. من أجل عمل الخير، أن 5Á تكون عوناً للناس وتفكر بهم، أن تكون إنسانياً، وتقدم العطايا، كل هذا من الإحسان. إنه الرغبة الإيجابية في مساعدة الآخرين كي يعيشوا حياة أفضل وكي يتبادلوا المنافع حتى يقل البؤس بينهم وتنتشر السعادة. وعكس ذلك أن يكون الإنسان حقوداً ومؤذياً وأنانياً ولا يتصدق على الناس.

التوجه نحو الإحسان للآخرين يستحق أعلى التقدير. البعض من الأفراد ربما يكونون محدودين جداً بحيث أنهم غير قادرين على المساهمة في عمل الإحسان. ولكن الشخص المحسن يكون راغباً في أن يتجاوز العقبات في فعل الخير. ويتضمن هذا التعاطف مع حاجات الآخرين. وهذا يعني أن نكون مقدرين لمشاعر الآخرين من الناس ونسعى لمساعدتهم على قدر الإمكان. وقد لا يكون ذلك مكلفاً؛ فأن يتخلى المرء عن مقعده في قطار مزدحم أو حافلة

كبيرة، أن تساعد رجلاً أعمى على عبور الطريق، وأن تمد يدك لمساعدة شخص جريح أو بحاجة إلى مواساة، كل هذه من أفعال الإحسان. إنها تعني أيضاً أن يقوم الإنسان بما يمكنه من أجل تخفيف المعاناة عن الشخص الآخر أو الكرب الذي هو فيه، وإن أمكن، المساهمة في رعايته وتعليمه وتغذيته وإمتاعه أو إسعاده. ويكتشف الكثير من الناس أنهم يشعرون بحال أفضل عندما يعطون أكثر مما يأخذون وأن السعادة في السلوك الإيثاري تتفوق في قيمتها على السعادة في الرضا الذاتي.

أشار الأخلاقيون أن مبدأ الإحسان، أو عمل الخير للآخرين، هو أقل إلزاماً من مبدأ عدم ارتكاب الأخطاء إزاء الناس أو عدم إيذائهم. على أية حال، على الأب ضمن وحدة العائلة واجب مساعدة أفراد العائلة الذين يقع عليهم كرب ما، وإن أمكن، وضع الوسائل الكفيلة بأن تجعلهم مرفهين. كلما جاء ذلك بعفوية كلما كان مُرضياً وكلما كان مُرضياً كلما كان سهلاً. إن الإيثار بين الأصدقاء والأقارب أمر متوقع، ويدين الإنسان الأنانية في هذا السياق. إننا نتصل بأولئك الذين نحبهم كي يساعدوننا في وقت الحاجة كي يضحوا بالمال أو الوقت. وأفضل تعبير لهذا المبدأ إحدى تعاليم المسيح أننا علينا «أن يحب أحدنا الآخر». إن الشخص المؤدب أخلاقياً يدرك، مثلاً، أننا لو جلسنا جميعاً حول طاولة، فلا أحد من بيننا سيرغب في الطعام منفرداً، سوف يرغب في أن يقتسم الخبز مع الآخرين.

للإحسان بعدان: (١) هو دعوة للمساعدة والرحمة من أجل تجاوز الألم والمعاناة أو الحرمان لكل من يقدر على تلك المساعدة، و(٢) هو دعوة إيجابية لزيادة مجموع أعمال الخير التي يمكن أن يحققها الشخص في حياته. السؤال الحقيقي هو، مرة أخرى، الكيفية التي يتم فيها توسيع مبدأ الإحسان: إلى كل الرجال والنساء ـ بضمنهم الذين يموتون جوعاً في أفريقيا والمصابين بالأوبئة في المستشفيات الآسيوية ـ أو فقط ضمن المدار الذي نحن فيه؟

يمكن للدولة أن تسن تشريعاً لحماية الأفراد من أن يؤذي أحدهم الآخر؛ مثال ذلك، أن العنف أو التحايل يعدان جريمة ويمكن أن يعاقب عليهما المرء. لذلك على الرغم من أن الدولة يمكن أن تنظم سلوكاً سلبياً، فهي تكاد لا تستطيع أن تشرع للإيثار عند الأفراد الذين يفتقدون ذلك، في بعض المجتمعات يتم توفير حوافز ضريبية للمساهمات الطوعية في الإحسان، وذلك ما يشجع على الأعمال الخيرية. إن مبدأ عدم ارتكاب الأخطاء يعد ضرورياً جداً للعمل الخاص ويكون ملزماً من قبل الدولة. أما مبدأ الإحسان فعلى العكس من ذلك لا يمكن للدولة أن تلزم الناس به بسهولة.

4 ـ العدالة

1 . *الامتنان:* ميزة أن تكون شكورا، أن تكن المشاعر الودية تجاه من يعمل الخير. من الضروري في العلاقات البشرية أن نبدي بعض التقدير لمن تفضل علينا بنوع ما من الفضل. وعكس ذلك، الجحود؛ أن يكون الإنسان جحوداً ولا يقدر الفضل.

الكثير من الأفراد يسرهم أن يمنحوا هبة أو فضلاً ما، أو يقدموا يد المساعدة لشخص ما بحاجة إليها. وهم قد لا يرغبون في مكافأة أو لا يتوقعون أي شيء مقابل ذلك، ولكنهم قد يرحبون بأي نوع من التقدير. قد يبدي المستلم بعض الامتنان من خلال شكر ذلك الشخص على مساعدته. ربما في المستقبل يعود إلى تقديم الفضل أو يقدم خدمة. أولئك الذين يغفلون أعمال الخير كأنهم يؤمنون أن لديهم امتيازات تأتي إليهم هم أناس جحودون، ولا يشعرون بما فعله الآخرون من أجلهم. لو أن مجتمعاً ازدهرت فيه أعمال الإحسان، فإن خاصية الإحسان تروى بإشارات الرد بالامتنان. في بعض الحالات، تكون المساعدة المعروضة قد فات أوانها أو شحيحة أو غير دقيقة، أو أنها قد لا تستحق الذكر. حيثما تكن قيمة، تستحق منا الامتنان. إن الذكر حري به أن يكون محترما، من دون ما خنوع أو إذلال؛ فإن سعى فاعل عمل الخير إلى ذلك يعد فاقداً للياقة.

2. *العرضة للمحاسبة:* ميزة أن يكون الإنسان عرضة للاستجواب عن سلوكه. ثمة إحساس أن الشخص الذي يقترف عملاً شائناً يؤذي الآخرين، خصوصاً أعمالاً مثل القتل والسطو والاغتصاب لابد أن لا يسمح له بالبقاء غير معاقب. وعكس ذلك، أن لا يكون الشخص عرضة للاستجواب عن سلوكه.

وضمن هذا المبدأ فكرة أن الأفراد عليهم أن يتحملوا المسؤولية عند جرحهم الآخرين ولابد من استدعائهم للمحاسبة على ذلك. فإزاء جريمة أخلاقية خطيرة ربما تعد عدم المحاسبة أمراً غير عادل. فضلاً عن ذلك، ثمة قناعة أنه لو تم إعفاء المجرم من العقاب، فلسوف ينهار النظام الاجتماعي. فقد يشعر الضحية أو أقاربه أو المجتمع بأكمله بالحزن إذا لم تكن هناك محاسبة من قبل الجميع، وسيكون سلوك انتهاك القانون مركبا.

في الحالة الشديدة، فإن هذا يتضمن الحاجة إلى الانتقام، الذي بناء عليه يواجه الإنسان معاناة مشابهة أو ألم أو فقدان كي يناسب العقاب الجريمة. إن الجزاء المفروض إما أن يكون متخذاً على أنه فعل جزائي من نفسه، أو، في المجتمعات الأكثر تطوراً، ربما يستخدم لتلافي التجاوزات الأخلاقية والجرائم. وبهذه الطريقة يسعى المجتمع إلى حماية نفسه، وإن أمكن، لإصلاح المجرم. وفي المجتمعات المتحضرة، يعد العقاب القاسي أو غير العادي أو الهمجي غير لائق.

أحد الأشكال التي يتخذها مبدأ العرضة للمحاسبة هو الحاجة إلى حساب الضرر. فحيثما يقع اللوم، وخصوصاً حيثما تكون هناك محاولة لإيذاء الآخر عبر الحقد، يأتي الشعور بعمل نوع من الإصلاح. عندما يجرح أحد ما شخصاً آخر أو يؤذي ممتلكاته، فقد يسعى الضحية إلى حساب الضرر.

إن جل السلوك المتحضر هو في تأسيس إجراءات تحدد الذنب على نحو تفصيلي ثم تنظر في أن تكون هناك تطبيقات عادلة للقانون. يتفهم المجتمع أن هنالك نوعاً من الرحمة في ظروف التلطيف أو فيما يخص الذين يذنبون لأول

يمكن للدولة أن تسن تشريعاً لحماية الأفراد من أن يؤذي أحدهم الآخر؛ مثال ذلك، أن العنف أو التحايل يعدان جريمة ويمكن أن يعاقب عليهما المرء. لذلك على الرغم من أن الدولة يمكن أن تنظم سلوكاً سلبياً، فهي تكاد لا تستطيع أن تشرع للإيثار عند الأفراد الذين يفتقدون ذلك، في بعض المجتمعات يتم توفير حوافز ضريبية للمساهمات الطوعية في الإحسان، وذلك ما يشجع على الأعمال الخيرية. إن مبدأ عدم ارتكاب الأخطاء يعد ضرورياً جداً للعمل الخاص ويكون ملزماً من قبل الدولة. أما مبدأ الإحسان فعلى العكس من ذلك لا يمكن للدولة أن تلزم الناس به بسهولة.

4 ـ العدالة

1 . *الامتنان:* ميزة أن تكون شكورا، أن تكن المشاعر الودية تجاه من يعمل الخير. من الضروري في العلاقات البشرية أن نبدي بعض التقدير لمن تفضل علينا بنوع ما من الفضل. وعكس ذلك، الجحود؛ أن يكون الإنسان جحوداً ولا يقدر الفضل.

الكثير من الأفراد يسرهم أن يمنحوا هبة أو فضلاً ما، أو يقدموا يد المساعدة لشخص ما بحاجة إليها. وهم قد لا يرغبون في مكافأة أو لا يتوقعون أي شيء مقابل ذلك، ولكنهم قد يرحبون بأي نوع من التقدير. قد يبدي المستلم بعض الامتنان من خلال شكر ذلك الشخص على مساعدته. ربما في المستقبل يعود إلى تقديم الفضل أو يقدم خدمة. أولئك الذين يغفلون أعمال الخير كأنهم يؤمنون أن لديهم امتيازات تأتي إليهم هم أناس جحودون، ولا يشعرون بما فعله الآخرون من أجلهم. لو أن مجتمعاً ازدهرت فيه أعمال الإحسان، فإن خاصية الإحسان تروى بإشارات الرد بالامتنان. في بعض الحالات، تكون المساعدة المعروضة قد فات أوانها أو شحيحة أو غير دقيقة، أو أنها قد لا تستحق الذكر. حيثما تكن قيمة، تستحق منا الامتنان. إن الذكر حري به أن يكون محترما، من دون ما خنوع أو إذلال؛ فإن سعى فاعل عمل الخير إلى ذلك يعد فاقداً للياقة.

2. *العرضة للمحاسبة:* ميزة أن يكون الإنسان عرضة للاستجواب عن سلوكه. ثمة إحساس أن الشخص الذي يقترف عملاً شائناً يؤذي الآخرين، خصوصاً أعمالاً مثل القتل والسطو والاغتصاب لابد أن لا يسمح له بالبقاء غير معاقب. وعكس ذلك، أن لا يكون الشخص عرضة للاستجواب عن سلوكه.

وضمن هذا المبدأ فكرة أن الأفراد عليهم أن يتحملوا المسؤولية عند جرحهم الآخرين ولابد من استدعائهم للمحاسبة على ذلك. فإزاء جريمة أخلاقية خطيرة ربما تعد عدم المحاسبة أمراً غير عادل. فضلاً عن ذلك، ثمة قناعة أنه لو تم إعفاء المجرم من العقاب، فلسوف ينهار النظام الاجتماعي. فقد يشعر الضحية أو أقاربه أو المجتمع بأكمله بالحزن إذا لم تكن هناك محاسبة من قبل الجميع، وسيكون سلوك انتهاك القانون مركبا.

في الحالة الشديدة، فإن هذا يتضمن الحاجة إلى الانتقام، الذي بناء عليه يواجه الإنسان معاناة مشابهة أو ألم أو فقدان كي يناسب العقاب الجريمة. إن الجزاء المفروض إما أن يكون متخذاً على أنه فعل جزائي من نفسه، أو، في المجتمعات الأكثر تطوراً، ربما يستخدم لتلافي التجاوزات الأخلاقية والجرائم. وبهذه الطريقة يسعى المجتمع إلى حماية نفسه، وإن أمكن، لإصلاح المجرم. وفي المجتمعات المتحضرة، يعد العقاب القاسي أو غير العادي أو الهمجي غير لائق.

أحد الأشكال التي يتخذها مبدأ العرضة للمحاسبة هو الحاجة إلى حساب الضرر. فحيثما يقع اللوم، وخصوصاً حيثما تكون هناك محاولة لإيذاء الآخر عبر الحقد، يأتي الشعور بعمل نوع من الإصلاح. عندما يجرح أحد ما شخصاً آخر أو يؤذي ممتلكاته، فقد يسعى الضحية إلى حساب الضرر.

إن جل السلوك المتحضر هو في تأسيس إجراءات تحدد الذنب على نحو تفصيلي ثم تنظر في أن تكون هناك تطبيقات عادلة للقانون. يتفهم المجتمع أن هنالك نوعاً من الرحمة في ظروف التلطيف أو فيما يخص الذين يذنبون لأول

مرة. وترتبط بذلك الحاجة إلى التسامح أو النسيان إلى حد ما وتجنب الحقد والانتقام خصوصاً عندما يقترف الشخص خطأً ويعترف به ويبدي نوعاً من الندم، أو أنه تعلم من أخطائه. في مثل هذه الحالات يكون من الشجاعة أن يعم التسامح لا استمرار الضغينة، وحتى في حالات ما الترحيب بعودة المجرم الذي صلح حاله إلى المجتمع.

العدالة: المساواة والاستقامة والإنصاف. العمل على إقامة العدالة جار 3Á بشكل واسع في المجتمعات المتحضرة، ولكن على الرغم من ذاك هنالك اختلاف واسع حول ماهيتها. وعكس ذلك: الظلم واللاعدالة والتجزيئية.

وفي أبسط معنى لها، تشير العدالة إلى عدالة الصحراء، أي معاقبة المخطئين ومكافأة المجيدين. ويدخل هنا مبدأ العرضة للمحاسبة، وكذلك الأفكار عن المساواة والإنصاف.

ويتضمن مبدأ العدالة فكرة الأجر العادل مقابل عمل منجز أو تقديم خدمات. ويتضمن هذا مستوى نموذجي لتوزيع السلع والخدمات في المجتمع. من المفترض أن يدفع للناس أجر منصف مقابل يوم عملهم؛ لابد أن يكون الدخل و/ أو الثروة مقسمة بعدالة بين أولئك الذين يستحقونها و/ أو يستحقون ما يستلمون. إن مبدأ العدالة حاضر هنا. في المجتمعات الديمقراطية، ظهرت دعوات أخرى للعدالة: سلطة القانون والمساواة والحرية. كل الأفراد متساوون إزاء القانون ويجب أن لا يبحثوا من أجل الحصول على امتيازات خاصة أو إعفاءات لا ينالها الآخرون في المجتمع.

إن المبدأ الديمقراطي الحديث يقترح لذلك المساواة في الاعتبارات: كل شخص مساو للآخرين في الكرامة والقيمة. وكذلك في حال مبدأ الحرية والفرصة في بحث السعادة من دون تدخلات لا موجب لها. ثمة أفكار جديدة عن المساواة الاقتصادية قد أدخلت في المجتمع الحديث. ويتضمن مبدأ العدالة الإيمان أن لابد أن تكون هناك عقوبات تخص التمييز العنصري المبني

على التميز العرقي والديني والأثني أو الاختلافات الجنسية. هل يجب على المجتمع إعانة أولئك الناس غير القادرين على العمل؟ هل يتوجب على المجتمع أن يوفر الحاجات الأساسية للمتضررين؟ هل يتوجب على المجتمع إعانة الناس غير القادرين على العناية بأنفسهم من دون خطأ منهم؟ إن الجدال بين الرأسمالية والاشتراكية يأخذنا أبعد من الآداب الأخلاقية الأساسية، إلى قاعدة أكثر تعقيداً عن حقوق الإنسان والمساواة في الفرص والعلاج. تتطلب العدالة اللجوء إلى استعمال الأساليب السلمية في الحكم على الاختلافات باتساق ومساواة. وهذا معناه أن نحكم العقل معاً من أجل حل الإشكاليات ولا نلجأ إلى العنف أو القوة.

4Á *التسامح:* ميزة الفهم المشترك وسعة الأفق. إن تسامح الأفراد أو الأمم التي تختلف عنا في القيم والسلوك والعادات أو الاعتقادات يصبح وسيلة ضرورية لبحث السلم والانسجام في العالم المتحضر. وعكس ذلك، التحامل، والحقد والكراهية والتميز وضيق الأفق والروحية الوضيعة.

إحدى أخطاء الناس هو الاتجاه نحو رفض وإنكار مساواة الأفراد أو الجماعات الذين لا يتفقون معنا في اعتقاداتنا أو ممارساتنا في التقارب ونيل الحقوق. يمكن لهذا أن يحدث ضمن المجتمع، حيث من الممكن أن نستنكر أساليب الحياة أو القيم التي يتبناها الآخرون؛ أو يمكن أن ينطبق ذلك على الجماعات الأخرى أو الثقافات الأخرى أو الأعراق أو الأمم، الذين لديهم عادات وتقاليد قد نجدها غريبة عنا. قد نستنكر ذوقهم أو عاداتهم ونعتقد أن معتقداتهم مزيفة أو شاذة أو شريرة. هنالك اتجاه نحو المراقبة أو منع اختلاف القيم والمعتقدات. وقد نخشى منهم أو نعتقد أنهم يمثلون خطراً على مجتمعنا. وقد نشعر أننا إن سمحنا لهم بذلك من دون تدقيق، فإن قيمنا العزيزة علينا ستتعرض للتقويض. ومن هنا تأتي الرغبة في كبحهم.

قد يختلف الشخص المتسامح مع الآخرين في مجتمعه، ولكنه يكبح أي عمل

في اضطهادهم. إنه يؤمن أنه لديه واجب أخلاقي في السماح بأن يكون للناس أنماط مختلفة في التعبير عن أنفسهم في الحياة. أن تتسامح ليس معناه أن تتفق؛ إنها مجرد وسيلة في أننا لا نبحث في منع الاختلافات المشروعة، ولا نستعمل القوة في اجتثاثها. لا حاجة للتسامح في أن يتضمن ما هو مسموح للجميع. إن المجتمع المفتوح والتعددي سيسمح بنوع من الحرية مادام أولئك الذين يشملهم لا يعملون على منع الآخرين من التمتع بالحقوق نفسها. لا يعني ذلك بالضرورة «السماح بكل شيء» ولا يعني أن يكون ذلك بمنأى عن مستويات معينة من النقد.

ينطبق التسامح على مدى واسع من الموضوعات: السلوك الأخلاقي والمعتقدات الدينية والممارسات والتقاليد الخاصة بكل عرق من أعراق المجتمع. إنه على العكس من أي تمييز على أساس عرقي أو ديني أو اقتصادي أو اجتماعي أو جنسي. وهو ينطبق أيضاً على أنماط الاعتقادات الفلسفية أو العلمية أو السياسية.

أن نتسامح يعني أن نحترم الآخرين أفراداً وجماعات ـ ولا يعني أننا نتفق معهم، بل نفهم قواعد اللعبة، ونسمح بنوع من حرية الاعتقاد والذائقة والمهن. في الاصطلاح الإنجيلي أن تسامح الغريب معناه أن تفهم أن الإنسان قد يكون غريباً في بلاد أخرى ويأمل بنوع من التعاطف معه. إن التسامح خصلة إنسانية أصيلة. لقد دافع الإنسانيون، في العصور الحديثة، عن الحق في أن يختلف غير المؤمنين والهرطقيين ضد متطلبات التطابق. إنه مبدأ أخلاقي عام وتعبير عن الآداب السلوكية الأخلاقية.

التعاون: العمل سوية بسلام وانسجام وسكينة ومن أجل خير المجتمع 5Á والحفاظ على حالة السلام والصداقة بين الأفراد ضمن المجتمع وبين الجماعات والدول، أمر ضروري من أجل النظام الاجتماعي الإنساني. وعكس ذلك، عدم القدرة أو الرغبة في العمل مع الآخرين لمنع الحرب والعداء والصراعات وعدم الانسجام.

إن السعي إلى الحفاظ على السلام وعدم اللجوء إلى العنف من أجل بحث أهدافنا يشكل قاعدة أساسية يفهمها كل الأفراد والأمم مبدأياً ولكنهم للأسف الشديد غالباً من ينتهكونها عمليا. علينا الاستفادة من كل جهد في إدارة اختلافاتنا بسلام. وتكون المناقشات مفضلة لمنع الصراع أو التخاصم، ولكن اللجوء للتسلط أو القوة أمر شائع في الشؤون البشرية. إن المبدأ السلوكي الأخلاقي يحتم علينا أن نتجنب هذا وعدم فرض إرادتنا على الأفراد الآخرين أو الأمم. إن العداء للآخرين الذين لا يمكننا الاتفاق معهم هو أمر مدمر لكل القيم البشرية. إن سمحنا بإفلات زمام الأمور فإنه سيقود إلى القتل أو تشويه الناس وتخريب ممتلكاتهم. والمقاييس الدفاعية عن الحماية الذاتية مبررة ضد العمل العدواني.

إن حالة الحرب، على الرغم من أنها شائعة، لا تكاد تكون الحل الأمثل لحل الخلافات. يؤدي العدوان أو الخوف منه إلى الثأر أو يشجع على التصادمات الناشئة من الاحتلال. إنها تولد الحقد الدفين ضد كل من العدوين وتكشف عن الرغبة في الانتقام. لقد لجأ الناس إلى الحرب لأي من الأسباب العديدة: كالتوسع الإقليمي أو اضطراب المصالح أو نهب الأموال، أو لسبب دفين، أو لمحاربة الوثنيين أو البرابرة لتغيير عدم إيمانهم بالقوة، بزعم مساندة البشرية، أو الإطاحة بالطغاة أو المجانين. إن الدعوة إلى الحرب غالباً ما تكون مرعبة في المعاناة والتعاسة الإنسانيين.

ورد في «العهد القديم»، علينا أن نحول السيوف إلى محاريث. وورد في «العهد الجديد»، «أدر الخد الآخر». ولكن كلاً من الوصيتين قد انتهكتا من قبل الأمم اليهودية ـ المسيحية. لقد استعمل القرآن تبريراً للجهاد، أو الحرب المقدسة في الشرق الأوسط.

إن مبدأ التعاون يحثنا إلى أن نجد حلاً مناسباً لاختلافاتنا، وهو أن نكافح بكل قوانا من أجل أن نتفاوض، وإلى أن نصل إلى توافقات يمكن أن ترضي كل

الفرق المشتركة في التفاوض. إننا بحاجة إلى الاحتكام إلى القانون لا إلى التصادم. لسوء الطالع يغني الرجال والنساء للسلام مثلما يشتركون في المسيرات الحربية.

وضمن ظروف معينة يمكن للحرب أن تكون عادلة. وخاصة عندما تكون الحرب من أجل الدفاع عن النفس. من الصعب تبرير حرب عدوانية أعلنت لبحث أهداف سياسية واحدة أو لامتلاك السلطة أو من أجل تكديس الثروة. وتحت ظروف معينة قد لا يمكن الوصول إلى تفاهم مع جيش غاز أو شخص خطر. على المرء أن يحاول في التفاوض أو التسوية، ولا يتم اللجوء إلى الحرب إلا عندما يعجز عن ذلك. وليس إلا في الموقف الواضح الخطورة والعاجل ومن أجل الدفاع عن النفس يكون من المبرر استعمال القوة. إن القاعدة العامة للسلوك الأخلاقي اللائق هو أن نتعاون على قدر ما نستطيع، أن نتقبل وجهات نظر الآخرين المختلفة، أن نتفاوض. وفيما إذا كان من الممكن القيام بذلك يبقى معتمداً على الظروف، ولكن من الأحرى أن تكون هذه هي القاعدة والهدف للسلوك.

على الرغم من أن قائمة الآداب السلوكية العامة السابقة لديها من الأهلية مما يجعلها مقبولة على نحو واسع، على الأقل من الناحية المبدأية، من خلال أغلب المجتمعات المتحضرة، فإن الكيفية التي تعمل وفقها تعتمد على ظروف الفرد أو المواقف الاجتماعية المختلفة. ومسألة أنها غير مدركة على نحو كامل في السلوك البشري لابد أن تكون واضحة للجميع. ليس هناك من هو كامل. هذه المبادئ العامة تؤسس فقط لتقاليد من السلوك الأخلاقي اللائق؛ إنها لا تعد بأن كل شخص سوف يلاحظها. ومن المؤكد أنه عبر الصراعات التي يمكن أن تحدث في الحياة أحياناً، فقد ينتهك الأفراد تقاليدهم ومبادئهم. ولكن ذلك يجب أن لا يضعف واجبنا في تفهم طبيعتها الملزمة، والعيش في كنفها متى أمكن ذلك.

لقد ظهرت مؤخراً الكثير من المبادئ الأخلاقية في بعض المجتمعات، وأن البعض من التي ناقشناها لاتزال مفتوحة للنقاش مع الآخرين. إن كلاً منها نتاج قابل للمراجعة الأخلاقية الإنسانية.

وتتضمن هذه قانون حقوق الإنسان، وحق الخصوصية، والاهتمام الإيكولوجي بالبيئة، الأمر في البحث في المحافظة على الكائنات الأخرى في هذا الكوكب، واجبات أجيال المستقبل، الحاجة إلى تجاوز الحدود الأثنية، والحاجة إلى توسيع اهتماماتنا الأخلاقية إلى المجتمع العالمي الأوسع.

[4]

الهدف الأعلى: أخلاقيات السعادة

ما هي القيمة؟

ناقشنا حتى الآن الآداب الأخلاقية العامة التي عرفتها المجتمعات المتحضرة والتي من الأحرى بالعقل النقدي الأخلاقي أن يأخذها بالاعتبار من أجل الوصول إلى قرارات حكيمة. على الرغم من أننا تطرقنا إلى السلوك الأخلاقي للفرد، فقد تركنا جانباً السؤال المتعلق بالإدراك الشخصي للحياة الطيبة والدور الذي تلعبه في الاختيارات الأخلاقية.

تجاهل بعض الأخلاقيين الأسئلة التي تتعلق بالقيمة، لأنهم اعتقدوا أن واجباتنا تجاه واحدنا الآخر وعلاقة الفرد بالمجتمع هي جوهر السلوك الأخلاقي. وينطبق الكلام هنا على كانط، لأنه إعتقد أن السلوك الأخلاقي لابد له أن يهتم بتطبيق القانون الأخلاقي، وليس لاعتبارات السعادة الشخصية أو الخير. ولكنه كان مخطئاً، لأننا لا نعيش ببساطة من أجل أن تطاع الوصايا الأخلاقية لذاتها، بل أننا نطيعها لدورها الإجرائي في المساهمة في المجتمع الصالح، في بحث السعادة الفردية للإنسان. ثمة شيء خادع في النظريات اللاوجودية) (Deontological) التي تتعلق بالنظريات الفلسفية التي ترى أن مضمون الفعل الأخلاقي لا يعتمد كلياً على عواقبه)، فيما إذا كانت دوافعها

دينية أم لا، التي تتخذ من الفضيلة والواجب جوهر الحياة الأخلاقية وتقلل من الحاجة إلى إدراك المجموعة المتألقة للقيم التي نجلها.

لقد ركز الكثير من الفلاسفة على الخير. وبحثوا في تعريف طبيعته وما هي أوصافه وكيف يتم تعزيزه. وظهرت مفارقة حادة بين المقتربين الإنساني والديني تجاه الأخلاقية: فهل أن السؤال المركزي لعلم الأخلاق يضخم أعمال الخير، أو القيام بما هو صالح؛ إدراك القيم، أو إطاعة المبادئ الأخلاقية؟ مما لا شك فيه أن كلاً من الخير والصحيح أساسيان لأية نظرية كاملة في علم الأخلاق، ولكن ما هو مركزي بالنسبة لنا هو الحاجة إلى اكتشاف نوع من القياس للمتعة الخلاقة والاغتناء في الحياة.

إن القيمة لها معنى أكثر خصوصية من الفكرة الكلاسيكية عن الخير، ويمكن أن تمنح تعريفاً سلوكياً أو عمليا. إن مفهوم الخير مفهوم مجرد إلى حد بعيد، وهو غالباً ما يرتبط فقط بالخير الأخلاقي، بينما ينطوي مفهوم القيمة على مدى أوسع من النشاطات الإنسانية (الاقتصادية والاجتماعية والجمالية وغيرها). إن القيمة كما أفسرها، لا توجد مستقلة عن عمليات السلوك المفضلة التي يعبر عنها من خلال الكائن الحي. حيثما يكون هناك نشاط سببي مختار[1]، فإن التقدير مستمر. إن الدودة لها قيمة بالنسبة للطير، وكذلك الجزرة بالنسبة للحصان وكذلك العظمة للكلب. إن الكائنات الحية منشغلة بعدد من النشاطات المركزة، هي على سبيل المثال قرض الأشياء واستهلاكها. هنا يكون للقيمة أساس بايولوجي؛ إنها مختلطة بالغريزة والاستجابة الشرطية. هناك أعمال خير لها وظيفة قيمة بقاء بالنسبة للكائن الحي، وهو يتعلم الكفاح من أجل ملائمتها لأغراضه. إن المتع التي تتراكم في عملية الاستهلاك تخدم أيضاً لتكون محفزاً للفعل المستقبلي، وهنالك محاولة للانشغال في نشاطات البحث عن أشياء يمكن أن تستمد منها المتعة.

---

(1) For a fuller discussion teleonomy see Paul Kurtz, *Decision and Condition of Man* (Seattle: Unversity of Washyington Press, 1965).

إن نشاطات القيمة ضرورية أيضاً من أجل المحافظة على الكائن الإنساني. إن الأنواع هي عمليات بايولوجية بنيت في مواهب طبيعية وراثية من أجل بقائها. خلال عملية التقدير، هنالك أشكال معينة من السلوك تسهم في البقاء ولها قيمة التكيف. الأكل والتسافد والهرب من الخطر والقتال كل هذه استجابات سريعة تلائم الظرف في السلوك ولها وظائف بايولوجية مهمة. كل عضو من الأنواع يطور حاجات راسخة جسدية وتوازنية، وكل هذه لابد من إشباعها لو أراد الكائن الحي الحياة والقيام بوظائفه. وترتبط المتعة بذلك الإشباع لحاجاتنا الأساسية، كالغذاء والجماع. إن البشر، بكونهم كائنات حيوانية اجتماعية معقدة، لا يمكن لهم أن يعيشوا إلا بصورة جماعية؛ وقد بنيوا في آليات حياتية تعاونية من أجل أن يتمكنوا من القيام بذلك. إن حوافزنا تتحول، عموماً، في سياقات حضارية ـ اجتماعية، فتظهر قيم جديدة في الحضارة. إن الطعام والشراب ضروريان للحياة، ويتناولهما الناس بأساليب متعددة. وتبرز التنوعات تبعاً للمجالات الجغرافية والتراث الاجتماعي ـ الثقافي الذي نعيش ضمنه: من السباغيتي أو الرز حتى الحلزون المطبوخ وشرائح اللحم.

وكذا الحال ثمة مدى واسع من الحاجات الجسمية ـ النفسية والرغبات: الفعاليات الجنسية، الفن، الموسيقى، الشعر، السياسة والفلسفة. لهذا لدينا طبيعة مزدوجة: إن قيمنا مركبة من خلال مواهبنا الوراثية، ولكنها أيضاً طيعة ومتحولة بكونها استجابات مشروطة ومدروسة. من الناحية الفعلية، من المؤكد أن هنالك أنواعاً من الأذواق والتقديرات تم التشجيع بها ضمن السياقات الثقافية التي ولد بها البشر وازدهروا. في المجتمعات ذات الأنظمة الاجتماعية المعقدة، تتشابك النشاطات الاقتصادية لإنتاج وتوزيع عدد لا يصدق من السلع والخدمات سيجدها المستهلكون مغرية. ويصبح الناس يعتمدون على تلك السلع ليمسوا بحاجة ماسة إليها كي يعيشوا. ويعطى لقيمتها سعراً ويكون علينا أن ننشغل بالمقايضة والتجارة كي نحصل عليها. ونصل إلى التلهف والابتهاج في الملابس والحلي والطعام الشهي والأثاث المرفه الذي توفره الحياة الحضارية.

ربما تعرف القيمة على أنها هدف أو غاية، لأي مصلحة ما، رغبة أو حاجة للكائن الإنساني الحي. إن القيمة متأتية في الأصل مما هو حي في الجينات وما هو نفسي اجتماعي فيها، المضمون والوظيفة. في أية عملية تقديريه، هنالك، أهداف، (غايات وأغراض) نبحث في الحصول عليها ونسعى للقناعة و/ أو المتعة في تنفيذها المكتمل. تتضمن القيمة كل من الأشياء والأنشطة. إنها مفهوم إجرائي، لأننا نتفاعل مع الأشياء في بيئة ما، كما أن الأشياء والخبرات تختلط وتتشابك. لذلك فإن تقدير القيمة له ترابطات. إنه يحتوي على (أمل) موضوعي مدرك أو متصور، عملية شاقة ومدروسة، ويحتوي كذلك على متع فورية وقناعة في التحقق.

البعض من القيم إجرائية إلى حد كبير، ونحن نتواصل مع الأهداف بسبب نتائجها. إننا نحفر مناجم الفحم ليس من أجل المنجم أو الحفر ذاته، بل إلى ما يمكن أن تؤدي إليه هذه الأفعال للحصول على الدفء والطعام. إن مفهوم القيمة الجوهرية يشير إلى ذلك الذي نبحث عنه في ذاته. من النادر أن يكون هنالك خط فاصل بين القيم الإجرائية والجوهرية بل بالأحرى هنالك تواصل. فقد نأتي إلى عملنا ونجد له قيمة جوهرية. فقد نتمتع بالطعام الطيب أو الموسيقى أو النبيذ أو الجنس أو اللهو من أجل اللهو، ولكن البعض من هذه الأنشطة لها نتائج نفسية أو فيزيولوجية خصوصاً إذا أخذت بإفراط. ثمة وسيلة تؤدي إلى غاية في السلوك. على الرغم من أننا نبحث عن وسيلة لبحث أهدافنا أو مقاصدنا، فإن نتائجنا نفسها مرتبطة عملياً، متأثرة، أو تتحول بوساطة وسائلنا. ما نرغب في بحثه محتمل لما هو ممكن أو محتمل.

في السلوك الإنساني، تكون عمليات التقدير ليست مجرد غريزية أو لاواعية؛ وهذه الأشياء تحدث مؤكد (كما تحدث عملية المص لدى الرضيع) ولكن أغلبها يتضمن الوعي. لذلك فإن دوافعنا ومقاصدنا، يتم التعبير عنها عبر مواقف شعورية ومتلاحمة مع الحالات الإدراكية للوعي. إن عمليات التفكر

والتأمل تتضافر لتركب لنا قيمنا. إن التقديرات ذات النزوع الذاتي أو التأثر المتحرك هي لذلك تتحول إلى عمليات تقدير لها هدف، حيثما نأتي لنعرف أو نفسر ونقيم قيمنا. نحن نبحث في مدحها في ضوء معرفة الموقف الذي نتصرف فيه. نحن نتعلم من أجل أن نحقق رغباتنا، نحتاج إلى أن نحسب احتمالية تحققه. نحن لذلك نزن النتائج ونقيم أفعالنا. نحن نقوم بتخمينات لما سيتلو إذا كنا سنركب سياق الحدث. ونحن نصوغ عدة استراتيجيات كي نحصل على مبتغانا. الأشياء التي نختارها للوصول غالباً ما تعتمد على تقديرنا لاحتمالية بحثها. في قصيدة إدوارد آرلنكتون روبنسون «منيفر شيفي» يتوق رجل إلى أن يصبح فارساً من العهد القديم أو أمير مدينة مديسي. ولأنه لم يستطع، يفقد عقله، وينهار من الفشل ليصبح مدمناً يائسا.

إن العقلانية أساسية لعملية التقدير البشري واختيار الإرادة. كيف تتقدم؟ من خلال حساب وقائع الموقف، في المقاصد المرغوبة، الأهداف التي نرغب في أن نحققها وكيف يمكن أن تكون متناسبة مع باقي المحفزات، الظروف التي نتصرف وفقها، وتقدير الجهد والزمن أو الثمن المطلوب لتنفيذ أهدافنا. إن الاختيار الحكيم يتضمن موازنة قيمة احد الأشياء إزاء الأخرى، التنبؤ بنتائج إنجازه، والكشف المتخيل لشبكته الذي يؤثر على القيم الأخرى التي نتمسك بها نحن مع الآخرين. دائماً ما نسأل أنفسنا فيما إذا كنا نحتاج شيئاً أو أننا مجرد نريده، و، إن يكن من الصعب الحصول عليه، فيما إذا كان حقاً يستحق الجهد. هنا تجلب العملية التقديرية اعتبارات قصيرة المدى وأخرى طويلة المدى.

لن يرغب الشخص المتعقل في أن يخاطر بالفائدة الطويلة الأمد (مثال ذلك، الزواج أو المهنة) مقابل قيمة حالية مؤقتة. إنه يتعلم المبدأ الاقتصادي، تحديدا، أن يمتنع عن الإنفاق والتمتع اليوم من أجل الاستثمار الرأسمالي في الغد. من الناحية الأخرى، يتساءل هل يتحتم عليه التضحية ب«كل» المتع

الحالية من أجل مستقبل قد لا يأتي أبدا؟ السؤال الأساسي، فيما لو أعطينا المدى الواسع من المصالح والقيم الإنسانية، هو أن نوازن القيم المتنافسة والمصالح وأن نحكم أياً منها يستحق الاحتفاظ به. يتعلم الشخص العاقل سريعاً أنه لو يرغب في المحافظة على صحته، فيكون من الضروري أن يتقيد في الأكل والشرب والعمل وحتى اللعب، وأنه لو يرغب في توازن ذهني، فإن بعض الاعتدال في عواطفه أمر ضروري. أو كما قال قدماء الإغريق، لا للإفراط بأي شيء، بل الاعتدال في كل شيء.

ثمة الكثير من النقاشات حول القيم والغايات التي تستحق المتابعة. يمكن للإنسان أن يفهرس العدد الكبير من الأشياء الثمينة التي نتمتع بتجربتها ـ وفعلياً كل السلع التي يعبر الناس بتفضيلهم لها. من منها يمكن أن يعد الأجمل والأكثر إقناعاً أو تحقق ما هو مرجو منها، ومن هي القبيحة وغير المقنعة ولا قيمة لها؟ في هذه النقطة تظهر اعتبارات القيم الثقافية، وقد نحاول في تطوير سلسلة أو ميزان للقيم، سلسلة أولويات، حساب للمتع. هل هناك خير أسمى يتحتم علينا البحث عنه من دون كل الأشياء الأخرى؟

ربما أحب مشاهدة مباراة لكرة القدم، أو مشاهدة الأوبرا، أو أذهب في إجازة إلى الكاريبي، أو أجمع الطوابع أو أقرأ فتجنشتاين أو أغني ضمن مجموعة أو أعمل لسبب ما أو أضاجع زوجتي أو أتمرن يومياً أو أقدم الصدقات لمن يستحقونها وأقوم بواجبي كما يجب. ولكنني لا أستطيع القيام بكل ذلك في الوقت نفسه وربما يتحتم علي أن أضحي ببعضها من أجل البقية التي لها نتائج ثابتة.

لماذا أبحث في هذه الأهداف؟ هل ثمة هدف جوهري أرغب فيه بشدة أكثر من غيره؟ بدأ الفلاسفة يتساءلون عند هذه النقطة، والإجابة الأكثر شيوعاً هي نعم، هنالك ما هو الأفضل: السعادة. ولكن ما هي السعادة وكيف يمكن أن تتحقق؟ هل هي الإثبات الإبداعي للذات أم لذة المتعة أم خدمة باقي الناس أم بلوغ حالة النعيم الأبدي في الحياة الآخرة؟

ما هو الجواب الإنساني لهذه الأسئلة؟ لو أخذنا التنوع الواسع في المنافع والقيم والأذواق والحوافز المختلفة المعبر عنها في الثقافة الإنسانية، ربما يعتقد أن من الاعتباط البحث في تعريف طقم من القيم على أنها مثل عليا. من هو «الأفضل» رمي النرد أم قراءة الشعر، التنعم بالشمس كل يوم أو العمل الجاد، حياة مكرسة لخدمة الآخرين أم التأمل المنعزل، المغامرة البطولية أم التراجع عن العالم؟ دائما ما يقاوم الطلبة في دروسي الفلسفية السؤال. وعند الرغبة في يكونوا منصفين عقلياً، يتوصلون ليكونوا ذاتيين: من نحن كي نقول أن أسلوباً واحداً في الحياة هو «الأفضل» من البقية؟ وأتساءل، «هل ثمة اختلاف بين الحياة النبيلة والمشروع الذي يقود فيه رجل دولة شؤون أمة، وآخر شهواني يقضي الأيام على مقعد الخمارة مستهلكاً كميات كبيرة من الكحول؟» من المضمون أننا نخاطر بالتهليل لمجموعة من القيم مقابل مدى واسع من التجارب والمتع وربما حتى مراقبة الأذواق بوساطة أمر مشرع قانوناً أو ثقافياً.

قد نتساءل: هل هنالك اختلاف بين فلورنس نايتنغل التي كرست حياتها لرعاية الجرحى والموتى من الجنود البريطانيين في كريمي وعاهرة كانت أيضاً ترعى الجنود بطريقة أخرى ولأسباب أخرى؟ أليس هنالك من سبيل لمقارنة حياة ألبرت شويتزر، على سبيل المثال، مع حياة أحد فرسان الشرطة؟ إن الزعم بعدم وجود معيار لتقدير المصالح والأذواق والتفضيلات سيقودنا إلى العدمية، حيث تكون كل القيم متساوية بسبب عدم وجود القيم، وليست هناك فروقات يمكن أن تقام حيث لا توجد اختلافات في النوعية والنبل. هل هذا موقف معقول يتخذ؟

يحدث هذا الجدل منذ قرون. وهو مركزي بالنسبة لتاريخ علم الأخلاق. كان أفلاطون وأرسطو قد أنكرا أن كل المتع جيدة، ووجدا أن البعض منها فقط جيد؛ وقد ميز جون ستيوارت مل بين المتع العليا والدنيا. عبر موقف أخلاقيات الإنسانية، كلا الجانبين له ثماره. نحتاج إلى أن نجيز أساليب حياة بديلة ومدى

واسعاً وغنياً من المتعة الإنسانية، ولا نبحث في منعها أو نشرع لعدم وجودها. كما يجب علينا أن لا نطابق ما هو مقبول ببساطة على أنه أعلى صيغة للحياة بوساطة مؤسسة قد تكون عمياء عن الرياء والحواجز التي فيها مقابل ما هو غير خاضع للدين ولكن له معنى. ومع ذاك، هنالك بعض العادات التي يمكن استخدامها على أنها مؤشرات، وتمثل مستويات معينة من التقدير. هل أن ذا اللحية الزرقاء الذي يذيب الأجسام في الحامض أم مدمن المخدرات مؤهل للمساواة في الاحترام مع المسيح أو آبي لنكولن؟سيكون من المضحك مناقشة أن أي شيء هو طيب كباقي الأشياء الأخرى، وحقيقة أن هناك كائن حساس مولع بشيء ما أو نشاط ما ويتمتع به لا يعني ذلك أن له قيمة معادلة لشيء آخر أو نشاط آخر.

إن بعض القيم أعلى من غيرها؛ البعض من المصالح لا معنى لها ولا قيمة بالنسبة للإنسان. البعض من أشكال الحياة عادية ومبتذلة، والبعض منها له خواص أصيلة تثير إعجابنا. نحن ندرك أن أنواعاً معينة من النشاطات تافهة وأنواعاً أخرى أكثر أهمية ومشرفة. من المؤكد أننا نمتدح القيم دائماً، وفي مدى واسع من الميادين. ضمن كل ميدان نحن نستخدم أحكاماً مقارنة: نحن نقول ثمة فنانون جيدون وآخرون غير جيدين، وشعراء متزلفين وطهاة وقادة سياسيين وموسيقيين وميكانيكيين وفلاسفة وعلماء. ونحن نعتمد في النقد على الجمال والمستوى الأخلاقي. قد تكون المستويات الأخلاقية التي نعتمد عليها غير ثابتة ولا مطلقة، وربما نسبية تبعاً للسياق أو حقل البحث، ولكننا في أقل تقدير نفترض أنها موجودة. إنها مستويات الذوق المتحضر، والتقدير التمييزي والخبرة الفائقة والكفاءة الحرفية.

مستويات التميز

من المؤكد أن هنالك معايير للقيم والإنجازات في كل ميادين الجهد البشرية

وهذه تتضمن مستويات نوعية للتميز. ما هو المميز؟ كيف نعرفه إذا رأيناه؟ كيف نحققه؟ هذه الأسئلة مهمة على نحو خاص لأخلاقيات الإنسانية التي يتهمها نقادها، خصوصاً من رجال الدين، أن ليس لديها مستويات أو قيم، ومادامت تدافع عن التسامح، فهي متسامحة تجاه التقلبات في الذوق الإنساني، بضمن ذلك الشهوانيين والأنانيين. ولكن هذه ليست هي القضية.

كما أوضح «مل»، هنالك اختلاف بين مستويات لذوق شخص بالغ متحضر مقارنة بذوق طفل أو بدائي. يقول «مل»: «من الأفضل أن تكون إنساناً غير قانع من أن تكون خنزيراً قانعا؛ من الأفضل لك أن تكون سقراط غير القانع من أن تكون أحمقاً قانعاً»[1] إن يكن الخنزير أو الأحمق يختلف مع هذا الحكم، فلأنه يعرف جانباً واحداً فقط من السؤال. لقد تذوق الإنسان الواعي تماماً كلا النوعين من المتعة ـ العالية منها (كالفكر والجمال والسلوك الأخلاقي)، وغير العالية (الجسدية فقط) ـ وتبعاً إلى مل، يتم تفضيل الأولى. لذلك، الأساس في مفهوم القيمة هي فكرة الوعي، لأن هذا يساعدنا على التمييز بين مستويات النضج والنمو. إن المعيار هنا هو ما يحكم به الشخص الذي حقق مواهبه فعلاً. يترك هذا مجالاً للأعلى في أن يصل إلى متع الفكر والجمال والسلوك الأخلاقي.

على الرغم من أن نقاش مل ليس غير معقول، أعتقد أنه يمكن أن يكون مبالغاً؛ فعلى المرء اتخاذ وجهة نظر متوازنة. فالقضية ليست دائماً أن الفكر والجمال والمتع الأخلاقية هي أعلى من المتع الجسدية المأخوذة من الطعام والشراب والرياضة والاتصال الجسدي أو الجنس، ولو أعطي الاختيار للناس فهم سيفضلون الأولى عن الثانية. قد يقول المرء أن ذلك يعتمد على الوقت والمكان والظروف عامة. ففي بعض الأحيان يفضل الإنسان ممارسة الجنس على زيارة متحف للفنون، أو يفضل أن يتمشى على أن يقرأ كتاباً أو يتمتع

---

(1) John Stewart Mill, *Utilitarianism*, Chapter 2.

بعشاء لذيذ ويشرب نبيذاً طيباً على أن يستمع إلى محاضرة من زميل له، أو يصرف المال على مشاهدة لعبة كرة القدم على المساهمة في جيش الخلاص.

الكثير ممن يسمون بالأخلاقيين هم مخادعون، خصوصاً عندما ينعتون المتع الجسدية على أنها أشكال «متدنية» من التجربة الإنسانية. ثمة فوبيا أساسية من المتعة تشتعل في أحشاء من هم مثل أولئك الأخلاقيين، الذين، على الرغم من أنهم طوروا القابلية على التمتع بالأدب والفن والرياضيات أو التواصل الروحي، فهم غير قادرين على التمتع بالطعام اللذيذ والشراب أو يمارسون الذروة الجنسية. إن هؤلاء الأفراد من الناس يعانون من الكبت حتى أنهم لا يستطيعون تقدير بهجة المتع الجسدية والبايولوجية من دون إحساس بالذنب أو الخطيئة، ويعيشون خارج حياتهم في سمو فقير وتعويض روحي أو أشكال أخرى من الزهد اليائس.

كنت سأناقش أن الإنسان كي يحقق حياته كاملة عليه أن يشبع حاجات التوازن البايولوجية الأساسية والبقاء، ويتضمن هذا الحب الجنسي والذروة فيه. عندما تكبح يبدأ الاندفاع نحو المأساة بالغليان. في الماضي تم الاحتفاء بوجهات النظر المرضية نحو الجنس، مثل نظرة القديس أوغسطين التي هيمنت: الكاثوليكية الرومانية أو البوذية التي تؤكد على التبتل والتنسك هي في الأساس مرضية. إن الصراع ضد الرغبات الطبيعية أو اعتبارها شريرة، معنى هذا أن تعلن الحرب على جسدك، أو أن تتحامل عليه وتكرهه مما يؤدي غالباً إلى المرض العضال. إن ما هو مسكوت عنه من البؤس واليأس تسبب في فقر تلك الأرواح التي اعتبرت أجسادها فاسدة ولذلك كانوا مجبرين على كبح رغباتهم الطبيعية! ربما أكون قد بالغت في الأمر. ربما ارتاح بعض الناس إلى التسامي وكما يبدو من دون تأثرات مرضية. ويقول البعض أن الذروة الجنسية قد لا تكون مهمة للجميع. ويزعم البعض أنهم قد عاشوا حياة متبتلة كاملة، إما باختيارهم المدروس أو عدم القدرة في إيجاد الشريك المناسب. وربما تكون

كلمة «مرض» قاسية جداً عليهم جميعا. ولكن أليس التبتل مشابهاً للشخص الأعمى أو الأطرش بسبب الهدوء الذي منح له؛ وألا يمكننا القول أن قابليته للتمتع بالمتع الجسدية غير نامية؟

ومع ذلك، فإن يكن ثمة من هم مضطربون من غير القادرين على تقدير الميول البايولوجية والوراثية، فثمة أيضاً من لم تتطور لديهم الميول في الفكر والجمال والسلوك الأخلاقي والقيم الاجتماعية، التي تدعى بالفضائل الحضارية. مما لا شك فيه أن المصطلحين «أعلى وأدنى» هنا مضللين، لأننا نرغب في أن نتطور بكمال كأشخاص، ومن الصعب فرض الأولوية أو الثانوية وفق مقياس القيم. ليس الأمر أمر أما/ أو، بل من الأحرى بنا أن نحصدهما معاً في أي نوع من الحياة المدورة. لقد أسميت هذا في مكان آخر حياة «الوفرة» exuberant أو المتعة القوية، لأنه لا يحتوي على المتعة البسيطة السلبية بل المتحققة على نحو خلاق. المثالي هنا هو الشخص القادر على إدراك وتقدير مدى واسعاً من القيم البايولوجية الوراثية والاجتماعية الوراثية. ولابد من الانتباه، على أية حال، بشأن الدفاع عن القيم الكهنوتية كما فعل أ. ه. ماسلو[1]، ما لم نوضح بجلاء أن المتع البايولوجية أساسية مثلها مثل تلك المتع الخلاقة العليا من أجل سعادة الإنسان.

إن المفهوم المعياري ل «التميز» قابل للتطبيق هنا؛ إنه يشير إلى الأبعاد المختلفة للتجربة. فمثلاً نحن نقول أن الشخص يتمتع بصحة متميزة، ونقصد أن نظامه الفيزيولوجي يعمل جيداً. فهو يتغذى جيداً، ويمارس الرياضة الملائمة وهو سليم من أية عاهات كبيرة أو أمراض. على العكس من ذلك، قد يكون شخص آخر عليل الصحة. لهذه المعايير نوع من الأساس الموضوعي في واقع يمكن اختباره. على الرغم من أن ظروف الصحة نسبية لأي شخص، فإن

---

(1) A. H. Maslow, *Toward a Psychology of Being* (New York: D.Van Nostrand, 1962).

بعض المعايير التجزيبية لها صلة وثيقة بالتقدير. ويمكننا أيضاً أن نمتدح العلاقات الاجتماعية للشخص، لنرى إن كانت متناسبة معه أم لا. فعلى سبيل المثال، تقع بعض العائلات في صراع انفعالي. قد يكون الزوج والزوجة غير متوافقين ويعيشان في شجار مستمر، وبالنتيجة يعاني أطفالهما من ذلك. رغم أن مثل هذه الأحكام المعيارية نسبية بمعنى أنها تشير إلى أشخاص معينين لهم ميول غير عادية مختلفة، فنحن مع ذلك يمكن أن نميز بعض العلاقات بكونها صحية وأخرى بكونها ضارة.

في التراث الفلسفي أشار الفلاسفة إلى الدور الفعال الذي يلعبه العقل في ضمان السعادة. لكن العنصر الأساسي الذي دققوا فيه هو الحاجة إلى تطوير العاطفة الجياشة. في العلاقات الناضجة، لابد من وجود رابط المحبة، ولابد أيضاً من نوع من التأكيد على حاجات ومصالح الآخرين. كل هذا يقترح مستوى مزدوجاً من المعيارية. أولاً هنالك الحاجة إلى إشباع حاجاتنا الأساسية ورغباتنا المتوارثة بايولوجياً واجتماعيا. وعدم القدرة على عمل ذلك تؤدي إلى اعتلال الصحة. ثانياً، هنالك الحاجة إلى إنجاز درجة معينة من الانسجام والتناغم في البيئة الاجتماعية، خصوصاً في العلاقات العائلية الحميمة التي يتقابل الناس فيها وجهاً لوجه.

من الواضح أن فكرة التميز يمكن أيضاً أن تطبق على ما يسمى الوظائف الخلاقة العليا، مهاراتنا الفكرية، على سبيل المثال. البعض من الأفراد بطيئو التعلم، قليلو القراءة أو غير قادرين على إدراك العمليات الرياضية أو العلوم، بينما يبدو أن أفراداً آخرين موهوبين، مرهفو الإحساس، وذوي قدرات عالية. إننا نمنح الطلاب الدرجات تبعاً إلى مقياس الإداء الأكاديمي. إننا نطري على الإبداعية الجمالية. ندرك العبقرية الموسيقية لموزارت أو بيتهوفن، والمواهب الفنية لليوناردو دافنشي أو فان كوخ. إن معايير الحكم النقدي تمكننا من تقدير عمل فني وتقديره من خلال جمالياته. ومن هنا فنحن نستعمل معايير التميز عبر الحياة.

السؤال المركزي هو فيما إذا تكون هناك مستويات للتميز «الأخلاقي». هل من الممكن التضاد ومقارنة التنوع الواسع في الأذواق والتقديرات، والحكم فيما بينها؟ هل يمكننا الحكم بين مختلف أساليب الحياة ونطبقها وفق مصطلحي «الجيد والرديء»؟ إن يكن الأمر كذلك، فعلى أي أسس؟

النقطة الأولى التي لابد من إقرارها أن كل إجراءات التقدير «نسبية أو غير مطلقة». ويمكن اكتشاف القليل جداً من المعايير المطلقة. لذلك نقول أن كل المعايير نسبية بالنسبة لفئة من الناس وبالنسبة لأدائهم. إننا، على سبيل المثال، يمكن أن نصنف رياضيي الساحة والميدان، ولكن فقط على أساس أداء الرياضيين الآخرين. وقد نعمل ذلك من خلال تفحص الأرقام الأولمبية. فليس غير أولئك الذين حطموا الأرقام الجديدة أو من حصلوا على الميداليات الذهبية، مثل روجر بانستير وفاني بلانكين ـ كيون وبافي نورمي أو رافي جونسون، مؤهلون للتميز في الميدان. لذلك ف«التميز» مصطلح نسبي تماماً، يمكن تطبيقه على البشر المهتمين بنوع من النشاط واعتادوا على أن يقارنوا قدراتهم وإنجازاتهم. ونحن هنا نتحدث عن التميز الرياضي، لا التميز الأخلاقي، ونقوم بتطبيق عمليات قياس.

الاختبار الثاني للتميز هو «الانسجام» في الأداء. إنه ليس نجاحاً منفرداً ـ مهماً إلى درجة التسجيل ـ بل هو إنجاز خلال فترة زمنية وهو ما يؤثر فينا كثيرا. طفل معجزة، مهما كانت موهبته، قد يحترق مبكراً ولا يسمع عنه شيئا. ليس كل أحد هو «يهودي منوهين»، الذي يعرض البراعة الفنية الفائقة عبر حياته. ولذلك نقول أن وردزورث ووايتمن شاعران عظيمان وأن مايز فان دير روهي وفرانك لويد رايت معماريان عظيمان وأن آينشتاين ونيوتن عالمان عظيمان. مثل هؤلاء الأفراد يعدون عباقرة في ميادين محددة لأن أعمالهم فتحت آفاقاً جديدة. إن انجازاتهم أو اكتشافاتهم عرفت بكونها لم يسبق لها مثيل أو هائلة أو

متفردة ونتيجة لذلك عرفت من قبل العامة من الناس. هل تتطلب الجودة الاستحسان العام؟ لقد اعتبروا متميزين ليس لأنهم أنجزوا الإدراك، بل بسبب الصفات الجوهرية لأعمالهم، التي تبين الإبداع والجدة والاكتشاف. إنهم يستحقون الإشادة لأنهم زادوا من توقعاتنا، وقاموا بإسهامات بارزة.

علي أن أضيف أن هنالك ما لا يحصى من الأشخاص المبدعين من الذين لم يعرفوا في حياتهم ولكن تميزهم وإبداعهم قد عرف في آخر الأمر. ومثال ذلك، أن فان كوخ لم يكن معروفاً بكونه عبقري خلال حياته، وقد لعن نيتشه بكونه رجلاً شريرا.

مما لاشك فيه أننا يمكن أن نقدر بعض أشكال التميز، مثلما يستلم شخص الدرجة الكاملة في امتحان ما. في الغالب يكون المفهوم التقديري نوعياً ومن الصعب تصنيفه عددياً؛ ولكن التميز ينفذ لمعانه، مثل البلور الباهر، ونحن مندهشين بجماله الأخاذ. إن معايير التميز الأخلاقي نسبية تبعاً إلى مستوى موهبة الشخص وإنجازه. قد لا يكون الشخص عبقرياً، ولم يقم باختراعات جديدة، ولكنه مع عمله بالمواد قد يظهر لديه نوع من التميز. علي أن أوضح أن في التركيز على التميز، يجب أن لا نركز على نخبة صغيرة فحسب. لابد أن لا نحكم بنوعية حياة شخص من خلال شهرته أو مكانته، ولا بمعيار فيما إذا كان هو أو هي عبقرية أو قد قام أو قامت باكتشافات باهرة أو إسهامات للعالم.

إن التميز معيار نسبي يمكن تطبيقه على الفرد وفقاً لظروفه، حسب شخصيته والحقائق البيولوجية والبيئية في حياته، والظروف الاجتماعية التي يجد نفسه فيها. إن حياة النبالة التي أتحدث عنها لها احترام ورفعة، وليست التي تليق فقط بالملوك والرؤساء، بل أيضاً الأشخاص العاديين. إن التميز يظهر متى ما يكون هناك تمازج منسجم ومتناسق. حتى في الألم والمعاناة والاختلاف والمأساة ـ وربما على الرغم من ذلك ـ تكون للحياة قيمتها. مثل هذا الشخص لا يعيش حالة متدنية من الفشل وخداع النفس. تفرز حياته صفات بالغة التهذيب. حياته

«ثمينة»، بالنسبة له وللذين من حوله. ليس المطلوب من الإنسان أن يرسم الموناليزا كي يميز حياته بل فقط بيته الخاص. ولا حاجة بالإنسان أن يبني صرحاً؛ بل يمكن أن يبني مسيرة حياته الخاصة التي رعاها بالحب. يمكن للإنسان أن يعبر بنوع من الفن والبراعة في العيش، حتى لو تكون في ظروف متواضعة.

لا يمكن للكمال أن يكتمل لدى أي شخص، فلكل الناس مثالبهم. على الرغم من محددات الشخص وعيوبه هنالك قيمة نوعية ربما لا تزال تعبر عن نفسها. إن حياة الإنسان، لو عاشها جيداً، يكون من الرائع النظر إليها، على أنها عظيمة وكيان مبهر، مثل شجرة جوز مدهشة أو أسد مهيب. نحن بحاجة إلى تقدير ما يقصد بالإنسان، ولا نفهم الخطأ بأن على المرء أن يكون عبقرياً أو قديساً ـ فما نحن إلا بشر.

نعود إلى السؤال: من خلال موقف القيمة «الأخلاقية»، ماذا يقصد أن يكون لتطبيق معيار التميز معنى؟ هل يمكننا أن نطبق مصطلحات «الصفات الرفيعة» و «الامتياز العالي»؟ نعم يمكننا. إننا هنا نطري على: (١) «أنماط» القيم التي تبقى في ذهن الإنسان وتلك التي تنشطه، (٢) «أسلوب» الحياة التي تبناها الإنسان، و(٣) كيف ارتبط بالناس الآخرين في محيط تفاعله الاجتماعي. في ما يخص التمايز الأخلاقي، فأنا لا أشير ببساطة إلى الاهتمام الرئيسي للإنسان أو مهنته ـ مع الإقرار بأهمية ذلك وإمكانيته في الإقناع بشأن إنشاء الحياة الطيبة ـ بل إلى المجموعة الكاملة من القيم والمبادئ المعلنة في الحياة بأكملها. يمكن أن يكون الإنسان فيزيائياً عظيماً لكنه يعيش حياة بائسة، وقد يكون أستاذ رياضيات عظيم ولكنه لا يعرف كيف يشغل سيارته، ويمكن أن يكون شاعراً مرهف الحس ولكنه زوج سيء. لا أرغب في التركيز على جزء الرجل أو جزء المرأة بل على الحياة بأكملها لشخصية متطورة. ما هي الأجزاء المقومة في الحياة التي تمكننا من أن نقول أن الشخص يحتذى به وأنه قادر على القيام بنوع

من العمل النبيل؟ ما هي الأفعال المحترمة، علامات الكمال والتميز التي تعلن عن نفسها؟

من خلال الموقف الإنساني، تكون ثمرة الحياة أن نعيش بطيبة ونحقق اليسير من السعادة. تتضمن السعادة بالنسبة للفرد نوعاً من تحقق الوصول إلى اكتمال كيان الإنسان. إن حياة الإنسان تشبه العمل الفني. إننا منغمسون في العملية الإبداعية من خلال إعطاء الشكل والبنية والوحدة والتناسق لخططنا ومشاريعنا. لقد مزجنا الألوان والنغمات والأشكال والصور وثبتناها على اللوحة. إن حياتنا هي جزئيا من إبداعنا. وما ينتج هو تبعاً لاختيارات وأفعال قمنا بها عبر الكثير من السنوات والعقود. هل أن النتيجة النهائية هي من صنعنا؟ هل نحن قادرون على جمع الأجزاء معاً، كي نكمل أحلامنا ومشاريعنا ونمنح نوعاً من الوحدة والترابط لعالمنا؟ لا يمكن لأي أحد كان أن يبدع تحفة فنية، أو يبني مسيرة حياة يشار لها بالبنان، أو يعمل حياة نموذجية. لقد فشل الكثيرون. وتبددت حياتهم، لقد غلبهم الخوف والجبن، لقد غرقوا في سنين الحزن. لم يجدوا لأنفسهم المكان اللائق وسط نظام الأشياء. ولذلك، فقد أدينوا ليس من القدر فحسب (إذا تكلمنا استعاريا) بل أيضاً من عدم قدرتهم على بحث أشياء عظيمة. ولا أقصد بهذا الآمال الاجتماعية بل آمالهم الخاصة. فكم هناك ممن عاشوا حياة فاشلة وزيجات غير متوافقة وحياة يائسة؟

هل يمكن لحياة الإنسان أن تكون غير ذلك؟ نعم، إلى حد ما، ولكن أن يكن الأمر كذلك، فكيف وبأي معنى؟ الحياة الأخلاقية الكاملة، تقاس وفق الشروط الشخصية، تتضمن الإحساس بالتحقق والإنجاز، والإدراك الواعي الذي لدينا، مهما كان متواضعاً، المشاركة مع العالم، التعبير عن مواهبنا، وعمل شيء مفيد ومنتج وفق شروط مثلنا الخاصة. أن نكون قادرين على ذلك يمكن أن يقودنا إلى حياة ممتعة وخلاقة، حياة سخية ومتدفقة ومغامرة. إن السعادة، بمعنى ما، يمكن أن تتحقق من أغلب الرجال والنساء، ولكنها تعتمد على ما نقوم به. إنها

تعتمد على قدرتنا في أن نشبع حاجاتنا الأساسية، ولكن أيضاً في قدرتنا على أن نعبر عن مواهبنا الخلاقة في أي ميدان نختاره.

ثمة بالطبع مآس كبيرة وحوادث لا يمكن التنبؤ بها وكوارث. قد يصاب أحد ما بسيل من الأحداث، من غير خطأ ما منه تمنعه من يكمل حياته بشكل مرض. لذلك يلعب الحظ دوراً أساسياً في الحياة: فأن تكون في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح، أو أن تكون غائباً عن المكان الخطأ في الوقت الخطأ. ولكن على الرغم من ذلك، فإن ما يحدث لنا يعتمد على ما نفعله، كيف نستجيب للتحديات، فيما إذا نتعامل معها بحكمة، كيف نخطط لحياتنا، نوعية اختياراتنا، الناس الذين نرتبط بهم، اهتماماتنا وأنشطتنا، انشغالاتنا ونوع المهن التي نعمل بها، كيف نتكيف ونقاوم على الرغم من التنوع، وكيف نستجيب للفرص الجديدة.

من المسلم به أن البعض من النماذج الدينية الكلاسيكية لها باع طويل بالحس اللاإنساني وهم مصدر للبؤس المتجذر والحزن. إنني أشير إلى تلك الأنظمة الأخلاقية التي تعظ بالتراجع عن هذا العالم، كالبوذية، التي تدافع عن إبعاد الرغبة من اجل الوصول إلى حالة السكون «النرفانا»، أو نوع من المسيحية، التي تؤكد على الخلاص في الحياة الأخرى. المثال البروميثيوسي هو تحدي الآلهة والأقدار، وفي تبني الموقف المتمرد، أن نبهر عالمنا بالإنجازات. إن اخترنا العيش خارج جنة عدن، بعد أكل الثمرة المحرمة، نحتاج إلى الشجاعة كي نقاوم ونستمر على الرغم من الاختلاف. هذا هو موضوع الثقافة الإنسانية؛ وهو نتاج آمالنا وطموحاتنا، نتاج مخيلتنا وحيلتنا، وكذلك حزمنا في أن نحقق أعلى رؤانا. إن مادة وخلاصة حياتنا الخلاقة معبر عنه في التأثيرات البطولية: عدم الرغبة في تقبل الهزيمة، والتصميم على خلق عالم جديد ندرك من خلاله طموحاتنا.

إن مفتاح التميز في الحياة ليس موجوداً في الإشباع البسيط لحاجاتنا، أو حتى

في بحث طبيعتنا، .بل في تجاوزها من خلال القفز إلى الأمام وإنجاز الأعمال الشجاعة. إن النبالة الأخلاقية تمثل نفسها أفضل تمثيل من خلال القيام بالخطوة الأولى نحو المجهول عندما يخشى كل الآخرين فعل ذلك، من خلال إشعال شمعة بدل لعنة الظلام، ومن خلال البحث في الوصول إلى آفاق جديدة لأنفسنا. إن الشخص الخلاق قادر على الاختيار «الوجودي»، الراغب في التحكم بمصيره (أو الراغبة في التحكم بمصيرها) على قدر الإمكان، أن يحلم بتخوم جديدة وأن يوسع الجهد ليحقق كل هذا. إن الشخص الخلاق غير متشبث بالماضي، وليس منغمراً باللحظة الراهنة، بل بدلاً عن ذلك، يركز طاقاته على بلوغ أهدافه المستقبلية. إنه لا يتنعم بالموجود ولا يخوض في العدم، بل تواق للدخول إلى عملية البهجة الآتية، لأن هذا هو المفتاح الديناميكي للحياة.

في كتابة هذه الأسطر، لست غير واع لإمكانية نوع من الشكوكية، لأنني وصفت أسلوب حياة تم التأكيد عليه في ثقافات معينة ولكن ليس في كلها. تم التعبير عنه في الحياة الأمريكية المعاصرة والأوربية حيث الإطراء على وجود العلماء المبدعين والفنانين والمعماريين وذوي الإنجازات العالية. ولكن لم تركز كل الثقافات على ذلك؛ لقد بحث البعض عن مثاليات أخرى، مثل الهدوء الديني أو الانعتاق الروحي. هل أن ما أقدمه يعبر بمعنى ما عن القابلية البشرية العامة، مهما كانت الثقافة؟ ليس كل الناس في كل المهن قادرون على الإنجاز العالي. ومع ذلك فأنا أقول أنه ينطبق على أي أحد. هل ينطبق على كاتبة الطابعة، عامل الحقل أو عامل المصنع الذي لديه وظيفة فيها القليل مما يسمح للإبداع؟ البعض من الناس يبتهجون في الحياة المغامرة ذات التحديات، بينما يفضل الآخرون الهدوء والأمان. هل أن المثالي الذي قدمته متيسر للنخبة فحسب؟

هذه الاعتراضات مقلقة، لأنها، إن كانت صحيحة، فستعني أن الحياة

السعيدة تعبير عن ميولي الشخصية (أو حتى تركيبي الفيزيائي)، وعلى الرغم من أنني قد وجدت مثل هذه الحياة مثيرة ونبيلة، قد يجدها آخرون متوترة ومتعبة. هل هنالك تبرير موضوعي لها، أم هي مجرد مسألة ذوق؟ يبدو أن البعض من هذه الانتقادات محقا. ربما أتحدث فقط إلى أولئك الأشخاص الذين امتلكوا المزاج البروميثيوسي الذين يمكنهم أن يجدوا الرفعة في حياة المخاطرة وبذل الجهد. ومع ذاك، ودعماً لفكرتي، أقر أن أحداً لو تفحص الدراما الإنسانية بأكملها، سيجد أن الإبداع يلعب الدور الرئيسي لكونه المنبع الرئيسي للحضارة، وأن كل شخص يمكنه أن يسهم في التطور الإبداعي، مهما كان متواضعا. إن موجة الإبداع هي التي تميز الروح البشرية التي لا تغلب، وكذلك الحقيقة التي مفادها أن الرجال والنساء لا يرتكنون إلى الراحة، بل يثابرون للسيطرة على الأحداث ويحولونها لتكون لفائدتهم. إن الحيوان الإنساني بناء وفاعل، وهو خلاق بطبيعته. إنني أسلم بسهولة للحاجة إلى النظام، التناسق، للاحتفاظ بفورية التجربة، وفي أوقات للتحرر والاسترخاء من الحياة الشاقة. ورغم ذاك، فإن النشاط الخلاق ومحفز الإنجاز هي بواعث عميقة في داخل النوع البشري، مصادر العظمة والطموح، التي تمكننا من تجاوز حدود طبيعتنا لبناء ثقافة. الكثير من الكهنوتيين ضد هذه البواعث؛ إنهم يرغبون في خلاصنا من الغوامض وتحديات الحياة من خلال افتراض حياة أبدية من البركة. ولكن ماداموا يتنكرون للمغامرة الخلاقة فهم ضد البشر وأعداء للإدراك البشري.

الهدف الأعلى

هل يمكنني أن أكون أكثر دقة؟ ما الذي يحدد التميز الأخلاقي؟ ليست ببساطة حياة المتعة أو اللذة بل إنجاز خلاق واحد. من الممكن تحديد صفات ومميزات مثل هذه الحياة المتميزة؟ ربما يكون مصطلح الأعلى يمثل أفضل وصف لهذه الحالة من الإنجاز الخلاق. لا أحد يمكنه أن ينال الكمال، وهنالك درجات

للإبداع يمكن لأي إنسان أن يكتشفها في داخله ويعبر عنها. سأتبنى الأعلى لأقصد به الملموس، الحالة المجربة، تلك التي يمكن أن تتحقق هنا والآن. ليس على الإنسان أن ينتظر النرفانا أو الخلاص في العالم الآخر.

أولاً، ربما نميز تلك الحالات من التميز التي تنطبق على الفرد وهو يبحث الإدراك الشخصي والإنجاز المبهج. ثانياً، ثمة تميزات تنطبق على الفرد وهو يرتبط بالناس الآخرين ضمن المجموعة. إذ لا أحد يمكنه أن ينجز تماما حالة الأعلى من دون أن يشارك في القيم.

1 ـ التميز الأولي في ما يتعلق بالذات

1. *الاستقلالية*: من بين أعلى التميزات في قدرة الشخص هو السيطرة على حياته أو حياتها. يعني هذا أن الرغبة في قبول تحمل مسؤولية مستقبله والإدراك بأن الشخص هو نفسه الذي سيقرر نهائياً كيف يريد أن يعيش وماذا يريد أن يصبح. مما لا ينكر أن من خلال العيش في الجماعات نستطيع القيام بقرارات تعاونية ولكن ما دامت لنا حياة واحدة نعيشها، علينا أن لا نضيعها برفض أن نقوم باختياراتنا الخاصة أو بخسارة تلك الفرصة والسماح للآخرين بأن يختاروا بدلاً عنا. لذلك فإن الشخص المستقل يمتلك نوع الإحساس بالاستقلال بنفسه. إنه يوجه نفسه ذاتياً ويتحكم بها. إستقلاليته متعلقة بتأكيد حريته.

هل يمكنه أن يتحكم بمصيره؟ هل يمكنه أن يغير أو يعيد توجيه الأحداث؟ هل هو مبني من قوى خارقة لا يمكنه سوى الخضوع إليها؟ إن الفشل الكبير في الحياة هو موافقة الفرد على قدره، رغبته للهروب من الحرية، ورفضه في أن يقوم باختياراته حول مصالحه الحيوية. إن الكهنوتيين يحطون من قدرة الإنسان عندما يؤكدون أننا لا نكون شيئاً في ذاتنا بل نحن نعتمد على الرب في كل شيء. إنهم يصرون على أننا لا يمكن أن نفعل شيئاً خارج مشيئة الرب. لا

نستطيع التغلب على الشخصية التراجيدية للشرط الإنساني؛ والحل الوحيد للإنسان هو الخلاص الإلهي.

يختلف الإنساني عن هذا التقدير المتشائم والتراجع النفسي من خلال تقديم بديل إيجابي. «يمكننا» أن نكافح مصاعب الحياة بنجاح. لكننا بحاجة إلى أن نتعامل بواقعية مع العالم كما وجدناه، ولا نبحث في الهروب إلى الآلهة الأسطورية للعون. ليس غير بذل أقصى الجهود يمكننا من أن نأمل التغلب على التنوع والصراع والمأساة. نحتاج إلى الرغبة في أن نفعل ما هو ضروري كي نفهم عملية الطبيعة وأن نبحث في تغيير اتجاهها نحو ما نطمح إليه. لو أردنا النجاح، نحتاج إلى نوع من الثقة بأننا يمكننا أن نجعل الحال مختلفاً، وأن أنشطتنا ستكون فعالة وأننا على الأقل سنحاول.

لذلك فإن الإستقلالية هي الحرية الشخصية للسيطرة على الأحداث التي تصدم حياتنا. لا أتحدث عن قدرتنا في التأثير على شعبنا أو مجتمعنا بمجمله، بل نسيطر على حياتنا الخاصة ونتقبل هذا على أنه مشروع متنام. على الإنسان أن يفكر: أنا في مركز الاختيار والقرار، وأنا يجب أن أقرر ما أرغب في عمله بشأن حياتي. سأجعل من رؤاي معلومة، وحين أتمكن سأسعى إلى أن أتصرف وفقها. ويتضمن هذا الشجاعة، ولكن ليس الشجاعة باعتبارها ما ستكون بل الشجاعة في مثالها الأعلى. إنها تتضمن الجرأة والحيوية.

المعاكس لهذا الاتجاه هو التطابق والتراجع، وفي الحدود المتطرفة الخوف والرعب. هنا يندحر الإنسان قبل أن يبدأ. يشعر الإنسان ليس أن ثمة ما يفعله غير الخضوع لقدره وآلهة الفيوري (الأفعى الأسطورية ذات الثلاثة رؤوس). غير أن الإنسان المستقل، الواثق من نفسه ونظرته حازمة يرفض الاستسلام من دون صراع. إن الشخص المستقل يستجمع شجاعته وله القدرة وقوة الإرادة، التي تمكنه من التحمل والانتصار.

إن الاستقلالية ليست مناهضة للاجتماعي؛ من المؤكد أن المجتمع

الديمقراطي المفتوح يساعد على نمو الأشخاص المستقلين. أفضل المجتمعات هو ذلك المجتمع الذي يرغب فيه الناس قبول نوع من المسؤولية عن أنفسهم وأن يتصرفوا بذكاء في القيام باختياراتهم. الاستقلالية لا تعني أنني لا أعمل بالتوافق مع زوجتي أو زوجي أو أختي أو أخي أو أمي أو أبي أو صديقي أو زميلي أو أحد المواطنين من بلدي. مادمت مستقلاً، يمكنني أن أحترم الآخرين بكونهم أيضاً مستقلين في حياتهم.

2. *الفكر:* لقد أكد الفلاسفة الكلاسيكيون الدور الأساسي لدور العقل في الحياة الطيبة. وفي عملهم هذا ربما يبخسون قيمة الأهمية البارزة للأبعاد العاطفية والفكرية للتجربة الإنسانية. لقد حدد أرسطو خمس فضائل فكرية أعتقد أنها أسهمت في التميز العقلاني: الحكمة الفلسفية والبرهنة العلمية والحدس والفن والحكمة العملية. إن القدرات الفكرية أكثر تعقيداً وأوسع من ذلك. لقد صنفت في مكان آخر إحدى وعشرين من تلك الصفات الفكرية، بضمنها كل شيء من الفكر المجرد والقابلية المنطقية من ناحية، إلى المهارات التقنية، والبراعة الفنية الفائقة والفنية الميكانيكية من الناحية الأخرى[1].

لقد عرف أرسطو بإدراك الدور المهم للحكمة العملية في عمل الاختيارات الأخلاقية. يمكن للإنسان أن يحوز على المهارات الفكرية العالية ويعلن عن بلوغ فكري بارز في بقعة واحدة ويفقده في بقع أخر. من الصعب أن نجد شخصاً واحداً يمتلك كل المواهب الفكرية. من خلال موقف الحياة الأخلاقية، على أية حال، فإن الخاصية الأكثر أهمية هي تلك التي للفكر النقدي التطبيقي. إن المعنى العام أو الفهم الوطني يمكننا من أن نتعامل مع المآزق التي نواجهها في الحياة لنقوم بالاختيارات المعقولة. إنني أسمي هذا ب «الحكم الجيد»، القدرة على تقدير البدائل والقيام بقرارات ذكية.

---

(1) Paul Kurtz, *The Transcendental Temptation*, pp. 63 - 64.

فيما إذا كانت هذه موهبة من الآلهة (أي أنها وراثية) أو نتاج تجربة، قابلة لأن تستحصل بالتعليم والتدريب، قد نوقشت من الفلاسفة. لماذا يتمكن بعض الناس أن يصيبوا كبد الحقيقة، كما هي، ولهم القدرة على أن يقدموا أفضل ما لديهم في موقف ما، بينما لا يحسن الآخرون ذلك، فهم حمقى دائما ما يتخبطون في الكوارث ولا يستطيعون القيام بالاختيار الحكيم؟ من المحتمل أن الحكمة العملية هي نتيجة لكل من الموهبة والتدريب؛ ولحسن الحظ يمكننا أن نطور قدرتنا لننغمس في الفكر النقدي ونطبقه على الحياة العادية. ما الذي أعنيه هنا هو الذكاء «الحكيم»؛ أي القدرة على عمل الخطط، بحث المشاريع والتوصل إلى قرارات عملية مدروسة. ويتضمن هذا تقدير من جانبنا للتكاليف والنتائج للأفعال البديلة. إن المعرفة تصبح المشرع لعملية الاختيار. إن أخلاق التميز تعتمد على قابليتنا على القيام بأحكام «مدروسة» مستندة إلى معرفة بالخير والشر.

من الأفضل لنا أن نكون نزيهين حول هذا التميز. لا أحد كامل، وحتى أكثر الأشخاص تعقلاً قد يستسلم في بعض الأحيان للعاطفة. من المؤكد أنه من الملائم الوقوع بالحب، تشجيع الفريق الوطني أو تمتع الإنسان بوليمة. إن الذكاء يوفر أنموذجاً مثالياً، وسيلة تفضيل لتقدير القيم والمبادئ وتوازن المزاعم المتنافسة في موقف ما. إن الذكاء الأخلاقي النقدي ليس شكلياً أو مجرداً بشكل صاف. إن مضمونه ملموس: على الإنسان أن لا يقابل العقل بالرغبة. إنها ليست مسألة أن المعرفة تهيمن أو تسيطر على الرغبات، كما هو الحال لدى الرواقيين القدماء، لأن كل الحافز يتضمن كل عيوبنا وهو بكل عمق بايو سيكولوجي في المضمون. إن حوافزنا المتشابكة مع الرغبات والعقول، تنبهنا نحو الفعل وليس نحو الفكر وحده. كل ما يمكن أن يفعله الوعي هو أن يجلب التوازن بين المسارات المختلفة لبواعثنا النفسية. إن الذكاء نفسه حالة بايولوجية. إنه ليس متطفلاً؛ إنه جزء حميمي لتركيبتنا النفسية الكاملة، على الرغم من كونه مقوماً واحداً في عملية المفاضلة في التقدير. ومع ذلك، قد

نقول أننا علينا أن نكافئ الذكاء بكونه تميز، لأنه مادام يمكن أن يلعب دورا سببيا في المساعدة في تحويل النوايا والمصالح، يمكن أن يسهم في حياة أفضل. إنه أساسي، لأنه الأكمل والتعبير الأكثر اكتمالا لما نحن عليه كوننا بشرا.

إن النشاطات الفكرية مصادر عميقة للمتعة والاغتناء. هذه هي من المؤكد الحالة مع البحث النقي، مسألة الشروح العلمية عن كيفية عمل الطبيعة والبحث التاريخي والإدراك الفلسفي وما إلى ذلك. الكثير من الأفراد كرسوا حياتهم للبحوث الفكرية واكتشفوا القناعة العميقة التي يمكن أن يمنحوها. لقد عرف أرسطو أن الإنسان يحتاج إلى قدر معين من الفراغ من أجل أن يواصل في الحياة العقلية. إن كل رجل (وكل امرأة) قادر على نوع معين من النشاط الفكري، فيما إذا كان الذهاب إلى المدرسة أو قراءة الكتب أو الاستماع إلى محاضرات أو المحاولة في اكتشاف شيء ما لأنفسهم. هنالك ولع في المحاولة في حل المعضلات والألغاز؛ البعض من أكثر الألعاب تحدياً تختبر حماستنا كلما أصبحنا مستغرقين في حلولها. إن الإنسان حيوان فضولي ويرغب في أن يعرف. البعض من الناس يتوقون إلى أن تكون لديهم معرفة جيدة ويرغبون في أن يتعلموا كل شيء يستطيعون تعلمه عن موضوع معين. إنهم ربما يسافرون أو يقرأون بغزارة؛ وهم ربما يرغبون في أن يلتقوا بأناس جدد أو يذهبون إلى المعارض أو المحاضرات. هذا التعبير عن اهتماماتنا الفكرية يشير إلى حقيقة أننا نضع قيمة عالية للمعرفة، نتيجة لقيمتها في حياتنا ولكونها مصدراً للمتعة.

3. *التنظيم ـ الذاتي:* وهذه خصلة مهمة للتطور. إنها ترتبط بالذكاء وحسن الحكم، لكنها تذهب كذلك أبعد منهما. إنها تنطبق على حياة الرغبة العاطفية. ما لم يستطع الإنسان السيطرة على انفعالاته ويوجه جهوده نحو أغراض البناء، فإن قدراته تغدو عرضة للتشتت والتبدد في نشاطات غير منتجة ومنهارة من الداخل. مثال ذلك الشخص الذي يقع في خطر أن يسيطر عليه ميل مستمر، مثل الإدمان على الطعام، فيأكل حد الإرهاق، أوالذي يستحوذ عليه الجنس من

دونما سيطرة على نفسه. إن عادة التنظيم الذاتي تحتاج إلى أن تهذب بالتعليم والتدريب. وحالما يحصل ذلك، يتم الاعتدال في استعمال رغبات الفرد. إن التنظيم الذاتي يمكن الإنسان أيضاً من تنظيم جهوده على نحو خلاق كي يحقق أهدافه في الحياة. ويأتي التنظيم من الذكاء والحكمة العملية. إنه يجمع الفكر مع الرغبة. إنه ينطبق على الشخصية الكلية للشخص أكثر من الحالة المعرفية. وهو يتضمن قوة الإرادة والإصرار على الإحتفاظ بها.

إن الشخص غير المنظم يقع فريسة أية نزوة طائشة أو وهم؛ تهيمن عليه شهواته ورغباته الملحة. إنه منغمس في ملذاته في الجنس والطعام والشراب والمخدرات، أو التسلية التافهة، التي يستسلم إليها بتهتك. إن الكبح الذاتي دليل أساسي لأفراد ناضجين، قادرين على مقاومة شرك الإغواءات الطارئة من أجل بحث أهداف طويلة المدى. وقد يلحق ذلك قدر ما من الترويض الرزين، ولكن ما يتضمنه أيضا القابلية على تقبل الاختلاف والإصرار على التغلب على التحديات. لكن هذا لا يعني أن لا يتمتع الإنسان بالحياة أو لا يستسلم لرغباته. بل بالأحرى يبحث عن التوازن بين الرغبات المختلفة ويقرر تحقيق أياً منها. إن أراد الإنسان أن يحقق حياة مؤثرة، يحتاج إلى أن يقود ويسيطر على أحداث خارجية، ولكن أيضاً ليتعلم كيف يتحكم ويسيطر على دواخله كي لا تتحكم به.

احترام الذات: يتضمن التميز في الأخلاق التطور في آداب احترام الإنسان 4Á لنفسه. فنحن دائماً ما يقال لنا أن علينا احترام الناس الآخرين أو الكبار واحترام القانون وأولئك الذين يعتمدون علينا. وقد يكون هذا جيداً وحسناً، ولكن في هذه العملية ينسى بعض الأفراد أنهم مؤهلون للنوع ذاته من الرعاية والتقدير الذي يكنونه للآخرين.

يمكن أن يبالغ في التركيز حول احترام الذات لو أن الشخص طور ذلك إلى إحساس متضخم بقيمته. هؤلاء هم الأنانيين والنرجسيين. أنا لا أتحدث

عنهم، لأن اهتمامهم بأنفسهم قد تضخم ليتجاوز حدود المعقول، ومن حق المجتمع أن يتذمر من ذلك ويحمي أفراده منه. إن هؤلاء الأفراد يتصرفون بأسلوب منتفخ، وهو ما قد يؤدي إلى جنون العظمة وتمجيد الذات.

ويناقض ذلك غياب تقدير النفس والإحساس المتدني بالكيان. قد يتمرد شخص بعد أن يكون قد ضرب بقسوة من قبل آخرين، أو ربما أنتقد بشدة من والدين متشددين أو مدرسين، ويهزأ حتى من أكثر المتطلبات الاجتماعية معقولية، أو، على العكس من ذلك، قد ينتكس، فاقداً لأي إحساس بالاستقلالية. مثل هذا الشخص يتكيف ببساطة لما هو متوقع منه. لقد وجدت أن الاهتمام العميق والملتزم لطلاب الجامعة هو فيما إذا كانت مواهبهم تقارن بالمحاباة لنظرائهم. إن الفقر والمعدلات المتوسطة واستنكار الوالدين يمكن أن يثير القلق الكبير. فيكون لدى الطلاب الخوف الخفي في أنهم قد لا ينجحون في الحياة.

البعض من الناس، يفتقدون إلى الثقة بالنفس، فسرعان ما يستسلمون. لسوء الحظ، مثل هؤلاء الأفراد غالباً ما يجدون من الصعوبة أن يعيشوا بشكل كامل، لأنهم يفتقدون لأقل احترام لأنفسهم ولمواهبهم وقابلياتهم وما يمكن أن يحققونه أو يحرزونه. أولئك الذين يفتقدون الاعتماد على النفس قد يحتاجون إلى أن يثبتوا أنفسهم لذلك ينغمسون في جهود لا طائل منها ليبحثوا في التحسن في عيون الآخرين، ويتخلون عن ما يرغبون في أن يعملوه في حياتهم. وعكس احترام الذات كراهيتها. بالنسبة لبعض الأفراد يمكن أن يتآكل إحساسهم بالقيمة حتى أنهم ينتقدون أنفسهم على الدوام من الفشل والإحباط ـ أو حتى من عدم قدرتهم على النجاح بشكل باهر. قد يكونون من المؤمنين بمرتبة الكمال، ولا يقتنعون أبداً بالمهام التي اختاروها أو مستوى إنجازهم. ليس هناك من سلام في دواخلهم. وقد يستسلمون ربما لليأس الهادئ، بحثاً عن ملاذ هادئ سيمنحهم الدفء والطمأنينة. على الرغم من الكلام الكثير الذي يقال في ثقافتنا

عن الانفتاح والتسامح عن الاختلافات، ثمة ضغط مرعب نحو المطابقة وهي التي لا تقود إلى احترام الذات.

لا يمكن لأحد أن ينجح في كل شيء يتولاه في الحياة. يحاول المرء أقصى جهده، آملاً الاستفادة من أخطاءه. لكن الشخص الذي يفتقد إلى احترام الذات لا يمكنه أن يتقبل الفشل: إنه يتحول إلى ضد نفسه. على الرغم من أنه يمكنه أن يسامح من حوله ممن فشلوا، فلا يفعل ذلك لنفسه. ربما يحب الآخرين، ولكنه لا يحب نفسه. من المؤكد أن المسيحية تشجع هذا الإحساس بالذنب من خلال الدفاع عن قيم من غير الممكن أبداً نولها على الأرض، مثل فضيلة الكمال، ثم تعاقب أنصارها لعدم تحقيقها.

يجيب الإنساني على المؤمن بمرتبة الكمال: أنت الإنسان الوحيد، عليك أن تعيش بكل حياتك، من البداية حتى النهاية. وعليه، من الأحرى لك أن تتفق مع نفسك، تمتع بحياتك، وفكر جيداً بنفسك. على الرغم من أنك من المؤمل أن تتعرف على فضائلك وحدودك، فقد تحتاج إلى أن تقوم ببعض التسامح مع نفسك. وهذا لا يعني أنك غير مسؤول عن أخطاءك في الزيادة أو النقصان، أو أنك حري بك أن لا تجاهد نحو التحسن.

إن البعض من احترام الذات ضروري لبناء هوية الإنسان وتوسيع قدراته في الاعتماد على الذات والاستقلالية. إن الفخر بالنفس ليس ذنبا. كما أن التواضع الذي يمحو الذات ليس استجابة مناسبة للشخص الحر المستقل القادر على نوع من الفعل في العالم وتواق إلى احترام يستحقه.

5A *الإبداع:* إن الشخص المبدع يمثل التعبير البليغ للحرية الإنسانية: القدرة على الأصالة. إن الإبداع ينتمي بحميمية إلى الاستقلالية واحترام الذات، لأن الإنسان الذي يعتمد على نفسه له نوع من الإحساس بقدرته. إنه لا يخضع للعقبات التي يواجهها في الطبيعة. إنه قادر على الاختراع أو أن يبدع شيئاً جديدا. إنه لا يدرك الإمكانيات فحسب بل يستطيع أن يجعلها مثمرة.

إن للإبداع أوجه كثيرة. قد يفكر الإنسان بالعالم المبدع في واجهة المعرفة الذي يقوم بالاكتشاف البارز أو يقترح نظرية جديدة وجريئة. إنها أيضاً القوة الموجهة للفنان الكبير أو النحات، القادر على أن يأخذ المواد الأولية من الطبيعة ليخلق أشكالاً جديدة تحقق رؤيته الخلاقة. إن الشاعر والروائي والمؤلف الموسيقي باستعمالهم للمواد اللغوية أو الانسجام، يصوغون أعمالاً فنية تأسرنا وتلهمنا. وكذلك الحال مع المخترع أو المهندس الذي يخترع آلة جديدة أو ماكنة أو أداة. رجال الدولة الذين يسنون الدستور، وبناؤوا المصانع الجديدة، ومكتشفوا البحار والقارات والمجرات كلهم يعبرون عن بواعث خلاقة مشابهة. إن تصميم «الإبداع»، أكرر، حري به أن لا يحدد بالعبقريات الاستثنائية، لأنه يمكن أن ينطبق على الناس العاديين الذين يكشفون عن مواهبهم في السلوك المبتكر.

بمعنى واحد، أن كل الحياة العضوية لها أبعاد خلاقة. إن التوحيد الأول وإخصاب البيضة والمني وعمليات النمو الخلاق الذي يجري منه يوضح العمليات الخلاقة الجوهرية للمادة العضوية. حيثما هنالك تعلم وتكيف من قبل أشكال الحياة للإشكاليات البيئية يكون هنالك درجة ما من الإبداع.

إن الإبداع واحد من المميزات المعرفة للنوع البشري. لا أحد خال منه تماماً، لأنه الوسيلة الضرورية التي يمكن بوساطتها التغلب على التنوع أو الاستجابة إلى المنبه في البيئة. على أية حال، هنالك درجات من الإبداع؛ وربما أفضل تجل له في النشاطات السببية التي توجه عن وعي. إن الإبداع يتضمن كلاً من البصيرة والمخيلة. إنها تظهر حيثما يجاهد الفكر لحل المشاكل من خلال تقديم وسائل بديلة، وتعلن عن نفسها حيثما نبحث في تركيب المواد القديمة بوسائل جديدة. إنها المفتاح المحفز لبناء الثقافة. مادام كل إنسان متفردا فإن نوعاً من الإبداع يتم التعبير عنه في خصوصية سلوكه وكيف يتعلم ليكافح بنجاح مع العالم ويتكيف معه على مستوى الرجل السائر اليومي.

ثمة درجات للتميز مرتبطة بالإبداع. البعض من الناس ماهرون أكثر من غيرهم في اكتشاف احتمالات جديدة. إنهم يفيضون بالأفكار الجديدة؛ فلديهم خيال خصب. ولسوء الطالع البعض الآخر يمكنه أن يكون عبقرياً خلاقاً في ميدان واحد، أو تظهر له موهبة وإنجازات هائلة في وقت من الأوقات، لكنه يفتقد إلى النظرة الخلاقة خارج ميدانه أو في المدة المتبقية من حياته. لذلك علينا أن نركز لا على الإبداعية الضيقة في حيز محدد بل على الحياة الخلاقة عموماً، التي يمكن الوصول إليها عبر الانفتاح والمغامرة.

أما الشخص غير الخلاق فيميل إلى أن يكون متوافقاً، يتبع الشعائر أو تستحوذ عليه القوانين. إنه مخلوق للتأثر بالمعتاد، غير راغب أو غير قادر على أن يجرب شيئاً جديداً. إنه يقاوم التغير أو التحديث. وعلى العكس من ذلك الرجل الخلاق، فهو منبع للأفكار المبدعة. إنه مثمر، دائماً ما تنبثق منه أفكار جديدة وأنظمة وخطط. مشكلة النمط الواحد من الإبداع أن هنالك أناساً تعصف أدمغتهم بالأفكار لكنهم في النهاية يصبحون حالمين واهمين لا يطبقون أفكارهم أبدا. إن الشخص الخلاق المؤثر هو ذلك الذي يبقى متابعا. إنه ليس مجرد إنسان أفكار بل فاعل، قادر على أن يحقق أحلامه. وكي يكون قادراً على التأثير، لابد أن تكون أفكاره متأسسة في الواقع. إن المبدعين الكبار في التاريخ لم يكن لديهم مجرد وميض رؤى عشوائية، ولكن لهم القدرة على التعبير عنها، أن يمنحوها شكلاً ويؤسسوها في الواقع. إنهم لا يدركون أو يفهمون ذلك في داخل أرواحهم وحدها فحسب، بل يمكنهم أن يكشفوا عن المنابع التي فيهم. لذلك فإن الإبداع يتضمن عملية توليدية في التنظيم والفهم. الكثير من الناس الخلاقين ليسوا على جبهات المعرفة، ولا يسهمون في التقدم الحضاري. قد لا يكونون موهوبين بمواهب خاصة، لكنهم مبدعون في الميادين التي يختارونها: يجدون ويطبقون وصفات طبية جديدة على سبيل المثال، أو يعيدون ترتيب الغرفة، يزرعون حديقة، يصلحون سقفاً، يربون الخيول، أو يدرسون مادة. لا أتحدث عن الإبداع المزيف، الذي يتبع أمزجة الموضة، بل التعبير الخلاق

الأصيل. إن الشخص المبدع له نوع من الثقة بقدراته ويجابه تحديات الحياة برغبة أكيدة واعتماد على النفس ومتعة.

من المفترض أن يتم التشجيع على الروح الإبداعية في الصغر، وتغذى وتستثمر خلال الحياة. لسوء الطالع أن الإبداع له أعداءه. فغالباً ما يثير المبدعون الحسد والغيرة، ولأنهم في بعض الأحيان لا يمكن التنبؤ بهم، فقد يكون من الصعب عليهم أن يعيشوا مع إبداعهم. فلو سمح لهم تفريغ كل ما بجعبتهم، ربما يصبحون متعبين لمن حولهم.

من وجهة النظر الاجتماعية، فإن الاستخدام الأشد أهمية للإبداعية هو تطبيقها عمليا. البعض من أشكال العمل شاقة. والإنسان الخلاق يمكنه أن يجعل من عمله ممتعا. فعمله لا ينفصل عنه، بل يجري إلى الأمام كتعبير عن اهتماماته. وفي الاحتمال الأكبر ينشأ العمل الشاق عندما تنفصل الوسائل عن الغايات، وتأتي الأوامر للشخص لبحث هدف من دونما مصلحة شخصية. فالعبد أو الأجير الكادح لا يسمح له بالتفكير لنفسه أو على الأقل لا يسمح له أن يعرض مقاصده ويعمل على بحثها. لذلك يكون عمله رتيباً ومن دون تفكير أو آليا. إن النشاطات الخلاقة تجاهد من أجل أن تنمو في بيئة حرة، حيث تكون جهود الناس موجهة نحو أهدافهم. وإن كان نصيب المبدعين الكدح فحسب يكون من الصعب في الغالب السماح لهم أن يمنحوا الحرية في أن يهنأوا بطموحاتهم. يحتاج الإنسان إلى أن يعمل كي يعيش، وقد يكون ذلك العمل مملاً، ولكن لابد من أن يتم. ومن هنا تأتي الأهمية في تطوير الفرص للإبداع في السوق. ولكن إن لم يكن ذلك ملائماً من الناحية العملية فإن التعبير عن الإبداع في وقت الفراغ يصبح أكثر أهمية للشخص العادي. وفي كل الأحوال فإن الشخص المبدع، واسع الحيلة، بمعنى أنه يستطيع التعامل مع مشاكله، مستعملاً خياله وجهده في إنجاز ما يرغب فيه.

الحافز: البعض من الأفراد لديهم الحافز القوي. إنهم جاهزون دائماً لتولي 6Á

مهمة مشاريع من دونما تضييع للوقت أو الانشغال بمعرقلات مرحلية. إنهم واسعوا الحيلة في الأفكار والأفعال. بينما آخرون يكونون كسالى وغير مؤثرين. فلا يبدو عليهم أبداً أن لديهم الطاقة الكافية أو الاهتمام في عمل شيء ما، بل يكتفون بأقل الجهود. فما لديهم غير محفزات متدنية المستوى ولذلك تكون لديهم المستويات المتدنية في النشاط. إنهم لا يرغبون في الصمود. يفضلون الاستراحة بهدوء في حديقة بدل زراعتها أو المغامرة خارجها. إنهم يبدون متراجعين عن تدافع وحركة الحياة.

من الناحية الأخرى إن الشخص الذي يملك الدافع، موجه ذاتياً. فلديه الشجاعة وقوة التحمل والرغبة في أن يعمل شيئاً. إنه لا يندفع لتوسيخ يديه كي يقوم بأشياء من الضروري القيام بها. هنالك قول مأثور: «إن كنت تريد لعمل ما أن يتم فأطلب ذلك من إنسان مشغول». الشخص الكسول لا ينجح أبداً لأنه فاقد للعزيمة والاندفاع في أن يعمل ذلك.

هنالك خصائص تميز الشخص المتحفز جيدا. إنه قادر على أن يجمع الأشياء التي يحتاجها سوية من أجل تحقيق الأهداف التي يخصصها لنفسه. لديه الاستقلالية والتنظيم الذاتي والاحترام للنفس، والقابلية للاستجابة الخلاقة والمبتكرة. ولكنه أيضاً لديه القابلية لتحقيق أهدافه، مهما كانت. يتجنب الأفراد في الغالب المهمات التي لا يحبونها التي يكلفهم بها الآخرون. إنهم يبتهجون عندما يقومون بعمل ما يرغبون فيه. وللأسف فإن بعض الناس يحددون بآفاقهم المحدودة واهتماماتهم الضيقة. ويظهر عليهم ذلك، ليس في العمل فحسب، بل حتى في اللعب، فيتضح أن لديهم مخيلة فقيرة. إن الحافز المتدني هو طابعهم. فلا يبدو عليهم أنهم يجدون أنفسهم. عدم الكفاءة هو ما يدفعهم، فلا يطورون لأنفسهم مهنة معينة ـ العمل بالنسبة لهم هو العمل، وليس «الاحتراف».

إن الشخص الذي له الحافز الجيد يحترف اختصاصاً ما أو خبرة ويلتزم بها

إنه ذا توجه تنفيذي. وأكثر من ذلك، يجد نوعاً من الفخر والقناعة في إنجازاته. الشخص غير المنتج مثل الشخص المفلس. سرعان ما يمل، ويعني ذلك، أنه ممل. ردود أفعاله طفولية لأن اهتمامه الوحيد أن «يقضي وقتاً ممتعا». ما لم يتمكن من الإشارة إلى نوع من الإسهام الذي قام به لحياته، عمل أو إنجاز خلاق ويستحق الإشادة، فهو متخلف وفاقد الإحساس باحترامه لذاته. إن الأشخاص ذوي الحوافز يمكن الاعتماد عليهم.، لأنك يمكن أن تعتمد عليهم في عمل شيء ما. الشخص الذي يفتقد إلى الحوافز يستسلم للكسل وعدم القدرة على اتخاذ القرار. وفي الحالات القصوى ينتهي إلى متشرد أو غير صالح.

7. *الإيجابية:* أن يعيش المرء حياة كاملة يعتمد ذلك، في أقصى حد، على وجهة نظر الإيجابية. هذا يعني أن تكون له درجة ما من التفاؤل، لأن يكون مؤمناً أن الحياة يمكن أن تكون طيبة وسخية، أنها يمكن أن تكون أفضل وتسير نحو الأحسن. على العكس من ذلك، السلبية والتشاؤم والإحساس المأساوي على أن الحياة صعبة، وأن الأشياء لا يمكن تغييرها ولسوف تسير نحو الأسوأ ليس إلا. هنالك دائماً سجون باستيل من غير الممكن هدمها. هذا الاتجاه يدعو للفشل والكآبة.

الشخص الإيجابي يتخذ الحياة بكونها تحديا. إنه ينظر إليها بكونها فرصة. إنه يرغب في أن يعمل أشياء كثيرة ويجرب كثيرا. إن إنجاز السعادة لا يمكن أن يتم من دون نوع من الإحساس بطاقة الفرد الخاصة والقدرة على حل مشاكله. إن توجه الفرد الإيجابي ينزع إلى أن يكون مبهجاً لأنه ينظر إلى المستقبل بآمال عالية. ويعبر توجهه عن المرح والضحك وتقدير المتعة. لو كان لنا احترام للذات ونوع من الإبداع ولدينا الدافع القوي، فإن امتدادنا سيتواصل وتكون هناك رغبة في الكشف والتجربة والابتكار. يميل المتفائل إلى أن ينظر إلى الجانب الإيجابي: إنه يركز على ما هو طيب في الناس، لا أخطائهم. إن

الحياة مثيرة، وآفاقها غير محدودة؛ وليست هناك ساعات كافية للقيام بكل الأشياء التي يريد عملها.

بينما يركز المتشائم دائماً على المظاهر المأساوية في الحياة. إنه يقلق حول مشاكل العالم في الجوع والمعاناة والألم والحزن من دون أن يرى أية حلول. إنه رعديد ويخشى ما يقوله الناس عنه. وهو كذلك مخترق بالسلبية ومشلول بالخوف ومستعد للتراجع أكثر من التقدم.

يكون الإيجابي شخصاً اجتماعياً ومتفائلاً وسرعان ما يتغلب على إحباطاته وهو يجد المتعة في الحياة. ثمة أشياء كثيرة جداً لإنجازها، الكثير جداً من الإنجازات المستقبلية التي تومئ لنا. الحياة مليئة بالآمال والفرص العظيمة: مهما كانت المساوئ التي نواجهها يمكننا أن نطورها ونحسّن منها. لا يغوص المتفائل في مستنقع العجز، بل لديه إحساس بأن الجهد الإنساني يمكن أن يكون مؤثراً، ويمكننا أن نجعل هذا العالم الذي نعيش فيه أفضل مما هو عليه. إن إنعطافة جديدة في الأحداث تعد فرصة مبشرة بالخير، دلالة واضحة نحو النجاح. إنه يرغب في أن يلتقي بتحديات جديدة بالحدس والحماسة. إنه ممتلئ بالرغبة في أن يحيا، أن ينتصر ويحقق إنجازات كبيرة في المتعة الخلاقة.

8. *الصحة:* إن معرفة الصحة الشخصية الجيدة لها المكانة العالية في ميزان التميز، وربما تأخذ المرتبة الأولى في الأهمية. وربما يكون من البديهي التأكيد على الصحة (على الرغم من أن الفلاسفة يتغاضون عنها). إن أي نظرة واقعية للسعادة لابد أن تتخذ من الصحة بكونها نقطتها الأولى. لو يريد الإنسان أن يعيش فيجب أن يعيش في حياة معقولة من الناحية الصحية. لو كان الإنسان معاقاً بدرجة شديدة أو مريضاً أو لا يبارحه الألم فقد لا يكون قادراً على العمل بصورة جيدة، ولا يستطيع أن ينجز كل ما يرغب فيه، مع أن الكثير من الأفراد استطاعوا أن يعيشوا حياة رائعة على الرغم من الألم الذي يوهن الجسم أو

العوق. في مواقف الصحة العليلة، يتحتم على المرء أن يحاول بذل أقصى جهد له لعمل ما يستطيع عمله. من الممتع التنويه أن الكثير من الإنسانيين المعروفين عاشوا حياة طويلة ومعافاة. والأكثر من ذلك، أنهم ظلوا ناشطين حتى الأيام الأخيرة من حياتهم. لقد عاش جون ديوي مسيرة حياة مؤثرة حتى عمر الثالثة والتسعين، وبرتراند رسل، الذي عاش حتى السابعة والتسعين قد قبض عليه متظاهراً ضد القنبلة النووية عندما كان في تسعينياته!

ثمة مبادئ مهمة علينا اتباعها لو رغبنا في أن نعيش حياة معافاة. فمن الضروري أن تكون الثقافة الصحية جزءاً مهماً من تربيتنا، ولابد من تعليم الأطفال العناية بأجسادهم منذ الصغر. لابد من توفير أوسع نشر للمعرفة العلمية. وهذا يعني أن تكون هناك معلومات دقيقة حول (١) الغذاء المناسب؛ (٢) أهمية التمارين اليومية في الحصول على سلامة ذهنية وبدنية؛ (٣) طرق لتجنب الشد العصبي غير الضروري وتوفير أوقات للراحة والاسترخاء؛ (٤) ممارسة الاعتدال في المتعة. كل هذا هو ضمن مدى الوقاية الطبية. فبالنسبة للإنساني يكون إهمال أو إساءة استعمال الجسد أمر لا أخلاقي، خصوصاً من أولئك الذين يبحثون عن المتع الضالة أو يكرسون حياتهم للمتعة ليس إلا، أو أولئك الذين يبددون مواهبهم في التراخي والكسل. هذا يعني أن الإدمان على المخدرات أو الشراهة في الأكل والشراب ـ حتى الإصابة بالسمنة أو الأكل والشرب لتبديد القلق ـ هي أيضاً لابد من أدانتها.

إن اختبار الفعل فيما إذا كان جيداً أم رديئاً يعتمد على نتائجه. ويتم التأكيد في علم الطب على التشخيص والمعالجة للأمراض حين تحدث، وعلى الرغم من أهمية ذلك، نحن نحتاج أيضاً إلى أن نفهم كيفية تجنب المخاطر الصحية ونمنع المرض. إننا نعرف الآن أن الإفراط في تناول الكحول والكولسترول وتدخين السجائر أمر خطر، وليس غير الحمقى يهملون التحذيرات. على أية حال كل شخص مسؤول عن صحته. إن جسد الإنسان هو أهم ما نملكه، ومن

مسؤوليتنا أن لا نرى فقط أنه لا يساء استعماله ويتم الاهتمام بالوقاية فحسب بل أيضاً لابد من القيام بالرعاية المناسبة حين يتطور المرض.

وتتحقق الصحة العامة ليس من الناحية الجسدية والبايولوجية فحسب؛ فهو يتضمن بعداً نفسياً مهما. الاضطرابات النفسية هي الهلاك للوجود البشري، إنها مصدر القلق والكآبة والبؤس والحزن. إن علاج الشخص بكليته أمر أساسي: ومما لاشك فيه أن المرض العقلي له جذوره في التقصير البايو كيماوي. ويحتاج علم النفس السريري إلى أن يبحث في الكآبة المهووسة وانفصام الشخصية وباقي الأمراض التي تضعف الإنسان. نبقى بحاجة إلى تقدير من من العقاقير المختلفة أو العلاجات النفسية هو الأكثر تأثيراً في العلاج الذي يخص العقل أو الاضطرابات العاطفية. إن الحالات الشديدة للذهان ربما يكون لها أساس بايو كيماوي، لذلك فإن الشخص المريض قد لا تنفعه الإرشادات كثيرا، على الرغم من أن عائلته قد تستفيد منها. إن مثل هذه الأمراض مأساوية في تدميرها، جاعلة الضحية غير قادر على أن ينجح بالقيام بأفعال بسيطة بقوة إرادته.

يبدو أن إشباع الحاجات النفسية والجنسية للشخص دعامة مهمة في الصحة. هل أن إشباع رغبات اللبيدو وتجنب الكآبة يساعد قدرة الإنسان على التمتع بالحياة؟ ويظهر أن الجواب هو نعم، على الرغم من أنه ضمن سبب. فمن الصعب اكتشاف نموذج منفرد للإدراك الجنسي، لأن الأذواق والمتع لها مدى واسع. فأفراد مختلفون قد «يتأثرون» بخيالات مختلفة. ما يظهر على أنه شاذ وسوقي لشخص ما قد يكون مبهجاً لآخر. لقد كرس ريتشارد فون كرافت - ايبنغ، الذي صنف في أواخر القرن التاسع عشر الممارسات الجنسية «المنحرفة»، فصلاً كاملاً لفتشية القدم. ومن دون البحث في أسئلة معقدة هنا، أرغب ببساطة أن أبين أن القابلية على إشباع اللبيدو الجنسي، بلوغ الذروة، هو كما يبدو إسهاماً مهماً في الصحة.

9. *الحياة الممتعة:* المصطلحان الفرنسيان joie de vivre و bon vivant يشيران

إلى الحياة الممتعة. لا يمكن أن يكون العمل دائماً هو الحياة كلها وكل ما في الحياة من دونما لعب. تركز النظرة الإيجابية، على أهميتها، أساساً على المستقبل. على أن اللحظة الراهنة لها الأهمية الكبيرة، ونحتاج إلى أن نقدر الأشياء الراهنة إلى حد كبير. إن القابلية للاستمتاع بالحياة تميز مهم؛ وهي تعلن عن نفسها في المتعة الكاملة والإيروتيكية. وتعد قابلية التمتع باللذة من دون إفراط بالإحساس بالذنب أو الإحساس بأن ذلك من الشر فضيلة إيجابية. إنني أفكر أساساً بتلك اللذات في الحياة الشخصية، البريئة والقوية، التي لا تجرح أو تؤذي الآخرين.

لقد أقصى الكثير من الأخلاقيين الانشغال الكامل بالمتعة والإيروتيكية والحياة الممتعة من عوالمهم الأخلاقية. أما الكهنوتيين فيشجبون الجسد ويدينون المتعة الجنسية. وهم في هذا، يخدعون خوفهم من متعتهم الخاصة أو إيروتيكيتهم، وهو ما يعبر عن مرض في الروح. ثمة مصطلحات مختلفة تضف الفشل في تقدير المتعة: الزهد ونكران الذات والكبت. إن العجز في تذوق متع الحياة مرض نفسي ويمكن أن يكون مصدراً لمرض عصبي وبؤس.

ثمة مدى واسع من اللذات التي حري بنا التمتع بها بكونها جزءاً من الحياة الصحية. أولها تلك التي تشبع رغباتنا الأساسية وحاجاتنا: الطعام والشراب والجنس. ويبنى على ذلك اللذات الأخلاقية المتطورة، المتع غير الأنانية والفكرية والجمالية وحتى الروحية. الشخص الذي يؤمن بمتعة الحياة يجد اللذة في مدى واسع من النشاطات. يمكنه أن يتمتع بمأدبة عيد، ويشرب بلطف ويجامع ويقرأ الكتب ويسافر ويصغي إلى الموسيقى ويعمل لهدف نبيل ويتمتع بالرياضة والشعر والفنون ويجرب كل شيء يستحق الذكر(١).

على أية حال، أن التركيز المفرط بمسرات المتعة، المجردة من النشاطات

---

(1) --------, *Exuberance: The Philosophy of Happiness* (Los Angeles: Wilshire Books, 1977), chapter 5 and 6.

الحياتية والضارة للميزات الأخرى، ليست مؤشراً للحياة الرغيدة. إن الشخص الشره واللاهي والمدمن أو المتحرر على نحو خاطئ يركز على المتع المباشرة بكونها الهدف الوحيد للحياة. إن التعلق بالمتع والإيروتيكا أمر طفولي مدمر للشخصية عموماً، خصوصاً عندما يكبح النشطات الإبداعية الأخرى. فالشخص المولع بالمتع يكون سجين ملذاته؛ وهنالك طغيان يعمل في داخله.

لابد للإنسان أن يوجه مساره بين الطرفين: فمن ناحية، الأخلاقية الكهنوتية، التي تعمل ضد الجسد وتعلن الحرب على المتع الطبيعية، ومن الناحية الثانية المتع غير الأخلاقية، التي تتخلى عن التنظيم الذاتي وتسمح بأن نكون فريسة لرغباتنا الملحة. إن الإنسان لا يمكنه أن يحقق كل ما يحلم به. الكابح الذاتي والاعتدال علامتان للنضوج الشخصي. ومع ذلك فإن إشباع الحاجات الجنسية يجب أن يعلو معدله في ميزان القيم، وهذا يعني تحقيق الذروة الجنسية. كما أن العادة السرية طريقة للمتعة الجنسية. وكذلك المداعبات الجنسية والتقبيل والتحبب ويتضمن الجماع الجنسي الإشباع الكامل للرغبة الجنسية (اللبيدو)، لأن هذه الأشياء تتعلق بالأشخاص الآخرين.

من المؤكد أن قوة العاطفة الجنسية مرتبطة بحاجة الأنواع إلى أن تتكاثر. ولكن في حالة الإنسان لم يعد التكاثر هو السبب الأولي لممارسة الجنس؛ إن الرغبات نحو تحقق الذروة في المتعة وتعزيز الحب والحميمية هي المحفزات الرئيسية. لقد أضحت هذه الأشياء معقدة إلى حد بعيد، من خلال المدى الواسع لنشاطات اللذة التي يبحث عنها الناس؛ لذلك فإن ما هو «عادي» أو «طبيعي» ليس من السهولة تحديده. الحب الرومانسي هو مما لا شك فيه من بين أسمى المتع البشرية. الأشكال الطفولية للحب ترغب في أن تتمسك بالشخص الآخر أو حتى تستخدمه ليكون مصدراً للإشباع الجنسي. إن شدة اللهفة النفسية ـ الجنسية يمكن أن تقود الرجال والنساء إلى الجنون واليأس ـ خصوصاً في حالة الحب غير المتكافئ (كما في حالة كارمن) ـ ولكنه أيضاً يقود

أيضا إلى أعلى أشكال التحقق. الخلاصة أن الفرد لا يدرك أبداً بشكل كامل ما لم وحتى يكون هو أو هي قادراً أو قادرة على نوع معين من التعلق الرومانسي بالآخر.

هل الرجل متعدد الزوجات ولهذا لابد من تقبل ذلك شرعياً؟ لقد اكتشف الإنسان منذ زمن طويل أن التنافس الغيور فيما يخص الشركاء الجنسيين يمكن أن يؤدي إلى حالة حرب دائمة. إن موقف الزواج، علاقة الزواج الأحادي، مع الطلاق كصمام أمان، هو حل معقول. على الرغم من أن المتعة الجنسية يمكن أن تحقق من الفعل الجسدي نفسه، يكتشف الإنسان في الحال أن نوعاً من الاتصال العاطفي هو الذي يوفر الشكل الأكثر ثباتاً في الإشباع، خصوصاً عندما يكون مبنياً على الإخلاص والثقة. وتظهر المتعة الجنسية بكونها أكثر اكتمالاً عندما تجرب في علاقة حب مع الآخر.

إن للحب جانبين: أولاً يساعد في بحث أعمق الأشواق، والحاجات والرغبات، خصوصاً أن تكون محبوباً من قبل إنسان آخر؛ والثاني، إن كنا قادرين على أن نحب شخصاً آخر، فنرغب في أن يكون مستريحاً حسب ما يرتأيه أو ترتأيه. هنالك اهتمام عام بحب الخير للآخر، وليس لما يمكن أن يجلبه لنا من فائدة. إن الحب المتبادل جنسي وغير أناني.

10. *التقدير الجمالي:* التقدير للأشياء الجميلة في الحياة من ضمن قابليتنا في المتعة في الحياة كما يتم إدراك ذلك بالحواس أو يتم تعزيزه بالعقل. إن مصطلح «الجمال» هو أفضل ما يصف هذه اللذات، التي تتضمن الفنون الجميلة والشعر والأدب والموسيقى. إن قدرة الإنسان على تقدير الجمال يغني الحياة. ولسوء الطالع فإن بعض الأفراد لا يبدو عليهم أبداً أنهم قادرون على أن يطوروا استيعاباً للفنون. قد يكونون مصابين بالصمم وعمى الألوان أو غير مكترثين، وغير قادرين أبداً على التمتع بالموسيقى الكلاسيكية أو الفن أو

الأدب أو المسرح. إن تقدير القيم الجمالية نتاج التعليم، وحري بالآباء أن يعرفوا أبنائهم بتلك القيم في أعمار صغيرة نسبيا.

يفترض التقدير من قبل نوعاً من النمو والتطور في الشخصية: يعجب الإنسان بالجمال الطبيعي لغروب رائع أو لامرأة جميلة، ولا يتطلب هذا تدريباً. ولكن الدرجة العليا من الفن تتطلب نوعاً من الجهد. إن تعلم كيفية القراءة تتطلب جهداً مبكراً، وكم يكون مصدراً عظيماً للرضا والمتعة للشخص الذي يتقن ذلك.

إن الإحساسات الجمالية لا يجب أن تكون محدودة بالفنون، لأن الأذواق يمكن أن تهذب في ميادين أخرى - في الرهافة الرقيقة التي يقدرها خبير الطعام، في التنوع الغريب للزهور، أو تزيين الأزياء. يمكن للمسة الجمالية أن تضاف مع البراعة والخبرة في أي حقل من الحقول التي يهتم بها الإنسان. فالخبير في الشراب يمكنه أن يميز الرقة التي تجلب اللذة لإحساسه في الذوق. والفلاح البسيط قد لا يكون قادراً على أن يخبرك عن الفرق بين مشروب الشابليه والبوردو، ، ولكنه قد تكون له الرقة والتقدير المتميز في أن يربي خيولاً أصيلة أو كلاباً للزينة.

2 ـ إرتباط التميز بالآخرين

كنا قد ناقشنا حتى الآن التميز بارتباطه بالفرد. ولكننا كائنات اجتماعية، ومن بين أعلى القيم البشرية هي تلك المرتبطة بالآخرين: إن التمايزات ذات تطور أخلاقي. على الرغم من أننا نناقش التميزات الأخلاقية في الأخير، فهذا لا يشير أبداً إلى نظام في الأسبقية؛ إن التطور الأخلاقي أو السلوكي لابد أن يكون عالياً في ميزان القيم، وأي أحد يفقدها يفقد شيئاً أساسياً.

من الواضح أن البعض من الأفراد عمي عن الآداب الأخلاقية، تماماً مثلما هم الأفراد الذين يعانون من العلل الصحية في أبدانهم أو عقولهم. وفيما إذا

يكون هذا تبعاً إلى الظروف الاجتماعية أو البيئية أو بعض العيوب البايولوجية، وفيما إذا كانت الآداب السلوكية يمكن أن تهذب أو تعلم هي أسئلة لمسناها ولسوف نعود إليها ونحن ندرس التعليم الأخلاقي في الفصل السادس. ربما نقول أن لا أحد تنقصه هذه القابلية تماماً، وإلا لكان من الحيوانات المتوحشة. إن الروح الاجتماعية جزء من كياننا وهي تشكل هوية لطبيعتنا. ربما يكون السلوك الأخلاقي هو المسألة الوحيدة التي لها درجات. إننا جميعاً نحتاج إلى الانتماء إلى مجموعة ما. يعد السلوك خارجها ذا مركزية ذاتية، متوحداً، أو ما يشبه الناسك. إن لغتنا والرموز والاستعارات التي نعمل على وفقها هي كلها مبنية على الاتفاق، أي نتاج الثقافة والجماعة. إن المكون الحضاري للسلوك الأخلاقي هو في الغالب جزء من تعريفنا كما هو حال جهازنا البيولوجي. مثال ذلك أننا بحاجة إلى أن نُحَب وتتم رعايتنا من قبل آخرين من الناس (الوالدين أو الأقارب أو الذين يحبوننا) إذا قدر لنا أن ننمو وننضج. ويصاحب ذلك أننا بحاجة إلى أن نحب الآخرين، أن نهتم بتلبية حاجاتهم، أن نقاسمهم قيمهم وأحلامهم، أن نتعلم الحياة والعمل معهم بتعاون. ولا نحتاج إلى أبوين أو شريك جنسي أو أصدقاء أو زملاء فحسب يمكننا معهم أن نتطابق، ولكن بمعنى أوسع، بكوننا كائنات أخلاقية متطورة كلياً، نحتاج إلى أن نكون أصدقاء مع كل شخص، ضمن مجموعتنا وخارجها. ثمة نوع من التميز الأخلاقي ينضج كلما طورنا قابلياتنا الأخلاقية.

مادامت الآداب السلوكية مركزية لطبيعتنا الاجتماعية، فهي تحتاج إلى أن يضفى عليها صفة الذاتية بكونها قيماً داخل الشخص لو أردنا لها أن تكون مؤثرة. تتشابك القيم والمبادئ، إذ بالعيش في قوانين عامة، نحن ندمجها لتكون جزءاً من بنيتنا المفضلة، ونتعلم على أن نبقيها في الذهن لذاتها. إنها تصبح سلوكيات أخلاقية مميزة لنا كي نعيش بها.

فالقيم إذن ليست مجرد مناجيات خاصة أو تفضيلات خصوصية. ولا هي تعبيرات أنانية عن الرغبة. إنها تتضمن شراكتنا لأهداف ومقاصد عامة. على الرغم من أن على المرء أن يحترم الخصوصية، يمكن القول أن من بين أجمل القيم هي تلك التي نشترك بها مع الآخرين؛ وهي الآداب السلوكية، التي تصبح جزءاً من شخصيتنا وكينونتنا.

قائمة التميزات الأخلاقية الآتية لا تكتمل، ولكن تلك التي تقع في جوهر السلوك الأخلاقي معدودة. إنها تتبع عن قرب الآداب السلوكية التي تمت مناقشتها في الفصل الثالث.

1. *الاستقامة:* يجمع هذا المصطلح المجموعة الكاملة من آداب السلوك. فالشخص الذي يعبر عن هذا التميز في حياته هو من الناحية الأخلاقية سليم وغير فاسد. يمكننا أن نعتمد على ثبات مبدأه.

ـ فمثل هذا الشخص «صادق» ولا يقترف الكذب أو الخداع.

ـ «يفي بوعوده» على قدر الإمكان، ولا يتنصل من اتفاقاته، وينفذ تعهداته ويدفع ديونه.

ـ إنه «مخلص» في علاقاته مع الآخرين، ليس ازدواجياً أو ذا وجهين.

ـ إنه «نزيه» في تعاملاته ولا يخدع عن قصد أو يسرق أو يسعى إلى الفائدة غير المشروعة.

2. *الثقة:*

ـ الشخص الذي له هذه الصفة يبدي «الإخلاص» لأصدقائه وأقاربه وزملائه الذين يستحقون ذلك؛ وهو لا يخون مبادئهم أو قيمهم من أجل منفعة ذاتية ومن دون تبرير عقلاني.

ـ إنه «يمكن الاعتماد عليه» ويشعر بالمسؤولية.

3. *نزعة الخير:*

مثل هذا الشخص له طبع لطيف ومحب للخير. ليست لديه دوافع خفية أو مقاصد شريرة أو منافع خاصة. إنه عموماً يرغب في ما هو أفضل للأشخاص الآخرين وهو سعيد عندما يكونون سعداء ومسرور لرفاهيتهم.

ـ لا يحمل «الحقد» نحو الآخرين ولا يحمل النوايا السيئة. إنه لا يضمر الكراهية ولا الغضب أو الضغينة. إنه لا يحسد. وليست لديه الرغبة في أن يتعمد إيذاء شخص آخر أو ممتلكات شخص آخر أو عائلته.

ـ إنه لا يسعى إلى أن يجلب نظر الآخر بالقوة أو يسعى إلى إرغامه أو إرغامها على ممارسة الجنس؛ إنه يبني العلاقات الجنسية على «التوافق».

ـ إنه «محب للخير»، متعاطف ومتفهم ومتعقل وشفوق. يقوم بجهد إيجابي للتقليل من المعاناة التي لا موجب لها أو الألم الذي لدى الآخرين ويمنح، على قدر الإمكان، بعض الإعانات. إنه يجاهد كي يكون محباً للإيثار. إنه عطوف ومتبرع ويرغب في تقديم المساعدة. إنه ودود ويبدو محباً. وهو حساس لحاجات الضعفاء والمعوزين والمهجورين والمعاقين. ليس منجذباً جداً للأثرياء وأصحاب السلطة والشهرة والمواقع المؤثرة.

4. *الإنصاف:*

ـ الشخص الذي يتصف بهذه الصفة سيعبر عن «الامتنان» للذين ساعدوه أو يستحقون الشكر. إنه سوف يعبر عن تقديره لشغل متقن أو عمل أنجز جيداً أو يعود بالفائدة. إنه ليس انتقامياً أو يستسلم للغيرة الحاقدة أو الحسد.

ـ وبالمنطق نفسه، يؤمن بنوع من «الشعور بالمسؤولية». إنه يؤمن أن أؤلئك الذين يقترفون الأفعال اللاأخلاقية عليهم أن يتحملوا المسؤولية. لذلك لديه الحس بما هو صحيح وخاطئ، ويسعى على قدر الإمكان أن يكون منصفاً في

تعامله مع الآخرين. إنه يتبع القواعد التي تؤسس للانسجام والنظام. لا يحمل الحقد ولا يسعى نحو الانتقام، ويرغب في التسامح والنسيان.

ـ إنه يحاول أن ينفذ مبادئ «العدالة» في تعامله مع الآخرين على قدر ما يمكنه من أن يميزها. إنه يرغب في أن يعامل كل الأشخاص بالاحترام نفسه والتقدير نفسه. يحاول أن يكون محايداً في تطبيقه لمبادئ العدالة على الآخرين، ويكافئ حسب الاستحقاق.

ـ الإنسان المنصف سيكون «متسامحاً» مع أساليب الآخرين في الحياة ويحترم رغبة الآخرين في أن يكونوا مختلفين عنه. إنه يتحمل هذا الاختلاف على الرغم من أنه قد لا يتفق معه أو يجده شاذاً أو ذا قيم كريهة بالنسبة للآخرين أو لعاداتهم ولمعتقداتهم أو ممارساتهم، مادامت لا تؤذي الآخرين أو تفرض عليهم. إنه يتآلف مع باقي الأفراد بالحقوق ذاتها التي يطلبها لنفسه، وعلى الرغم من أنه قد ينتقد و/أو يحاول حث الآخرين، إلا أنه لن يسعى إلى أن يقلل من شأن أو يضطهد أساليب الآخرين في الحياة أو وجهة نظرهم فيها أو أنظمة القيم لديهم.

ـ إن الشخص المنصف لن يلجأ إلى استعمال العنف أو القوة أو السلطة في التعامل مع الناس الآخرين. سيكون «مسالماً ومتعاوناً». وعلى قدر الإمكان سيسعى إلى التفاوض بشأن الاختلافات ويقوم بعمل التوافقات التي يمكننا جميعاً أن نعيش في ظلها. إنه يحيا بروح الإنصاف والعقلانية.

[5]

المسؤوليات

إن مصطلح «المسؤولية» ربما يستعمل للدلالة على ثلاثة معان على الأقل. إنه يشير أولاً إلى الاعتماد الشخصي على النفس. فنحن نقول أن الشخص المسؤول يعتمد عليه وموثوق ويقوم بواجبه جيداً وينجز التزاماته. ثانياً، يمكننا أن نستعمل المصطلح كي نشير إلى الاعتماد على النفس. عندما نعد شخصاً ما بكونه مسؤولاً، فنحن نقول أنه يمكن أن يمتدح أو يلام لأفعاله وأن المجتمع قد يعاقبه إن عدت تلك الأفعال شنيعة. هذان المعنيان للمسؤولية قد نوقشا من قبل.

في المناقشة التالية، أرغب في أن أطرح معنى ثالثاً للمسؤولية، لا علاقة له بالأولين. فأسأل ما هي مسؤوليات الشخص وواجباته والتزاماته تجاه نفسه وتجاه من في الدائرة من حوله والمجموعة التي هو جزء منها، أو حتى تجاه البشرية عموما؟

المسؤولية تجاه الذات

بأي معنى يمكننا أن نقول أن الإنسان له مسؤولية تجاه نفسه؟ من المؤكد أن هنالك ميزات شخصية تخص الحياة الخاصة لإنسان ما. هل يمكننا القول أن الإنسان عليه أن يقوم ما بوسعه لتهذيب تلك الميزات وتطويرها؟ أليس على المرء واجب القيام بالأشياء التي تخصه، مثال ذلك الصحة ـ أن يحمي بنيته

الجسمية والعقلية؟ هل يتحتم علينا أن نقول أن حرياً بالمرء توسيع آفاقه بالمعرفة، أي عليه أن يطور فكره النقدي ومواهبه الفكرية وتنظيمه الذاتي؟ ألا يتحتم عليه أن يجتهد ليحقق نوعاً من العمل الخلاق ويطور لنفسه مهنة؟ هل يتحتم عليه أن يسعى بتعقل لإشباع رغبته الجنسية؟ هل يتحتم عليه أن يسعى كي يكون مندفعاً جيداً ولا يبدد مواهبه؟ هل يتوجب عليه أن يطور تذوقه الجمالي وتقديراته؟ كل هذا يتضمن قيماً شخصية واختيارات. الشخص الناضج سيعرف مسؤولياته كي يحفظ ويعزز كيانه، وسوف يجتهد كي يكون بصحة جيدة وحكيما.

ولكن ماذا لو يرغب شخص في أن يبدد مواهبه في أشياء عقيمة؟ ماذا لو لم يرد أن يعمل؟ ماذا لو يفضل المتع المباشرة، يفضل الاحتفاظ باللحظة الراهنة ولا يحسب حساباً للغد؟ في المجتمع الحر نضمن له الحرية في أن يفعل ما يشاء. لا يمكن لأحد أن يسن القوانين من أجل الآخر: للمرء الحق في أن يسير على وفق قيمه الخاصة شريطة أن لا يؤذي الآخرين. إن الحق في الخصوصية مبدأ ثابت للمؤيد للحرية. ومع ذاك فقد نعترض على مثل هذا الشخص. وفي بالي دائماً الحوار الذي أجريه غالباً مع الشباب المراهقين وطلاب الجامعة. كنت أقول لهم إن الأساس للشعور بالمسؤولية الشخصية هو أولاً وقبل كل شيء التعقل: على المرء أن يهتم بالأهداف الطويلة الأمد وليست الأهداف والرغبات المباشرة. يتعلم الإنسان ذلك من خلال التجربة ضرورة ذلك. في سن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، قد يندم المرء أنه قد ضيع فرصه في سن الثامنة عشرة أو العشرين أو الخامسة والعشرين، على الرغم من أن الوقت يبقى غير متأخر أبداً للتعلم من الأخطاء، ومن المؤكد ليس هنالك تأخر أبداً في تعلم أشياء جديدة وتحديد أهداف جديدة.

هل يمكن أن نقول لشخص آخر: «عليك واجبات أخلاقية في إدراك الاحتمالات التي لديك؟» دائماً ما ينصح الآباء أبنائهم، ويسعى المعلمون إلى

إرشاد تلاميذهم نحو واجباتهم: كونوا ودودين، نظفوا أسنانكم، انتبهوا إلى غذاءكم واعتنوا بصحتكم وحاولوا أن تحصلوا على التعليم واقرأوا على قدر ما تستطيعون، إنتبهوا في اختيار أزواجكم حاولوا الحصول على وظيفة جيدة وخططوا لمستقبل مهني. ولكن الشباب نادراً ما يصغون لذلك أو يلتفتون إلى تلك التحذيرات؛ ربما يفضلون الإبحار عبر البحار السبعة أو يصبحون فنانين على شرفة باريسية أو يتطوعون في بحث فضائي، إنهم يتحدون العادات التقليدية المتوارثة والقيم البرجوازية. وبالطبع هنالك نوع من الانتماء في البحث عن حياة مغامرة للاكتشاف والإثارة، لبحث أحلام الفرد وقدره. حري بنا أن لا نعترض إذا ما كانت لهم آمال كبيرة وقد يستطيعون تحقيق طموحاتهم. لهم الحق في اختيار ما يريدون ان يكونوا وكيف يرغبون في أن يعيشوا. وإن نجحوا في اختلافاتهم اللاتقليدية، فقد نفخر بهم ونقول بفخر، «ولدي بطل في البليارد» أو «إبنتي شاعرة». يجب أن لا نفرض معايير المجتمع التقليدي على العقول الحيوية والقلقة، بل يجب أن نسمح لهم بأن يجدوا طريقهم الخاص. فهذه هي المغامرة والاكتشاف، وهي التربة الخصبة التي ينمو من خلالها التقدم. ولكن ثمة حالات مختلفة. فماذا لو أن ولدي أو ابنتي لا ترغب في عمل شيء غير تضييع الوقت في مهن عقيمة وأوهام؟ ماذا لو كان قذراً وكسولاً وجاهلاً؟ من واجبنا أن نعثر معهم على الخطأ في ذلك لو تحتم علينا أن نعيش تحت سقف واحد. ولكن ماذا لو أنه فسد حسب قناعاته؟ ماذا لو لم يستطع أن يجد له مهنة أو فشل في إقامة علاقات ذات قيمة مع الأشخاص. ماذا لو كانت ذرية الفرد لا يقومون بشيء نافع أبداً أو من العاطلين الذين لا قيمة لهم في عيون المجتمع؟

من وجهة النظر الاجتماعية قد خيب أملنا. نحن نشعر أن عليه بعض المسؤوليات تجاه الذين من حوله والذين يهتمون لأمره وقد يحبونه. ولكن ماذا عن وجهة نظر الشاب؟ نقول نعم، عليه نوع من المسؤوليات تجاه نفسه، فيما يتعلق بحاجاته ورغباته وأهدافه وطموحاته ـ مهما كانت. ولكن للأسف الشديد

هنالك الكثير من الناس يفشلون في الحياة ويصبح وجودهم تراجيديا. ربما تطيح بهم الأحداث ـ قد يكونون انحدروا من عائلات محطمة فيعانون من أمراض تضعفهم أو يصبحون مدمنين على الكحول أو المخدرات ـ ويصبح من الصعب عليهم أو من غير الممكن أن يتغيروا. ولكن على نحو ما وفي التحليل الأخير، تبقى لدى هؤلاء بعض الاختيارات وعليهم تحمل بعض المسؤوليات تجاه أنفسهم. ربما يكون الواجب الشخصي الأكثر أهمية هو أن يكون الشخص مستنداً إلى كل قابلياته، أن يستفيد من مواهبه، ويدرك قدراته.

القدرات متنوعة بالطبع، ولا يمكن إدراكها كلها. هل يتحتم على الإنسان أن يكون عالم رياضيات أو عازف كمان، أو عاشقاً كبيراً أو طباخاً ماهراً أو رياضياً أو رجل أعمال أو ناشط سلام أو عالماً؟ كل هذه الأشياء بحاجة إلى الجهد والتركيز، وليس في اليوم إلا عدد محدود من الساعات. ليس بإمكان أي أحد أن يكون ليوناردو. فضلاً عن ذلك، إن ما يمكن أن نصبح عليه يعتمد على الفرصة والحظ إلى حد كبير. قد نقرر أن نقوم بمحاولة معينة أو نتحول إلى أرض أخرى. إن قراراتنا تراكمية، وهي تعيق الفرص الأخرى. هل يمكن أن نكون مختلفين لو أننا تمسكنا بفرصة واحدة، اتخذنا طريقاً مختلفاً، أو اتخذنا قراراً مختلفا؟ إن الحياة لا يمكن أن تعود إلى الوراء. ولكننا يمكن أن نقول أننا مهما فعلنا علينا واجب نؤديه بدرجة ما من «التميز» في نشاطاتنا وأسلوب حياتنا، وعلينا أن ننمي نوعاً من الفخر بالحياة التي نعيشها ونوع من القناعة بما كنا قد أنجزناه من قبل. قد يكون الناسك محتشماً جداً ويسعى للهرب، مفضلاً النوم في حقول الخشخاش ويقفل على مواهبه ويعطلها. وهنالك أيضاً المتطرف في حريته المنشغل بالمتع فحسب الذي يفضل شم الكوكائين على تقصي المعرفة. من نحن كي نقول لأي شخص بأنه فشل وأنه قد بدد رأسماله وأرهق طاقته الكامنة عبر حياة منحلة، أو سمح لحياته بأن تفسد في التقاعس والفساد أو التحقق الذي لا جدوى منه للنرفانا أو الخلاص الروحي؟

علينا أن نكون حذرين لا رقباء؛ علينا أن نكون متحسسين لأي صغيرة في الحياة، لتنوع الأذواق والمهن، والتنوع الواسع للعواطف والاهتمامات. إن الرجال والنساء من البروميثيوسيين (وفقاً لبروميثيوس حامل المشعل في الأسطورة اليونانية)عليهم أن لا يفرضوا معايير التميز الخلاق على الناس الغير متحمسين لذلك أو غير القادرين على القيام بإنجاز باهر. ربما يتوجب علينا أن نشير إلى أن على الشخص أن لا يشتت موهبته، مهما كانت، وعليه بدلاً من ذلك أن يسعى إلى استغلال هذه الموهبة. ولكن إن كنا لا نلقى آذاناً صاغية فثمة القليل مما يمكن أن نفعله أو يجب أن نفعله لذلك الشخص. عموماً، إن كان لشخص ما أطفال يمكنه أن يعلمهم الاجتهاد نحو التميز وبحث كل ما يمكن أن يستطيعوا فعله. وهنالك طريقة واحدة لجذبهم لذلك وهي الإثارة والإقناع. علينا أن نحاول أن نثير في المتمردين على التعلم الرغبة في المعرفة. ربما يمكننا أن نزرع بذور الإمكانية في النفوس الضعيفة، من أجل أن يحملوا ثمرة. يمكننا أن ندفع ونحفز الرغبة نحو النمو والإنجاز الشخصيين. ولكن لا يمكننا سوى أن نرشد؛ فلو كان الدافع غائباً لا نستطيع أن نولده. وواحدة من السبل أن تقول، : «لو انك جربت ذلك لأحببته»! وأعتقد، على سبيل المثال، لو أن شاباً لا يحب الجبن الفرنسي أو لا يحب بارتوك أو ت. س. إليوت، فهو يفتقد إلى شيء ما. ما أن يتذوق أو يسمع أو يتوسع في القراءة قد يصل إلى التعلق بمثل هذه المتع. يمكن للمرء أن يقدر كل أشياء الحياة ذات التحقق الذاتي ـ من الأعمال الإبداعية والرياضة والسفر والمغامرة والموسيقى والشعر والفلسفة والعلم.

الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين

إذا كنا لم نستطع أن نؤكد في كل الأحوال أن على الشخص الشعور ببعض المسؤوليات تجاه نفسه أو من أجل نفسه، فيمكننا بالتأكيد أن نصر على أن عليه

الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، ولا يمكنه التغاضي عنهم بأسلوب نبيل. هنا تكون القضايا الأخلاقية في المقدمة لأنها تتعلق بعلاقة الإنسان بالناس الآخرين. وتبرز الواجبات على مستويات مختلفة من التداخل الاجتماعي. فتترتب على كل فرد مجموعة من الواجبات عليه أن يؤديها اعتماداً على علاقاته المتداخلة والتزاماته السابقة.

1 . *المسؤوليات الأبوية:* مبدأياً، يكون الوالدان مسؤولين عن تربية أبنائهما. عليهما واجب أخلاقي للدفاع عنهم من خلال توفير طعام ومأوى ورعاية صحية وخلق فرص للتعليم. ولا يمكن أن يكونوا محصنين كي يؤذوا أو يهملوا الأطفال. أغلب الآباء، من خلال الحب، يرغبون في أن يفعلوا أفضل ما يمكنهم من أجل أطفالهم. وللأسف الشديد بعض الآباء مهملون في واجباتهم ويسوغون لأنفسهم الإدانة الأخلاقية.

إن الحب الأبوي له جذوره في الغرائز الطبيعية ـ بالمشاركة مع باقي الكائنات ـ ولكن أيضاً في التثاقف. هنالك عملية ترابط للطفل مع الأم تبدأ عندما تشعر الأم بالضربات الرقيقة للجنين وحركته في بطنها. وتقوى هذه العملية عند ولادة الطفل من خلال حواس الشم واللمس والبصر ووعي الطفل باستجابة أمه لحاجته للطعام والدفء. إن كل حواس الطفل تتحفز عبر الاتصال الأمومي والأبوي وتستمر هذه العلاقة الحميمة خلال نشأة الطفل. للوالد الحق في تنشئة طفله في أفضل صورة يقررها. وتقع عليه المسؤولية في أن يمنح الطفل العناية المناسبة. على المجتمع حماية الأطفال الذين يهملهم أو يؤذونهم آبائهم عن عمد. إن الحقوق الممنوحة للوالدين معادلة للفهم الضمني الذي يصاحب الواجبات التي يتحتم عليهم تأديتها. وإلا فإن حقوق الوالدين في تربية أطفالهم يمكن أن توضع جانباً من قبل المجتمع.

ربما لا يسمح لنا المجال هنا لأن نعد بالتفاصيل ما هي الواجبات الملقاة على

عاتق الآباء تجاه أطفالهم. يكفي أن نقول أنهم يجب أن يلبوا حاجات البقاء والنمو للطفل. على الوالدين أيضاً أن يحاولا المساهمة في تنمية أبنائهم فكرياً وجمالياً واجتماعياً وأخلاقيا، كي يغرسوا الآداب الأخلاقية بالمثال والعمل ويجتهدوا في تهذيب التميز. من الناحية الأخرى، فللأطفال حقوق، وليس من حق الآباء تجاوزها. وتحديداً، من حق الأطفال التسلح بالثقافة والمعرفة، وعلى الإنسان أن يحقق في صرامة الآباء المتسلطين ليمنعهم من التعرض إلى اعتقاد مختلف وأنظمة للقيم بزعم الخوف من «الفساد». فالكثير من الآباء يريدون لأبنائهم أن يشاركوهم في اعتقاداتهم وقيمهم، وهذا ربما يكون متوقعا. وعلى أية حال، لابد أن لا يكون ذلك على حساب الفردية. لا يجب أن يكون الشخص الشاب ضحية أو تكبح مواهبه في مواقع معينة لأن والديه لا يفضلونها. إن الآباء المحبين لأبنائهم سوف يريدون لهم أن يحققوا شخصياتهم ويدركوا طبائعهم المتفردة. وأفضل طريقة لشخص ما كي يكون مستقلا هو أن يجد طريقه بنفسه. من الناحية الأخلاقية على الآباء أن لا يطلبوا من أبنائهم الأذكياء والناضجين أن يكونوا كالروبوتات مطيعين لكل الأوامر. على الوالدين أن لا يسعيان إلى أن يجعلوا الأبناء على صورتهم ـ حتى لو اعتقدوا أن هكذا خلقهم الله.

2. *واجبات الأبناء:* ثمة واجبات والتزامات للأبناء أيضاً تجاه الآباء. تقول الوصية العاشرة «احترم أباك وأمك» وهذا واحد من الواجبات الأساسية. إن عقوق الوالدين من الولد أو البنت يعد أمراً لا أخلاقياً ونجد ذلك لدى أغلب المجتمعات إن لم يكن كلها. يقول شكسبير أن الولد غير الممتن لوالديه يمكن أن يكون أشد حدة من سن الأفعى. إذا كان الآباء مجبرين أن يفعلوا ما بوسعهم من أجل ترفيه الطفل، فعلى الطفل ـ خلال فترة الطفولة والمراهقة وخلال حياته كلها ـ تترتب واجبات مصاحبة. والكثير من هذه تتضمن الآداب الأخلاقية: أن يكون وفياً لوالديه؛ أن يكون ممتناً لما فعلاه من أجله؛ أن يقدر لهما ذلك. من

المؤكد أن واجبات عدم الإهمال يجب أن تكون حاضرة: علينا أن لا نهدد ولا نؤذي الوالدين بأي طريقة كانت. إن واجب الإحسان لابد أن يكون قوياً بشكل خاص: يجب أن لا نكون أنانيين بل محبين ونحترم اهتماماتهما وراحتهما. وإن كان عليهم واجب حمايتنا وتغذيتنا فنحن بالمقابل يجب أن نقوم بالمثل، خصوصاً عندما نكبر ونكون قادرين على ذلك. وهذا ينطبق خصوصاً على السنوات التي يكونون فيها مرضى ومسنين. لماذا نعتمد على الدولة فحسب لرعياتهم صحياً والعناية براحتهم؟ لماذا لا يقوم أطفالهم أولاً وقبل كل شيء؟ تلك كانت هي الحال عبر التاريخ وستظل كذلك حتى اليوم.

إذا كان للفرد المسؤولية الشخصية تجاه نفسه للحفاظ على صحته وإدراك مواهبه، فمن المحتم أن عليه واجبات تجاه والديه. فلا يمكنه أن يخون ثقتهم به. وقد يبرز هنا تناقض في القيم، خصوصاً عندما يختلف الأطفال عن والديهم في المهنة التي يحترفونها أو من يتزوجون. قد يقدم الوالد النصيحة والمشورة، ولكنه عليه أن يسمح لأبنائه أن يختاروا ما يشاؤون (ماعدا في أوقات الكوارث) من دون أن يصر الوالد أو الوالدة على أن يفعل ما يأمرونهم به. في حالة ما قد يضطر الشاب الناضج أن يتمرد ولا يطيع والديه، خصوصاً عندما لا يكونون عقلانيين وهو بحاجة إلى أن يعتمد على نفسه. في بعض الكوارث قد يكون التناقض مأساوياً حتى يتعذر الحل السهل. وتكون هذه هي الحال خصوصاً عندما يطلب الوالدان أشياء تعجيزية يزعمون الحماية أو أنهم أنانيين.

على المرء أن يقوم بما في وسعه لإرضاء والديه ويساعدهما إذا كانا بحاجة للمساعدة، ولكن في بعض الأحيان ربما يتحتم عليه قطع الحبل السري. في بعض المواقف قد يتحتم على الأطفال أن يدعموا آبائهم أو يضحون بالوقت والمال لمساعدتهم إن كانوا في خطر. ولكن متى نسحب الخيط؟ أعرف فتاة شابة تخلت عن الحب والزواج والحياة كي ترعى والدها المريض، وشاب شعر

بالواجب لدعم والديه على نحو لطيف جداً إلى حد أنه لم يكون لنفسه أسرة. لحسن الحظ أن الأمن الاجتماعي، قد وفر بيوتاً للرعاية الطبية في الأوقات الحرجة؛ وعلى الآباء أن لا يكونوا طفوليين في ما يطلبونه من أبنائهم من تضحيات واعتراف بالفضل.

وعلى الرغم من كل ذلك، فللأبناء مسؤوليات تجاه والديهم وعليهم أن يقوموا بواجباتهم بكل حب وتفان.

3. *واجبات الزواج:* من حق الإنسان أن يختار شريكاً لحياته زوجاً أو زوجة ليدخلا في تعاقد متفق ويعيشان معا، ليقتسما المواد المشتركة والممتلكات والأهداف والقيم، وكل منهما ملزم بالقيام بواجباته تجاه الآخر.

إن العلاقات الزوجية لا تحتاج إلى أن يتم تعريفها في الكنيسة أو الدولة كي تكون مشروعة. فاثنان ناضجان يختاران العيش معاً زوج وزوجة، في علاقة حب حميمة لمدة من الزمن على أساس اتفاق متبادل، علاقة زواج مشروعة. الحيوي هنا أنها علاقة توافق ليست قائمة بالقوة ولا بالإكراه، وأن الزواج غير مرتب من الوالدين أو الآخرين من دون اتفاق الطرفين. إن تكن هناك علاقة زواج متوافقة، تترتب على الطرفين واجبات معينة تجاه كل منهما للآخر. من الأولويات هي الحاجة بالالتزام بالآداب الأخلاقية. إن كان هناك أي مكان تكون فيه لهذه الآداب صلة، فهي ضمن وحدة العائلة: بين الشركاء في العملية الجنسية وبين الآباء والأطفال. ما الذي يعنيه هذا هي أن العلاقة يجب أن تتأسس على الاستقامة. لابد من وجود الإخلاص والثقة والأمانة. لو فقدت الثقة بين الطرفين، فمن غير الممكن لهما أن يعيشا سوية بأي نوع من الانسجام.

أن الزواج الأحادي هو من بين المؤسسات الاجتماعية الموثوقة، لأنه يوفر وسائل حاجات الإشباع الجنسي باستقرار وطمأنينة، وهو يحمي الأفراد من عواطف الخوف، والغيرة والحسد الذي يدخل حيثما يكون هناك تنافس جنسي

وعدم يقين. قال باسكال «القلب له أسبابه التي لا يعرفها العقل». قد نوسع هذا إلى حياتنا الشخصية. لو أن عهود الحب والمودة غائبة تماماً، من الصعب بقاء العلاقة بين الزوجين. البعض من العلاقات قد تكون جنسية فحسب، فتدخل في بعاطفة ملتهبة لإشباع الرغبة الإيروتيكية. إن الإشباع الإيروتيكي حيوي في الحياة ويجب أن لا يحط من شأنه. ولكن العلاقات الجنسية الرومانسية غالباً ما تنتهي مع العمر والزمن، وأن اللهفة للعلاقات الجنسية الأولى تنتهي إلى علاقات متعبة ومملة. إن زهرة رومانسية الشباب تذوي مع الوقت، ولكنه يمكن أن يكمل بعهود عميقة وأكثر ثباتاً ومودة. على الرغم من أن الجنس المتناغم هو عموماً مقوم ضروري لتحقيق علاقة الزواج، فهي غير كاف في نفسه لأن هناك حاجات أخرى واهتمامات تشبعها هذه العلاقة.

هنالك قائمة كاملة بالمسؤوليات الأخلاقية تظهر من خلال الزواج يحملها كل طرف إلى الآخر و ربما تحمل على أنها انتقادات. وهنالك تميز أخلاقي أساسي في الإخلاص. يفشل الزواج عندما يكون هنالك عدم وفاء مستفحل، وعندما يقترف الشريك الكذب على الآخر أو يخدعه. ليست هنالك علاقات مثالية وقد لا يحمل الشريكان الميول الجنسية المتساوية. عندما يكون هناك تناغم جنسي يكون الواجب واضحا: من الناحية المبدأية حري بالفرد أن لا يضل. ولكن مع ذاك قد تكون هناك استثناءات لهذا. ما الناس إلا من البشر؛ وقد يحدث شيء طارئ أو تجربة مع شخص آخر من دون أن ينهار الزواج. إن ذلك لا يجعل من البغاء شيئاً صائباً، فحين يحب شخصان أحدهما الآخر ويكونان متناغمين جنسياً، فتكون بالنتيجة لهما مبادئ عامة موجبة لا تنكسر في العلن أو في السر.

ويكون الأمر مختلفاً عندما يكون الفريقان في الزواج غير منسجمين تماماً، فقد لا يكون أحدهما على قناعة كافية بالآخر. فهي أو هو قد يكونان لايزالان يحبان بعضهما البعض ويستمتعان بالجنس، ولكنهما يرغبان في أكثر من ذلك. لست أدافع هنا عن البغاء بل أفكر في أمر الزواج وكيف يمكن أن يكون هنالك

بحث عن مخارج بديلة. البعض من النساء والبعض من الرجال قد يكونون ضعافاً من الناحية الجنسية؛ ومن المؤكد أن عليها زيارة المعالج الجنسي أو الاستشاري بأمور الزواج لينظر في إيجاد حلول لمشاكلهم. من المفترض أن تبدأ الزوجة أو الزوج بالمغازلة والسعي لاجتذاب الشريك الآخر للقيام بالفعل الجنسي، على الرغم من أن الاغتصاب أو الإكراه يمكن فقط أن يقود إلى علاقة زواج مليئة بالمرارة، كما هو الحال لدى سوميز وأيرين فورسيت في عمل جون غالزورثي «مغامرات فورسيت».

كنا قد ذكرنا من قبل حالة «السيدة تشاترلي». زوجها غير قادر على الفعل الجنسي، بعد أن جرح وأصيب بالعجز الجنسي في الحرب العالمية الأولى. وكان الحارس موجودا. وقد كانت إمرأة ذات رغبة جنسية وعاطفة عادية. فهل تعاني الحرمان طوال حياتها؟ على الرغم من حبها لزوجها قررت أن من المسموح لها القيام بالمغامرة مع شخص آخر. وهذا اختيار يمكن أن يقوم به الفرد، ولا يمكن لشخص أن يقول «من قبل» أنه خطأ مطلق ولا تبرير له. إن تكن الحاجات الإيروتيكية أساسية للحياة الطيبة، فإن الإصرار على كبحها طوال الحياة يكون ذلك دواء قوي لا يمكن للكثيرين تحمله ـ وعلى الرغم من ذلك تجد العزاب والكهنة الكاثوليكيين يصرون على مزايا الحرمان. قد تكون المرأة حاملاً فلا تقدر على الفعل الجنسي، وقد يكون الرجل بعيداً في عمله أو مريضاً، عاشق قديم قد يظهر على نحو غير متوقع؛ هنالك ظروف ملطفة كما تسرد ذلك روايات الرومانس والأفلام السينمائية. في مجتمعات كثيرة قد توجد حلول بديلة كالعاهرات والفتيات عند الطلب وعاشقات. ومما لا شك فيه أن نسبة العاهرات ستقل لو وفر الزواج القناعة لدى كل من الطرفين. وقد يبقى الفرد راغباً في الزواج، لأنه فضلاً عن الجنس، هنالك أيضاً اهتمامات مشتركة في هذه العلاقة: إن الحياة المشتركة والذكريات جميلة جداً ومن الصعب خيانتها أو التخلي عنها، فهناك الاشتراك بالعمل والمنزل والمعاناة والأفراح، وخصوصاً الأطفال والأقارب الذين يعرفهم الإنسان ويحبهم. فضلاً عن ذلك،

أن الزواج المتكامل والعائلة يسهمان إلى حد كبير في البنية الأساسية للقيم الإنسانية، وهما بحاجة إلى الحماية والبقاء.

لذلك علينا أن نحب ونشرف أزواجنا وزوجاتنا، ولكن مسألة أن يكون من واجبنا طاعتهم هي مسألة أخرى؛ إذ الطاعة يجب أن لا تطبق على النساء. فعلى مدى التاريخ الطويل للبشرية، كان على النساء الخضوع للرجال، مكرهات على الإلتزام بأوامرهم. صحيح أن هنالك مسؤوليات تقع على عاتق الزوجة في المنزل فكذلك هو الحال على الزوج؛ وفي المجتمعات المدنية المتحضرة والتكنولوجية، قد يتحتم أن يكون لكل منهما دوره في الاقتصاد. على الزوج أن لا تكون له الهيمنة على زوجته. إنها حرة ومستقلة، مساوية للزوج في الاحترام والقيمة، ومن المفروض أن تكون حقوقها مساوية لحقوقه. فالزوجان سوف يعملان معاً في المهمات الزوجية في تنظيف المنزل والتسوق وعمل التصليحات وكسب العيش والطبخ وتربية الأطفال وقد يختار أحدهما أو كلاهما هذه المسؤولية أو تلك. وهذا ينطبق أيضاً على الرجل والمرأة من غير المتزوجين الذين يعيشان معا، أو الناس الذين يعيشون معاً تحت القانون العام أو تحت أي من الارتباطات أو التعايش. هنالك مساواتية في الزواج أو العائلة فيما يخص السلع والخدمات، لأن كلاً منهما يقتسمان معاً على وفق حاجاتهما. والقرارات بين شخصين يحبان بعضهما البعض يجب أن ترتبط بعملية متبادلة من الأخذ والعطاء. في بعض الزيجات قد يكون أحد الطرفين هو المستبد، دائما ما يريد فرض إرادته وقد يكون الطرف الآخر سلبياً وحاضر دائماً للتسوية. ربما يكونان هذا الزوجان متناظرين؛ ولكن يبقى الطرف السلبي له حقوق، ومن المؤكد أن حقوقه أو حقوقها يجب أن لا تغبن من قبل الآخر.

إن كانت هناك أية قاعدة من الأحرى تطبيقها فهي قاعدة التحاور والاختلاف والتسوية. لذلك علينا تحمل مسؤولية تقدير حاجتنا إلى الآخر والمحاولة في عمل توافقات. يتعلم الإنسان من التجربة الطويلة أنه لو أريد للزواج أن يحيا

عليه أن يكون مرناً وأن يتخلى عن الضغينة وأن يسيطر على أعصابه؛ وإن فعل ذلك، أن يعتذر ويتسامح وينسى ويقبّل الآخر ويتصالح معه ولا يكون عنيداً أو عصبياً لا يمكن للآخر أن يناقش معه مشكلة. على كل طرف من الطرفين أن لا يكون أنانياً بل يفكر ملياً ويحترم الآخر.

ليس هنالك زواج متكامل، وكل زواج له سلبياته وإيجابياته. ولكن إن استحق الزواج الحفاظ عليه على المرء أن يكون لديه الإحساس بالمسؤولية تجاه شريكها أو شريكته. وليس الأمر كله أخذ أو كله عطاء. وإن فشل الزواج فلا ملاذ غير الانفصال أو الطلاق، وهي الحالة التي ليست من الشرور أو من الذنوب بل الطريقة المعقولة للخروج من وضع سيء. ومن وجهة نظري: على الإنسان أن يعمل ما بوسعه للحفاظ على حيوية الزواج فالطلاق تجربة مؤسفة ومؤلمة. ولكن إن كانت الاختلافات الزوجية لا تقبل الوفاق فقد يكون الانفصال هو البديل المعقول الوحيد، وقد يختار أي من الطرفين في بعض الأحيان العودة إلى الزواج من جديد.

ثمة بالطبع تنظيمات أخرى بين الجنسين يقوم الناس بترتيبها: كتعدد الزوجات والعلاقات المثلية وغيرها. ولن أناقشها هنا، ولكن من المفترض بهذه العلاقات، من غير الزواج الأحادي، أن تنبني على المبادئ نفسها من الإخلاص والثقة والأمانة والحوار وتطبيق التعاون والتعاقد الأخلاقي لهذا الاتحاد. إن تنظيمات الزواج ـ مهما كانت ـ تتبعها مسؤوليات وواجبات تبنى على اتفاقات سابقة ونوايا في الحاضر والمستقبل كي تنجح.

4. *العائلة الممتدة:* ومن ضمن المسؤوليات الملقاة على الفرد هي تلك التي تتعلق بالأفراد الآخرين من العائلة، خصوصاً إن كان المرء محظوظاً ليكون عضواً في عائلة كبيرة. أفكر بالأخوات والإخوة والأجداد والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولاد الأعمام والأخوال والنسباء. إن علاقات الأخوات

والإخوان هي من بين أقوى وأحر العلاقات البشرية، وإليها يستند قدر طيب من الحضارة البشرية. على الرغم من أن الأخوة قد تحدث بينهم مشاجرات، لكنهم يرغبون رغم ذاك في الحفاظ على عهود الوفاء والتفاني فيما بينهم خلال الحياة؛ وهذه العهود تأتي رديفة للعلاقات الزوجية. ولكن علاقات القرابة الأخرى تلعب أيضاً دوراً حيوياً في الحياة. في المجتمعات البدائية، تضم القبيلة كل أعضاء القرابة لجماعة واحدة. وفي المجتمعات المستقرة يتربى الأفراد وهم يتعرفون على كل أفراد العائلة.

وفي هذه النقطة ربما يكون الوصف الشخصي للسيرة الذاتية مفيدا. إن حبي لوالديّ وإخوتي وأخواتي يأتي أولاً، لكن هذا يتسع إلى الكثيرين من الأقارب الآخرين في العائلة الكبيرة. في نيوجرسي الشمالية تتضمن عائلة والدي سبع أخوة وأخت واحدة وعدة دزينات من أولاد الأعمام. وكان سكن أقارب أمي في البداية في مدينة نيويورك، حيث هنالك خمسة أخوات لها وأخوين. أعرف أم أبي، إمرأة كبيرة ومهيمنة تدير عائلتها الكبيرة بتسلط. كان أبي هو ابنها الأصغر ـ الحبيب ـ ولذلك كان لنا موقع دافئ في قلبها. كان زواج أجدادي مليئاً بالحب والتوافق تجاه أطفالهما الكثار وأحفادهما. أتذكر جدتي التي كانت حزمة من الفتنة والفرح وكان جدي رجلاً مهذاراً دائم الابتسام بصدر عريض وبطن كبيرة عاش إلى سن الثانية والتسعين وغالباً ما كانت هناك سيجارة صغيرة في زاوية فمه.

وحاولت كل من العائلتين على المحافظة على علاقة قرابة متينة. لقد قرروا أن ينشئوا ـ بوصية من أبي إلى حد كبير ـ «دائرة عائلية» بعد أن كبر الأبناء والبنات. فكانوا يلتقون مرة في الشهر في يوم أحد عند منزل أحدهم من أجل «المحافظة على تماسك العائلة». وكانت لدينا، نحن الأطفال، الفرصة للتعرف على أقاربنا جيدا، ليس في اللقاءات العائلية فحسب بل في مناسبات الزواج والمآتم وباقي المناسبات. كان التواصل والحميمية في تلك السنوات ثميناً

بالنسبة لي وبقي كذلك حتى اليوم. وللأسف الشديد، فعبر حركية المجتمع الحديث، عاد أقاربي إلى الجنوب، وانتشر الصغار في الولايات، ولم نعد نلتقي إلا ربما في المآتم. وقد مات كل أعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي. وانتهوا في المقبرة إلى فرعين للعائلة ـ واحد تحت إسم كيرتز يضم خمسين شاهدة قبر، والفرع الآخر في مقبرة أخرى تحت إسم عائلة لاسر. لتبقى قبورهم شواهد على العوائل الكبيرة الممتدة التي زادت الصعوبات في المحافظة عليها في المجتمعات ما بعد الصناعية المدينية.

ويبقى في ذاكرتي الإلتزام الأخلاقي الذي كنت أكنه لكل واحدة من عماتي وخالاتي وأعمامي وأخوالي، الذين كانوا دائماً ما يعانقونني ويقبلونني في المجيء والرواح. وعلى الرغم من أنني كنت محرجاً إلا أنني كنت أحب ذلك. كل واحد منهم كانت له شخصية لها خصوصية في القيم والاعتقادات. كان أغلبهم يرسلون لي بطاقات التهنئة أو الهدايا في عيد ميلادي، وكنت بدوري أشعر بشعور أن لدي إلتزام أخلاقي تجاههم. علي أن أواسيهم وألاطفهم عندما يصفون لي آلامهم وأوجاعهم وأضحك معهم عندما يحكون لي الطرائف أو عندما كنت ألعب مع أطفالهم. ولقد تابع كل أقاربي مسيرتي وكانوا دائماً فرحين وفخورين بما أنجزه.

كم كان كل ذلك جميلاً وكم كان غنياً ومشجعاً! وكم كان أرضاً خصبة للآداب العامة كي تتجذر وتنتعش وتزدهر. لدينا أنا وأبناء عمومتي وأخوالي مشاعر طيبة وتفان ـ وكذلك شعور بالمسؤولية. فأن تقول كلمة حنان وأن تسري عن شخص عندما يكون هناك مرض أو موت، وأن ترسل هدية إن كان هناك وليد جديد أو زواج وتسدي خدمة إن كان ذلك ممكناً وأن توصي بوظيفة وتقرض مالاً عندما يقع أحد ما في كرب فلا يحتاج المرء أن يُسأل مرتين، بل تجده يعطي بهدوء. لو عانوا فنحن نعاني. لو فرحوا وابتهجوا شعرنا بالفرح والبهجة.

هذه المواثيق الأخلاقية متجذرة بعمق في القبيلة، وليس من المحمود التخلي عنها. إن الآداب العامة تكون في أحلى لحظاتها ضمن الحلقة الداخلية: من الأخ لأخيه، والأخت لأختها، في العيش المشترك والحب وتقاسم القيم ذاتها والبحث عن آفاق جديدة. كما أن المواثيق بين أولاد الأخ والأخت لأعمامهم وأخوالهم قوية أيضا: كأن ميثاقاً عميقاً ضمن العائلة يولد دعامةً من المتعذر إزالتها وقد شدتنا بعمق إلى تراثنا العريق. هل يكون السبب لأننا متشابهون ولدينا سمات مشتركة؟ وهل يفصلنا ذلك عن الآخرين؟ أقربائي مهذبون معي، وأنا لدي وفاء لهم، ومن واجبي أن أبادلهم التقدير والحب. إن المبادئ الأخلاقية في السلوك، على الرغم من أنها غير محددة، فهي مرتبطة بعمق بوعينا.

كانت هناك حالات بسيطة للشعور بالغيرة والحسد، وفي بعض الأحيان مشاجرات وضغائن واختلافات ومنافسات. ولكن على الرغم من ذاك، ثمة نسيج من الأمل والواجب ضمن دائرة العائلة يتم الشعور به بألق. على الإنسان أن يخرج من طريقه المعتاد لمساعدة قريب له، خصوصاً عند الحاجة. «ألست حارساً لأخي؟» من المؤكد، أننا يمكن أن نناقش مسؤولياتنا الأخلاقية الأولية هنا: عند دائرة عائلتنا وأعرافها، وخصوصاً عند أحد والدينا أو إخوتنا أو أخواتنا. ولكن يمكن أن يمتد المبدأ: لا يمكن للمرء أن يتوقع من الآخرين في المجتمع أن يعملوا الكثير لنا مثلما سنفعل لأنفسنا. إننا نأكل ونعيش معاً ونحتفل بالزيجات والنجاحات، ونتواسى في حالة المرض والوفاة. كم هي قوية مواثيق العاطفة تلك المتأسسة على المعاناة المشتركة والأفراح المشتركة! إن واجباتنا إزاء إبن العم أو العمة، على الرغم من قوتها، ليست ملحة كما هو الحال مع الواجبات تجاه أحد الوالدين أو الطفل أو الأخت أو الأخ. هل تضعف الواجبات كلما ضعفت رابطة الدم؟ ما الذي يمكن أن نفعله للبوشمان في أفريقيا أو الشخص في أي مكان بعيد؟ القليل جداً بالمقارنة بما يمكن أن نفعله لمن هم ضمن مجموعتنا الصغيرة، بالاستناد إلى المواجهة وجهاً لوجه.

5. *الأصدقاء:* إن التفاني الأخلاقي لا يعتمد على ارتباطاتنا الجينية وحدها. فالأزواج والزوجات هم من جماعات جينية مختلفة، على الرغم من أن عهود الانجذاب والحب بايوجنسية في جوهرها. ولا يقال الشيء نفسه حول الأصدقاء؛ ولكننا قد يكون لنا اهتمام عميق وثابت وتفان أخلاقي إزاء أصدقائنا، يكاد يكون مشابهاً لأقاربنا. هنا يكون الاختبار الحقيقي للالتزام الأخلاقي: هل يمكننا أن نمد ذلك إلى ما هو خارج عائلتنا إلى من هو غريب عنها ذلك الذي يصبح صديقاً لنا؟

قد يتعرف الناس على أناس كثيرين في الحياة ومن مستويات مختلفة. قد يعرف الإنسان شخصاً ما بالصدفة، ربما يكون قد رآه يمر من أمامه. يلاحظ الإنسان الآداب العامة التي يصادفها؛ ربما ببساطة من خلال التحية «مرحباً» أو «صباح الخير» أو «شكراً». إن السلوكيات مهمة ويجب على الإنسان أن يكون مهذبا. قد لا يكون هؤلاء الأفراد أصدقاء، ولكننا مع ذلك ودودين معهم. وقد يعرف الإنسان شخصاً لفترة قصيرة من الزمن، على سبيل المثال، كرفيق سفر في رحلة في طائرة أو قطار، وقد ينسى سريعا. أو مرة أخرى قد يقيم المرء صداقات في العمل ـ في الدائرة أو المعمل أو المدرسة؛ علاقة قد تتطور، ولكن قد تكون تعارفاً بسيطا. عندما نعمل سوية تكون بيننا علاقات ودية. عندما يكون شخصان قرب ينبوع ماء، يقدم الواحد منهم الآخر على نفسه. وإن كان أحد ما عند مصعد، فهو لا يندفع إلى الأمام، بل يفسح الطريق بكل لطف. كل هذه الأشياء ضرورية في الحياة اليومية العادية.

من الناحية الأخرى، أن تكون «صديقاً»، يعني علاقة أخلاقية خاصة بين شخصين أو أكثر مبنية على «التفضيل». ولا أتحدث عن اللقاءات الظرفية أو المنفعية، بل الصداقة القائمة على الاحترام الحقيقي والتقدير والود. الصديق هو الرفيق الذي نختاره والذي نبحث عنه. وتتضمن الصداقة نوعاً من الحميمية المشتركة. والصديق الحقيقي مصدر للمسرة والقناعة. وفي العلاقة العاطفية،

فنحن نجرب الضحك والفطنة والمتعة معا. الصديق الحقيقي هو ذلك الذي لديه إحساس بالولاء للآخر، فيكون مخلصاً ونزيهاً وموثوقاً به ويمكن الاعتماد عليه في المواقف السهلة والصعبة. لا يعرف النفاق أو الادعاء. إنه يهتم بإخلاص لرفاهية صديقه ويشعر بالحزن لما يلم به من نكبات وآلام ويفرح لأفراحه ونجاحاته. ليست للصديق دوافع خفية ولا يستعمل الصداقة لبحث مآرب مرضية. إنه يعبر عن توجه نحو الخير وإحساس طيب نحو صديقه أو صديقته.

من المعلوم أن الصداقة هي الخطوة الكبيرة الأولى التي يتخذها الأفراد بعد الروابط الأسرية البايولوجية للترحيب بمن هو غريب ليدخل اهتمامه الأخلاقي. إنها البداية للتقدير العاطفي للخير الذي لدى الآخرين، وهي السمنت الذي يشدنا إلى الآخرين من خارج مجموعة القرابة. الصديق الحقيقي سوف يتفضل بسرور لتقديم يد المساعدة، يخرج عن طريقه الخاص وحتى يقدم التضحية من دون أن يطلب منه ذلك أو يعبر عن ندمه عليها؛ لديه إحساس بالواجب وحب الخير. من أجل ذلك تترتب علينا واجبات ومسؤوليات تجاه أصدقائنا، ونكتشف ذلك من خلال الحياة والعمل معاً مشتركين بالاهتمامات والأهداف العامة. نحن نعرف أننا يجب أن لا نخدع أو نتحدث بالسوء حول صديقنا: لأننا بذلك نكون قد نقضنا عهود الثقة. إن الصداقة في حد ذاتها مسألة ثمينة إلى درجة كبيرة، ولكنها أيضاً محددة بدورها في الإعلاء من شأن التجارب المشتركة والفوائد الإيجابية التي يتشاور بها الأطراف المهتمة.

أحد مظاهر الصداقة التي غالباً ما تلاحظ هي ميزتها العامة اللاجنسية. فقد تقوم الصداقة بين رجل وامرأة، على الرغم من أن ذلك قد ترافقه محمولات رومانسية ـ جنسية. إن عهود الصداقة قد تكون قوية جداً، كما هو الحال بين رفاق السلاح ورفاق المدرسة. وإن كتب لهذه الصداقة البقاء فهي من المؤكد ستتضمن نوعاً من التقدير الودي بين شخصين أو أكثر. وإن زاد الود فقد يقال

أن الأصدقاء يحبون بعضهم البعض بأفضل معنى للكلمة، أي أن يكون بينهما ارتباط عاطفي عميق وولاء لبعضهما البعض وتقدير وأمان بالخير لكليهما.

إن مصطلح «العاطفة الثنائية» له صلة هنا. وهو ما قد يختلط أحياناً بالثنائية الجنسية، أي أن القابلية الجنسية يمكن أن تثار من قبل الجنسين. من خلال وجهة نظر هذا النوع من العلاقة، فما هو مهم ليس جنس الشخص، بل «شخص» الجنس. المصطلح الآخر الذي يصف هذه الألفة هو «الشخصية الثنائية»، أي القدرة على الارتباط بشخص آخر، ذكر أو أنثى، من أجل رغبة مشروعه يحققها ذلك الشخص، ومن أجل محبة ذلك الشخص بشكل حقيقي. وهو أعلى ما يمكن أن تصله أخلاقية الصداقة، وربما أعلى تعبير عن «الدهشة» الروحية. وقد نذهب في ذلك بعيداً، لأننا يمكن أن نرتبط بأكثر من شخص واحد. ف«العاطفة الشاملة» تسمح للشخص في أن يعبر حدود الحتمية البايولوجية أو الأدوار الجنسية لبحث «الشخصي الشامل» أو «الحب الشامل» المكرس للخير. ولا يصل كل الأصدقاء إلى هذا المستوى، ولكن حين يصلون، فقد تكون تجربة نبيلة وبعيدة المدى. قد يكون للإنسان أصدقاء كثيرون قد يرتبط بهم بمستويات عديدة على نحو كامل وتام. وتكون هذه الحالة من بين أسمى حالات الحب الإنساني، وحين تدرك تكون كنزاً في حد ذاتها.

إن الاختبار الحقيقي لمبادئنا الأخلاقية، على أية حال، هو من يمكن أن نحمل إليه اهتماماتنا بالآخر، الذي هو خارج الشبكة الحميمة من أفراد العائلة والأصدقاء إلى من هو غريب أو أجنبي عن وسطنا ومن هو أبعد منه.

6. *تفاعلات المجموعة الصغيرة:* ونصل إلى التعرف والتعامل مع الكثير من مختلف الناس في الحياة اليومية، بينما نتحرك ونتفاعل معهم وما يترتب على ذلك من مسؤوليات. على الرغم من أننا نعرف سطحياً الكثير من جيراننا، فإن

الآداب العامة تخبرنا أننا سوف، مثلاً، لا نرم النفايات عند حديقتهم الأمامية أو نعزف الموسيقى الصاخبة في آخر الليل، إذا كنا على الأقل لا نرغب في أن يساء إلينا في ثأرهم منا. وعلى نحو أكثر تحديداً، أن الأدوار التي نقوم بها في مجتمعنا، في نشاطاتنا اليومية وانشغالاتنا، يصاحبها عدد من الواجبات المبنية على آمالنا في الماضي والمستقبل تجاه الذين نتفاعل معهم.

فالمدرس لديه مجموعة من المسؤوليات المعروفة تجاه طلابه: في أن يقوم بواجبه على أكمل وجه، ويحترم الوقت ويراعي مشاعر الآخرين وواعياً في نقل المعرفة، وأن يكون مهتماً بالطفل بإخلاص، وأن يبحث في تحفيز الرغبة في التعلم وتطوير المهارات المهمة لدى الأطفال عموما. هنالك واجبات وظيفية تقع على عاتق المدرس لابد له أن ينجزها جيداً أو لا ينجزها.

وكذا الحال مع الناس الذين نقابلهم، فكل وظيفة لها مسؤولياتها. فنحن نصدم عندما يخدعنا صاحب الدكان، خصوصاً إذا كنا من زبائنه الدائمين، أو إن اجتازنا سائق الحافلة أو إن لم تحاول الممرضة في المستشفى التقليل من آلامنا.

هنالك العديد من الواجبات التي تظهر ضمن المجتمع. إن الأدوار التي نلعبها في تقسيم العمل تحمل معها واجبات علينا تنفيذها، إن محطاتنا في الحياة ترافقها مهمات لنا. هذه ليست أخلاقيات بسيطة أو أولية قد تكون اقتصادية، كما هي المهمات التي نقوم بها في الشركة أو المعمل أو الدائرة أو الفريق أو المنظمة. لدينا وظيفة نقوم بها والتي نقبض على أثر ذلك الأجر. إذا لم نقم بذلك جيداً فقد نطرد أو نبدل ا، نفشل في الحصول على ترفيع أو علاوة. ولكن يوازي ذلك إحساسنا بالمسؤولية. فنحن ملزمون بتصريف الأعمال والخدمات التي أوكلت إلينا، بجهد مناسب. وقد نصبح غير مقتنعين ونبحث عن عمل في مكان آخر. هنا تدخل الآداب الأخلاقية في الاستقامة والمسؤولية في نطاقها الاقتصادي. وإن كنا نفتقد إلى ذلك فإن زملائنا في العمل سيكتشفون

ذلك سريعا وسيرفضون العمل بالتعاون معنا. تترتب على صاحب العمل واجبات إزاء مستخدميه ليدفع لهم أجوراً تناسب جهدهم ويتأكد من أن تكون ظروف العمل جيدة.

وكذا الحال في ميادين الحياة الاقتصادية الأخرى لدينا واجباتنا الوظيفية التي علينا تأديتها. فيما إذا كان الإنسان طبيباً أو محامياً أو مقاولاً عاماً أو سمساراً في البورصة، فلكل من ذلك واجبات يجب عملها. هنالك مستويات أخلاقية ثابتة لكل مهنة: مجموعة قوانين للأخلاق الطبية وأخلاق القانون، وأخلاق الأمان والنوعية في العمل. الزملاء في العمل والموكلون والزبائن قد يقاضوننا بسبب الإهمال أو سوء العمل الذي قد نكون مسؤولين عنه قانونا. إن مسؤولياتنا تنبع من شبكة الفعاليات التي نأخذها على عاتقنا. ربما يجب على الجزار أن لا يبيعنا لحماً ملوثاً، ولكننا حري بنا أن ندفع له إن أبدي لنا الضمانة. ولدى الطبيب مسؤوليات خاصة إزاء مرضاه، وحين يقدم لنا الخدمة تترتب علينا مسؤوليات تعاقدية لندفع له بالمقابل.

إننا أيضاً نبني الكثير من المسؤوليات والواجبات داخل المجتمع. مثال ذلك، إن كان هناك حريق سنشعر بالأمر الطارئ لنتصل بقسم الإطفاء، وإن لم تكن فرقة الإطفاء حاضرة، نساعد في إطفاء النار على قدر ما نستطيع. لو حدث أمر طارئ ووقع أحد ما في مأزق، فنحن نتصل بالشرطة أو الإسعاف ونعمل ما يمكننا لراحة الشخص حتى تصل المساعدة. من خلال عيشنا ضمن المجتمع نطور إحساساً بالمشاركة إلى تسير إلى ما هو أبعد من واجباتنا التعاقدية الدقيقة. قد نكون مهتمين بما يقوم به عمدة المدينة أو مجلس إدارة المدرسة في تصريف مسؤولياتهم، مطبقين سياساتهم في إدارة مؤسساتهم. وقد نلتحق بمنظمات تطوعية وندعم الجهود التعاونية التي نقدر أهميتها مثل: كشافة البنات، التخطيط للأبوة، والسيمفونية المحلية أو ال SPCA (جمعية تحريم القسوة على الحيوانات).

ولكن اليست الواجبات الاخلاقية تذهب إلى مدى أبعد وتمتد إلى آخرين قد لا نعرفهم أبدا؟ هنالك الحالة التراجيدية لكيتي جينوفيز، الشابة التي قتلت ببربرية في فناء مفتوح في منطقة كوينز، في نيويورك، في مجمع للشقق الأرضية. ففي وقت متأخر من الليل صرخت طلباً للنجدة لكونها هوجمت لغرض الاغتصاب. وسمع العشرات من الجيران صراخها ولكن أحداً منهم لم يهب لنجدتها أو حتى ليزعج نفسه ويتصل بالشرطة. وكان عذرهم المؤسف عندما واجههم الناس الذين أصابتهم الصدمة «لم أشأ أن أورط نفسي». لقد أضحى المجتمع الكبير لا شخصياً وغير متبلور ومتباعدا، ولكن ألسنا حراس لإخواننا، أليس علينا واجب مساعدة أولئك الذين يصرخون طلباً للعون وهم في مأزق؟ إن المسؤوليات الأخلاقية تعبر عن إحساس عميق بالمجتمع. إنها منغرزة عميقاً في وفائنا للتنشئة الجيدة للمجتمع ـ على كل من المستويين المحلي وما هو أكبر ـ الذي ننشأ فيه ونتربى.

ما بعد الأثنية

إن إحساسنا بالمسؤوليات الأخلاقية قد ينطبق أيضاً على أولئك الذين من الطائفة نفسها والعرق والدين أو الجنسية، كما نحن، والذين نشعر معهم برباط خاص من القرابة. وهذا حقيقي بشكل خاص في المجتمعات التعددية حيث يعرف الأفراد من معارفهم الذين من عرقهم أو طائفتهم. إن الاختبار الأخلاقي الحقيقي هو إلى أي حد يمكننا أن نحمل إحساسنا بالمجتمع الأخلاقي لأولئك الذين هم من خارج مجموعتنا المباشرة أو الذين من طائفة مختلفة أو عرق مختلف. مادامت الآداب الأخلاقية قد ولدت أولاً في عائلة صغيرة أو مجموعة، قد نسأل: هل يمكننا تخطي حدود قبيلتنا، أو طائفتنا أو جنسيتنا أو عرقنا؟ هل يمكننا أن نكون أوفياء للمجتمع الأكبر، للبشرية جمعاء؟ إن كانت لدينا مسؤوليات حول المستويات الأكثر حميمية في الحياة، فهل هذه تنطبق

عموما على البشرية بأكملها؟ فكما رأينا هنالك أمثلة سيئة في التاريخ البشري تبين كم هو من الصعب تطوير هذا المعنى من الهوية. ومن الناحية العملية يشكل الاستيطان بالنسبة للحالة الإنسانية صراعات ومنافسات مدمرة بين القبائل والجماعات والدول. فهل أن الكائن الإنساني الذي على الرغم من أن هناك تفان أخلاقي وحنان ضمن العائلة والقبيلة أو المجتمع الصغير، هل من غير الممكن امتداد ذلك إلى حقل أوسع؟

من المؤكد أن الحالة هي أن هنالك أسباب تطبيقية وبراغماتية توضح لماذا يكون الأفراد الذين يعملون وفق قاعدة وجهاً لوجه لديهم بعض الحاجة للالتزام بقواعد اللعبة: وهذه ضرورية للبقاء. هل هنالك في الوقت نفسه غريزة في الإنسان للعدوانية، التي تفصح عن نفسها في الكراهية والعداء تجاه الجماعات الغريبة؟ إن معارك الغزو والدفاع الدامية تدعم هذا التفسير الكئيب. لم يستطع الإنسان أن يحل كارثة الحرب المروعة. ليست لدي أية علاجات سهلة. لسنا متيقنين أن التوجه نحو الحرب قد دحر تماما.

لقد كانت الديانات المبجلة واعية لهذه المشكلة. لقد دافعوا عن الأخوة المثالية بين الناس تحت أبوة الرب. وأخذت البعثات التبشيرية أخبار الكتاب المقدس الجيدة وكذلك أخذت أخبار القرآن من أجل كسب المزيد من المؤمنين بمبادئها. ولهذا تأثير لأنه في بعض الأحيان قد ساعد على كسر الحواجز وأسس حقاً إلى نظرة عالمية؛ وكذا الحال غدت التأثيرات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والعلمية كونية في مشهديتها. كل هذه الاتجاهات توسع مفهوم العائلة الإنسانية لأنها تتضمن عائلة الأمم، وليس مجرد عائلت(ي) أو أمت(ي).

للأسف الشديد، في الوقت الذي توجد هنالك تطورات في الوعي الكوني نجد هناك معوقات السلطة الوطنية والمنافسات السياسية والاقتصادية والعسكرية. ويميل التراث الديني تحديداً إلى الانشطارية العالية. وبدلاً عن مد

الجسور دائماً ما يضعون الحواجز خصوصاً عندما يتعسكر الدين ويتحول المتحمسون له إلى متطرفين. فالأصولي المسيحي والإسلامي يؤمن أن لا أحد غيره يدخل البوابات اللؤلؤية للجنة، ويظن اليهود أنهم «شعب الله المختار». لذلك هنالك جهد نحو هدي أو طرد أو إدانة أولئك الذين لا يتبعون المعتقدات الجامدة. إن الميزة البشرية في التسامح تتلاشى في هذه العملية. مثل هذا التعصب الديني يقسم البشرية ولا يوحدها.

وهذه هي الأسئلة الحاسمة: أليس كل واحد منا مواطن من المجتمع العالمي؟ ألسنا كلنا لدينا واجب أخلاقي ومسؤولية إزاء البشرية أجمعها، وألا يعلو ذلك على ولاءاتنا الضيقة؟

المجتمع العالمي

بمعنى ما أن الصعوبة في خلق قضية لوعي أخلاقي واسع هي أكثر صعوبة من مسؤولياتنا الأخلاقية في مستوى أدنى لتفاعل الجماعة. ومع ذاك، هنالك اليوم قوى كبيرة تنقلنا نحو وعي كوني أخلاقي جديد.

أولاً، أن التنافسات داخل الجماعة، على الرغم من أنها متجذرة في التعصب، فإن الولاءات للجماعة الصغيرة، قد تلاشت حين نشأت الدول الكبيرة وحين سادت أنظمة القانون والنظام. ولم يكن هذا سهلاً، كما أن الصراعات العرقية لا تزال موجودة في الأمم الكبيرة. ومع ذلك فقد طورت الدول الكبيرة ما هو قادر على تطويق المقاطعات الكبيرة والتنوع الكبير للأثنيات العرقية والدينية، وقد مكن هذا من المساعدة في سيادة ظروف السلام. ومثال ذلك، كان الاتحاد السوفياتي السابق يضم مئات الجماعات الأثنية ضمن حدود جغرافيته. وكذلك الحال في الولايات المتحدة. في الأيام الخوالي كانت الولايات المتحدة مجرد جماعات مهاجرة تتجمع في المدن الكبرى، وكانت هناك حروب وصراعات في الشوارع بين عصابات الأيرلنديين والألمان واليهود

والبولنديين وغيرهم. بعد ذلك بقرن تلاشت تلك الصراعات ما أن تحولت البلاد إلى أن تكون أكثر انسجاماً وتطورت ميزات مدنية استبدلت أثنيات البلاد القديمة. وحدث الشيء نفسه لاحقاً للسود والآسيويين والأمريكيين الأسبان ما إن ذابوا في المجتمع الأكبر. لذلك فإن روح المواطنة قادرة على أن تأخذ بيد الجماعات الصغيرة إلى مستوى أعلى من الواجب الوطني والمسؤولية.

ثانياً، في الأيام المبكرة من التاريخ البشري كان الاتصال بطيئاً والسفر صعب. لذلك كان أغلب الناس يميلون إلى أن يعيشوا ويموتوا في منطقة واحدة، كما كانت تفعل الأجيال التي لا حصر لها من أسلافهم. لم تبق العادات والتقاليد راكدة وبطيئة التغير فحسب بل اتجهت الجماعات الفطرية إلى توليد أنماط أثنية و/أو عرقية مشابهة. ولكن اليوم ثمة فسحة واسعة للسفر والحركة، وتواصل فوري فعلاً. فضلاً عن ذلك ازداد التزاوج العرقي والديني والطائفي كلما اتجهت المجتمعات نحو الاندماج. ونتيجة لذلك، فإن إنقسام العالم إلى أقليات أثنية أو تجمعات عرقية منعزلة بدأ يتآكل تدريجياً وبدأت تظهر أعراق مختلطة جديدة. وعلى العكس من «تلوث أصل السلالة» كما يزعم المتعصبون العرقيون، فإن تمازج الأجناس يقويها ويدعمها، بينما يضعفها الولاء للعرق القديم. ففي أميركا وكندا وأستراليا وأماكن أخرى هنالك تزاوج بين الاسكتلنديين والأيرلنديين والإنكليز والألمان واليهود والبولنديين والإيطاليين والسود والأسبان والآسيويين والهنود. ومن زواج السود والبيض نتج الخلاسيون، ومع تزاوج الآسيويين والأوربيين نتج الأوروآسيويين ـ أعراق جديدة تماما. وكذا الحال في أغلب الدول الأوربية، التي لم تعد وربما لم تكن قط بيضاء كالليلك، إذ هاجر إليها العمال من المستعمرات السابقة وراحوا يكسرون الحواجز العرقية.

ثالثاً، وهو الأكثر دهشة، هي الحقيقة بأن الثقافات تتنافذ بسرعة وتستعير وتتشاطر بخطى مسرعة. فقد وصلت البحوث العلمية والتقنية والصناعة بالإضافة

إلى أفكار الديمقراطية الغربية والقيم إلى الكثير من الدول الآسيوية. أن أخلاق العمل والقيم المادية نفسها يمكن أن نجدها في اليابان والعربية السعودية وباريس وكينيا ولندن ولوس أنجلس. فضلاً عن ذلك، هنالك اهتمام مكثف بقيم الثقافات الآسيوية في الغرب. وظهرت عند ذاك وللمرة الأولى ثقافة «عالمية». وفيها لم يعد هناك فصل وتمييز لجيوب العزلة. على الرغم من أنه لا تزال هناك لغات عديدة فثمة الحاجة الدائمة للغة عالمية لتسهيل التواصل بأفضل صورة.

رابعاً، وبالدلالة نفسها، لدينا الحقيقة بأن هنالك الآن قوى اقتصادية كبيرة تتفاعل على المستوى الكوني. لم يعد هناك دول منعزلة أو مناطق قادرة على أن تعتمد على نفسها في تطوير مواردها الاقتصادية، مستقلة عن التجارة العالمية أو السوق العالمي. إن التعاونيات الدولية الكبيرة والحكومات الوطنية المتكتلة والقوية مع الاهتمامات العالمية قد جعلت السوق الاقتصادية واحداً يضم الجميع. من المؤكد أن ليس ثمة من مساحة لدولة يمكن أن تأمل في حل مشكلاتها الاقتصادية منفردة. إن موضوعات كالبطالة والإنتاجية والاستثمار الرأسمالي والتبادل النقدي والتكنولوجيا كلها مفردات عالمية.

ولكن مع ذلك ـ وهذا هو الإشكال الأكبر ـ فإن العالم يقوم على أساس الاستقلال، والدول ذات السيادة، كل واحدة لها قانونها الخاص. إن الحاجة إلى نوع من السلطة السياسة العالمية الشاملة ونظام لقانون دولي تتوضح اليوم أكثر من ذي قبل. لقد شهد القرن العشرين سقوط الإمبراطوريات الإمبريالية التقليدية الاستعمارية. لقد مكنت الثورة العلمية الصناعية الدول الأوربية من أن تعبر البحار السبع وأن تهيمن على مختلف الأماكن في العالم وتخلق بذلك الإمبراطوريات الهائلة. وكانت حروب التحرير الوطنية تقدمية، لأن الحرب قد حررت الجماعات الوطنية والأثنية من الهيمنة وسمحت بنوع من تقرير المصير الخاص. ولكن في الوقت نفسه، فإن ظهور الدول الأمم، قد أنتج الكثير من النزاعات منذ الحرب العالمية الثانية. وظهر إحساس بأن هناك نوعاً من الاهتمام

الجماعي بين الدول ـ الأمم قد أدى إلى نشوء تحالفات مثل السوق الأوربية المشتركة ودول معاهدة وارشو. ولكن القضية التي تبرز هي: هل نحن لدينا الواجب والمسؤولية نحو العالم بأكمله؟

من الواضح أننا تترتب علينا مسؤوليات وواجبات للدولة التي نعيش فيها. ومثل المواطنين في فرنسا واليابان وهولندا والأرجنتين، قد نتكلم لغة واحدة، ونشترك في تراث واحد وقيم واحدة. إن الوطنية والعنصرية لها القوى المهيمنة في العالم الحديث، والكثير من الحروب المدمرة قد طفحت نتيجة لذلك. الكثير من الأمريكيين يزعمون الحماسة الشديدة للمثل العليا المتجسدة في إعلان الاستقلال والدستور، ويشعرون أن من الامتياز أن يشعروا بالمواطنة، بالولادة أو من خلال منح الجنسية. لذلك فإن التعدد الأثني والتحالفات الوطنية هي من حقائق الحياة الحديثة. ولكن لسنا مجبرين أن نكون مواطنين عالميين، وعليه، فما الذي يترتب على ذلك؟ هل نحن مسؤولون عن ذلك المثل الأعلى؟ هنا تثمر الأخلاقيات الإنسانية التنقيحية المدركة: لأنني أسلم، أننا نحتاج إلى مثل هذا الواجب، أعلى أو دون أقل ولاءاتنا، ويتبع هذا المسؤولية في المحافظة على الطبيعة الإيكولوجية للكون للأجيال القادمة. إنها تحمل معها أيضاً الواجب في رؤية أن حقوق الإنسان محمية في أماكن أخرى من العالم. إن أخلاقيات الإنسانية، إن تكن تعني أي شيء، فلابد أن تكون شاملة في العالم. هنالك اختلاف بين التفاعلات الصغيرة ـ حيث ظهرت أولاً الآداب الأخلاقية العامة وإحساسنا بالمسؤوليات الشخصية ـ والسياق الكوني الأكبر. فيما إذا كان الناس يستطيعون أن يجعلوا هذا التحول العميق يبقى، فإن القضية المركزية هي: كيفية بناء الوعي الأخلاقي الكوني.

لماذا يتوجب علي أن أكون أخلاقيا؟

لايزال لدينا سؤال لابد من إجابته على مستوى تفاعلات الجماعات الصغيرة،

وبودي العودة إلى أحد الأسس الأولية من الواجبات وأتساءل، «لماذا يتوجب علي أن أكون أخلاقياً؟» ما هو الأساس الذي تستند إليه واجباتي والتزاماتي تجاه الناس الآخرين؟ هذا السؤال غالباً ما يلقى على الإنساني من قبل المؤمنين بالدين من ناحية ومن قبل المتشككين من ناحية أخرى. يصر اللاهوتيون أنهم قد حلوا مشكلة الواجب؛ علينا أن نطيع قواعد السلوك الأخلاقي لأن الرب قد أمرنا بذلك. يعد هذا تبريراً للواجب الأخلاقي، وهذا ما يوفر القوة المعيارية. من دون ذلك، كما يصرون، ليس هنالك أساس للسلوك الأخلاقي، وسيكون كل شيء من الخطأ والصواب متساويا. ولذلك يبدو أن الطبيعيين والإنسانيين واقعين في ورطة، لأن اللاهوتيين يحتجون أننا لو أزحنا الرب جانباً فلن يكون هناك أساس للسلوك الأخلاقي.

لقد رأينا صعوبة مثل هذا الطرح. ليس هنالك أدلة كافية على وجود الرب. وفي التحليل الأخير، لابد لهذه القناعة أن تستقر على إيمان. أن نبني الأخلاق على الرب لا على غيره يعيد الشكوكية خطوة إلى الوراء ولا يرقى بالنقاش. وبالتركيز أكثر، الكثير من الناس الذين يؤمنون بالرب يهملون الواجبات الأخلاقية وهم في الحقيقة ينتهكون المبادئ الأخلاقية. ولذلك فقد برهن الزمن مرة بعد مرة أن الإيمان بالرب ليس هو الأرضية الملائمة لضمان السلوك الأخلاقي.

وكذا الحال فإن الخوف من العقوبة أو الأمل بالمكافأة نادراً ما يكون سبباً «أخلاقياً» لاتباع أوامر الرب. إنه يحجب الاهتمام ـ الذاتي الأساسي: يكون الإنسان أخلاقياً عبر التقديرات العقلانية. من المؤكد، بمعنى ما، أن حجة اللاهوتيين «لا أخلاقية» لأنها تتخلى عن الضمير الأخلاقي للأساس الفاشستي، ولهذا تزيح جانباً مضمون الأمر الأخلاقي ذاته. إن الأخلاقية اللاهوتية غير متكاملة لأن الواجب الأخلاقي مهم جداً وفقاً لمعاييره، وفي ذاته، حتى أنه ليس من الأحرى أن يتقدم عليه شيء آخر. إن البحث في إسناد الواجب

الأخلاقي من خلال عزوه إلى أرضية لا تزال أصولية لا أخلاقية هو خيانة لأعمق إحساساتنا الأخلاقية.

التحدي الذي نواجهه هو: هل يمكننا تبرير المسؤولية «وفقاً لشروطها»، لأسباب «أخلاقية» من دون اللجوء لشيء مستقل أو «له الأسبقية»؟ المتشكك الأخلاقي ينكر أننا يمكننا فعل ذلك. إنه يبحث عن تبرير «مطلق» للسلوك الأخلاقي، ولا يستطيع أن يجد شيئا. ولكنه ينتقد أيضاً المحاولات اللاهوتية في تبرير الواجب، إذ ليس من ضرورة لعلاقة مستنبطة بين الرب وواجباتنا؛ ولم يبرهن اللاهوتي على الميزة الإجبارية للواجب. لذلك يبقى المتشكك غير مقتنع، ويرفض النظرة بشأن تعاليم الرب والواجب الأخلاقي.

ولكن المتشكك يحول أسلحته ذاتها نحو الأخلاقي الطبيعي والإنساني، لأنه لا يرى كيف يمكن للمرء أن يستنبط ال «يجب» مما هو «كائن» من دونما حجة. يريد المتشكك مقدمة أولية وتبريراً كامل البرهان لما «يجب»؛ وإذ يزعم أنه لم يجد شيئاً فهو يرفع يديه عالياً بنوع من اليأس الذاتوي. إنه يسأل دائماً «لماذا»؟ وإذ لا يجد برهاناً، فلا يقتنع بشيء أو بأي جواب. إنه يلح فقط في الأسئلة لماذا يكون هذا جيداً؟ ولماذا يكون هذا واجبا؟

ولأحاول التعامل مع هذه المشكلة من خلال التساؤل أولاً: ما الذي يعنيه هذا السؤال؟ وأعترف مباشرة أنني لا أجد معنى مهماً للسؤال الذي يقول: هل «يجب علي أن أكون أخلاقياً؟» كما يصاغ ذلك تقليدياً. لأنه إن يكن المقصود منه بكونه سؤالاً شاملاً، فمن الصعب معرفة أي جواب سيشرع للحل الدقيق، حتى وإن كان هذا السؤال جلياً. فضلاً عن ذلك، أنه يحجب «التساؤل الضمني عن اليقين»، كما يقول جون ديوي، عندما لن يكون هناك أحد[1].

إنني أسلم بأن السؤال حري به أن يصاغ بأسلوب أكثر ملاءمة: «لماذا يتوجب

---

(1) John Dewey, *The quest of certainty* (New York: Minton Blach, 1929).

علي أن أنجز هذا الواجب أو هذا الالتزام؟» وعند ذاك على الأقل ستكون هناك إشارة ملموسة ويترتب عليها نوع من الإجابة القابلة للتطبيق. «لماذا يتوجب علي أن أعيد المال الذي اقترضته من صديقي؟» «لماذا يتوجب علي أن أكون صادقاً مع وكلائي؟» «لماذا لا يتوجب علي أن أسرق تلك العجوز الصغيرة عند زاوية الشارع؟» كل واحد من هذه الأسئلة هو في سياقه. ومع ذلك، فإن كل واحد منها له اعتباراته وأسبابه التي لها صلة بالشروط التجريبية الملموسة.

دعونا نأخذ السؤال الأول. فلنفترض أن صديقتك قد أقرضتك مالاً طلبته منها، وهي الآن تطلبه منك لأنها بحاجة إليه. وهذا استحقاق لموقف ما وعليك واجب مقابل للإيفاء به. عموماً، الأسباب السياقية ذات الصلة كافية ولن يناقشها أي شخص عاقل. قد يسأل أحد ما بالطبع، «لماذا يتوجب على الناس أن يسددوا ديونهم؟» لو أن أحداً سأل هذا السؤال الفلسفي، قد نبتسم ونتساءل مندهشين أنه إما يريد أقناعنا بأن ذلك ليس صحيحاً أو أنه تنقصه البصيرة الأخلاقية أو ينقصه شيء على نحو ما. فقد يكون باقياً في حالة طفولية من التطور الأخلاقي ويفتقد فعلاً إلى البصيرة النافذة، أو أن الأمر أكثر خطورة، وهي أنه فاقد للاعتبار العاطفي السوي فيما يخص الآخرين وحاجاتهم. فهو لذلك أمي من الناحية الأخلاقية. ومع ذلك، فقد نرغب في مناقشته والمحاولة في إقناعه. كيف نستمر؟ الذي نراهن عليه هي الحقيقة بأن القواعد الأولية العامة والآداب الأخلاقية التي تعلمناها من التجربة تنطبق هنا. إن القاعدة «إحفظ عهودك» يعاد تعزيزها بقاعدة أخرى، «سدد ديونك»، وكلاهما يخصان موقفاً سابقا. يمكننا بالطبع أن نناقش حسنات هذه المبادئ العامة. لأنه فيما إذا انتهكت هذه المبادئ بقوة، فلا أحد سيرغب في إقراض أي شخص في المستقبل وسينتهي موضوع الإقراض في الحال. إن لم يحفظ الناس عهودهم ورهاناتهم، فلن يثق أي أحد بالآخر بعد ذلك في المستقبل. وتكون نتائج ذلك تحطيم للثقة الإنسانية وستتلو ذلك نتائج وخيمة على العلاقات الإنسانية.

لهذا السبب، نحن نشير إلى طراز ثان من القاعدة الافتراضية للدرجة العالية من التعميم. في مناقشة المتشكك الأخلاقي الذي يسأل فيما إذا يتوجب عليه هذا الواجب، فنحن نسأل إن كان فعلاً قد اقترض المال. فإن قال نعم، فنسأله عند ذاك إن كان قد وافق على التسديد. وإن قال ثانية نعم، فسنقول، «ذلك أساس يكفي أن تعيد المال». وضمن هذا الموقف فإن واجبه مفروض عليه بحقيقة أنه «أضاف» التزاماً إجبارياً خاصاً بعلاقته كصديق. ولكن قد تكون هناك ظروف ملطفة للموقف، وقد يشير إليها. فقد لا يملك المال، و، لكونه في ظروف لا يحسد عليها، يأمل من صديقه أن يتخلف عن التسديد. ولكونها صديقته، ربما تتساهل معه. وربما تكون قد اقترضت منه مالاً في الماضي ولم تستطع تسديده. من الواضح أن المناقشة على هذا المستوى وافية. ليس الإنسان بحاجة إلى أن يستدعي الرب أو القوى الميتافيزيقية لحل معضلة السلوك الأخلاقي. وإن صار من المحتم عليه أن يفعل فيمكنه التحركِ نحو اقتراح من المرتبة الثانية. ينص المبدأ الأخلاقي أن: «على الناس تسديد ديونهم». ولكن، كما رأينا، فذلك ليس أمراً مطلقاً، فهو واجب عام يتوقف على شروط أخرى، فقد تتضارب معه مبادئ أخرى، وقد تتقدم في أولويتها على تسديد الدين أو الإيفاء بالعهد. ربما لا أستطيع أن أسدد ديني لأنني أقرضت المال لصديق آخر مريض جدا وحاجته شديدة للمال. على الإنسان أن يسدد ما لم يكن هنالك واجب أعلى أو من الأفضل تقديره. ولذلك قد يكون هنالك تضارب بين الواجبات. وعلى الأقل فإن كل ذلك يمكن أن يخضع للنقاش.

ومع ذاك، فإن كل من اللاهوتي والمتشكك يجتمعان ويصرخان مباشرة: «ولكن لماذا يتوجب علينا أن نطيع أي مبدأ أخلاقي مهما كان؟ لماذا لا نرفضها جميعاً؟ لماذا نؤمن بالسلوك الأخلاقي؟ برهن لي السبب من وراء السلوك الأخلاقي». وهذه الأسئلة قديمة كالفلسفة. في جمهورية أفلاطون يسأل كل من غلاوكون وأديمانتوس سقراط السؤال نفسه: هل يمكنك أن تبرهن أن

العدالة والسلوك الأخلاقي أو الفضيلة أشياء جوهرية، ليس لأسباب فائدتها بكونها تقود إلى الحياة الطيبة، بل جوهرية لذاتها؟ ما هو جوابي لهذا السؤال؟ ومرة أخرى، لا يثار السؤال في العادة في السياق العادي للحياة، لأن الواجبات ملموسة، وهي تنتج عن أدوارنا الاجتماعية، الادعاءات والمتطلبات المطلوبة منا، إلتزاماتنا السابقة، وتوقعاتنا المستقبلية. على أن المتسائل يبحث عن الجذر المطلق للحياة الأخلاقية. قد تثار هذه الأسئلة من الناس اليائسين الذين يعارضون الاستقرار، والذين يرغبون في الهزء من كل معايير الآداب العامة. أو، مرة أخرى، قد تثار من طالب الفلسفة الذي يبحث عن ضمانات معرفية للإطار الكامل للحقوق والواجبات والإلتزامات.

لابد من التمييز بين «العقل» و«الحافز». قد يقدم الإنسان الحجج من وجهة النظر الأخلاقية، لكن قد تكون أو لا تكون لها القوة النفسية ضمن حياة الفرد، الذي قد يظل يسأل، «لماذا أكون أخلاقياً؟» وجوابي، إن نشأ ذلك ثانية، إن هذا السؤال لا معنى له ما لم يعطى له مضمون بالإشارة إلى تحديد «دقيق». فالآداب الأخلاقية من الحسنات والحقوق والواجبات والمسؤوليات والفروض مبنية وفق التزامات سابقة وولاءات وكذلك بالنسبة للمكان الذي هو فيه ضمن شبكة محددة من العلاقات الاجتماعية: بكونه أحد الوالدين، طفل، صديق، عميل، متدرب، مدرس، مهني، ألخ. كلها تعتمد على العلاقات الشخصية للإنسان بالآخرين والانشغالات المتنوعة والأدوار ضمن النظام الاجتماعي. إنها ضمن الإطار المؤسسي ترجع صداها المبادئ العامة والآداب الأخلاقية العامة. وتبرز هذه في ضميرنا: كي تكون صادقاً، أن لا تسرق أو تؤلم الآخرين، أن تكون عطوفاً ومتعاونا. لماذا؟ لأننا نتعلم من الحياة المشتركة أنه لابد من وجود قواعد تنظم الآمال والواجبات. إن القواعد الأخلاقية الأساسية مرنة لأنها تجعل التفاعلات الاجتماعية المتناسقة ممكنة. كل هذه القواعد تختبر عبر النتائج الفعلية. وإنكارها يقود إلى الفوضى وعدم النظام.

قد يكون الرد، «لماذا يتوجب علي الاهتمام بالتفاعلات الاجتماعية المتناسقة؟» والإجابة هنا ذات مدخلين. أولاً، لأنها موجودة في *«الاهتمام ـ الذاتي»* لكل شخص، إذ من الناحية الفعلية كل شيْ يرغب فيه الشخص في الحياة لابد أن يتعلق بالناس الآخرين. وتبعاً لذلك، لابد من وجود تكيف وتفاهم. تلك اعتبارات في الغايات والوسائل سوف يتقبلها الشخص العاقل على أسس من الحكمة الصافية. ينتحل الشخص العاقل دور المشاهد المحايد ويدرك عمومية الاعتبارات الأخلاقية على الأقل على أسس المبادئ العامة. والمبدأ العام ليس واجباً فعلياً، وما على الإنسان أن يفعله يعتمد على التوازن المدروس لكل الوقائع ضمن الموقف العملي.

ثانياً، لا تستند الأخلاق ولا يمكنها أن تستند بمفردها إلى الاعتبار الذاتي. وإن فعلت، فهي قد تعيدنا إلى الميكافيلية، باستخدام الأخلاقية بمكر لبحث أغراضنا الخاصة جداً، والرغبة في إزاحتها جانباً إن سمحت الظروف بذلك. هنالك مظهر عميق للحياة الأخلاقية، على أية حال: أن الوعي الأخلاقي متجذر ضمن طبيعتنا بوصفنا بشر. هنالك علاقة اعتماد طبيعية مبنية على أسس اجتماعية وبايولوجية وتكيف ثقافي، ويعكس هذا أمره في مشاعرنا. إننا عموماً أو من الممكن أن يكون لدينا اهتمام عاطفي تجاه الآخرين. لذلك فإن «الاهتمام الاجتماعي» وليس مجرد الاهتمام ـ الذاتي يمكن أن يحفزنا. يشعر العشاق بعفوية باهتمام مشدد تجاه واحدهم الآخر. صديقان يطوران حب الغير عبر المرافقة والاهتمام المتبادل. للمرأة علاقة حب عميقة تجاه طفلها. يشعر الإنسان بالألفة تجاه الجزار والخباز وصانع الشمعدانات.

إن كان الإنسان لا يرى أن لديه واجبات ومسؤوليات، فهو أعمى من الناحية الأخلاقية ولديه نقص في الإدراك. البعض من الناس قد لا يفهمون في الرياضيات وقد يعانون من صعوبة فهم البراهين الهندسية. يمكننا أن نأخذهم وفق المقياس العقلاني، وإن لم تكن لهم بصيرة، أفترض أن ليس لدينا سوى أن نكرر: «إن كان أ = ب و ب = ج لذلك فإن أ = ج» وهذا قياس بسيط

وكاف، ونحن نفترض في نقطة ما، أن الطالب سيفهمها، على الرغم من أن التفكير الرياضي ليس سهلاً على الجميع.

وتنطبق الاعتبارات نفسها على الأسئلة التجريبية حيث نحاول أن نقيم الدليل للفرضية. فيما يخص القضايا الوصفية الأولية، لابد من وجود نوع من الاتفاق: «إنها تمطر في الخارج» يمكن اختبارها من خلال الملاحظة البسيطة. إن ميزة الفرضيات أو النظريات التجريبية المعقدة هي أنها مفتوحة للنقاش فيما إذا يكون لها أدلة كافية، وليس حول التجريب المعطى عن معلومات ملموسة. والاعتبارات نفسها تنطبق على البرهنة على المسؤوليات الأخلاقية الأولية. إن لم يفهم الطفل أو الكبير أنه يجب أن لا يكذب ولا يؤذي الآخرين، يكون بذلك مفتقداً للسلوك الأخلاقي (عموماً بسبب عيب نفسي أو جسدي) وفاقد للأخلاق الأولية المطلوبة للانسجام الاجتماعي. ربما نكون قد وصلنا إلى طريق مسدود، لأننا نتعامل مع شخص هو، مهما كان السبب، له نصيب منخفض من السلوك الأخلاقي.

الأمر المحرج بالنسبة للنشاط الإنساني أن البصيرة الأخلاقية لا توزع بالتساوي. قد تكون موجودة جزئياً لدي البعض من الناس، وقد يطبقونها فقط على أفراد مجموعتهم الحميمين. إن الحوافز الأخلاقية تتنافس مع البواعث الأخرى والميول التي في داخل الشخصية.

دعونا نكتفي الآن بالملاحظات النظرية التالية:

1. إن السلوك الأخلاقي جزء من طبيعتنا بكوننا حيوانات اجتماعية.

2. إن الحافز الأخلاقي كامن إلى كبير، وهو الذي يتطور فقط تحت شروط الأفضل. وهذه مراحل ذات نمو أخلاقي.

3. أن النمو الأخلاقي ربما يحبط أو يكبح أو يطمس بتأثيرات أخرى.

4. ربما تكون هناك انحرافات عن معيار التقمص الأخلاقي وقد تكون هذه تبعاً لأسباب بايولوجية ونفسية واجتماعية حادة الذهن.

5. فيما إذا يكون الإحساس الأخلاقي أو الاهتمام الاجتماعي يتطور فإن ذلك يعتمد على تكوين إدراك الشخصية وعاطفتها.

لقد أكد لورنس كولبرج وجان بياجية وأ. ه. ماسلو، وبعض علماء النفس التربويين أن هنالك مراحل للتطور، ولكن ما يخضع للنقاش هو فيما إذا تكون المراحل الحقيقية متطابقة مع بياناتها. بودي أن أقدم التحليل التالي عن أطوار النمو والتطور ـ على الرغم من أن نظام التطور قد لا يكون دائماً هو نفسه عند كل فرد. (أنظر الفصل السادس لقراءة المزيد من المناقشات حول هذا الموضوع). إن القضية الحقيقية هي فيما إذا ولماذا تكون الأطوار المتأخرة من التطور غائبة لدى بعض الأفراد.

سوء الأدب الطفولي: في مثل هؤلاء الأفراد ليس هناك إحساس داخلي بالخطأ والصواب. يعيش الفرد لإشباع راهن ـ يكاد يكون مثل الرضيع غير القادر أو غير الراغب في التأقلم مع الآخرين. ليس هناك وعي أخلاقي. تنطبق هذه المرحلة فقط على المصابين بالذهان أو المعاقين جداً الذين لا يمكنهم أن يكونوا متكيفين مع المجتمع. ومادام هناك نوع من التكيف الاجتماعي الذي يحدث في العادة، فهناك القليل من الناس يمثلون هذه المرحلة.

إطاعة القواعد: هنا يتطور السلوك الأخلاقي، المتأسس أصلاً على الانسجام مع القواعد والعادات، المفروضة بالأوامر الاجتماعية ـ تماماً مثل ترويض وتمرين كلب. أي انحراف عن القواعد يعامل بعقوبة شديدة. إن القواعد الأخلاقية مشروطة، ويضع الشخص في ذهنه إطاعتها، كما يطيع القانون. وهو يكافأ لالتزامه بواجباته وتطبق هنالك قرارات بشأن الانحراف. إن العلاقة بين موظف الأمن والمدرس هو الفرق بين السلبية والسلطة. الكثير من الأخلاقية الدينية لا يمكنها أبداً تجاوز مرحلة السلطة هذه. يجب على كل أحد أن يمر بهذا الطور التعليمي بكونه طفل، خصوصاً إذا كسب الآداب الأخلاقية الأساسية.

المشاعر الأخلاقية تجاه الآخرين: هنا يتطور ضمن الفرد العادي نوع من الاهتمام الداخلي بحاجات الآخرين. ثمة توجه نحو الآداب الأخلاقية والرغبة في بحثها. ربما يعمل هذا على مستوى العلاقة بين الأشخاص، كما هو الحال بين العشاق والأصدقاء. ربما يعاق أو ينغلق أو قد يكون مفقوداً لدى البعض من الأفراد، خصوصاً عندما يعرقل التطور النفسي والجسمي وتثبط الحاجات الأساسية. إن المشاعر الأخلاقية تعبير معياري عن الطبيعة الاجتماعية للبشر. ربما تكون منخفضة أو غائبة لدى الشخصيات الممزقة. وإن يكن الحال كذلك، تزداد الصعوبة نحو تحفيز السلوك الأخلاقي. إن تطور مشاعر التقمص خلال المرحلة المبكرة من النمو ربما تكون أفضل منبه لنمو عاطفة أخلاقية أصيلة في الحياة فيما بعد.

أخلاقيات الاهتمام ـ الذاتي إن القرارات بشأن ما يجب فعله ربما تتأسس بشكل منفرد على اعتبارات الكسب ـ الذاتي. إن العامل الأخلاقي يقوم بحسابات عقلانية حول سلوكه المستقبلي، وأحياناً يقوم باستثناءات للمبادئ الأخلاقية العامة، خصوصاً إن هو يؤمن أنه يستطيع الهرب من الاستبيان. القليل جداً من الناس يكونون بمنأى تام من مثل هذه الإغراءات. البعض من الناس يبالغون في هذا، ويخططون بمكر في التخطيط للمنفعة الذاتية. إن القرار في تحديد بواعث الفرد والدخول في تعهدات اجتماعية تعاونية ربما ينتج عن اعتبار لفائدة الفرد على المدى البعيد. هنا يرغب الشخص الأناني في الإلتزام بالقواعد الأخلاقية لأن اهتمامه الرئيسي هو التأكد من بحث سعادته الطويلة الأمد. إن السعادات غالباً ما تنشد لتكون الطريق نحو توسيع القيم الشخصية للفرد. مثل هؤلاء الأفراد قد يكونون فاقدين للتعاطف الأخلاقي نحو الآخرين وربما يكونون في الأساس ذوي مركزية ـ ذاتية. على أية حال، ليست هنالك حاجة إلى أن تكون هذه هي القضية، صياغة الاختيارات على أساس المنفعة الذاتية لا يتضمن بالضرورة نقصاً بالاهتمام الأخلاقي تجاه الآخرين.

وحدة الشعور الأخلاقي والمنفعة ـ الذاتية العقلانية. في هذا المستوى هنالك شعور أصيل بالتقمص والاهتمام المحب للآخرين: إن الحب لعائلة الفرد والجماعة والقبيلة أو الأمة كلها من الممكن أن يتلائم ضمن المنفعة ـ الذاتية. يرغب الفرد في أن تزدهر حتى لو كان ذلك أحياناً على حساب الجماعات الأخرى. هنا تكون محبة الغير مزروعة في إدراك الفرد ومواقفه العاطفية.

الأخلاقيات الإنسانية يرتبط النظام الأخلاقي المتطور تماماً بجماعة أوسع على أساس شامل.. إنه قادر على أن يتجاوز مستوى علاقات الجماعة الصغيرة، وله المقومات التالية:

ـ هنالك إخلاص للمبادئ الأخلاقية العامة، ولا يكسرها الفرد من دونما سبب.

ـ هنالك شعور داخلي للعاطفة الأخلاقية وحب الخير، ورغبة في عدم الحاجة إلى إيذاء الآخرين.

ـ يستعمل العقل في قيادة سلوك الفرد وفقاً لشروط السعادة. وقد يتضمن هذا بعض الاعتبار للمنفعة الذاتية، ولكنه يتضمن كذلك، المنافع التي تخص جماعة الفرد.

ـ هنالك فضلاً عن ذلك وعي أخلاقي للحاجة إلى تمديد الاعتبارات إلى ما بعد دائرة الفرد الى مجتمع إنساني أوسع. هذا الاهتمام الأخلاقي هو لوقاية وتحسين المجتمع العالمي والإنسانية على نحو مطلق.

[6]

تعليم الشخصية والإدراك

التعليم الأخلاقي للأطفال

لقد ناقشنا أن السلوك الأخلاقي كامن لدى البشر عموماً وهو متجذر عميقاً في طبيعتنا بكوننا حيوانات اجتماعية بايولوجية. وكي نبقي على نوعنا ونعمل ضمن مجموعات بشرية، نحتاج إلى أن نتعلم كيفية العمل بتعاون ونعيش على أسس ومبادئ أخلاقية. هذا هو منبع الآداب الأخلاقية العامة التي تخدم بكونها المهاد لأي جماعة بشرية. تتجاوز هذه الأوامر الأخلاقية التنوع في الثقافات؛ إنها تغدو متأصلة جداً إلى حد أنها تقدس بكونها إلهية لدى المجتمعات المرتكزة على أساس ديني. إنها عموماً، التراث المشترك للحضارة الإنسانية ويتقاسمها اللاهوتيون مع العلمانيين.

تتنافس المبادئ الأخلاقية، على أية حال، مع البواعث الأخرى في الحيوانية الإنسانية: المنفعة ـ الذاتية والعدوانية والمنافسة والرغبة في الهيمنة على الآخرين، وغير ذلك. وقد تكون الإحساسات الأخلاقية مقنعة أو مقموعة من قبل دوافع أخرى. وقد يكون السلوك الأخلاقي مغموراً لدى بعض الأفراد بالخوف والأنانية أو الرغبة في إضفاء المعاناة على الآخرين. إن الإنسان قادر على الاستجابة المدركة، التي يمكنها أن تعدل من العواطف وتساعدنا في التوازن ومناقشة الاختلافات والتعاون مع الآخرين في بحث المهام المشتركة.

يمكننا أن نفهم كيف تعمل الطبيعة وتحاول تعديل السلوك في ضوء العقلية النقدية. لذلك فإن العقل يضيف إلى دوافعنا الفطرية؛ إنه يجهزنا بعنصر يقيدنا. فضلاً عن ذلك، يمكن للعقل أيضاً أن يعدل العادة؛ يمكنه أن يقدم مبادئ أخلاقية تقدمية يتعلم من خلالها الأفراد أن يعيشوا حياة سعيدة وبوساطتها يوسعون اهتماماتهم الأخلاقية إلى ما بعد دائرتهم الحالية من المعارف ويصبحون واعين لمسؤولياتهم تجاه المجتمع الأكبر للبشرية.

إن الموضوع الأهم الذي أود إثارته في هذا الفصل هو كيف نستطيع إدراك الآداب الأخلاقية، ونمارس الكابح الذاتي ونطور الاحترام العقلاني للمبادئ الأخلاقية. كيف يمكننا التأكد أن السلوك الأخلاقي ليس مقيداً أو معاقاً بالمنفعة الذاتية أو الكراهية أو قضية تضخيم الذات أو السلطة؟ ثمة داخل كل شخص صراع بين الدوافع السلبية والإيجابية؛ وفي بعض الأفراد هنالك هيمنة لتوجهات أنانية أو حتى شيطانية. كيف يمكن للمجتمع أن يطور الناس الأذكياء والمفكرين والذين يراعون مشاعر الآخرين؟

هذا السؤال الصعب أساسي لكل نظام اجتماعي. من الناحية التاريخية حاول الإنسان أن يغرس الفضيلة لدى أطفاله ويعلمهم السلوك الأخلاقي الملائم. إن الدروس العملية المستقاة من التجربة يتقاسمها الإنسان الكبير بشوق مع الأطفال. نريد تنشئة أولاد وبنات منتجين؛ نريدهم أن يكونوا قادرين على البلوغ الشخصي من أجل أن يدركوا مواهبهم الخلاقة، لكننا نريدهم أيضاً أن يكونوا مسؤولين أخلاقياً وحساسين لحاجات الآخرين.

كيف يمكننا أن نحقق هذه النتائج؟ سؤال شغل الآباء والمدرسين والقادة المدنيين ورجال الدين معا. وهذه قضية تناقش بكثافة في المدارس العامة اليوم. هل يتوجب على المدارس أن تعلم السلوك الأخلاقي؟ وإن يكن الأمر كذلك، ما هي بالأحرى اهداف التعليم الأخلاقي؟ أقر أن أهداف التعليم الأخلاقي لها جانبين: أولاً، تطوير «الشخصية» في الشباب، ليكونوا قادرين

على الملاحظة والتعبير عن الآداب الأخلاقية العامة، في حياتهم وفي علاقاتهم مع الآخرين؛ وثانياً، تعزيز القابلية على «الفهم» والقابلية على الانشغال بالبحث الأخلاقي النقدي.

ويعد الهدف الأول أساسياً، وهي العملية التي يبدأ بها الآباء مبكراً، ربما منذ الولادة، لأن اللطف يولد اللطف، وربما ليس غير الطفل المحبوب يمكن أن ينمو بكونه كائناً أخلاقياً. كيف يغذى الطفل أو يحمم أو كيف نلعب معه أو نتحدث معه ونسمح له بالراحة المناسبة هي البداية في تهذيب الشخصية. يدرب مرحاض الوالدين الصغار على السيطرة على الوظائف البايولوجية الأولية. إنهم أيضاً يعلمونهم على السلوك عندما يجلسون إلى المائدة. يؤخذ الأطفال إلى فراش النوم مبكراً، ويتعلمون كيفية كبح دوافعهم ولا يفعلون الضوضاء عندما يكون الوالدان نياما، ويعلموا غسل أيديهم قبل الأكل وتنظيف أسنانهم. وفي أوقات ربما يطلب منهم أعمال يومية حول المنزل. ويعلمون تنظيم غرفهم وترتيب أسرتهم، وربما ليجزوا العشب أو يغسلوا الصحون أو يطعموا الحيوانات الصغيرة. وفي المدرسة يعلم الأطفال القراءة والكتابة والأسلوب المناسب في استعمال اللغة الأم.

القضية هنا أن تشكل العادة ضروري جداً في كل السلوك البشري، ولا يمكننا أن نعيش معاً بسهولة ما لم نتعلم كبح أهوائنا وتوجيه رغباتنا عبر مسالك بنائية ومقبولة اجتماعيا. كل هذه الأشياء تتبع بطريقة لا واعية في كل المجتمعات المتحضرة، وعليه فإن التدريب الأخلاقي يبدأ في الشهور المبكرة في عملية تنشئة أطفالنا.

يفشل البعض من الآباء في محاولتهم. قد يكونوا غير منظمين أو مصابين بالكآبة في حياتهم الخاصة حتى أنهم لا يستطيعون تربية أطفالهم بأسلوب محب ومتكامل. وربما يكونون هم أنفسهم قد أسيئت معاملتهم ولذلك يسيئون معاملة أطفالهم، يكون اهمالهم لأطفالهم مزمناً وفي بعض الأحيان يستخدمون العنف.

وقد يكون البعض مستبداً متسلطاً، يبحث في فرض معاييرهم الصارمة في الخطأ والصواب؛ فهم لا يشعرون بحاجات أطفالهم والفروق الدقيقة المعقدة للاختيار الأخلاقي. ومع ذلك هنالك نماذج سلوكية أخلاقية تمثلها آداب الأبوة، وبودي أن أظهر ما الذي اعتقده متضمناً على نحو مناسب في هذه العملية. إنني أتحدث عن التعليم «الأخلاقي» الذي يناسب القرن الحادي والعشرين وما بعده وأقر أن العمليات التي أصفها يمكن، إلى حد كبير، أن تقبل من رجال الدين والعلمانيين معا.

لقد كتب الكثير عن ما يتضمنه التعليم الابتدائي والثانوي، وفيما إذا يتوجب على المدارس الاهتمام بالتعليم الأخلاقي أو التعليم الديني، وإن يكن الأمر كذلك، فما الذي يتوجب على المدرسة أن تقوم بتعليمه. البعض من الآباء يخشون من أن المدارس قد تقوض معتقداتهم وقيمهم الدينية أو الأثنية ولذلك يعارضون أي تعليم أخلاقي في المدارس. إنهم يخشون من أن الأطفال إذا تعرضوا إلى مدى واسع من الأفكار التعددية سيتوصلون إلى طرح الأسئلة عن الحقائق المطلقة ويصبحون فاسدين.

وأجيب بشأن هذه المخاوف أن التعليم كله له بعد سلوكي وأخلاقي، وليس هناك أي تعليم يستحق أن نسميه كذلك إن لم يكن قد فعل ذلك. غالباً ما يتم التغاضي عن أن المدارس تحاول أن ترعى السلوك الفكري والأخلاقي. فمن المضمون أنها تعلم المهارات الفكرية وأن هذا هو جوهر منهجها. إنها تحاول أن تطور المعرفة والكفاءة في مختلف الموضوعات: اللغة الإنكليزية والرياضيات والتاريخ والعلوم الطبيعية والاجتماعية، والفن والموسيقى والأدب واللغات الأجنبية وما إلى ذلك. ولكن المدارس تسعى أيضاً إلى أن تطور عادات جيدة في السلوك. يبدأ هذا التدريب الأخلاقي في دور الحضانة والابتدائية. فينبه الأطفال أن يكونوا متعقلين هادئين وأن لا يكونوا عنيدين ويصنعوا الفوضى. إنهم يتعلمون السلوك، وأن يرفعوا أيديهم إن رغبوا في

طرح سؤال، وأن يكونوا مهذبين في الرد على الآخرين، أن يحترموا المواعيد وأنيقين ولا يغشوا في الامتحانات، وإلخ. إن الإرشاد نحو الآداب العامة والسلوكيات المهذبة للسلوك المتحضر متضمن في كامل المنهج.

إن الإقرار بأن الآباء والمعلمين منغمرين بنشاط من قبل في التربية الأخلاقية ربما تكون حقيقة بدهية، مع أن الحقائق البدهية، غالباً ما يتم نسيان ذلك، هي على أية حال، حقيقة. السؤال هو: هل هنالك خطوط عامة تحتذى؟ كما اقترحت من قبل، هنالك نوعين من التعليم في المجال الأخلاقي: (١) تطور الشخصية، الذي يسمى التربية «السلوكية»، على الرغم من أن له بعد أخلاقي، مادام يبحث في رعاية القيم، و(٢) تطور المهارات الفكرية والبحث النقدي الأخلاقي، الذي يمكن أن يسمى بالتربية «الأخلاقية». كلا البعدين مناسبان في البيت والمدرسة، على الرغم من أن المرء قد يتبع أحدهما بمعزل وبمضرة عن الآخر. الشيء الأساسي أن نبدأ بالتربية الشخصية، ولكن في النقطة ذاتها نحتاج إلى أن نذهب أبعد من هذا لتطوير القابلية الفكرية الأخلاقية المتروية.

التربية الشخصية

تشير شخصية الإنسان إلى ميوله أو ميولها العامة واتجاهاتها. تحدد «الشخصية» سمات الهوية الشخصية وعاداتها التي تقود سلوك الشخص أو تشير إلى المميزات التي لدى الشخص، وميوله الخاصة. إننا نستعمل المصطلح بمعان كثيرة. يبحث الروائيون وكتاب الدراما في رسم الخصائص المتفردة ووجهة النظر المميزة وسلوك الأشخاص من خلال طرائق في التصرف والخصائص العقلية والسلوكية الأخلاقية. إن مصطلح «الهوية الشخصية» يشير إلى خلاصة مميزات هذه الشخصية. وقد يتضمن هذا مجمل ما يحب والميول والعادات في السلوك والملابس. يختلف الناس إلى حد كبير في أذواقهم

وميولهم. لو أن شخصاً كان شاذاً أو غريباً قد نقول عنه (أو عنها) بأنه نمط من «شخصية»، كلمة سخرية أو حتى هازئة. نحن لذلك قد نصف بعض الأشخاص بالساخرين ونصف آخرين بالطبع الحامي؛ وقد يكون البعض مجتهدين وجادين وغيرهم طائشين وحمقى؛ البعض فارغين وآخرين جبناء؛ البعض من السهل أن يتسامحوا وآخرون يغلون من الحقد. نلاحظ أن بعض الأشخاص لم يبد عليهم أبداً أنهم حققوا شيئاً؛ قد يكونون كتومين وغير متشككين. آخرون منفتحين وودودين وثقاة. البعض بخلاء وآخرون كرماء.

هنالك استعمال أخلاقي عام للمصطلح «شخصية»، قد يتضمن مزايا إيجابية وسلبية. لو قلنا أن لشخص ما شخصية «جيدة»، نقصد أنه يعتمد عليه ومستقيم. من الناحية الأخرى، لو أننا سألنا عن الشخصية الأخلاقية لإنسان، فنحن نلمح أنه منحرف وغير نزيه، أو لديه بعض المزايا غير المرغوبة.

نحن نمتدح الأشخاص الذين «لديهم شخصية»، ونقصد بذلك أن لديهم تنظيم ـ ذاتي أو كابح ـ ذاتي، وأنهم يستطيعون السيطرة على مشاعرهم وأوهامهم. نحن نقول أن لديهم «قوة» شخصية. وشخص آخر قد يفتقد إلى الشخصية؛ أي أنه قد يذعن عند أي نزوة أو ميل ولا يستطيع مقاومة الإغراءات. الشخصية الشجاعة ذات العزيمة الثابتة يمكنها أن تواجه المخاطر برباطة جأش؛ الشخص الجبان يغلبه الخوف. الشخص النزيه يمكن الاعتماد عليه في التعامل بعدالة مع الآخرين؛ أما الشخص غير النزيه فهو منحرف. عندما نستخدم مصطلح «الشخصية» فنحن لا نشير إلى مزايا محددة لشخص ما ـ مزاياه الخاصة ـ وحسب، بل أيضاً مزاجه العام أو اتجاهه في التصرف بطريقة معينة. المصطلح الذي عادة ما يستعمل هو «العادة»، ونحن نقول أن الناس لديهم عادات حسنة وسيئة. البعض منهم أنيقون والبعض الآخر قذرون؛ البعض منهم ثرثار والبعض الآخر صارم؛ البعض منهم دقيق في المواعيد والبعض الآخر متأخر دائما. نحن هنا نشير إلى المميزات العميقة العامة

للشخص. من المؤكد لو أننا عرفنا الشخص جيداً يمكننا أن نخمن كيف سيتصرف في المواقف المستقبلية. فمن الممكن في العادة التنبؤ بما سيفعله، ذلك لأن أفعاله هي «الميزة الشخصية» له.

وعلى أية حال، قد يتصرف الناس خارج معاييرهم الخاصة أحياناً، وقد يكون هناك تحول شخصي بعد فترة من الكوارث أو الإنجازات. البعض من الناس قد يتركون العائلة والمهنة التي يعملون فيها وينطلقون في حياة جديدة تماماً. العامل المخلص والمتحمس قد يصبح غير مخلص لصاحب العمل. المرأة المضطهدة قد تثمل فجأة وتنتبه، لتفاجئ الجميع. أو ربما يكون هناك رجل هادئ ينفلت ويفقد السيطرة على نفسه. من غير الممكن التنبؤ بالسلوك الإنساني في بعض الأحيان. فقد لا يتصرف الشخص كما نتوقع منه دائما؛ قد تقود الحرية في الاختيار والاستقلالية إلى أفعال جديدة. ويزعم البعض أنهم عندما يصرفون فيما يبدو لهم أنها طريقة لا تمثل شخصيتهم، فهم بذاك يظهرون شخصيتهم «الحقيقية»، التي كانت من قبل مخفية.

إن المزايا والعادات ليست ثابتة بشكل لا يمحى بل هي تتفاعل مع بعضها البعض ويمكن أن تتحول من خلال الحياة والتعليم. وليس من السهل التسليم بأن الشخصية العامة للمرء يجري التحكم بها جينياً أو وفقاً للظروف البيئية. إن كلاً من تأثيرات الظروف البيئية تبني سلوكنا. ويعتمد البناء والتعبير عن الموهبة الطبيعية على المؤثرات الموجودة في البيئة. يشير العالم السلوكي إلى حقيقة أننا نبني استجابات مشروطة، ونضع مسارات سلوكنا على وفق خطوط معينة. ومما لاشك فيه أن هذا يتم تبعاً إلى الألم والمتعة التي نستلمها من البيئة الاجتماعية. سرعان ما يكتشف الطفل أن السلوك الشائن يشعر الكبار بالامتعاض بينما يكال للسلوك الحسن بالمديح. الاستحسانات والمكافآت الخارجية ـ التي تأتي من الوالدين والمعلمين والنظراء ـ تركز داخلياً وتحرك السلوك المستقبلي. إن الطفل يبني عادات في ما هو متوقع ومقبول من الاستجابات السلوكية.

والسنوات الأولى من التعليم والتدريب هي الأكثر أهمية في بناء العادات والفضائل الأخلاقية، وفي ضمان الآداب الأخلاقية وسعادة الفرد.

كيف نغرس في الذهن السلوك الصحيح؟ إنني أسلم بأن هنالك اتجاهات طبيعية ضمن الناس العاديين، من خلالها يتم التعبير طبيعياً عن الآداب السلوكية. وأساس ذلك عندما يطعم الوالدان الطفل، ويبقيانه دافئاً يوفران له الحماية وأحضان الحب. إن كل يوم من العناية العاطفية هي فرصة جديدة لإنماء حب الغير. وكلما كبر الطفل وارتبط بالآخرين في العائلة ـ من أخوات وإخوان وأقارب ـ وأصدقاء وزملاء في العالم من حوله، فإن هنالك تقدير لآداب السلوك يترسخ داخله.

لسوء الطالع، ربما يكون لدى، البعض من الأفراد، نموا قاصراً أو معدوماً للسلوك الأخلاقي، أو ربما يكون هنالك انحراف في نمو حب الغير. ومن الصعب التأكد من سبب حدوث ذلك. ويقيناً أن الوالدين غير المحبين والذين يسيئان المعاملة لطفلهما يلعبان دوراً مأساوياً في النمو الشاذ. وعلى أية حال هنالك دليل على أن البعض من الشخصيات المضطربة نفسياً، الذين يظهرون. سوء الأدب والسلوك المنحرف السايكوباثي، لديهم نوع من النقص الكيمياوي. أو الدماغي أي أنه قد يكون جزئياً مشكلة جينية في الأصل. ولكن كي تنمو الشخصية في سلوك طبيعي، في أقل تقدير، يحتاج الطفل إلى أن يتغذى على التقمص السلوكي الأخلاقي. النقطة الأولى هنا هي بناء ونمو الشخصية، وزرع المزايا العامة والميول التي نحترمها من خلال التعزيز الإيجابي. دعونا نناقش نماذج متنوعة من التدريب السلوكي الذي عادة ما يقام به.

المستوى الأول: نموذج إطاعة السلطة

يؤمن الوالدان المتسلطان بالنظام المتشدد. إنهما يصران على أن هنالك ما هو صحيح على نحو مطلق وما هو خطأ على نحو مطلق وأن من واجب الطفل

إطاعة مجموعة الأوامر الأخلاقية من دونما سؤال. ثمة خوف كبير فيما إذا لم يعاقب الطفل في الحالة الاستثنائية، فهو (أو هي) قد يصبح عاصياً وجانحا. في المدارس الداخلية الإنكليزية الأصولية القديمة كانت الطريقة المعتادة في معاقبة تخطي القواعد هي الضرب على الأرداف لفرض النظام. كان الجهد الأساسي هو في إدخال إحساس في الطفل أن عليه أن يطيع القانون حرفيا. من المفترض أن الخوف من المراقبة والعقاب أو، على العكس من ذلك، الاستحسان والمكافأة على الاستقامة الأخلاقية، تؤكد الطاعة أو الإذعان.

قد يتعاطف الإنسان مع الآباء الذين يخشون أنهم إن سمحوا لأبنائهم بالحرية المبالغة فلسوف ينحرفون: سيكونون كسالى ويتناولون المخدرات، أو ينشغلون بالسرقة التافهة، والجنس غير الشرعي أو يميلون إلى العنف. فضلاً عن ذلك، يشعر الكثير من الآباء أنهم مهددون بعمق إن رفض أطفالهم قيمهم واختاروا رسم حياتهم بأنفسهم. ومن هنا فإن أنموذج الطاعة هو أنموذج دفاعي من أجل حماية السلطة الأبوية.

يوضح هذا الكثير من الغضب الذي ينفس عنه بعض الآباء والجماعات ضد المدارس. فيخشى الكثير من المحافظين التغير ويقلقون من أن أطفالهم سوف يكبرون ليختلفوا عنهم بشأن الأصول، وخصوصاً الالتزامات الدينية. فيقاوم الوالدان الرجعيان أن يتعلم أبنائهم نظرية التطور والدراسات المقارنة في العلوم الاجتماعية، والكثير من الأدب الحديث، والتعليم الأخلاقي لأنهم يخشون أن أبنائهم سوف يرفضون قيمهم الأخلاقية الضيقة التفكير ويتبنون أساليب الحياة البديلة. هذه هي الحال مع الكثيرين من اللاهوتيين الملتزمين بما يعدونه الفضائل الإلهية. فمثل هؤلاء الآباء، على سبيل المثال، يعارضون دراسة الجنس في المدارس بشدة، لاعتقادهم أن ذلك يفسد الشباب. المضمون الأساسي بالنسبة لهم لدراسة الجنس يمكن أن يلخص بكلمة واحدة هي: لا «لا تفعل! » إنهم يؤمنون أن على أولادهم الامتناع عن الجنس حتى يتم الزواج، حتى لو لم يتمكنوا من الزواج في سن متأخر من حياتهم.

إنهم أيضاً يعرقلون «توضيح القيم»، لأنهم يخشون أن ذلك قد يعرض أبنائهم للقاء بأفراد من جماعات لهم مهادات دينية وأثنية مختلفة ومفاهيم للحياة مختلفة كذلك. الشيء الذي يهدد بخصوصية هي فكرة أن يكون الإنسان قادراً على مساءلة الثوابت، وأي بحث نقدي يميل إلى ذلك. إن فكرة الصحيح المطلق والخطأ المطلق «تفسد» من خلال أخلاقيات الموقف. من المؤكد أن النصيحة بالتفكير بنفسك والتعلم في أن تقرر بنفسك ينظر إليها برعب لأنهم يؤمنون أنها تسمح للأطفال أن يفعلوا ما يريدون.

يمكن للمرء أن يقدر رغبة الآباء الذين يحبون أبنائهم في أن يعملوا ما هو أفضل لهم. على أن من الواضح أن أنموذج الطاعة للتسلط قلما يصل إلى مستوى النضج في التطور الأخلاقي، إذ أن الانصياع لقانون التقاليد في السلوك الذي يكون الإنسان مجبراً عليه لا يمكنه أن يكون أنموذجاً للسلوك الأخلاقي. إن الطاعة الخارجية للقوانين الأخلاقية غير المرنة خوفاً من العقاب من المستحيل أن يضمن أن تكون نوايا الشخص أخلاقية على نحو أصيل. فضلاً عن ذلك، لا يخبرنا هذا الأنموذج كيفية معالجة الكثير من النزاعات التي نجدها حيثما تكون هناك مبادئ أخلاقية وقيم مختلفة في المجتمع. كما أنها لا تساعد الفرد الذي ربما يكون في مأزق أخلاقي. عندما توضع البنى المتزمتة للشخصية المتسلطة في موضع التحدي قد لا يكون ذلك الشخص قادراً على تبني آليات مناسبة للتكيف أو أنه حتى لا يستطيع التعامل معها أبدا. قد يكون تواقاً لإطاعة الأوامر حتى أنه لا يستطيع التعامل مع الفروق الصغيرة للمداولة وتعقيد الاختيارات الأخلاقية. قد يكون متشبعاً بالحاجة إلى احترام السلطة، خصوصاً عندما تكون مقدسة في سياق كهنوتي أو قانوني، حتى أنه لا يستطيع ممارسة الحكم أو الاختيار.

إن نوعاً من الطاعة للقواعد الأخلاقية لا يخلو من الفائدة، وربما يتحتم على الآباء والمعلمين والمجتمع أن يفرضوا الطاعة للمعايير الأصيلة للمجتمع

المتحضر. من المؤكد أن المجتمع يمكنه أن يستخدم المكافأة والعقاب لإحداث أنواع معينة من الاستقامة. هكذا هو الحال خصوصاً مع المجرمين العنيفين، الذين يتحتم على المجتمع أن يحمي نفسه منهم. فهؤلاء الأشخاص إما أن يكونوا ميالين جينياً إلى العنف أو جعلتهم التجارب هكذا ليكونوا ميالين إلى الانحراف عن السلوك الاجتماعي. هنا تكون قوة السلطة كلها ضرورية لحماية حقوق الناس الأبرياء الذين في المجتمع.

عموماً، أن أسلوب الطاعة للتسلط نادراً ما يكون كافياً في نفسه؛ لأن هذا النوع من «التعليم» ـ إن صح المصطلح ـ السلوكي الأخلاقي يساوي «التثقيف». الشخصية السلوكية الأخلاقية قلما يمكنها التطور، ذلك لأن الطفل يتقبل ببساطة ما يعطى له، وأن الأخلاقية التقليدية لا تسمو أبدا. لقد رأينا الصعوبات في مثل هذا المنحى العنيد نحو الأخلاقية في الفصلين الأول والثاني. قد يكون مثل هذا الفهم الضيق مدمراً خصوصاً للنمو الأخلاقي للطفل، لأنه إن لم يتجاوز هذا المستوى، فقد يكون معاقاً على نحو دائم من الناحية السلوكية. مثل هؤلاء الناس قد يكون لهم سلوك لا إحساس فيه عندما يكبرون أو يميلون إلى التصرف اللاأخلاقي أو حتى إلى الجريمة.

المستوى الثاني: التقمص الداخلي والكابح ـ الذاتي

هنالك مرحلة ثانية للنمو الأخلاقي ضرورية للتطور؛ وهي المسار الإيجابي نحو الأخلاقية. وأقصد بذلك الحاجة إلى أن يتطور تقدير في داخل الشاب للآداب الأخلاقية. ولا يحدث هذا إلا عندما تكون القواعد والمبادئ الأخلاقية (١) «متمركزة داخلياً» و(٢) متحققة ليس بسبب الخوف بل بسبب المشاعر الأصيلة «للتقمص»، و(٣) نامية عن إحساس حقيقي بأن على الفرد أن يسيطر على عواطفه ويكبحها.

هنا يتم تشجيع الشاب بتطوير إحساساته الأخلاقية الداخلية القادرة على

العمل من نفسها، من دون نقد أو مصادقة من الخارج تكون هي المحفزة. قد يقول الساخرون أن هذا النوع من الوعي الأخلاقي هو ببساطة المعادل النفسي للقواعد التي تفرض من خلال الاستحسان أو عدم القبول من الآباء أو المجتمع وأن الطفل بالنتيجة يمركز داخلياً الأوامر من السلطة الخارجية. ولكن هذا غير كاف أبداً لضمان السلوك الأخلاقي الناضج ما لم يكن هناك أيضاً نمو للإحساس الأخلاقي المستقل والذاتي. ليس على المرء أن يقال له عبر الأمر القانوني أن هذا الشيء صحيح أو خطأ، صالح أو طالح، على المرء أن يجرب الإحساس بالواجب بنفسه. هنا تصبح المسؤولية «السلوكية الأخلاقية» والإحساس بالالتزام جزءاً من الشخصية. إنها مبنية في داخل مزاجه لذلك فبكل أصالة يقدر الشخص الحاجة إلى الآخرين ويمكنه التعاطف معهم. إنه يحترم التعاطف والخير، ولا يرغب في إيذاء الآخرين عن قصد.

من المؤكد أن حالة الآباء والمعلمين الذين يستخدمون أنموذج التسلط على أنها خطتهم التعليمية الأولى يريدون من أطفالهم أن ينمو حليب الشفقة البشرية. لا يمكن لأحد أن يؤمن أنهم يريدون لأطفالهم مجرد التكيف مع الأوامر أو يقوموا بما هو صحيح إزاء المحفزات الخاطئة. والفكرة هنا أن ليست هنالك ضمانة من أن الإصرار المبكر على الطاعة المتشددة سيقود إلى الإحساس الأخلاقي المتمركز داخليا. ولهذا توجب على التعليم الأخلاقي في مرحلة ما أن يتحول إلى ما بعد قواعد الطاعة نحو الاختيار الطوعي الواعي.

وتنطبق الاعتبارات ذاتها على تطور الكابح الذاتي الداخلي على شهوات الفرد ورغباته. هنا تكون الأمور بالغة التعقيد. من المفترض أن الأنا العليا المراقبة تحد وتكبح النزوع إلى المتعة الجنسية الطفولية. كل من الدولة والكنيسة تبحثان في تعريف السلوك المناسب وتصف بالشرير أو غير القانوني أي انحراف عن معايير للسلوك الجنسي. وهما يبحثان كذلك في تنظيم الإسراف في تناول المسكرات أو الاستخدام المفرط للقوة. ولكن، مرة أخرى، ما لم يكن

الشخص في مرحلة ما من حياته يكون قادراً على تقدير الحاجة إلى التوازن النفسي ويكون مهتماً بصحته، سيكون ضحية لأي عاطفة عشوائية من الممكن أن تتغلب عليه. إن حياته الداخلية ستكون استبدادية، وسيكون في حالة صراع مع نفسه، غير قادر على تنظيم رغباته، غير مدرك لمبدأ الاقتصاد الذي يمكنه من أن يدخر للغد، غير قادر على أن يمتنع عن الإغراءات المرحلية في ضوء تلك البعيدة المدى. ستكون حياته غير منسجمة وغير مستقرة.

الشيء الأساسي، لكل من الكابح الداخلي والتقمص بحب الغير، هي أهمية الشخصية المتطورة. لذلك أنا أومن أن الآباء والمعلمين يحتاجون إلى أن يعملوا ما بوسعهم لبناء عادات طيبة ويطوروا شخصية فاضلة. إن كيفية عمل ذلك هي قضية كبرى. كانت النظرة البعيدة لأرسطو في كتابه «الأخلاقيات» أن أولئك الذين رغبوا في دراسة الأخلاق لابد لهم أولاً أن يطوروا نوعاً من الإحساس بالخطأ والصواب والشخصية الفاضلة. إنني أسلم بأن عاداتنا العمومية والمزايا متطورة بيئياً بالإرشادات والتعليم، وعلى الرغم من ذاك هنالك ميول جينية سابقة وتوجهات موجودة في داخل الكائنات وأن الفرد هو الذي يجعل من ذلك ممكنا. وإن هذه هي الحال، فنحن بحاجة إلى أن نبدأ في تطوير الشخصية منذ السنوات الأولى للطفل، وعلى الوالدين والمعلمين أن يقوموا بمقدار من المسؤولية حول كيفية نمو الطفل. من المسموح به إرشاد الأطفال بإصدار بعض الأوامر ـ إفعل ولا تفعل ـ على أساس ما تعلمناه نحن، ونحتاج إلى أن نعاقب السلوك غير اللائق ونكافئ اللائق. لكننا نحتاج إلى ما هو أبعد من ذلك ونغرز في داخل الطفل مفهومه الخاص للوقائع السلوكية الأخلاقية: نحن نحتاج إلى نعيش ونعمل ونلعب سوية مع الآخرين في المجتمع. إن إحساسه الأخلاقي هو إذن ليس مجرد مساو للنظام الرقابي الاجتماعي بل يصبح نظامه الخاص حقا.

يمكنني أن أساعد وأشجع الطفل على الوقوف ليقوم بخطواته الأولى، ولكن

عليه وحده أن يتمكن من مهارات المشي والركض والقفز وما إلى ذلك. ويمكنني كذلك أن أعلمه المفردات الأساسية في اللغة والنحو ولكن على مواهبه الإدراكية أن تقبض على المعاني وتنظر في الارتباطات بينها. يمكننا فقط أن نوفر الأسس والخطوط العامة للنمو الأخلاقي؛ على الطفل أن يقوم مع والديه في أن ينعم النظر بالعملية الاجتماعية للتعليم والتكيف. إنه يحتاج إلى أن يطور الحاصل السلوكي الأخلاقي من خلال الحياة والتعلم من الآخرين.

هنالك مقومان رئيسيان هما الحب والإحساس بالانتماء للجماعة ـ خصوصاً من خلال الحميمية في التفاعل وجهاً لوجه ـ وعلى الطفل أن يجرب الشعور أن أولئك الذين من حوله ليسوا أعداء له بل يحبونه ويهتمون لنشأته جيداً ويراعون مصلحته بكل طيبة.

قد لا يتعلم الاستجابة للآخرين بشكل متقمص ما لم يظهر الآخرون التعاطف معه. إن الطفل الذي يجرب العزلة، ويشعر أنه غير مرغوب فيه، أو تساء معاملته بأيدي الآخرين سيجد أن من الصعب عليه أن ينضج بوصفه شخصاً محباً وعطوفا. ولكنه لو أعتني به جيداً، فإن الآداب الأخلاقية يمكن أن تنشأ في سلوكه. أؤكد على أولوية تعزيز الإيجابي على النقد الذي لا داعي له لأخطاء الطفل. إن الميول العامة والعادات يمكن أن تطور وتكيف إن يكن هناك توجه لبناء الثقة بالنفس في الحياة.

أي من المبادئ والقيم علينا بحثها من أجل التطور؟ نشير هنا أولاً إلى الآداب الأساسية للاستقامة، والثقة وحب الخير للناس والعدالة وتفرعاتها المتنوعة. وكذلك يمكننا التحول إلى السعادات في حياة الإنسان الشخصية. نحتاج إلى رعاية الاستقلالية والتنظيم الذاتي واحترام الذات والإبداع والتحفيز والنظرة الإيجابية وما إلى ذلك.

وإن تكن أطروحتي صحيحة، عند ذاك ليس غير البيئة الأخلاقية الغنية من الممكن للطفل الصغير أن يحقق فيها هويته ويزدهر وينمو أخلاقياً. وربما يكون

المستوى الأول هو نقطة البداية، لأن المرء يحتاج إلى نوع من الطاعة للقواعد الصغيرة، ولكن هذا غير كاف، إذ على المرء أن يستمر إلى المستوى الثاني في التقمص المتمركز داخلياً والكابح الذاتي. يجب على المرء أن يرعى ويشجع التطور الذاتي، من دونما تكرار للوم والتحذير، ومن المؤكد من دون معاقبة الفردية الصحية أو الإفراط في الضغط.

من الواضح أنني أختلف عن بعض الإنسانيين المبكرين الذين كانوا يؤمنون أن الطريقة الوحيدة في تطوير الأشياء الكامنة لدى البشر هي عبر توفير جو للطفل «غير مرتب» تماماً لتمكينه من اتخاذ القرارات بنفسه. وباعتقادي أن هذا المنحى خاطئ كليا. ومن الناحية الأخرى، يتوجب على الكبار أن يكونوا بمستوى الحرية وينعموا بظلها فلا بد أن يتعرفوا عليها في صغرهم. لذلك علينا أن لا نخشى على أطفالنا ونسمح لهم بالاختيار. على أية حال، أن خلق بيئة أخلاقية غير مرتبة هي مسألة يوتوبية مجازفة، لأن الطفل الصغير يكون غير مرتاح ومضطرباً من كثرة الاختيارات وتكون النتيجة أنه لا تكون لديه الخبرة الكافية للفهم. وعليه، من الأساسي أن يكون التدريب في ضوء قواعد معينة عامة وآداب أخلاقية.

المستوى الثالث: الإدراك الأخلاقي

ما هو أساسي للتعليم الأخلاقي هو تطوير القابلية نحو الإدراك الأخلاقي. إن الإدراك الأخلاقي ليس مقتصراً على عالم الكبار؛ إنه مهارة، كباقي القدرات الفكرية كالقراءة والرياضيات التي تحتاج إلى أن تنمى في الطفولة والمراهقة. ليس معنى ذلك أن يكون الطفل قادراً على التمكن من اتخاذ قرارات ناضجة اعتماداً على نفسه أو باستقلالية فيما يخص الأخلاق. ومع ذاك، من الضروري أن تتجذر بذور السلوك الأخلاقي في عادات فاضلة مثلما يراعى ذلك لدى الكبار. من دون تلك الأسس يكون البحث الأخلاقي مجرد نزوى من دون ما

توجيه. ولا يمكن تحقق الإدراك الأخلاقي الموثق إلا عبر وجود نوع من الترتيبات أو البنى المتمركزة داخليا. وعموماً، فإن الإدراك نفسه قادر على أن يلعب دوراً في بناء الشخصية لدى الأطفال والمراهقين والشباب. لسوء الطالع أن أولئك الذين يصرون على النموذج المتسلط يفشلون في تقدير الوظيفة الممكنة للعقلانية في تطوير الإحساس الأخلاقي. وأقصد بذلك، أن عمليات التعليم من الضروري أن تتضمن العقلانية.

ومثال على ذلك، إن يقول الوالدان، «يجب عليك أن تعمل ذلك الآن»، وإن سأل الطفل عن السبب، هل يكون الجواب المناسب «لأنني آمرك بذلك»؟ إن هذا لا يكاد يكون جواباً أخلاقياً، على الرغم من أن أغلب الآباء يلجأون إليه. إنني لا أدافع عن تقديم الأسباب في السنوات الأولى، ولكن مع نمو الطفل، على الوالدين أن يوضحوا للطفل كلما تطلب الأمر ذلك: «عليك الذهاب إلى النوم مبكراً لأن عليك النهوض مبكراً كي تذهب إلى المدرسة؛ إن لم تنم كفاية سوف تشعر بالتعب ولا تتمتع». «كل الخضار لأنها تحتوي على الفيتامينات التي تجعل منك قوياً». «لا تسرق؛ فأنت لا تحب أن يأخذ أحد منك ألعابك». «لا تضرب أخاك؛ هل تحب أن يضربك هو؟» «إقتسم الحلوى مع شقيقتك، عندما يكون لديها شيء منها، سوف تقتسمها معك».

هنا يقوم الوالد (١) بتبيان «الأسباب» للسلوك الصالح، و (٢) بتقديم «الأسس» لمثل هذا السلوك، و (٣) ويشير إلى «النتائج» (لتفادي النتائج المؤذية وبحث النتائج الصحيحة)، و (٤) الميل إلى «الاستقامة» (لا تذكر الاستثناءات للقواعد التي تريد تطبيقها على نفسك).

هنالك مواقف يومية عملية يمكن للآباء استخدامها لتهذيب الذكاء النقدي الأخلاقي. هنالك إحساس عام وعملي يعمل، وأن الآداب السلوكية متجذرة عميقاً في الوعي وهي لذلك جزء من التجربة البشرية، أي يمكن للآباء الدخول في حوار أخلاقي مع أطفالهم. لا يحتاج المرء أن يكون متخرجاً من إحدى

الجامعات أو حاصلاً على أي تعليم رسمي كي يكون واعياً للمبادئ الأخلاقية الأساسية: لا تكذب، أو لا تسرق أو لا تخدع أو لا تنقض العهود وما إلى ذلك.

من المفترض، أن في أعلى وصول للأخلاق، يحاول المرء أن يطور نوعاً من النزاهة في سلوكه وبعض التقدير ل«وجهة النظر الأخلاقية» والسلوك الأخلاقي اللائق بالنسبة للآخرين. القاعدة الذهبية تحفر بعمق في السلوك العاقل: علينا أن نتعامل مع الآخرين كما نريد لهم أن يتعاملوا معنا. فضلاً عن ذلك علينا أن لا نؤذي الشخص الآخر عن قصد بسبب الحقد والكراهية والغيرة أو الانتقام. علينا البحث في مد يد المساعدة لشخص آخر واقع في مأزق. علينا أن لا نسمح باستثناءات للسلوك غير الأخلاقي الفاحش.

في هذه العملية التعليمية، تكون القضايا ليست فقط مجردة أو فكرية، مادام المرء يجرب المشاعر الداخلية. لابد أن ينقل إلى الصغير نوع من الإحساس بالذنب والعار أو الحرج حول السلوك غير الصحيح وغير اللائق أو غير الأخلاقي، بالإضافة إلى الإحساس الإيجابي في رعاية مشاعر الآخرين. الطريقة المثلى هنا هي في ربط الاعتقادات والتوجهات، الأفكار والمشاعر، الإدراك والتقمص العاطفي. هنالك من الواضح عنصر شعوري، لأن الشخصية ليست مجرد فكرية بل هي في مضمونها تحوز المشاعر.

ومع ذلك، فإن الوعي الأخلاقي يتضمن، تقريباً من خلال تعريفه، نوعاً من التقدير الفكري للعقلانية. على الرغم من أن الوالدين لهما قيمهما السلوكية ومبادئهما، فإن هذا لا يعني شيئاً للطفل إلى أن يصبح جزءاً من ضميره الداخلي. حتى الشخص المتسلط يحتاج في بعض الأحيان إلى أن يلجأ إلى العقلانية. غالباً ما يعطي السبب بشأن إطاعة الآداب السلوكية هي لأن «الرب» قد أعلن عن وجوب الالتزام بها. يجب علينا أن نضمن أن بعض الأفراد قد يتم تحفيزهم لتبني مجموعة من قوانين السلوك بقوة النظام الديني. ولكن ما لم يتم

الشعور حقاً بالتوجه السلوكي ويصبح ملزماً في نفسه، جزءاً متأصلاً في الشخص، وما لم يكن الشخص يتصرف ليس بسبب الخوف من الرب، بل لأن لديه إحساساً أصيلاً بالخطأ والصواب، فهو ليس «أخلاقياً» في ذاته. لا يكاد يكون المرء أخلاقياً إن يكن سلوكه آلياً وغير واع يتطابق مع القوانين من دون تقدير لعقلانية سلوكه.

ما هي الأشياء التي من الأحرى التعليم بها؟

الأسئلة التي غالباً ما تسأل: «ما هي الأشياء التي حري بالآباء والمعلمين تعليمها للصغار؟» «هل هنالك أرضية مشتركة؟» «هل يمكننا أن نتفق على قيم أساسية ومبادئ جوهرية؟» من المؤكد أن هنالك اختلافات واسعة ضمن المجتمع بشأن الاعتقادات والقيم الأخلاقية. سيتجادل الناس حول الحرية والإجهاض والقتل الرحيم وعقوبة الإعدام والحرب والسلام - ويمكن أن تكون هناك اختلافات متضادة. ولكن إن تكن أطروحتي صحيحة، ثمة عزل كامل عن المبادئ الأخلاقية المتطورة حديثاً، الدعامة المستمرة لآداب السلوك وهذه الآداب هي التي من الأحرى إجراء تعليمها.

نحن نريد لأطفالنا أن يمثلوا المبادئ الأخلاقية العليا في العمل والتصرف. نحن نريدهم أن يكونوا صادقين ويحفظوا عهودهم ويكونوا نزيهين ومخلصين، أن يكونوا أوفياء ويمكن الاعتماد عليهم، أن يكونوا طيبين ولا يؤذوا الآخرين بل يحبونهم، ويعبرون عن امتنانهم ويكونوا عادلين. وهذا ما يتجاوز الثقافات الوطنية، وهو جزء من التراث المشترك للبشرية. وفي الحقيقة ربما تكون هنالك نقاشات جادة حول تطبيق هذه المبادئ في مواقف ملموسة، ويمكن أن يختلف الناس النزيهون حول كيفية حل المآزق الأخلاقية، خصوصاً عندما تكون هنالك نزاعات. ولهذا السبب نحن نحتاج إلى تنمية المبدأ الإنساني في التسامح، ولهذا كذلك يتوجب علينا أن نتعلم كيف نعيش معاً ونتعاون حيثما

كان ذلك ممكناً ونتفاوض بشأن خلافاتنا. إن العالم متعدد. ثمة مؤسسات مختلفة دينية وثقافية واجتماعية وسياسية وثمة أنظمة للقيمة متنوعة. علينا أن نتعلم العيش وندع الآخرين يعيشون. إن قيم ومعايير الآخرين ليست منيعة من النقد الذي علينا أن نهتم به بكل صراحة؛ علينا أن نبحث في إقناع الآخرين ونقتنع من الآخرين بشأن حقيقة المطلب الأخلاقي. ولكن علينا دائماً أن نبحث مبدئياً في استقرار الأمور بسلام، ليس عن طريق العنف أو القوة؛ علينا أن نجاهد في وجود أرض مشتركة؛ وعلينا أن نؤكد أن نكون مستعدين لتغيير قيمنا ومبادئنا إن كنا بحاجة إلى ذلك.

ولكوني من الإنسانيين، بودي أن أضيف ـ على الأقل بالنسبة لأولئك الذين يتفقون معي في المبادئ ـ أن هنالك رغبة في أن نطور في داخل الأطفال تقديراً للسعادة. أريد لأطفالي وأحفادي أن يعيشوا حياة مستقلة يمكنهم أن يحققوا نوعاً من الاعتماد على النفس في اتخاذ القرار. أرغب في أن يطور كل منهم فرديته الخاصة حتى وإن كانوا غير متفقين معي. يمكنني أن أساعدهم في أن ينطلقوا على بحر الحياة، ولكن يجب عليهم أن يقودوا دفة مساراتهم اعتماداً على أضوائهم الخاصة، حتى لو كانت هذه الأضواء مستقلة عني. إنني أدرك أن ذلك يزعج الكثير من الآباء؛ ولكن مع ذلك، كل شخص لابد له أن يعيش حياته الخاصة ـ ولا يمكن للآخرين أن يعيشوها بدلاً عنه. هل نريد مجرد نسخاً منا يقومون بالتزاماتنا، أو أناساً مبدعين يطورون مواهبهم وفرصهم تماماً؟ وكي يحققوا أهدافهم بكونهم أشخاصاً ناضجين، ألا يجب عليهم أن يطوروا نظاماً ـ ذاتياً داخلياً؟ ما لم يستطع الشخص تنظيم حياته بنوع من التنسيق، فإن أيامه ستتبعثر، في كل إشارة للرغبة العشوائية.

أليس بالأحرى لنا أيضاً أن نريد لأطفالنا والشباب من الناس أن يتعلموا كيفية استخدام ذكائهم في اتخاذ القرارات؟ أليست الحكمة العملية مهمة في الحياة؟ أليس من الأجدى للأطفال أن يطوروا نوعاً من احترام ـ الذات لمواهبهم

وقدراتهم متجنبين عذاب كراهية الذات؟ نعم، من الأحرى بهم أن يفعلوا ذلك، إن كانوا يستطيعون قيادة حياة نبيلة تستحق المديح. إن حب الذات، بدلاً من الذنب المخجل، يمكن أن يطور توجهاً صحياً نحو الحياة. ألسنا نريد أيضاً من الشباب أن يكونوا مبدعين وواسعي الحيلة، قادرين على الاكتشاف والتجدد؟ وعليه، فسوف يحتاجون إلى أن يمتهنوا مهنة ويسهموا في المجتمع ويطوروا أنفسهم. إننا نأمل أن يكونوا متحفزين، حسني النية وإيجابيين في نظرتهم ـ ليسوا سلبيين ولا متشائمين، أو بذيئين. ويتعلق بذلك الحاجة الواضحة إلى الغذاء الجيد والتمارين الرياضية والصحة الجيدة. ألا يجدر بهم أيضاً أن يكونوا قادرين على الاستمتاع بالحياة تماماً، بضمن ذلك التجارب الأيروتيكية والتقدير الجمالي العالي؟ باختصار، ألا نرغب في أن يكونوا سعداء ومبدعين، وأشخاصاً يحققون ذواتهم ويجدون الحياة سخية مليئة بالمتعة؟

إن أردنا هذا النوع من الأطفال، علينا أن نتجنب ممارسة الاستبداد عليهم أو أن نجعل منهم نسخاً منا. الوالد الذي يحب طفله يدرك أنه فرد له خصوصية، ولابد من السماح له أن يعرف بنفسه ويزدهر. يمكننا أن نساعده بحب على قدر الإمكان، ولكن له وحده الاختيار في أن يجد طريقه في البحث عن الحياة الطيبة. ونحن نأمل في الوقت نفسه أن يكون لديه الإحساس الأخلاقي تجاه حاجيات والديه، يساعدنا في حالة حاجتنا إلى المساعدة ويحترم رغباتنا ومصالحنا. إن عملية الاحترام لابد أن تكون متبادلة ومشتركة. إن السعادات الأخلاقية هي السلوكيات المحترمة المندمجة في حياة الشخص.

في اعتقادي أن من الخطأ بالنسبة للوالدين أن يدخلا في أذهان أطفالهم نظاماً ضيقاً للأيمان بالدين، أو يمنعونهم من الاطلاع على الاعتقادات الأخرى للناس. ليس من العدالة تعميد أو تثبيت الطفل الصغير في معتقد ـ من دون إدراكه لهذا ـ والعمل على غسل دماغه. لا أستنكر أن يكون للآباء «الحق» في أن يفعلوا ذلك ـ وهو الحق الذي طال أمده في المجتمعات المتحضرة. ولكن

في الوقت نفسه نحن نتساءل: لماذا لا نسمح للطفل أن يقرر بنفسه ماذا يريد أن يكون عندما يبلغ، المهنة التي يرغب في ممارستها ومن يرغب في الزواج منها وأي اعتقادات دينية سيتبعها؟ أدرك أن ذلك صعب على أولئك الذين يعتقدون بحماسة بأن لديهم الحقيقة المطلقة وسيكون من الذنب ـ ومن المضر للطفل ـ أن يضل عن حضيرته.

من وجهة نظري أن التعليم من الأفضل بقاءه مفتوحاً: أي أن الطالب من الأفضل له أن ينال أفضل ثروة ثقافية: عليه أن يطلع على عالم الأفكار الواسع ويطور وعياً بأنظمة أخلاقية بديلة. لو أن أطفالي قد عارضوا اعتقاداتي قد أحزن حينذاك، ولكنه اختيارهم الحر. إن حياة كل واحد من أبنائي وبناتي هي غالية عليهم كما هي حياتي غالية علي. لم يخلقوا على صورتي؛ كل واحد منهم له صورته أو صورتها الخاصة وعليه أن يكتشفها ويتعرف عليها. هذا هو معنى الحياة ـ لكل فرد الفرصة في أن يخلق عالم حياته. أفضل ما آمله أن أطفالي، مثلما أنا، سوف يجدون الحياة عظيمة ومغامرة مدهشة ومليئة بالمعنى والإثارة. إن لم يكن لدينا غير الحياة فلابد لنا من أن نعيشها بأكملها ونأمل أن يتعلم أطفالنا من نموذجنا ويقوموا بالشيء نفسه ـ على الرغم من أن «بأكملها» لا يحتاج إلى أن يكون مطابقاً لأنموذج والديهم. وفي التحليل الأخير، الرغبة في الحياة هي الأول والأخير، وهي ما يتوجب على الشباب اكتشافه بأنفسهم.

الحاجة إلى بحث نقدي في علم الأخلاق

إن أساس الإنسانية الأخلاقية هو الحاجة إلى تطوير القابلية لبحث نقدي في علم الأخلاق. ويصح هذا ليس فقط على الأفراد البالغين في قابلياتهم في الفهم بل أيضاً على المجتمع أو العالم أجمع. نحن نحتاج إلى أن نأكل الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة بين الخير والشر.

لسوء الطالع، أن السلوكيات المثبتة في المستوى التسلطي ـ أو حتى التطور

إلى المستوى الداخلي ـ غير قادرة على التأقلم مع كل تحديات الحياة. ليس غير الاستجابات المعرفية يمكنها أن تتعامل مع المواقف الجديدة، تلك التي هي غير مغلفة حتى بأفضل سلوكية داخلية. ذلك لأننا نواجه على الدوام غوامض ليس بغير التفكير العقلاني يمكننا مواجهتها.

على الرغم من أن ثمة خطوطاً عريضة يمكن للأذكياء من البشر من الذين أكلوا من الفاكهة المحرمة أن تقصيها في دراساتهم، ففي التحليل الأخير ليس ثمة بديل عن البحث النقدي الأخلاقي. نحن نسمع القليل جداً عن الحاجة إلى حكمة عملية ـ تورث عن الفلاسفة الأخلاقيين ـ ولكنه ربما يكون اليوم أفضل مرشد لسن الأحكام المؤثرة. ما يتوجب علينا فعله يمكن أن يتحدد فقط في المواقف الملموسة التي نواجهها في الحياة. كسب العيش، وبناء حياة مهنية، شراء وتأثيث منزل، وتأسيس حديقة والمساهمة في علاقات ومناقشة أسئلة عن السياسة الاجتماعية، والنقاش مع أناس لهم وجهات نظر فلسفية وسياسية مختلفة. ليس هنالك من بديل في استخدام الذكاء النقدي في حل مشاكلنا، على الرغم من أن أعداء الإنسانية ينوحون على فقدان القواعد المطلقة التي تأمرهم بما يجب أن يفعلونه.

إن الحقائق الصادقة المبرهنة، مادامت لها الخطوة السريعة في التغيير والتشوش الهائل الذي تسببه في البيئة الطبيعية والاجتماعية فمن الأحرى استخدامها حيثما كان ذلك ممكنا. حيثما لا تكون هنالك صلة في الفكر والفعل، فنحن بحاجة إلى ترحيلات جديدة، قد تكون حتى جذرية. إن الأخلاقيات القديمة هي في الغالب، بالإشارة إلى السياق الحاضر، غير ملائمة لأنها لا تستطيع أن تخبرنا بما يجب فعله في مواجهة الفرص الجديدة، بل هي مجرد تحيل العقبات العنيدة إلى التغير. (ولا يكون ذلك التغير نحو الأحسن دائماً ولكنه مستمر على أية حال). من الصعب أن نفهم كيف أن مجتمع ما بعد الحداثة المتحضر والتقني يمكنه أن يؤسس «كل» مبادئه الأخلاقية وقيمه على شرائع بدوية عتيقة وحضارات زراعية تعود إلى ألفين أو أربعة آلاف سنة.

كيف يمكن للوصايا العشر أو الموعظة على الجبل أن تساعدنا في تحديد الأخلاقيات في الهندسة الوراثية أو الرحلات الفضائية أو زراعة الأعضاء أو الوقاية الأيكولوجية (البيئية) أو انفجار المعلومات أو المخزون النووي؟ لا يكون الجواب جيداً لأن أسلافنا على الرغم من ذكائهم وعواطفهم وطموحاتهم كما نحن بالتأكيد، بناء على أفضل المفاهيم العلمية والميتافيزيقية في عصرهم ـ لا تتطابق مفاهيمهم تماماً مع عصرنا. لم تكن لديهم الخبرة الكافية لاكتشاف الأخلاقية الكاملة لأجيال لم يولدوا ـ وربما يكونون قد آمنوا أن أنظمتهم العلوية للسلوك الأخلاقي قد أوحيت من السماء. ولا يمكننا بالتأكيد، أن نتقدم أكثر في العلم والتكنولوجيا، أن نكون متجرئين لنؤمن أننا يمكن أن نبني النظام الأخلاقي لكل المجتمعات المستقبلية. من يمكنه التكهن بالذي سيتعلمه أحفادنا حول الكون، وأية طاقات جديدة سيفتحون، وما هي الأخطار المستقبلية التي ستهدد البشر؟ في عصرنا الراهن، أن المفهوم القديم والذي لا يزال موجوداً ل «الحرب العادلة» يمنح السبيل لندرك أن أية حرب قد تتضمن الأسلحة النووية، وأن استعمالها قد لا يكون محدوداً وأن التدمير الشامل للمجتمعات البشرية سيكون النتيجة.

أكرر أن الأمر الأخلاقي الوحيد الأكثر أهمية الذي يمكننا أن نطوره لأنفسنا ونتأمله للمستقبل هو الحاجة إلى «العقل النقدي». ولا أقصد بذلك فقط الفهم العلمي أو المهارة التقنية أو التطبيقات الاختصاصية الممكنة الأخرى للذكاء. أقصد أولاً وقبل كل شيء «العقلانية الأخلاقية» و «الحكمة السلوكية الأخلاقية» التي قلما يمتلكها الناس بالقدر الكافي، والتي يكون الجميع مستعدون في الغالب للتخلي عنها عند المجاعة إلى اليقينية العليائية والخلاص.

إن هذه الحياة والعالم الذي نعيش فيه يوفران لنا وللأجيال القادمة فرصاً مدهشة. ولكن كي نتمتع كاملاً ونفرح فيها، نحتاج إلى أن نستعمل الفهم العملي والمهارات الأخلاقية للوصول إلى نتيجة أنها ممكنة الإدراك. كل هذا يعني في آخر التحليل، أنه ما لم نستطع أن ننقل إلى أطفالنا ـ وبالتأكيد، نطور

أنفسنا ـ مهارات التفكير العقلاني الأخلاقي، سوف نستمر في أن نجد الحياة صعبة وأن مشاكلها ونزاعاتها لا حلول لها. لذلك فإن الهدف الأسمى للتعليم، من الأحرى أن يكون تطوير الحكم الجيد والعقلانية الأخلاقية. إن اتخاذ القرار حول كيفية هذا التعليم ليس سهلاً دائماً. البعض من الناس يبدو من الطبيعي أنهم لديهم نوعاً من الحكمة العملية حول الحياة، بينما يعيش الآخرون في حماقات وبلادة. ومع ذلك، من الممكن تطويرها على أفضل وجه من خلال مناقشة الأطفال الكبار، وخصوصاً المراهقين، مناقشة نزيهة وحوار حول القضايا الأخلاقية الكبيرة اليوم.

سأناقش أن توضيح مبادئنا وقيمنا حري به أن يكون النقطة الأولية للبحث النقدي الأخلاقي. إن مصطلح «توضيح القيم» قد استعمل ليشير إلى برامج غالباً ما تدرس في المدارس[1]. ولكن هذه البرامج قد هوجمت بوحشية لأنها لم تدرس القيم المطلقة المفضلة للنقاد المحافظين، الذين يخشون من أن الطلبة قد يتوصلون للتساؤل وربما يضعفون الأفكار التي يتلقونها عن الخطأ والصواب عندما يتعرضون إلى أنظمة قيم بديلة في محيط تعددي. البعض من مظاهر هذا النقد قد تكون مستساغة، ولكن ليس كلها. إن بداية الحكمة الأخلاقية هو بالتأكيد التوضيح. ولكن ماذا سيستلزم ذلك؟ في المثال الأول، أنه يعني توضيح لقيمنا «الواقعية» الموجودة من قبل ـ الأشياء التي نتمسك بها ونبقيها في الذهن ـ ومبادئنا الأخلاقية «الأولية»، المبادئ العامة التي من الأحرى أن تقود سلوكنا. إننا نبدأ بقيم ومبادئ مندثرة في العادات، والأمزجة وحالات الشخصية التي طورناها من قبل؛ إننا نقوم بذلك لا لنسقطها، بل لمجرد أن نفهمها بوعي.

---

(1) See especially Sidney B.Simon, *Values Clarification* (New York: Hart publications, 1972), and Sidney Simon and Sally W. Olds, *Helping Your Child learn Right from Wrong: A guide to Values Clarification* (New York: Simon and SAchuster, 1976.

يرتبط بهذه العملية الواعية في التوضيح والفحص الواجبات والمسؤوليات الجوهرية للتفاعل الاجتماعي الذي نحن جزء منه. إن توضيح هذه الأشياء من خلال التعريف والتحليل هو أمر أساسي لأي عملية للبحث الأخلاقي. ولم يعد بالإمكان افتراض هذه الأشياء طوعياً على أنها عادات تقليدية أو أهواء غير مختبرة؛ إنها قابلة للتقدير المقارن وإعادة التعريف. هنا نكون قد وصلنا إلى مستوى أعلى من التداول الأخلاقي، لأننا دخلنا في حقل التبرير. ونحن نبحث في أن نطري بوعي على مبادئنا وقيمنا، ولسنا مجرد نريد التظاهر بها؛ للحكم عليها وفقاً لدقتها في ضوء الدليل، ونتائج عملنا عليها، وتناسقها مع القيم والمبادئ التي يلتزم بها الآخرون من الأفراد والجماعات ضمن المجتمع والعالم بعمق. وفي هذه المرحلة من التداول الأخلاقي نكون قادرين إما على إعادة تقديم القيم والمبادئ الباقية في أذهاننا، محافظين على العناصر ذات القيمة والثابتة من الموروث الأخلاقي لحضارات الماضي، أو ربما، إن تكن هنالك حاجة لذلك، تحويرها أو تحويلها من خلال اكتشاف وتقديم مبادئ جديدة.

إن المدافعين العنيدين عن الحالة الراهنة وعن الوصايا المطلقة غير القابلة للتحول غير قادرين على تأمل التمديد أو تنقيح مبادئهم. ولكن هذا قد يكون ضرورياً في الحياة. هذه العملية من التقدير الانعكاسي يمكن أن تكون مصدراً للتحول الحضاري لدى الشخصية الناضجة؛ وبدلاً من أن تؤدي إلى السلوك المندفع، كما يخشى البعض من ذلك، فمن الممكن أن تساعدنا في تطوير اختيارات أو سياسات أكثر حكمة. ومادمنا نستطيع العمل في ضوء تثمين ذكي للسياق الكامل للحدث، فإن سلوكنا أقرب إلى أن يكون أكثر توازناً واعتبارا. وهذا مفتاح للتعليم المعرفي؛ وهو يمكن أن يكون محرراً مادام يخلصنا من الجمود الماضوي غير الدقيق أو المتهرئ ويمكننا من الوصول إلى مستويات أعلى من الوعي الأخلاقي. ولتوضيح الفكرة: أن الحالة المتحسنة للمرأة والأقليات العرقية قد أنجزت بالمعارضة مع أهواء أو أحكام سابقة مبنية على معايير مختلفة تمرر على أنها «السلوك الأخلاقي».

إن الحاجة إلى حكمة أخلاقية تأملية يمكن أن ترى ليس فقط في علاقتها مع الاختيارات الشخصية للفرد بل بمعنى أعمق، من خلال دورها في المجتمع. هنالك اليوم برنامج اجتماعي عاجل يحتاج إلى أن يطبق على مستوى العالم؛ ذلك لأن الخطوة نحو التحول العولمي جذرية جداً وأن ما نظنها مؤسسات مستقرة من الماضي نراها تتحول بدرجة كبيرة ولا غير الاستعمال الأمثل للذكاء يمكن أن ينشئ بنى جديدة متعاونة. إننا نعيش في عالم متعدد الأثنيات تتواجد فيه ثقافات متنوعة معبرة عن مدى واسع للمبادئ والقيم. وبالطبع، كان هذا صحيح دائما، ولكن التحسن في الاتصالات والنقل والمنظمات المتعددة الجنسيات قد حول مجرد الوجود إلى منافسة ونزاع.

إننا بحاجة إلى أن نجد أرضية مشتركة بين تنوع الأنظمة والقوانين. إن التقدير العالمي لحقوق الإنسان والحاجة إلى احترام الخصوصية في حركة إيجابية نحو اكتشاف أخلاقيات عامة متعددة البنى. ومادمنا نعيش في كوكب واحد، فهل ثمة مانع من تطوير «مجتمع أخلاقي» كوني، يشترك فيه كل الأفراد والثقافات؟ إن المجتمع الكوني يتشكل من قبل بسرعة، وتظهر مؤسسات جديدة اقتصادية وتقنية وسياسية واجتماعية. وتبرز اليوم الحاجة إلى التحول إلى مستوى أعلى من التقدير للمجتمع العالمي. أنني موقن بهذا الحال، وعليه يجب أن نعيد إنشاء مبادئنا وقيمنا في هذا الضوء. هنالك الذين يبدو أنهم يرغبون ـ من خلال ما يوحي به سلوكهم ومزاعمهم ـ في تقنين كل إنسان في معتقد واحد: المسيحية، الإسلام، الهندوسية، وأيديولوجيا الماركسية الشمولية، أو المعتقدات الجديدة المتطرفة المنفلتة عن نطاق العقل. ولكن لو نجح أي من هذه الاعتقادات، فقد تنزلق البشرية إلى الوراء في عصر ظلامي جديد.

إن الخطر الكبير يكمن في أننا إن تم استئصالنا من الجماعات الصغيرة التي نعيش فيها في الأصل، قد نصبح جمهوراً من الرجال والنساء لا يشعرون بالآداب السلوكية، وقد نتبع من دونما نقد وعوداً جديدة للخلاص العليائي

بكونه الكأس المقدس، متخلين عن ثقتنا بالعقل والعلم النقدي الأخلاقي. في المجتمع العولمي الجديد الذي يبرز اليوم، يجب أن لا يضيع إحساسنا بآداب السلوك والمسؤولية ويجب عدم التنازل عن حقل حقوق الإنسان واحترام الحرية والخصوصية. وفي المجتمع الكوني الجديد الذي يتطور، من الواضح أن الاعتقادات القديمة والسلوكيات لن تخدمنا تماما. هل يمكننا أن ننظم الرؤية والشجاعة المطلوبةِ لبناء عالم أفضل لكل أفراد العائلة البشرية؟ يعتمد المقوم الأساسي في هذا العالم الجديد للإنسانية الكونية على الاهتمام بالحكمة الأخلاقية. وإن واجبنا الأخلاقي العالي المطرود من جنة عدن يتجه نحو المجتمع العالمي، ليس فقط عالمنا الراهن، بل الأجيال القادمة التي سترث الأرض.

[٧]

حقوق الإنسان

ما هو حق الإنسان؟

كلما تحركنا نحو مرحلة العالم، فإن الأخلاقيات تهتم بالمشاكل التي لا نواجهها في مجتمعاتنا الصغيرة. نحن نتساءل: هل هنالك «حقوق» لكل البشر يجب أن تحترم من أي مجتمع متحضر في العالم؟ هل تعبر هذه الحقوق حدود تنوع الأمم والدول والحدود الثقافية وتطبق على كل البشر؟ إن تكن هناك مثل هذه الحقوق كيف ستتساوى مع المبادئ الأخلاقية والآداب السلوكية العامة؟

إن مصطلح «الحق» يُلتجأ إليه كثيراً في البحث النقدي الأخلاقي، خصوصاً منذ كانط. وبودي هنا أن أتعامل مع معنى خاص لمصطلح «الحق»؛ وهو عبر النظرية التي ترى أن كل البشر يمتلكون مناعات معينة وميزات غير قابلة للتحويل ولا يمكن أن تلغى. وهذا المعنى للحق هو غالباً ما يثير أكثر المشاكل في البحث؛ على أن عالم ما بعد الحداثة قد تحول بانفعالية عبر مفهوم أن حقوق الإنسان لابد لها من أن تحترم من الجميع وتعززها الحكومات. من المؤكد أن الفرد الذي يعتقد أن حقوقه قد انتهكت له الحق المبرر في إقامة الدعوى على المجتمع.

الجوهري في فكرة الحق هي الفكرة الإضافية ل «إقامة الدعوى»: الشخص (أو مجموعة أشخاص) الذي ينكر عليه حق من حقوقه (أو حقوقهم) يطالب بتعديل الظلم عبر القضاء. ولا سبيل إلى الخلاص بأن الحق بهذا المعنى مرتبط

بالمطالبة. الذي يعادل هذا هو التضمين بأن المجتمع أو البشرية جمعاء عليها واجب احترام ذلك الطلب، وهو ملزم للضمير الإنساني.

أشير إلى الحقوق الأخلاقية والسلوكية أو المطالبات التي يطالب بها الفرد من الآخرين. وهنالك أيضاً المطالب القانونية التي تمنح الحماية والموافقات للقانون. لذلك فللشخص الحق في أن يحصل على الملكية بالقانونً، وإن كان له عنوان شرعي لها، فمن غير الممكن مصادرتها من دون الرجوع إلى سياقات مبررة أو سبب عادل. وكذا الحال، تكون لدى الشخص الحقوق المبينة قانوناً ـ مثل حق المواطنة، وسلطة التصويت، أو سلطة التعاقد. الكثير من هذه الأمور دقيقة وتعتمد على تشريع قانوني أو تأويل قضائي. وتسن الحقوق والسلطات والمميزات ضمن إطار قانوني دقيق، ويمكن للإنسان أن يطلب أن تتم حماية حقوقه قانوناً، وفي المحاكم المدنية يمكن للإنسان أن يقاضي عن الأضرار التي ألحقت بحقوقه من الذين انتهكوها.

هل توجد حقوق أخلاقية، خارج النظام القانوني، يمكن أن تخص أفراداً بكونهم «أشخاص»، حقوق قد نقول أنها متأصلة فيهم؟ مثال ذلك، ألا يمكننا أن نقول، في أقل تقدير، أن كل الأشخاص «متساوون» بمعنى أنهم كلهم «بشر» وأن من بين أساسيات حقوق الإنسان الإقرار بأن كل شخص له «احترام» و«قيمة» يجعلانه متساوياً مع الآخرين؛ وأن هذا لابد له أن يحترم من المجتمع العالمي؟ هذا الإقرار بالحق له القوة الآن في المجتمعات الديمقراطية، على الرغم من أن ذلك لم يطبق قبل قرن ونصف فيما يخص السود، الذين كانوا يعاملون كالأملاك المنقولة ولا حقوق لهم.

وقد نسأل: هل هنالك حقوق إنسان غير قابلة للتحويل يمكن أن تنطبق على كل الرجال والنساء، الشباب والشيوخ، مهما كانت أصولهم الأثنية أو العرقية أو مهما كانت حالاتهم الاقتصادية والاجتماعية؟ هل هذه غير قابلة للإلغاء بمعنى أنها لا يمكن أن تلغى من دون الموافقة الواضحة من الشخص؟

من المؤكد أنها ليست قضية «وجود» مثل هذه الحقوق فقد كانت معروفة تاريخياً في كل مكان. ومما لاشك فيه، أن الحضارة هي التي كشفت عن الجهد الذي قامت به البشرية من أجل تأسيس مثل هذه الحقوق وعملت على أن تحترم. ليس هنالك مبدأ لحقوق الإنسان لا في الكتاب المقدس ولا في القرآن. إن مفهوم تأصيل حقوق الإنسان هو تطور حديث. كل ما يقرأه الإنسان في الأدب الديني والوصايا منزل من الرب ومن واجبنا إطاعته. ولكن ليست هنالك مطالب معادلة لدى الناس ضد الرب، وليست هنالك مطالب حول المسؤولية عن الشرور في العالم، ولا ردود للشكاوى المقدمة ضده. كل المنافع السلوكية تمنح للإنسان من الرب على أساس أنها فكرته في العطف والشفقة، ولكن ليس هنالك اقتراح أننا سوف تتم معاملتنا بعدالة وأن حقوقنا محترمة. من المؤكد أن الآلهة اليونانية والرومانية قد انتهكت ما نعده أقل الحقوق في عدم تعرض الناس لعقاب قاس وغير مألوف، ومن الواضح أن الرب المسيحي راغب في إلقاء اللعنة الأبدية على أولئك الذين لا يطيعون وصاياه أو لا يؤمنون به. وكذا الحال مع يهوه والله. فضلاً عن ذلك، مادام يتم تصوير الرب في بعض المعتقدات على أنه مزاجي في قراره بشأن من ينقذ ومن لا ينقذ، فهو لا يكاد يحترم حقوق الإنسان. وأدب الكتاب المقدس على الأخص لا يدين العبودية. إنه يحافظ على وضع النساء ليكن عبيداً لأزواجهن. وهو يسعى إلى أن يغرس الدين في عقول الأطفال قسراً، وغالباً ما ينتهك حقوقهم في المعرفة. إن تكن الحقوق تمنح من الرب كما يؤكد المدافعون عن الدين، مثل الأقدمين، فلماذا يحتاج الوعي الديني إلى وقت طويل كي يتعرف عليها، ولماذا يفشل في أن يجد هذه الحقوق في المصادر الدينية؟ من المؤكد أنها غير موجودة في جنة عدن، حيث لم تكن هنالك أية حقوق ضد الرب الكلي القدرة الذي طردهم من دون أن يستمع إليهم لأنهم أكلوا من الفاكهة المحرمة.

ربما يتوجب علينا أن نتخذ سبيلاً مختلفاً تماماً ونناقش أولئك الذين يقولون

أن الحقوق طبيعية ومتأصلة في طبيعة الإنسان، على الرغم من أن الإدراك يعتمد على تطور العقل. إن مبدأ الحقوق الطبيعية، الذي طالب به توماس جيفرسون بفصاحة في إعلان الإستقلال، يؤكد أن هنالك حقائق معينة بديهيةً أي أن «كل الناس قد خلقوا متساوين وأنهم قد منحوا من خالقهم حقوقاً لا محيد عنها بضمنها الحياة والحرية والسعي نحو السعادة». ولسوء الطالع مرة أخرى، ليست كل الأعراق أو الأمم قد وجدت أن هذه القضايا بديهية. بل هي قد أقتطعت من الحكام بعد صراع طويل الأمد، ولم تصل إلى العبيد في الولايات المتحدة إلا بعد حرب أهلية دامية. لو أننا محونا الرب والقانون الطبيعي، أو البديهي، ما الذي سيحدث لحقوق الإنسان؟ هل ستختفي أو تتعثر على أرض مهتزة؟ ما هي أسسها المعرفية؟ هل هنالك مصادر أخرى لحقوق الإنسان؟

يحدد مصطلح «حقوق الإنسان» إجراءً له جانبين. إنه لا ينطبق على الأشخاص الذين في عزلة مجردة، بل أولئك الذين في عملية ذات تداخل اجتماعي. أحد جانبي الإجراء هو الطلب أو الدعوة من ناحية الفرد (أو الجماعة) الذي يعتقد أنه (أو أنهم) قد أبعد أو طرد أو تضرر أو استلب، وأن حقوقه (أو حقوقهم) بحاجة إلى أن تصان. مثل هذه المتطلبات متجذرة في التجارب التاريخية لما لا يحصى من الأجيال من الرجال والنساء الذين عاشوا وماتوا من أجل حقوقهم، وهم الذين بحثوا في أن يكسبوا القبول لحقوقهم. بهذا المعنى، يقول الشخص أنه (أو أنها) يمتلك حقوقاً ملازمة له. الجانب الآخر من الإجراء واضح: فلابد من وجود تقبل يستجيب للطلب من أولئك الذين يسمعونه ويؤمنون بوقوع نوع من الواجب عليهم لمقابلة من يلجأ إليهم وإنصاف الظلم.

إن دراما التقدم السلوكي هو النضال، المتسع دائماً، من أجل المطالبة بالحقوق، من الجماعات الصغيرة إلى الكبيرة من الناس، مما قد يظهر في البداية على أنها شكاوى غير معقولة من أقلية متمردة أو معترضة، إلى أكثرية

تتفق معها في آخر الأمر. من دون الإحساس أن «علينا» أن نحترم الحق، فلن يكون له أساس. إنه يكون نتيجة للمطالبة والإحساس بالواجب، داع ومستجيب. فيما يخص حال الفلاح الأجير وعامل المصنع والمرأة المضطهدة والإنسان الأسود والشاذ جنسياً والمريض والمشرد أو المنبوذ ـ هنالك قناعة أن هؤلاء الناس لابد من معاملتهم بإنصاف ولابد من احترام حقوقهم.

لذلك، من الناحية الأنطولوجية، أن حقوق الإنسان هي ميزات تبرز عند الإجراءات الإنسانية؛ وهي غير معزولة عنها. ومثل المبادئ الأخلاقية، تكون محددة ومعيارية. إنها قواعد لقيادة الأفراد في سلوكهم تجاه واحدهم الآخر. إنها تنشأ عن عمليات راسخة للطلب والقبول، ولذلك فهي ليست فارغة أو مفاهيم مجردة. ولو فسرناها جيداً فهي ليست حقوق، بل «تصويب للحقوق»، عملية إجرائية. إن المطالبة بالحق تعد لا معنى لها لو جاءت في جزيرة صحراوية، حيث من الممكن أن يعيش بحار وحيداً تحطمت سفينته على شاطئها؛ ويبرز حقه عندما يصل قارب مملوء بالناس. إن الحقوق هي الخصائص الكامنة للإجراءات، ولكنها لا تعني شيئاً من دون الإجراءات الفعلية؛ إنها عملية وذات علاقة مترابطة تحتوي على القوة لأنها متجذرة في المسيرة التاريخية للحضارة من أجل المثل العليا للحرية والمساواة والعدالة والإنصاف، وفي مؤسسات وجمعيات وضع لها الرجال والنساء شكلها. وهذا لا يجعلها أقل إلحاحاً لأنها تتغذى من الاعتقادات والممارسات والرؤى والمثل الإنسانية. وكذا الحال مع الفن والعلم والفلسفة والدين: كلها نتاج الإبداع الإنساني الخلاق. وكما رأينا من قبل، فلأنها قريبة من الثقافة الإنسانية لا يعني ذلك أنها ذاتية أو مجرد نزوات.

لا تحتاج حقوق الإنسان إلى دلالة متسامية كي تكون ملزمة أو شمولية أو عامة. أن تكون مقدسة من خلال الدين بعد الواقع هو بكل بساطة أن تأخذ جزءاً من التجربة الإنسانية وتدعمها بأخرى. على الرغم من أن المرء قد يخدع

الآخرين حول الحالة الأنطولوجية للحقوق، فإن مضمونها يظل «إنسانياً» بمعنى الكلمة، وهو ما لا يجعلها تقل عن الإلزام الأخلاقي. إنها لاتزال متلبسة ومعززة بكل كثافة الشعور والحماسة التي يمكن أن تثيرها المثل في السلوك الإنساني.

إن تظهر المثل الإنسانية والمبادئ الأخلاقية هكذا فكيف يمكن اختبارها؟ هذه قضية أخرى، إذ كما اقترحت سابقاً حول المعايير الأخلاقية فهي تعزز بدرجة ما الوفاء والإخلاص اللذين نربطهما بها. وكذلك، وهو المناسب أكثر، من الأحرى اختبارها ب «نتائجها». أن نقول أن هنالك حق إنساني يعني ببساطة أن تقول (١) أن هنالك مطالب لنا بكوننا بشر، و(٢) إن تعد بالفعل منصفة وعادلة، ويتوجب علينا حينذاك، إلزام أولي بأن نحترم هذه المطالب وننفذها. لماذا؟ مبدأياً، كما أعتقد، بسبب التأثيرات السلبية الظاهرة في انتهاكها. إن الاختبار نتيجة منطقية، ذلك لأن الحقوق تضع قواعد مؤثرة لحكم المجتمع. إنها تبسط الأسباب بمنطق تجريبي، ذلك لأنها تصف الطرق الأكثر فعالية للحياة والعمل معاً، وهي عابرة للثقافات، لأننا بوصفنا بشر نقتسم مشاكل وحاجات مشتركة. وهي لذلك لها أساس نشوئي حيوي واجتماعي. ولكن مادامت الحضارة وعلى المدى الطويل هي بالفعل كونية، فإن حقوق الإنسان قد ظهرت بكونها الضمير الأخلاقي للإنسانية جمعاء. إن احترام مبدأ حقوق الإنسان له التأثير البعيد على الوعي الإنساني، وتلك المجتمعات (الديمقراطية إلى حد كبير) التي تعرفها قادرة على نحو أفضل في السماح للآداب الأخلاقية كي تعبر عن وتدرك القيم والتنوع أو التشابه الفردي والاجتماعي. إن حقوق الإنسان مركزية جداً ودعامة للمجتمعات المتحضرة حتى أنها تبقى في الذهن لذاتها ـ وليس لمجرد فائدتها للمصلحة العامة. إن الاعتبارات المنفعية أوالبراغماتية تبدو كبيرة في تبريرها، ولكنها أيضاً جديرة بالتقدير جوهريا.

من المعروف أن الآداب الأخلاقية قد تطورت خلال التفاعلات بين الأشخاص في مرحلة من التاريخ البشري وهي الآن قد اتسعت أكثر، وظهر

مستوى جديد من الوعي الأخلاقي. إن مبدأ حقوق الإنسان يمثل تفصيلاً واسعاً لما هو راهن في المبادئ الأساسية للأخلاق. إن الحقوق اليوم لا تطبق فقط على أولئك الذين يفهمون الأسس القضائية ضمن نظام قانوني معروف بل أيضاً كل البشرية في العالم أجمع. إن إدراك حقوق الإنسان العامة هو نتيجة إلى سلوكية أخلاقية تحاول اكتشاف مبادئ جديدة. ويتضمن هذا تحول للسلوكية المعتادة عبر البحث النقدي الأخلاقي وخلق أخلاق عالمية جديدة.

هل هنالك حقوق شاملة أساسية

أي عدد من الحقوق يميز بكونه ملزم بناء على أسس قانونية. وتعتمد هذه على تعاقدات معينة واتفاقات في مجتمع محدد. لدي حق قانوني في إنبات زهور في حديقتي ولكن ليس في حديقة جاري. لي الحق في أن أعلم طفلي لغة أجنبية، ولكن ليس من حق جاري أن يفرض «لغته» على طفلي. يمكنني أن أغسل وألمع سيارتي كما أريد إن لم تكن هنالك شحة بالماء. أعضاء من اتحاد عمالي من الذين يدفعون أجر الاشتراك لهم الامتيازات ضمن الاتحاد وهو الأمر الذي لا يحصل عليه غير الأعضاء. الطلاب المسجلين في الجامعة يمكنهم استخدام المكتبة العامة بينما لا يستطيع الآخرون ذلك. هذه الحقوق مشروطة اعتماداً على التزامات للفرد سابقة، وهي وظيفته لدوره في مؤسسات معينة كما هو معروف لدى القانون.

هل هنالك أية حقوق إنسان أساسية جداً حتى يتوجب احترامها في العالم حتى لو لم تكن قد سنت في القانون؟ إن وثيقة الحقوق البريطانية (١٢١٥) والإعلان الأمريكي للاستقلال (١٧٧٦) والإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان (١٧٨٩) وإعلان الأمم المتحدة الشامل لحقوق الإنسان (١٩٤٨) كل هذه حاولت في وقتها أن تعلن نوعاً من الحقوق الشاملة للناس جميعاً وللمناداة من أجل تشريعها قانونياً وأخلاقيا.

إن الإقرار بمثل هذه الحقوق هو عمل مستوى من التطور التاريخي ومرتبط بظروف اجتماعية ملموسة. البعض من هذه الحقوق يفترض من قبل الاستقرار السياسي واكتساب التعليم ومستوى ما من التطور الاقتصادي. ليس من الحري النظر إليها على نحو مجرد، فارغة أو بكونها حقوقاً شكلية. فلا داعي لطرح حق شامل إن كان من غير الممكن تطبيقه. وتبعاً إلى ذلك، فإن حقوق الإنسان الأساسية التي سوف أحددها لها صلة خاصة بالمجتمعات ما بعد الحداثوية التكنولوجية التي هي على مستوى عال من التطور. لذلك أن نقول أن علينا احترام حقوق الآخرين فيتضمن ذلك أننا يمكننا على الأقل أن نطرح مُثلاً سوف تسعى المجتمعات المتحضرة أن تعيش على وفقها أو تحاول ذلك. إن المجتمع الفقير قد لا يستطيع توفير الرعاية الصحية للجميع وقد لا يكون قادراً على ضمان وظيفة أو مستوى الحد الأدنى من المعيشة ـ رغم أنه قد يبحث في عمل ذلك في مرحلة ما من التحسن المتزايد للظرف البشري.

يمكن للمرء أن يثمن الاتجاه في الدعوة إلى أن تكون هذه الحقوق «شاملة» أو حتى «مطلقة» ـ ذلك لأنها «تكون» أساسية جدا ـ بينما هي في الواقع ليست أكثر من «عامة»، للأسباب نفسها التي أوردتها في المناقشات السابقة للمبادئ الأخلاقية وآداب السلوك. وربما تكون متنازعة أو قد تكون غير قابلة للتطبيق في كل الحالات، وقد تكون مهيمنة في أحوال أخرى. لذلك لها الأولوية بمعنى أنها في مرحلة ما من التاريخ البشري أكتشف أنها ملزمة، ولكن كيف وبأي معنى ذلك يعتمد على السياق. لابد لي أن أعترف أنني أفضل أن أدعوها ب «الشاملة» بسبب الفتنة الدرامية وبلاغة هذا المصطلح. من المؤكد إننا لا نرغب في استبعاد أي أحد ـ أن نقول أن هذا أو ذاك، أو قطاع آخر من الإنسانية مظلم وشرير أو هو في الأصل لا يستحق عناية مساوية أو اهتمام. إن حقوق الإنسان «لابد» أن تطبق على كل البشر. ولكن تظل الحقوق عامة و«أولية» لأنها ليست ملزمة على نحو مطلق في أي موقف، وقد لا تكون مفهومة عمليا. كيف وفيما إذا كانت تطبق يعتمد على توازنها مع الاعتبارات الأخرى: كالحاجات

والرغبات والقيم والمباهج والمبادئ والآداب العامة والحقائق والشروط والنتائج. ومع ذاك، يمكننا أن نسأل: ما هي الحقوق التي نعدها أساسية، من الناحية المثالية على الأقل، متفهمين ان ليس بمقدور أي مجتمع تطبيقها بحذافيرها؟ سوف أفهرس ما يمكن أن نعده أساسياً: عشر بنود من حقوق الإنسان الأساسية وواحد وأربعون من الحقوق الثانوية التي تدرج تحتها. وقد يرغب القارئ في أن يضمن حقوقاً أخرى، ولكن الحقوق التالية هي الأكثر إلحاحاً.

1 ـ الحق في الحياة

1. *الأمن والحماية لشخص الإنسان (الحرية من الخوف)*: من حق أي إنسان أن تكون حياته محمية وأن شخصه وبيته آمنان من العنف أو تهديدات العنف. لكل إنسان الحق في طلب مساعدة الشرطة ضد أولئك الذين يكونون خطراً على حياته أو شخصه. ويتضمن هذا الجرح الجسدي والتهديد بالموت، والرعب النفسي والإنهاك.

لا يتمكن الناس من السعي وراء بحث أهدافهم أو التعبير عن قيمهم، أو بحث السعادة ما لم تكن هناك تطمينات بتوفر الحماية. إن الأفراد وعائلاتهم وأصدقائهم وجيرانهم في البيت أو في العمل أو في أي مكان، يحتاجون إلى أن يكونوا أحرار من الخوف أو الخطر. لابد من تأسيس قواعد وتسن قوانين، ويتم اختيار موظفين للتأكد من إشاعة الأمن. وقد يتضمن هذا تأسيس قوة شرطة ونظام قضائي يتولى بوضوح مسؤولية حماية المواطنين لمنطقة معينة من الاعتداء أو الاغتصاب أو السطو وباقي أعمال العنف ويتولى اعتقال وإدانة أولئك الذين اقترفوا الجرائم ويشكلون خطراً على النظام العام.

2. *الدفاع من الاعتداء الخارجي*: إن الأفراد الذين في منطقة معينة يحتاجون إلى الحماية من عصابات التسليب أو القوى الغازية من القبائل الأخرى أو الدول

بوساطة تأسيس قوى أمنية أو جيوش للدفاع. من دون شروط الأمان لا يمكن لأحد أن يعيش مطمئناً وآمنا.

مبدأياً، من الأحرى إنهاء عقوبة الإعدام، عدا حالات استثنائية حين يكون هناك تهديد خطير لسلامة الجماعة. وحين يكون ذلك مسموحاً به فمن الأحرى أن لا يطبق على المعارضين السياسيين ولا يطبق على الناس دون عمر الثامنة عشر عاماً أو فوق السبعين ولا على النساء الحوامل. ومن حق المدان أن يستأنف الدعوة أو يطلب التسامح معه أو تخفيف العقوبة عليه. ويجب أن لا يطبق حكم الإعدام بينما يستأنف الحكم.

2 ـ الحق بالحرية الشخصية

الحق بالحرية الشخصية واسع جداً وأن على المجتمع الامتناع عن التحديد المبالغ للحرية الشخصية. لكل شخص الحق في التنقل؛ أن يشبع حاجاته الشخصية وقيمه وحاجاته؛ ليستمر في مسيرة حياته؛ أن تكون له الحرية في الفكر والوعي؛ أن يسمح له بحرية التعبير والنشر. كل فرد يجب أن يسمح له في أن يربي عائلته ويتآلف بحرية مع الآخرين. القيد الرئيسي هو أن عليه أن لا يؤذي الآخرين أو يمنعهم من ممارسة حقوقهم.

1. *حرية الحركة والإقامة:* كل شخص يلتزم بالقانون ولد في مكان ما له الحق في التنقل ضمنه أويغير إقامته. لابد أن يكون حراً في مغادرة بلده وأن يسافر عبر الحدود بأمان ويعود إلى بلده بأمان. هذا الحق قد يحدد فقط في الظروف الشديدة في المجتمع الديمقراطي مثل النظام العام والأمن والصحة أو الأمن الوطني إذا كان في خطر أو من أجل حماية حقوق وحريات الآخرين.

2. *التحرر من الأعمال الشاقة الإجبارية أو العبودية:* لا شخص معروض للبيع أو الشراء. لا أحد يحتجز ضد إرادته أو يجبر على العمل. وهذا لا ينطبق

على السجناء المحكومين قانوناً، إن الخدمات تطلق على أنها جزء من الواجبات العادية الأهلية، أو الخدمة العسكرية، على الرغم من أن الحق في الاعتراض وفقا لما يمليه الضمير يجب أن يحترم.

3. *حرية الفكر والوعي:* إن الأفراد لهم الحق غير القابل للجدل في تبني أي اعتقادات أو قيم يرغبون فيها من دونما استئصال لاعتقاداتهم أو الحاجة إلى المصادقة عليها، مادامت ممارسة تلك الاعتقادات لا تنتهك القانون. ينطبق هذا على المدى الكامل للأفكار الدينية والفلسفية والعلمية والسياسية والأخلاقية والجمالية.

4. *حرية الكلام والتعبير:* للأفراد حق التبشير والدفاع والنشر والإعلان وترجمة اعتقاداتهم وأفكارهم وقيمهم من خلال الأعمال الفنية الدرامية. إن هذا التعبير يجب أن لا يقنن أو يراقب أو يقمع. يجب أن تبذل الجهود للدفاع عن هذا الحق ضد كل المحاولات التي تسعى إلى اختزاله.

وهذا لا يمنحنا الحق في أن نطعن أو نشهر بالآخرين، لأنه قد يجرح أو يدمر سمعتهم أو حياتهم. على الرغم من أن الجانب المتضرر لا يمكنه أن يطلب مراقبة سابقة، فقد يطلب المقاضاة عن الضرر الذي أصابه فيما بعد. وحيث يكون الأفراد قد أسيئت سمعتهم ظلماً أو طعنوا من خلال مزاعم غير صحيحة ومهينة تظهر في بعض قنوات الاتصال، يكون من حق المظلومين الرد أو تصحيح التقارير الخاطئة. إن المبدأ لا يمنح الحق لمصوري الصور الفاضحة باستغلال الأطفال.

قد لا يطبق هذا الحق في زمن الحرب، حيث يكون من الواضح أن الخطر ماثل على أمن المجتمع الديمقراطي، على الرغم من أنه من الممكن أن يختصر في الحالات الاستثنائية بكونه الحل الأخير.

5. *الحرية السلوكية الأخلاقية:* لابد من السماح للأفراد في أن يعبروا ويشبعوا تنوعهم في القيم والأفكار الأخلاقية والقناعات، على الرغم من أن هذه القناعات قد تختلف عن التوجهات العامة أو الرسمية، مادامت لا تتدخل أو تضر بحقوق الآخرين في المجتمع. ينطبق هذا على التعددية في الأذواق والميول في النشاطات والملبس والسلوك والكلام. لابد من السماح للأفراد في اتباع رؤاهم في السعادة، أن يتبنوا أسلوب الحياة الذي يفضلونه ويختاروا المهن والوظائف بأنفسهم بالانسجام مع الواقع الاقتصادي.

6. *الخصوصية:* الحق في الخصوصية يقتضي الحق في الثقة، على سبيل المثال، ضمان أن المعلومات الشخصية للفرد لن تكشف إلا بموافقته أو بموافقتها. إن الحرية الأخلاقية الشخصية تعني التحكم بجسد الإنسان والميل الجنسي لديه. من حق البالغين التعبير عن ما يفضلونه من الناحية الجنسية ما لم يبحثوا في التورط بمشاركة غير مرغوب فيها. إن الحقوق الخاصة تنطبق على أنواع مختلفة من التعبير الجنسي، بضمن ذلك العادة السرية والبغاء والشذوذ الجنسي. حري بالدولة أن لا تمنع اللواط والبغاء أو تداول الصور الخليعة. وربما يكون لها الحق في أن تهتم بانتشار المرض والبحث في حماية رفاهية الأقلية.

وتتضمن الخصوصية الحرية في الإنجاب: ممارسة تحديد النسل والإجهاض واستعمال التلقيح الصناعي للمواشي، أو تبادل الأبوة.

والحقوق نفسها تمنح للرعاية الصحية المبنية على أساس الموافقة، كالموت الرحيم التطوعي والموت بكرامة والانتحار والحق في الالتحاق بالجمعيات التطوعية والملكية الشخصية. (راجع الفصل الثامن لقراءة المزيد من المناقشة حول الخصوصية).

3 ـ الحق في الرعاية الصحية

1. *المعالجة الطبية الدقيقة:* يتلازم مع الحق في الحياة الحق في الحصول

على رعاية طبية دقيقة وعلاج يتوافق مع الموارد الاقتصادية للمجتمع. وهذا يعني أن لا يحرم الفرد من رعاية بقائه حيا أو أي أنواع أخرى من العلاج إن كان لا يستطيع أن يدفع مقابل ذلك. إن الأنظمة الاجتماعية للتأمين والضمان الاجتماعي عليها أن تمكن الأفراد من أن يتجاوزوا محن المرض والحوادث.

2. *الموافقة المبلغ عنها:* إن نوعية الرعاية التي يتلقاها الفرد يجب أن تقوم على الموافقة الحرة للمريض. ويفترض هذا أن يكون الشخص ناضجاً وهو مؤهل بدنياً وعقلياً في تفهم الاختيارات وأنواع العلاج المقترحة. وهذا يعني أن الإنسان له الحق في أن يرفض التطبيب (ما لم يكن مصاباً بمرض معدياً جداً) فلا يعالج ضد إرادته.

3. *الموت الرحيم التطوعي:* البالغون الذين يعانون وهم في المرحلة الأخيرة من المرض من الأحرى أن يكون لهم الحق في رفض العلاج. ومن الأحرى أن يسمح لهم بالموت بكرامة، وفي بعض الحالات قد يتطلب العجالة بالوفاة إذا طالب المريض بذلك، ويضمن هذا الحق بالموت الرحيم الفعال أو الانتحار.

4 ـ التحرر من الحاجة

1. *الحاجات الاقتصادية الأساسية:* عندما يكون لدى المجتمع ثروة اقتصادية كافية، فلابد أن تتوفر الوسيلة في توفير الحد الأدنى من الحاجات الأساسية للأفراد الذين من دون تقصير منهم، غير قادرين على العمل أو توفير حاجاتهم بأنفسهم. يجب عدم السماح بأن يموت فرد من الجوع أو يموت بسبب فقدانه المأوى أو الملابس المناسبة أو العناية الطبية. إن مبدأ الخير، الذي يبنى على الإحسان، يشمل بهذه التدابير الأطفال، والمعاقين والشيوخ والمتضررين في المجتمع. لا الدولة ولا المجتمع بأكمله ملزمان بإشباع كل

رعبات الافراد جميعا. افضل مبدأ هو أن يكسب الأفراد قوتهم بأنفسهم كي يعيلوا أنفسهم وعائلاتهم.

2. *الحق في العمل:* على الرغم من أن هنالك في الغالب صعوبات في الدول الصناعية الحديثة في توفير الوظائف للجميع، لابد للناس، مبدأياً على الأقل، أن تكون لهم الفرصة كي يحصلوا على مورد رزق والقدرة على أن يعيلوا أنفسهم. كلّ فرد حري بأن يسمح له، كلما أمكن ذلك، ممارسة الحرية في الاختيار فيما يخص العمل. وحري أن تكون هناك شروط مفضلة في مكان العمل وساعات عمل وأجور معقولة. ولابد أن يكون التعويض مناسباً كي يوفر مستوى كافياً لمعيشة العامل وعائلته. وتبنى المكافأة على الفائدة كلما كان ذلك ممكناً. ويكون المبدأ كالتالي: من كل حسب قدرته إلى كل حسب حاجته وفائدته. أولئك الذين يسهمون أكثر من غيرهم قد ينالون مكافآت أعلى وفقاً لميزان الاختلاف، وعلى المجتمع أن يوزع البضائع والخدمات على أساس كل من الفائدة والحاجة. وغالباً ما يكون من الصعب تطبيق هذا المبدأ عملياً وهنالك ثغرات حقيقية تتم المحاولة بتصحيحها بالضريبة والأعمال الخيرية ورواتب التقاعد.

ولابد أن يكون هناك أجر واحد للأعمال المتساوية من دونما تمييز على أساس الجنس أو العرق أو الجذر الوطني أو أي تمييز آخر. بالنسبة لغير القادرين على العمل مؤقتاً، لابد من توفير تأمين للعاطلين أو الاحتفاظ لهم بفرصة للعمل.

3. *العناية بالشيخوخة:* الأفراد القادرون على العمل والمساهمة في المجتمع لابد من عدم إجبارهم على التقاعد. أولئك الذين يصلون إلى عمر التقاعد لابد من أن يحصلوا على نوع من الفوائد بهيأة تأمين الشيخوخة، والضمان

الاجتماعي، وخطط التقاعد كي يمكنهم الحصول على رعاية صحية جيدة ويؤمنوا حاجاتهم الاقتصادية الأساسية.

4. *الحق في الترفيه والاسترخاء:* لكل الأفراد الحق في أن ينالوا الراحة ولا يجبروا على العمل طوال الوقت. حتى العهد القديم يحظر على الناس العمل يوم السبت. وفي الوقت الحاضر لابد من وجود أيام عطل وإجازات مدفوعة الأجر وعدد محدد من ساعات العمل. على المجتمع أن يوفر الفرص لكل الناس ليسعوا إلى نشاطات ممتعة ويلعبوا ويسترخوا.

5 ـ الحقوق الاقتصادية

1. *الحق في الملكية الخاصة:* يجب أن يسمح للناس بأن يمتلكوا أملاكاً خاصة قانوناً. ربما يستخدمونها أو يستمتعوا بها ويكسبوا منها من خلال الانخراط بالتجارة وبيع وشراء البضائع. لا أحد يجرد من ممتلكاته بعشوائية أو من دون تعويض.

2. *الملكية العامة:* قد يصادر المجتمع الملكية لأسباب تعود للفائدة العامة أو لأسباب أمنية، ولكن ليس إلا بعد اتباع الإجراءات القانونية. فيمكن للمجتمع أو الدولة أن تسعى إلى القيام بنشاطات اقتصادية تعاونية. فقد تنظم أو ترتب أو تمتلك مشاريع، حيثما تعد مثل هذه النشاطات في سبيل المصلحة العامة، حين لا يكون القطاع الخاص قادراً على توفير المواد المطلوبة والخدمات على نحو كفء وحين تستطيع أن تقوم بذلك بديمقراطية.

3. *الحق في التنظيم:* من حق العاملين أن ينظموا في اتحادات ويقوموا بعقد صفقات جماعية مع أصحاب العمل. ولهم أن يرفضوا العمل وقد يضربون إن تكن ظروف عملهم غير مقنعة لهم. من الأحرى أن يستشار العمال حول الأمور المتعلقة بمصالحهم الحيوية وشروط الأمان في مكان عملهم.

4. *الحماية من الاحتيال:* من حق الأشخاص أن لا يتم خداعهم من الإعلانات المزيفة وغير النزيهة أو بيع وشراء السلع والخدمات الخادعة. لهم الحق في المقاضاة عن الأضرار التي تلحق بهم وتحميل الجماعات التي تقوم بالاحتيال المسؤولية قانونا. إن من واجب الدولة فرض التعاقدات القانونية التي أخلوا بها.

6 ـ الحرية الفكرية والثقافية

1. *البحث الحر:* لابد من كفالة الحق غير المقيد في البحث الفكري والفلسفي والعلمي. إن البحث التجريبي أساسي للتقدم في المعرفة ولا بد أن يكون مسموحاً به ما لم يكن متعلقاً بأناس لم يصرحوا بموافقتهم بشأن ذلك أو يكونوا في حالة خطر. كما يمكن استثناء التطبيق التكنولوجي الذي يكون خطراً عاماً. ليس من المفروض أن تكون هناك حاجة لمصادقات سياسية أو دينية أو اقتصادية تفرض على أولئك الذين يرغبون في البحث. ولا يجب أن تكون هناك رقابة على مطبوعاتهم، مهما كانت لا تخص العامة. والمبدأ نفسه ينطبق على الإبداع الفني والاكتشاف: فيجب أن يسمح للفنانين والكتاب والشعراء أن يعبروا عن أنفسهم من دون رقابة أو قمع.

2. *الحق في التعلم:* من حق كل أفراد المجتمع الحصول على فرصة أن يعلموا أنفسهم وأطفالهم من دون قيود مبنية على اعتبارات دينية أو أثنية أو طبقية. فابنة الشخص الفقير من المفترض أن يكون لها حق التعلم كما هو حال ابن الشخص الغني. وعلى الرغم من أن الوالدين يفترض أن يكون لهما قول في تعليم أطفالهما، فليس من حقهم حرمانهم أو غيرهم من الاطلاع على الأفكار أو القيم التي يعارضونها. ربما تعمل بعض التعديلات على المواد التي تحسب خليعة. إن الإنجازات التعليمية ربما تتأسس على الجدارة الفكرية والتميز وليس بإمكان كل فرد الدخول في أي مجال أو أية مهنة أو أية مؤسسة للتعليم العالي.

ومع ذاك، لابد أن يحصل الجميع على فرص متساوية لبحث أعلى الإمكانيات القادرين عليها والمنافسة على وفق شروط متساوية.

3. *الحق في الاغتناء الثقافي:* كل المؤسسات التي تسهم في الاغتناء الثقافي من المفترض أن تتوفر لكل الأفراد الذين بإمكانهم الاستفادة منها. ويشير هذا إلى المكتبات العامة والمتاحف وساحات الوقوف العامة وباقي وسائل الاستجمام ويشير كذلك إلى الفنون والمعاهد التي تطور العلوم.

7 ـ المساواة السلوكية الأخلاقية

كل الناس متساوون في الاحترام والحقوق. وكل شخص بكونه كائن عاقل وأخلاقي وقادر على الاختيار مؤهل للاعتبارات نفسها مثله مثل أي واحد من الناس. وهذا لا يعني أنهم لا يمكن أن يعاملوا على نحو مختلف في مؤهلاتهم المتنوعة في المجتمع، ولن تكون أدوارهم وواجباتهم أو مكافآتهم متشابهة.

ويمكن تحديد المساواة السلوكية الأخلاقية:

1. تمنح للأشخاص *فرص متساوية* لبحث مواهبهم المتفردة حسب الجدارة؛

2. سيكون لكل واحد *مدخل مساو لغيره* نحو الخدمات العامة؛

3. أن لا يكون ثمة تمييز على أساس العرق أو اللون أو الميل الجنسي أو الدين أو الوطنية أو اللغة أو العقيدة أو المهاد الاجتماعي أو الأصل أو الملكية الخاصة.

8 ـ المساواة في الحماية القانونية

1. *الحق بمحاكمة عادلة:* لكل شخص الحق في أن ينال محاكمة عادلة

وعلنية تقوم بها محكمة مستقلة وغير منحازة أسست قانوناً لهذا الغرض، ولابد من افتراضه برئ حتى تثبت إدانته.

ولابد من إعلام المتهم بالتفصيل عن طبيعة التهم الموجهة إليه. ويجب أن يسمح له بالدفاع عن نفسه شخصياً، ويساعده محام يختاره بنفسه، أو يتم إحضار محام وتدفع له الحكومة الأجر.

لابد أن يسمح له في استنطاق الشهود وإحضار شهوده الخاصين من أجل تثبيت الحقائق.

لا يمكن أن يجبر على أن يدلي بشهادة ضد نفسه.

لا يمكن أن يكره على الاعتراف أو يترافع بأنه مذنب.

من حقه استئناف حكم المحلفين إلى محكمة عليا.

لو تمت تبرئته من حكم غير مستأنف، لا يمكن إخضاعه لمحاكمة جديدة على التهمة نفسها.

2. *الحق بحماية قضائية:* لكل شخص الحق في اللجوء إلى قضاء كفء للحماية من أفعال تنتهك حقوقه الأساسية. إن طلبه لمعالجات لا يمكن أن يستخدم ضده.

3. *الحق بمعاملة إنسانية:* الأشخاص الذين يحتجزون من قبل الدولة لن يخضعوا لعقوبات قاسية ولا إنسانية ومذلة. فلن يعذبوا أو يجردوا من الملابس اللائقة والعناية الطبية والطعام والمأوى.

الأشخاص المتهمون الذين ينتظرون المحاكمة سوف يعزلون عن المجرمين المدانين ولهم الحق في جلسة استماع قضائية على أساس إطلاق سراح بكفالة معقولة.

وإن أدين وسجن، فإن معاملة السجين ستكون إنسانية، وليست انتقامية، وأن

الغرض الأساس من سجنه هو حماية المجتمع لو ثبت أنه خطر، ويعاد تأهيله لعودة دائمة للمجتمع إن لم تكن جريمته شنيعة.

4. حكم *القانون:* سوف يشرع قانون المجتمع من قبل ممثلي الشعب وينفذ من قبل موظفين مختارين، ويفسر ويطبق حسب الإجراءات القانونية. إن الأحكام والتنظيمات لن تكون مبنية على أمر عشوائي أو نزوة. ستكون هناك فرص كافية للإصلاح من قبل الناس وتصحيحات للأحكام الظالمة. سيكون حكم القانون مطبقاً على كل من الحاكم والمحكوم من دون تمييز.

9 ـ الحق بالمشاركة الديمقراطية في الحكومة

1. *الحق في التصويت:* ستبنى قوانين المجتمع على الموافقة الحرة لأولئك المحكومين. كل مواطن بالغ حري بأن يملك الحق في المشاركة في نشاطات الدولة التي يعيش فيها.

لابد من وجود انتخابات حرة ونزيهة تقرر من سيكون ممثلو الشعب، للمصادقة أو رفض السياسات الرئيسية المقترحة أو التي سنت من قبل.

سيكون التصويت شاملاً ومتساوياً، لكل البالغين من دون أي استبعاد. وسيكون الاقتراع سريا.

2. *الحق الشرعي بالمعارضة:* سيكون للأفراد من ضمن المجتمع الحق في معارضة سياسات الحكومة والاختلاف مع رئيس الموظفين المسؤولين عن سن وتنفيذ هذه السياسات. يمكنهم معارضة هذه السياسات بحرية وبانفتاح بوساطة الكلام والمطبوعات والطلبات والتجمع والتصويت.

يمكنهم أن ينتظموا مع الآخرين ليعلنوا عن آرائهم ويسعون إلى تغيير الرأي العام. وسيكونون بمنأى عن الانتقام أو الاضطهاد بسبب معارضتهم للحكومة.

3. *الحريات المدنية:* إن حريات المواطنين يجب أن تكون مكفولة قانونا، بضمن ذلك الأقليات المختلفة. ويتضمن هذا حرية الفكر والوعي والكلام والتعبير والتجمع وباقي الحقوق والحريات التي ذكرت هنا.

4. *الحق في التجمع وتكوين الجمعيات:* يمكن للأفراد في مجتمع ما أن يجتمعوا بحرية مع الآخرين باختيارهم لتكوين نواد أو مراكز صداقة أو أحزاب سياسية ـ أو فرق أو مدارس أو كنائس أو منظمات خيرية وما شابه لبحث أي غرض يمكن أن يشتركوا فيه مع الآخرين. قد يجتمعون بسلام بأي طريقة يقدرون أنها مفيدة ماداموا لا يلجأون إلى العنف أو الإخلال بالأمن العام.

5. *الانفصال عن الكنيسة والدولة:* لن تفرض الدولة أو تؤسس مبدأً دينياً أو أيديولوجياً أحادياً بكونها الكنيسة الرسمية أو كون ذلك عقيدة الدولة. إن الأفراد أحرار في أن يؤمنوا أو لا يؤمنون، وأن يتبنوا أي نوع من الاعتقاد أو عدم الاعتقاد كما يرغبون. ستكون الدولة محايدة ولن تفضل أو لا تفضل الاعتقاد الديني من عدمه، بل ستدافع عن الحرية في الفكر والوعي للجميع.

10 ـ حقوق الزواج والعائلة والأطفال

1. *الحق في الزواج:* سيكون من حق البالغين أن يتعايشوا كالأزواج أو يتزوجوا إذا شاءوا. لابد للزواج أن يقوم على اتفاق حر للطرفين. ومن الممكن تثبيت الزواج قانوناً أو جعله وفق القانون العام. لن تكون هناك حواجز على الزواج تعتمد على أساس العرق أو الدين أو الأثنية أو ما شابه ذلك. وفي العادة يكون الزواج التقاء إنسانين مختلفي الجنس، رجل وامرأة، ولكنه قد يحدث بحرية عند البالغين بين المثليين.

2. *الحق في الطلاق:* لابد من أن يكون للمتزوجين من الأفراد الحق في

فك روابط الزواج في الوقت الذي يريانه مناسباً وينفصلان. وإن يكن هناك عقد، فسوف يتم الترتيب لتوزيع عادل للملكية المشتركة. وإن كان هناك أطفال، فيجب أن تثبت الرعاية المنصفة والزيارة والدعم لهم.

3. *الحق في حمل الأطفال:* من حق الأفراد أن ينجبوا مادامت لديهم الكفاءة ولديهم القدرة على الرعاية والدعم لذريتهم.

4. *حقوق الأمومة والأبوة:* الأمهات الحوامل يخضعن لرعاية خاصة وحماية خلال فترة الحمل وخلال فترة معقولة بعد ولادة كل طفل. وكذا الحال مع الآباء الذين من المتوقع أن يولد لهم أطفال، فهم يخضعون أيضاً لنوع من الاهتمام خلال الفترة نفسها.

5. *حقوق الأبوة:* من حق الوالدين أن يعتنوا وينشئوا ويعلموا أطفالهم كما يرون ذلك مناسبا، مادام ذلك لا يؤذيهم أو يسئ إليهم.

6. *حقوق الطفل:* للأطفال حقوق لا يسمح للآباء انتهاكها؛ وإن فعلوا ذلك، فقد يتدخل المجتمع لحمايتهم. يجب أن لا تساء معاملة الآباء للأطفال جسدياً أو جنسياً، أو يحرمونهم من الغذاء الصحي أو الرعاية الصحية أو الثياب أو المسكن.

يجب أن لا يحرم الأطفال من حق التعلم. على الرغم من أن الوالدين مسؤولان عن تعليم أبناؤهما، فلا يمكنهما حرمانهم من التعليم أو يرفضون السماح لهم بالاغتناء الثقافي، الحق في القراءة والاكتشاف والمعرفة، وتقدير وجهات نظر الآخرين، أو توسيع آفاقهم في الفهم.

حقوق الحيوان

على الرغم من أن هذا الفصل مخصص في الأصل لحقوق الإنسان، فعلينا أن لا نتجاوز حقوق الكائنات الأخرى.

هل للحيوانات حقوق؟ إن كان الرأي بأن لها الحقوق، يتوجب علينا الإدراك بأن الكائنات الحساسة الأخرى لها قيمة، ويجب أن لا يتم التجاوز عليها، كما يجب أن لا نجعلها تعاني من دون ضرورة لذلك أو نستخدمها حسب المزاج، كما يحدث في اللهو العبثي في قتل الحيتان وعجول البحر. هذا مفهوم إجرائي: إنه يتضمن تطور الإحساس الداعي للواجب من قبل البشر (الذين يعملون بكونهم أمناء على الحيوانات) والذين يؤمنون بأن هنالك حدوداً لما حري به أن يعمل بخصوص الكائنات الحساسة. لو فرضنا أن الجنس البشري قد صادف أنواعاً أخرى من الحياة الفكرية في العالم، فإن سؤال الحقوق سوف يحدث في عملية مشابهة، وسنواجههم وجها لوجه. من الأحرى بنا أن لا نسحق العنكبوت غير المؤذي أو نجرح عقاباً، وإلا سنفقد الحق في المطالبة بحماية جيدة للبشر ضد تهديدات أمننا ما إن نواجه المتطرفين. يمكننا أن نقتنع اعتماداً على أسس أخلاقية بأننا يجب أن نحيا ونسمح بالحياة، ولكن بعيداً عن السيناريو المحتمل للخيال العلمي، يمكن للإنسان أن يؤكد على أسس متينة أن هنالك حقوقاً للحيوانات، وأن حيواناتنا المدللة وباقي الأنواع التي نقابلها في البرية لابد من أن تنال رعاية الإنسان.

تمنح العقلية الدينية الإنسان الهيمنة على الأرض وكل الأنواع، وأن يستخدمها كما يريد لأغراضه الخاصة. أعتقد أن لابد من وجود نوع من الحدود لهذا التوجه الافتراسي. على الرغم من أن الحيوانات ليست كائنات أخلاقية بمعنى التصرف العقلاني أو أنها واعية لواجباتها الأخلاقية، ولكن رغم كل ذلك، لدينا مسؤوليات تجاهها. فلها نوع من الكرامة وهي تستحق نوعاً من الاحترام، رغم أن ذلك يطبق وفق شروط حكيمة وعقلانية.

لقد أدرك الوعي الأخلاقي لدى الإنسان علاقتنا بالحيوانات التي نعيش معها، تلك التي نتآلف معها لتكون حيواناتنا المدللة أو التي تخدمنا في العمل، وتلك التي نصطادها أو نحلبها أو نربيها لأغراض الطعام.

على هذا الأساس، هنالك واجبات أساسية معينة تحتاج إلى التعريف: علينا أن لا نسيء معاملة الحيوانات أو نعرضها للجوع أو الضرب أو التعذيب. علينا أن لا نعرضها للموت بقسوة أو بطرق غير عادية أو نسمح بتعذيبها من دون ضرورة. ربما يتحتم علينا المحافظة على الحيوانات المهددة بالانقراض. علينا أن لا نفسد البيئة إلى درجة تمنع الحيوانات من الحياة والنمو. يمكننا الاستناد إلى أسس أخلاقية بأن الصيد عمل لا أخلاقي لو كان لمجرد متعة الرياضيين. ربما يكون مبرراً إذا كان لغرض حماية الناس من الحيوانات المفترسة أو نقلل من القطعان من أجل صالحها. قضية يمكن أيضاً أن تحدد أو تمنع هي صيد الحيوانات من أجل العاج أو الجلد أو الفراء خصوصاً عندما تكون المواد البديلة متوفرة.

ويذهب النباتيون بعيداً ليعارضوا أكل اللحم والسمك. نحن نحتاج إلى اتخاذ مثل هذا الموقف الجذري لأننا، بكوننا نأكل كل شيء، ولأن البشر هم تاريخياً صيادين وملتقطين، وأن إنتاج اللحم أصبح جزءاً مكملاً للاقتصاد لدرجة أن توفير الطعام بكميات كبيرة ربما يكون في خطر.

المعارضون لتشريح الأحياء يحرمون التجريب العلمي على الحيوانات، بيد أن هذا موقف متطرف، لأن مثل هذا البحث قد يكون حيوياً وفق الأسس المنفعية من أجل صحة الكائن البشري. يجب أن تبذل كل الجهود، كلما كان ذلك ممكناً على أية حال، لاجتناب المعاناة التي لا مبرر لها حين تتم التجارب على الحيوانات.

حقوق المواطنين في العالم أجمع

الأصناف السابقة من الحقوق هي «أخلاقية»، ولكنها بحاجة إلى أن تمنح

تعريفاً شرعياً من أجل أن تكون ملزمة في الحركة الإنسانية. معظم هذه الحقوق قد نشأت من بنى ثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية كانت قد سادت. على العكس من الآداب الأخلاقية العامة، فهي لم تكن معروفة جيداً في كل المجتمعات، وقد وصلت إلى هذه المجتمعات بصعوبة. إنها مبنية على أساس البصيرة النافذة والتعاطف.

إن العالم اليوم مقسم إلى أمم ـ دول، كل واحدة لديها قضاء ضمن منطقة محددة. لسوء الطالع، في ظل الشروط الراهنة يمكن لحقوق الإنسان أن تحمى فقط من قبل سيادة الدولة التي يعيشون فيها. في بعض الأماكن تنتهك هذه الحقوق من الدولة. إن الجهود لإنشاء مجموعة فعالة لقانون عالمي ونظام فدرالي يدافع عن حقوق الإنسان بعيدة عن الاكتمال. كانت عصبة الأمم، والأمم المتحدة الآن، تقوم على اتحاد لدول ذات سيادة؛ ويمكن للحقوق أن تحمى فقط ضمن إطار الحدود المعروفة. ليس سوى البعض من الدول في العالم ديمقراطية وتسمح بالحرية، أو تسعى لحماية حقوق الإنسان. لقد وصلنا اليوم إلى نقطة حيث يتخذ المجتمع العالمي المثالي دلالة خاصة وقوية. إن هذا المجتمع يمكن وصفه بكونه مجتمعاً أخلاقياً، لأنه مبني على الإدراك بأن هنالك حقوق إنسان عامة تطبق على كل الأفراد، أينما حلوا.

لقد شهد الإنسان في القرن العشرين أبشع الانتهاكات لحقوقه. في الفترة النازية وضع العنصريون مبادئ عن التفوق والتدني العرقيان، ومارسوا التطهير العرقي على نحو واسع. لقد انتهكت الفاشية أغلب أوليات الآداب الأخلاقية. وكذلك فقد انتهكت الأنظمة الشيوعية الشمولية، خصوصاً في فترة ستالين، حقوق الإنسان. لم يجلب اندحار النظام القيصري الاحترام للحريات المدنية، ولا المحاكمات العادلة أو المعاملة الإنسانية أو المشاركة الديمقراطية من قبل المواطنين السوفيت. لقد تمت التضحية بالملايين من الناس في الذاكرة الحديثة في مراجل المثالية الضالة والكراهية. إن حروب الرعب والأعمال الشائنة قد

شنت ضد السكان الذين لا حول لهم ولا قوة والضحايا الأبرياء، جميعهم من أجل إنجاز الأهداف الأيديولوجية. وللأسف لاتزال الأنظمة القمعية والاستبدادية موجودة متنكرة للحقوق الأساسية لمواطنيها. فضلاً عن ذلك، تكاد تكون الأمم كلها قد التجأت في وقت ما إلى البربرية ـ على مواطنيها أو الشعوب الأجنبية ـ من أجل أن توسع سيطرتها واستغلالها. الديمقراطيات الأوربية اليوم بضمنها بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا كانت قد حافظت على إمبراطوريات إمبريالية في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين واستغلوا شعوب البلدان التي استعمروها بقسوة. وانشغلت أوربا في حروب بين دولها. في الحرب العالمية الأولى تمت التضحية بالشباب الأوربي في قتل لا معنى له. ولم تكن الولايات المتحدة، بلاد الحرية، بمنأى عن ذلك لأنها أجازت العبودية حتى منتصف القرن التاسع عشر، وقد انشغلت بحروب أساءت لأحاسيس الشعب المتحضر.

ولكن لا يمكن لإنسان أن يتقبل بسذاجة مزاعم الذين يؤكدون أن حروب القمع وانتهاك حقوق الإنسان جاءت فقط على يد الأنظمة الرأسمالية والإمبريالية والاستعمارية. وسنرى أن ذلك غير دقيق لو نظرنا إلى ما يدعى بالثورة الثقافية في الصين والمذابح الجماعية الكمبودية والرعب الستاليني والإصرار على الانتهاك لحقوق الإنسان الديمقراطية في الكثير من الدول الشيوعية. وكذا الحال، فليست المسألة أن الاستبداديات العلمانية وحدها تنتهك الحقوق أو تخلق المعتقلات. فبإسم الرب (ولكن بحثاً عن الذهب والمنافع) دمر الطغاة عشر المجتمع في الماضي: ما قام به المستعمرون الأسبان والبرتغاليون في أمريكا اللاتينية وما قام به الاستغلاليون المسيحيون في أفريقيا، ومناصروا العنصرية في جنوب أفريقيا، أو ما قام به متعهدو المؤن من رعب في البلاد الإسلامية.

للأسف الشديد، لا تزال الانتهاكات لحقوق الإنسان منتشرة. والشيء المهم

في هذه المرحلة من التاريخ البشري هو الإدراك أن مثل هذه الحقوق هي متجاوزة للبلدان وأن الناس، أينما عاشوا، لهم الحق في اللجوء إلى الوعي البشري عبر وما بعد الحدود الدولية.

كانت هنالك في القرن العشرين حروب من أجل الحرية وتقرير المصير الوطني، التي كانت بمعنى ما تقدمية، لأنها حررت الأقليات الأثنية من سيطرة الآخرين. وقد ناقشنا في هذا الفصل حقوق الإنسان الفردية، ولكن هنالك أيضاً شيء مثل حق تقرير المصير لشعوب الأقليات. كانت الأقليات في الماضي مقموعة، كما حصل في المذبحة المرعبة التي قام بها الأتراك ضد الشعب الأرمني خلال الحرب العالمية الأولى، أو التعامل البريطاني للآيرلنديين. ويستمر الصراع بين الأقليات الأثنية حتى اليوم، على الرغم من أن ذلك يجري بنسبة أقل: في بلجيكا بين الذين يتكلمون الفرنسية والذين يتكلمون لغة الوالون، وفي كويبك بين السكان الذين يتحدثون الفرنسية والذين يتحدثون الإنكليزية، وفي آيرلندة الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت، وفي جنوب شرق آسيا بين الكمبوديين والفيتناميين، وفي الشرق الأوسط بين السنة والشيعة، وفي أفريقيا بين جماعات مختلفة من القبائل. لذلك فإن الصراع يستمر بين الجماعات العرقية والدينية والوطنية واللسانية حتى الاحتراق والتقيح.

هل يمكننا أن نتجاوز هذه الأحقاد الانشطارية ونتغلب على الولاءات الشوفينية التي قسمت البشر؟ ألم يصل البشر إلى مرحلة جديدة من التاريخ؟ على الرغم من أننا نحتاج إلى أن نقدر الحق في التنوع الثقافي والتعددية، أليس علينا أن نذهب إلى ما بعد الأثنية الضيقة والقومية الشوفينية؟ أليست لدينا التزامات أخلاقية عالية وأكثر ثباتاً للمجتمع العالمي؟ إذا أردنا أن نحافظ على حقوق الإنسان ونساندها، ألا يتوجب علينا في الأخير أن ندرك السياق الكوني الذي وضعت فيه حقوق الإنسان اليوم؟

[8]

الخصوصية

العام مقابل الخاص

إن الحق في الخصوصية متجذر عميقاً في التراث الديمقراطي الحر، وهو لذلك متأصل في المفهوم الكامل لحقوق الإنسان والأخلاقيات الإنسانية وهو من هنا يستحق معالجة طويلة وواسعة. ينبني هذا الحق على التمييز بين الميادين الخاصة والعامة في السلوك. والفكرة المركزية هنا هي أن المجتمع الديمقراطي عليه أن يسمح بحرية اختيار شخصية للفرد فيما يتعلق بحياته.

وقد رفض الاستبداديون هذا المبدأ بشدة. وقد هوجم أيضاً من قبل رجال الدين المحافظين، الذين يؤمنون أن الرب قد أوصى بفضائل معينة ومن الخطيئة تجاوزها، وأن الدولة أو المجتمع له الحق في فرض مجموعة من المعايير الأخلاقية ويعاقب الأفراد الذين ينتهكونها. بيد أن ليس كل رجال الدين يرفضون مبدأ الحق في الخصوصية. فعلى سبيل المثال، يحترم البروتستانتيون الليبراليون والكاثوليك واليهود الحق في الحرية الشخصية. وأن الكثير من المحافظين يشتركون مع الداعين إلى الحرية في الالتزام الأصيل بالحرية الفردية ـ على الرغم من أن بعض المحافظين متناقضين، لأنهم قد يعارضون الاعتماد في ذلك على الحكومة لكنهم في الوقت نفسه يسمحون لمؤسسات اجتماعية أخرى، مثل الكنيسة، لفرض مفهوم «النظام الأخلاقي» على المجتمع بكامله.

هنالك بعض الفوضى حول مدى الحرية الشخصية، ومن هنا فإن المعركة مستمرة بين الليبراليين والمحافظين حول تحديدها. من الناحية العملية كل شخص يؤمن أن الفرد ليس له الحق في أن يجرح أو يؤذي الآخرين، وهو معرض للحساب من المجتمع إن فعل ذلك. لا يمكن للإنسان أن يقتل أو يشوه أو يغتصب أو يسلب ويفلت من العقاب. من حق المجتمع ـ ومن واجبه بالتأكيد ـ إنشاء نظام للقانون يحمي الأفراد الذين يعيشون ضمن حدوده من الأذى والتشويه. ولكن في الكثير من المجتمعات، فإن القوانين نفسها التي تستخدم لحماية النظام العام قد تكون قمعية بالنسبة للحرية الشخصية.

من المحتم أن قوانين المجتمع لها هدف أخلاقي هو: حماية أعضاء المجتمع من الأذى، وتثبيت نسق للقانون والنظام كي يعم السلام، وذلك لتوفير شروط متكاملة كي يستطيع الناس متابعة أغراضهم المختلفة، من أجل تأمين رفاهية عامة والإكثار من فرص السعادة. إن التنظيم يدير السلسلة الكاملة، من حماية الشرطة والدفاع الوطني إلى الانتعاش الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتعليمي. من المؤكد أن هنالك أو حري أن توجد حدود لما يمكن أن يسعى المجتمع إلى السيطرة عليه بالتشريع القانوني. المجتمع الاستبدادي لا يترك لمواطنيه إلا المجال القليل في حرية الاختيار؛ أما المجتمع الديمقراطي، على العكس من ذلك، يرغب في السماح للفردية والمبادرة والتنوع والتفرد في الازدهار.

غالباً ما يطرح السؤال التالي: هل ينبغي للمجتمع أن يشرع السلوك الأخلاقي؟ والجواب أن هذا هو ما يحصل طوال الوقت. إن نمنع جريمة القتل أو السطو هو أن نعبر عن اشمئزازنا من أنواع معينة من السلوك غير السوي. تنفذ عقوبة أولئك الذين يقترفون جريمة الاحتيال أو عمل آليات مدنية في فرض العقود بالقوة لغرض الاطمئنان بأن معايير المجتمع بشأن الآداب الأخلاقية تنال الدعم. أن العامة من الناس ملزمين بتشريع قانون يحمي الجميع ويضمن الخير العام. وسوف يشرع المجتمع على أفضل وجه قوانينه بوسائل ديمقراطية، بعد عملية

مدروسة بعناية، وسوف يبطل تلك التي يعدها ضارة أو غير حكيمة. إن القوانين في الديمقراطية تستند كلياً إلى الموافقة الحرة التي يقررها أغلبية أفراد الشعب.

هل هنالك حدود أخلاقية يجب أن توضع في تشريع عام؟ هل هنالك مساحات في الديمقراطية لا حق فيها للعامة أن يتدخلوا؟ يشير أولئك الذين يؤكدون على أن الدولة يجب أن لا تشرع للأخلاق إلى أخلاقية خاصة؛ وهم أيضاً يعارضون الرأي العام الذي لا يحترم أساليب الخصوصية في الحياة ويبحثون في تنظيمها أو كبحها. كنا قد أدرجنا قائمة لحقوق الإنسان الأساسية التي يجب حمايتها وتنفيذها من قبل المجتمعات الديمقراطية المتحضرة. ومن بينها تلك الحقوق التي تتعلق بالحياة الشخصية للإنسان. وعليه فنحن نعرف أن هنالك ميداناً للخصوصية يجب أن يجري اجتياحه.

ما هو هذا الميدان؟ هل هنالك خط لتعيين الخطوط يمكن رسمه على أسس سابقة بين العام والخاص؟ هل هنالك معيار بسيط لتحديد سلطة ما هو مسموح به وما هو غير مسموح به؟ يوفر مبدأ جون ستيوارت مل الذي يرى أن الأفراد من الأحرى أن يسمح لهم بأن يفعلوا ما يشاءون ماداموا لا يؤذون الآخرين نوعاً من المساعدة، ولكنه عام جداً ولا يمكن أن يستخدم بكونه مبدأ مطلقا. وفضلاً عن ذلك، أن مصطلح «الأذى» غامض، ذلك لأن أي عدد من الأفعال الخاصة قد يقدر بأنه «مؤذ» للجماعة، ومن هنا يخضع للمقاضاة. فيصر الناس على أن الدعارة والتعري واللواط وعدد آخر من الأفعال «تؤذي» النظام الاجتماعي ولابد من تحريمها قانونا. وفي بعض الأحيان يبدو فعلياً أن أي شيء يقوم به الشخص له بعض الأثر على الآخرين. لو أن أحداً احتسى الكحول بإفراط سوف يؤذي عائلته، وأولئك الذين في العمل، أو ربما شخص ماض في الطريق. لو أنه قام بالتدخين، من المحتمل أن يصاب بالسرطان، وذلك ما سيخلق التوتر في الخدمات الصحية العامة[1].

---

(1) John Stuart Mill, *On liberty.*

اعتقد مل إن من حق الفرد أن «يؤذي» نفسه إن رغب في ذلك، وليس من حق المجتمع أن يمنعه إن كان سلوكه نابع من اختياره الحر. ولكن هنالك آخرون يرون أن خطاب مل العام واسع جداً إلى درجة أن لابد من وضع استثناءات له. وقد حد مل نفسه من مبدأه، ذلك لأن الفرد ليس من حقه أن يبيع نفسه للعبودية. هل من الأحرى تطبيق مبدأ مل على المضطربين نفسياً أو من يريد أن يقترف الانتحار؟ هل ثمة استثناءات؟ إن يكن الأمر كذلك فإن ميدان الخصوصية يمكن أن يتضاءل ولا يبقى منه شيء من الناحية الفعلية.

يعارض الفوضوي كل القوانين التي يعدها استبدادية؛ إنه يرغب في السماح للأفراد بأن يفعلوا ما يشاؤون. إن الحكومات المتسلطة بالنسبة للمؤمن بالحرية هي المصدر الرئيسي للعنف ضد الأفراد، ومن هنا تأتي الحاجة الضرورية إلى حماية الأفراد من أبوية وعشوائية الحكومة. يقول المؤمن بالحرية أننا ينبغي أن لا نخطأ بشأن الخصوصية، ونسمح بحرية فعلية لا حدود لها، ولا نخطأ بشأن الحكومة المستبدة. وهو فضلاً عن ذلك يعتقد أن الأفراد لو تحرروا من قيد الحكومة سيكونون عطوفين وعادلين ومخلصين ونزيهين. تبدو وجهة النظر هذه يوتوبية. إن التخلي عن نظام القانون والشرطة سيكون مخاطرة شديدة العواقب بالنسبة للنظام العام. وأن الاستخدام للجيوش الخاصة ووكالات الحماية المبنية على عقود بدل السيادة المركزية (كما يقترح روبرت نوزيك[١]) يمكن أن يتدنى إلى حرب عصابات ـ مشابهة للوضع المزري الذي تطور في لبنان عندما كانت الحكومة المركزية ضعيفة جداً كي تفرض القانون فاشتعلت حرب أهلية دموية. على الرغم من أن الإنسان يحتاج إلى نظام قانوني للتأكد من الصالح العام، فمما لا شك فيه أن توجد هنالك حدود توضع على ما يمكن أن يخضع للتنظيم.

---

(1) Robert Nozick, *State, Anarchy, Government* (Cambridge: Harvard University Press, 1974).

نطاق احترام الخصوصية

دعونا نبدأ من جديد عبر الإقرار بأن مبدأ الخصوصية، مثل مبدأ حقوق الإنسان، يمكن أن نلجأ إليه على نحو ممكن تبريره من أجل تحديد السلطة الاجتماعية وسلطة الدولة. إن مبدأ الخصوصية للأفراد هو مبدأ أساسي وقاعدة عامة؛ وأن اللجوء إليه يمكننا جزئياً من تعريف المجال المناسب للتنظيم الاجتماعي. إنه، على أية حال، قاعدة غير مرنة؛ وقد تكون حدود التطبيق له غامضة أحياناً ومفتوحة للتحدي وإعادة التعريف. إن كيفية تطبيق مبدأ الخصوصية يعتمد على البحث النقدي الأخلاقي ضمن موقف معين. نحتاج إلى آداب أخلاقية متوازنة، قيم وحقوق وسعادات ومسؤوليات في تعيين استخدامها المناسب. ويمكن تطبيق المبدأ في ضوء ما يمكن أن يتوصل إليه البحث النقدي على أنه معقول.

دعونا نضع تعريفاً عملياً للمبدأ الأخلاقي قابلاً لتغير:

«على المجتمع أن يحترم حق الفرد في التحكم بحياته الشخصية. والمجالات الخاصة التي على المجتمع أن لا يتدخل فيها من دون سبب وجيه هي جسم الشخص والممتلكات والعقائد والقيم والأفعال والصداقات مادامت هذه تخص المجال الخاص في الاهتمام والسلوك».

وهنالك عموماً محددات معينة. من الواضح أن هذه القاعدة تشير إلى البالغين وليس إلى الأطفال، على الرغم من أن الآباء وآخرين غيرهم يريدون احترام الكرامة الشخصية للأطفال والمراهقين ويحاولون إنماء نوع من البلوغ والاستقلالية لديهم. ومن الواضح أيضاً أن القاعدة تنطبق على السلوك «الإرادي»، أي السلوك الذي يتأتى من الاختيارات القصدية، وليس الأفعال التي تأتي عبر الضغط والإكراه. فضلاً عن ذلك، إنه ينطبق فقط على أولئك الأفراد المبنية قراراتهم على درجة معينة من المعرفة والفهم وليس على العقلية

الفاسدة. إن معنى الكفاءة الفكرية في صنع القرار سيتوضح لاحقاً في هذا الفصل فيما يتعلق بالأسئلة حول الأخلاقيات الطبية، حيث من الممكن أن تظهر الكفاءة الفاسدة. هنا يتضمن معيار الاختيار القدرة على «الاتفاق المعلوم».

رغم أن المبدأ ينطبق أولاً وقبل أي أحد على الفرد، فهو يسمح أيضاً لإثنين أو أكثر من البالغين للدخول في علاقة متوافقة من أجل إشباع اهتمامات وحاجات مشتركة. وهذا يعني أنه ينطبق على علاقات الزواج والعائلات (حيث تكون الإساءة للأطفال مسألة غير واردة) والأصدقاء والعشاق والزملاء. ولابد أن يكون من الواضح أيضاً أن السلوك المتفق عليه الذي له بعد عام وصريح، كجرح الأفراد الآخرين وانتهاك النظام العام وإقلاق راحة الآخرين يخضع للنظام.

إن المبدأ يتأسس على الإدراك بأن كل إنسان هو «شخص له سلوك أخلاقي» وذلك في حد ذاته ضمن الحرية في مجالها الخاص. وربما ليس من الضروري أن يوافق الآخرون على هذه الاعتقادات، والقيم والأفعال، ولكن يمكنهم أن يتسامحوا معه في حقه في التعبير عنها، مادام لا ينتهك خصوصيات الآخرين في المجال العام.

تخطيط الحقوق الخاصة

المجالات التالية تقع ضمن مجال الخصوصية ولابد من حمايتها من التدخلات الاجتماعية والحكومية: منها ميدان الوعي الداخلي والخصوصية والتحكم بجسم الإنسان والتفضيل الجنسي وحرية الإنجاب والرعاية الصحية والحق في الموت والعلاقات الطوعية والملكية الشخصية. ولا يتضمن النظام الذي نوقشت فيه هذه الموضوعات تدرج القيمة.

1. ميدان الوعي الداخلي

للشخص حقوق معروفة ضمن مجال وعيه. فمن حقه التفكير والإيمان بالقيم

كما يختارها من دون أي مراقبة أو تحريم من الدولة أو المجتمع، وليس من حق أحد استئصال قناعاته الداخلية مهما اعتقد المجتمع أن ذلك الشخص مخطئا. فقد لا نتفق بالطبع وإلى حد بعيد مع أفكار الشخص وقد نعده جاهلاً أو بليداً أو شريراً أو نعد اعتقاداته مزيفة أو لا قيمة لها. وبالتأكيد قد نعمل على إقناعه بعكس ما يعتقده من خلال تقديم الحجج ونبرهن على عدم تناسق أفكاره ونشير إلى العواقب الوخيمة لاعتقاداته. ولكن ليس من حقنا أن نعده بالهرطقي أو الكافر وبناء على ذلك ننكر عليه حقه في قناعاته. إن الطغاة المستبدين والأيديولوجيين واللاهوتيين من الجامدين قد حاولوا فرض الاختيارات الأرثوذكسية أو الولاء، ولكن هذا يمثل أكثر أشكال الاستبداد تدميراً للعقل البشري. هنالك حق في البحث وفي القراءة والتعليم والمعرفة: لابد من حماية العقل من الاضطهاد الاجتماعي.

2. الخصوصية

ليس من حق الرأي العام، بضمن ذلك الإعلام، التطفل أو البحث في كشف معلومات تخص حياة الفرد التي تعود له وحده ولا علاقة لها بالشأن العام. هنالك فرق بين الشخصيات العامة والأفراد الخاصين، وأحياناً يكون التعرف على الحياة الخاصة لجون كندي وجوزيف ستالين أو مارغريت تاتشر، على سبيل المثال، يلقي الضوء على شؤونهم العامة. وقد يتساءل أحد أن درجة معينة من احترام للخصوصية من الأحرى أن تلاحظ لمثل هذه الشخصية العامة، ولكن قد يكون ذلك صعباً بسبب كثافة التساؤل لدى الرأي العام. ولكن مع ذلك، لابد أن يكون هنالك نوع من الحجز على بعض المعلومات التي لا يجب كشفها من دون موافقة. وعلى المدرسين والأطباء والمحاميين وأطباء الأمراض النفسية أن لا يبيحوا أسرار طلابهم أو مرضاهم أو موكليهم من دون موافقتهم. قد يكون السلوك الخاص للفرد متصلاً بالآخرين إن عمل في وظيفة عامة، ولكن حتى هنا هنالك مساحة للخصوصية لابد أن تحترم.

وفي المجتمع الحديث حيث تكون المعلومات المصرفية متوفرة على نحو مضطرد، فمن الأهمية بمكان أن تحمي الحكومات ووكالات التأمين وأصحاب الأعمال والمدارس خصوصية الأفراد كي لا تقع المخاطر والتسويات والإحراجات من خلال كشف المعلومات. إن الإعلام خصوصاً يحتاج إلى أن يحدد المعايير الصحفية العليا ويتجنب الثرثرة غير المسؤولة.

3. تحكم الفرد بجسده

يعتقد المرء أن أي شخص سيقبل بعدم انتهاك جسد الإنسان ويوافق على أنه يجب أن لا يقتحم بالقسر أو المنع، مع ان المجتمعات تميل إلى أن تملي على المرء ما يجب عليه عمله وما يجب أن لا يعمله فيما يتعلق بكيانه أو كيانها الجسدي الخاص. تعني الخصوصية أن الأفراد لابد أن يسمح لهم بأن يأكلوا ويشربوا ويمارسوا الجنس بخصوصية وكما يرتأون، ماداموا لا يؤذون الآخرين، من دون أن يتعرضوا للتشهير أو الإدانة أو السخرية. ومن خلال التنوع في الأذواق لدى الناس، هنالك اختلافات كبيرة حول ما هو صالح وما ردئ وما هو صواب أو خطأ. هنالك، كما شرحت، معايير للفضيلة والسعادة فيما يتعلق بمزايا الشخصية. ومما لا شك فيه فإن التعديل وضبط النفس والتعقل هي الأشياء المرشدة.

من الواضح أن هنالك أشكالاً من الظواهر العامة التي قد يعدها المجتمع غير محتشمة، وقد يثير ذلك الاستنكار العام لها إلى حد البحث في تحريمها. لذلك يحتج المجتمع على التبرز أو التبول أو ممارسة الجنس أو التعري على الملأ. ولكن من المؤكد أن المجتمع ليس له الحق في أن يدخل إلى بيت الشخص من أجل أن ينظم سلوكه.

قد يهتم المجتمع بصحة مواطنيه. ولابد من توفير المعلومات عن التغذية الجيدة والحاجة إلى التمارين الرياضية ومخاطر الكحول والسكائر

والكوليسترول والعقاقير المؤذية. ولكن ليس من حقه أن يمنع هذه الأشياء بالقانون. على المجتمع أن يعمل ما بوسعه لإقناع الناس أن يكيفوا أساليب حياتهم المتوافقة مع الصحة الجيدة، ولكن يجب أن لا يجبرهم على ذلك. إن المجتمع لا وجود له في ذاته، بكونه الهدف في نفسه، بل يجب أن يكون الهدف هو صالح الأفراد الذين يعيشون فيه؛ والفرد هو الذي يقرر ما هو في صالحه وما هو ليس في صالحه. «إن من يرتدي الحذاء وحده الذي يعلم إن كان ضيقاً أو لا»، وليس صانعه أو الدولة.

إن السياسات الاجتماعية يمكن أن تكون غير متماسكة ولهذا تكون مضحكة: فالدولة تمنع الماريجوانا والكوكائين والهيروين ولكنها لا تمنع الكحول والسكائر. من المؤكد أن تبرير منع الكوكاكئين والهيروين بكونها تؤدي للإدمان، وأن الناس الذين يتعاطوها يفسدون حرية الاختيار، وأنها من الممكن أن تقود إلى عواقب تؤذي الآخرين. ولكن الحال نفسه ينطبق على الكحول. فالذين يتناولون الكحول بكثرة مدمنين ولا يؤخذ حكمهم على محمل الجد، وهم مسؤولون عن أعمال مؤذية للآخرين. إن الكحول والسكائر هي من أكثر المواد المسببة للإدمان انتشاراً، وأن الخطر الناجم عنها يفوق تلك المخاطر المتسببة عن الماريجوانا والهيروين والكوكائين مجتمعة.

ما هي الأشياء التي حري بالمجتمع أن يبعدها؟ ما هي الأشياء التي ينبغي السماح بها؟ يشير المتحررون المتطرفون إلى التناقضات في السياسات الحالية ويريدون سوقاً حرة مفتوحة. يعارض جون ستيوارت مل السياسات التي تجعل من الصعوبة على الناس العاديين أن يشتروا وصفة عقاقير. ليس لدي معيار صارم هنا، ولست أدافع عن تشريع أو عن السماح للعقاقير المؤدية للإدمان، ولكن فقط حول عدم تجريم العقاقير غير المؤذية. إن تكن غاية المجتمع المحافظة على مواطنيه، فهناك منتوجات أخرى حري أن تمنع. فبناء على الأسباب نفسها لماذا لا نمنع الشكولاته والقهوة، فكلاهما يمكن أن يصبح عادة

وهي غير صحية لو تم تناولها بإفراط! لماذا لا نصر على أن يلتزم بتمارين جسمانية قوية كل يوم، ولماذا لا نطلب المشاركة بألعاب جمناستك في الهواء الطلق؟ وبكوني مدافع متلهف فأنا متحمس للتمارين بكونها طريقة لتقليل الشد العصبي وتجنب المرض، وتحسين جهاز الدورة الدموية. ولكن بعض الناس لا يحبذون الرياضة. (يقول البعض «كلما يأتيني الباعث للتمارين أضطجع حتى يمر»). وسيكون من المؤكد أمراً تعسفياً أن تجبر الدولة أفرادها على ممارسة الرياضة، على الرغم من أن الحكومات الاستبدادية من زمن أفلاطون وحتى حكومة ماو قد سعت إلى طلب ذلك. هنالك بالطبع خشية كبيرة أن يبدأ الأولاد في استخدام مواد تؤدي للأدمان من قبل أن يبلغوا ويكونوا قادرين على اتخاذ القرارات الحكيمة؛ ومن حق الدولة أن تنظم هذا الأمر وتحاسب التجار الذين يخاطرون بصحة وراحة الشباب. ولكن فيما إذا كان عليها أن تفرض معايير مشابهة فيما يخص البالغين فهذه مسألة تستحق النقاش.

إن المجتمع الحر سوف يسمح للأفراد أن يختاروا بأنفسهم يشأن العناية بأجسادهم. إنني أومن أن الصحة واحدة من سعادات الإنسان، ولكن ينبغي أن تكون هذه السعادة من مسؤولية الفرد وليس الدولة. من الممكن أن نقوم ببرامج صحية تعليمية عامة وواسعة، ولكن تطبيق هذه المعلومات من الأحرى أن يكون مسألة اختيار.

4. التفضيل الجنسي

التعبير عن الميول الجنسية للشخص يعد ضمن مجال الخصوصية. وهذه من أكثر المظاهر الحميمية في سلوك الإنسان وينبغي أن تبقى ضمن ميدان التحكم الخاص. فليس من حق الدولة الدخول إلى غرفة نوم مواطنيها.

1. *الاستمناء:* من التصرفات الجنسية الأكثر خصوصية وغير المؤذية هي الاستمناء، التي من الممكن أن تتم في أي مكان خاص. لماذا يدين المجتمع

هذه الممارسة؟ لا أتحدث هنا عن المنع القانوني ـ الذي يكاد يكون من غير الممكن فرضه دائماً وفي أي مكان ـ بل أتحدث عن الإدانة الأخلاقية. أغلب الخوف من الاستمناء له مصدر ديني. وتنم القصة في العهد القديم عن القذف في الخارج على أنه هدر للمني، إما بالاستمناء أو الممارسة الجنسية الناقصة، بكون ذلك خطيئة. أمر يهوذا ابنه بأن ينام مع زوجة أخيه المتوفى. فتبعاً للقانون، من واجبه أن يبذر في رحم أرملة أخيه. ولكن أونان لم يرغب في أن يزرع طفلاً بالوكالة عن أخيه، ولذلك، «عندما دخل على زوجة أخيه، قذف على الأرض، حتى لا يبذر من أجل أخيه» [تكوين. ٣٨: ١٠ ـ ١١] ويصرح العهد القديم: «وهذا الشيء الذي قام به أغضب الرب: ومن أجل ذلك قتله أيضا». [تكوين. ٣٨: ١٠ ـ ١١] ومنذ ذلك الحين أدان الأصوليون الدينيون والأرثوذكس واليهود الاستمناء بكونه إهانة أخلاقية. وعبر التاريخ القديم العظيم أصبح فقدان المني يسبب فقداناً للقوة؛ وانتشرت هذه النظرة في العالم ولا تزال منتشرة في أفريقيا وآسيا وأوربا. وهذا لا ينطبق بالطبع على النساء، ولكن الجنس لدى النساء دائماً ما يكون متحكم به بصرامة أكثر من الرجال. لقد عد الكثير من رجال الدين الكاثوليك الرومانيين ممارسة الاستمناء بأنها أكثر خطيئة من الزنا.

مهما كانت الأسباب، فإن النقد ضد الاستمناء استمر. أذكر أن والدي كانا يخشيان من أنني قد استمني لكوني شاب، ولذلك فقد قدم لي طبيب العائلة كتاباً قرأته وأعرته لزملائي. كنا جميعاً قلقين، لأنه يحذرنا من مخاطر الاستمناء: كان يقال أنه يسبب أمراضاً تناسلية، ويؤدي إلى الجنون، ويسبب كذلك ثآليل في اليدين وبثوراً في الجبهة. على أن علماء الجنس اكتشفوا أن الاستمناء شائع لدى الكثير من الكائنات وهو ممارسة طبيعية في التطور النفسي ـ الجنسي للفرد. ويجده الكثيرون من الأفراد، حتى في سن البلوغ والكهولة، مصدراً جيداً للمتعة، طريقة لإشباع التخيلات الخاصة، ووسيلة نفسية وجسدية للتحرر من التوترات المكبوتة أو الاحباطات من عدم الحصول

على شريك جنسي. وقد وجدت الدراسات أن الكهنة الكاثوليك والراهبات يجدون ملاذهم في هذه الممارسة، بعد أن أدركوا أن من الصعوبة التقيد بقيود التبتل والعفة.

2. *العلاقات الجنسية المتفق عليها:* مادامت الممارسة الجنسية تستدعي وجود أشخاص آخرين، فإن السؤال الذي ينبغي طرحه هو فيما إذا تكون بعض الأشكال من التعبير الجنسي شريرة ومن الأجدى منعها بالقانون. ورأيي أن كل الأشكال ينبغي أن تترك للاختيار الشخصي، على الرغم من أنه لابد أن يفهم أن هذا الإقتراح ينطبق «فقط» على البالغين المتفقين وليس الأطفال، وأن ليس من حق البالغين أن يورطوا معهم في العملية الجنسية الصغار دون سن البلوغ. إن الأطفال الذين يساء إليهم جنسياً من قبل أي شخص، بضمن ذلك والديهم، يوضعون تحت الحماية العامة. إن سن البلوغ قابل للنقاش، ولن أناقش هذا الأمر هنا. ولكنه لن يبدأ في عمر الحادي والعشرين، وقد يبدأ حتى دون الثامنة عشر، ذلك لأن بعض الأفراد يبلغون سن الرشد قبل الآخرين. وبعيداً عن هذا القيد، فإن تعريف الخصوصية يتلخص بأنه السماح للبالغين المتوافقين بحرية ممارسة ما يفضلونه جنسيا.

3. *البغاء:* يعد البغاء ضمن نطاق السلوك الخاص، وليس من حق الدولة أن تحد أو تعاقب الناس الذين يمارسون البغاء. قد نعد مثل هذه الممارسات مخلة بالأخلاق من الناحية المبدأية، خصوصاً عندما يكون هناك زواج حيوي مبني على الإخلاص والثقة، ولكن حيثما يكون هناك زواج فاشل أو أن تكون الحاجات الجنسية غير مشبعة، فقد يشعر بعض الأفراد أن البغاء مبرر ـ أو على الأقل أنه مسألة شخصية. وعلى أية حال فإن الأمر يعود إلى الأفراد الذين يدخلون أنفسهم في مثل هذه العلاقات كي يقرروا فيما إذا كانوا يرغبون في مثل هذه العلاقات أم لا، كما أن ليس من شأن الدولة التدخل في هذا الشأن. وكذا

الحال بخصوص الأشكال الأخرى من العلاقات الجنسية خارج الزواج، بضمن ذلك العلاقات الجنسية قبل الزواج والعلاقات بين الأفراد المطلقين، والأنواع الأخرى من هذه العلاقات. مرة أخرى، هذه أمور شخصية جداً، وليست عامة، ماعدا توريط القاصرين.

4. *اللواط:* هل من حق الدولة أن تقرر أي أنواع السلوك الجنسي هي المناسبة أخلاقياً وهي المسموح بها قانونا؟ هل ينبغي أن يدخل الشرطة إلى غرف النوم الخاصة كي يتفحصوا السلوك الجنسي ويعاقبوا أي انحراف عن الممارسة خارج العضو الأنثوي؟ بالنسبة للتقليديين، السلوك الجنسي الوحيد المسموح به هو عبر عقد الزواج، وأن نوع الممارسة الجنسية الوحيد هو الوضع التبشيري. وكل غير ذلك يعد من الضلال. لقد لعب التراث الديني في الاضطهاد دوراً كبيراً في إنماء الشعور بالذنب تجاه الرغبة الجنسية: فقد أدينت الشهوة الجنسية بكونها انحطاطا، وأن أي انحراف عن «المعتاد» كان يعد مَرضيا.

هنالك دقائق صغيرة عديدة وتعقيدات في الإثارة الجنسية. يلعب الخيال الجنسي دوراً مهماً في تنبيه الذروة الجنسية. وتبعاً إلى عالم الجنس جون موني، هنالك «خرائط للحب غير عادية» يحتاجها الكثير من الناس ليتخيلوها أو حتى يمارسوها كي يصلوا إلى الذروة[1]. إن خرائط الحب غير العادية قد لا تكون منضوية تماماً ضمن الشخصية حتى بعد سنوات طويلة. وقد تظهر في الأحلام الرطبة أو عبر الممارسات المتكررة للاستمناء، لتصبح منبهاً ضرورياً لتحقيق الذروة الجنسية. وقد يتضمن الحب غير العادي الممارسة الجنسية الفموية أو الدبرية أو الفتشية أو عبر المشاهدة السرية أو التشبه بالجنس الآخر أو

---

(1) John Money, The *Destroying Angel* (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1985), Chapter 17.

المازوشية أو السادية، ومدى واسع من التخيلات الأخرى. الأفراد غير القادرين على الحصول على الإشباع الجنسي من دون تخيلاتهم غالباً ما يبحثون عن شركائهم الذين يرتاحون إليهم. وبالنسبة للدولة حين تمنع التفضيل الجنسي فسوف تتنكر للفردانية والتفرد في التلقي الجنسي لدى الإنسان، الذي قد يتنوع كما هي الأذواق في الطعام والشراب والملابس. ومع علمنا بالمدى الواسع من الانحراف الذي عد تاريخياً بأنه اعتيادي، يكون من الصعب أن نصف بدقة ما هو «طبيعي» في السلوك الجنسي. من المفترض، أن الأساس الوحيد لتدخل الدولة هو حيثما يكون هناك أمراض تناسلية معدية قد تنتشر ويحتاج الناس عامة إلى حماية، أو حيثما يكون استعمال للعنف.

5. *الشذوذ الجنسي*: لقد مورس الشذوذ الجنسي على نحو واسع في الثقافات كافة، وقد وجد حتى لدى الكائنات الأخرى. وهو في العادة مخفي عن العامة بسبب الاستهجان الاجتماعي القاسي وما ينتج عن ذلك من نبذ وعقاب. من الجلي أن الكائنات ما كانت ستستمر في البقاء لو أن الشذوذ الجنسي أصبح معتادا، على الرغم من أن البعض يزعم أنه قد قدم وظيفة اجتما - بايولوجية في بقاء الكائنات. فعدد كبير من الأفراد المبدعين قد مارسوه أو استحسنوه، بضمنهم أفلاطون وميكائيل أنجلو وليوناردو دافنشي وجايكوفسكي ووالت وايتمان وجيرترود شتين وفرجينيا وولف وأندريه جيد.

هنالك شعور قوي باحتقار الشذوذ الجنسي ضمن المجتمع، والكثير من الناس يجد فكرة الشذوذ الجنسي مقززة. وتكمن القضية الأساسية فيما إذا كان الشذوذ الجنسي متأت من تأثيرات بيئية أو أنه جيني في أصله. هنالك خوف كبير إن كان الاحتمال الأول، فقد يتأثر به الشبان والشابات أو يتجمعون بتزايد ليتبنوا أسلوب الشذوذ الجنسي في الحياة. الكثير من الآباء يخشون من حركة حرية الشذوذ، لأنهم يعتقدون أنه لو تمت المبالغة في التفضيل العام لأسلوب

الشذوذ الجنسي في الحياة، فلسوف ينجذب الشباب إلى ذلك ويتخلون عن ممارسة الجنس مع الآخر. ومادام المدرسون وباقي النماذج التي تلعب دور المثل الأعلى ويؤثرون بالتأكيد في الصغار، فهم يقولون لابد من تحريم الانحراف الجنسي، وإلا فإن المجتمع سوف يفسد ويتداعى أخلاقيا. وهنالك تحريم قوي إزاء الشذوذ الجنسي، وقد أدانته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بقوة شديدة. فهذا الأمر، فوق ذلك، يشكل معضلة للكنيسة، لأن الكثير من الرهبان يمارسون الشذوذ الجنسي.

والكتاب المقدس واضح في إدانة الشذوذ الجنسي. فقد دمر جهوفا مدن سدوم وعامورة بالنار والحجر عقاباً على آثامهم. وفي إحدى القصص، أحاط البعض من الرجال منزل لوط وطلبوا منه أن يمارسوا الجنس مع ضيوفه من الرجال. وقد قدم لهم لوط إبنتيه العذراوين بدلاً عن ذلك، من أجل أن يحمي رجاله. وهذا دليل على أن الشذوذ الجنسي كان معروفاً للعبرانيين القدماء، ومن الواضح أنه كان محرماً في ليفيتيكوس: «لا تضطجع مع ذكر، كما تفعل مع الأنثى: فذلك شيء بغيض» [١٨ : ٢٢]. ولحق ذلك، في ليفيتيكوس، طولب بعقوبة الموت عن هذه الجريمة: «لو اضطجع رجل مع رجل، كما يضطجع مع امرأة، فقد اقترف كل منهما العمل البغيض: ولابد من قتلهما؛ لابد من سفك دمائهما عليهما» [٢٠ : ١٣].

وتمقت المسيحية كذلك الشذوذ الجنسي. يكتب بول: «لا تُخدع: لا من الزناة ولا من الوثنيين ولا من البغي ولا من المخنثين ولا من الخانعين ولا من اللصوص ولا من الطامعين ولا السكارى ولا من الشاتمين ولا من المغتصبين، سوف ترث مملكة الرب». [كور ١. ٦ : ٩ ـ ١٠]. ومرة أخرى يحذر بول: «وكذلك الرجال، يتركون الاستعمال الطبيعي للنساء، ويحترقون في شهواتهم تجاه واحدهم الآخر ليفعلوا الفحشاء رجلاً برجل، لينالوا من جراء ذلك الضلال جزاءهم». [روم. ١ : ٢٧]. من الواضح أن الشاذين جنسياً، كاللصوص

والقتلة، سيغفون إلى الإدانة الدائمة، وأن العلاج الوحيد لشرهم هو الإيمان بالمسيح[1].

وهنالك شهادة تشير إلى أن الشذوذ الجنسي قد يكون جينياً في الأصل - على الأقل بالنسبة لعدد غير قليل من الناس. وإن يكن هذا الأمر صحيحاً، فإن التوجه نحو الشذوذ الجنسي ليس مجرد تفضيل ومن غير الممكن القضاء عليه بالعلاج أو لوسائل الأخرى. عموماً حتى لو كانت هنالك حقائق بيئية مساهمة، فإن الميل الجنسي يتأسس عند الإنسان مبكراً ولا يمكن تغييره بسهولة. هنالك تقديرات أن أربعة إلى عشرة بالمائة من الناس هم من الشاذين جنسيا. وفيما إذا كان هذا الميل بسبب جيني أو لم يكن كذلك وأن الشاذ جنسياً لا يمكنه أن يتحكم بطبيعته الجنسية، فيمكنه أن يبني أسلوب حياته من خلال تجنب التشوش المفرط، ولذلك يمارس نوعاً من التعقل والتقيد. يعتبر الكثير من علماء النفس الشذوذ الجنسي ميلاً مختلفاً لا مرضاً، وفي كل الأحوال ليس مداناً من الناحية الأخلاقية.

وعدد لا بأس به من الناس يكونون ثنائيي الجنس؛ أي أنهم قادرون على الاستجابة الجنسية لكلا الجنسين. ومن الصعب التأكد من أن الثنائية الجنسية هي في الأصل جينية أم لا. يبدو أن علاقات المثلية الجنسية والعاطفية توفر نوعاً من الارتياح النفسي لأولئك الذين يجدون شركاء لهم.

هل ينبغي أن يكون الميل الجنسي مسألة شخصية، وأن موافقة البالغين مسموح بها للتعبير عن ميولهم على نحو خاص؟ إن السياسة الاجتماعية الإنسانية ستسمح للاستقلالية الجنسية، مادامت تتضمن البالغين ولا تهدد صحة المجتمع. وهذا ما سيسمح للشذوذ الجنسي الذي يقوم على الاتفاق على نحو خاص، وسيسمح ذلك بإنشاء نواد ومقاه اجتماعية لهم.

---

(1) Gerald Larue, *Sex and the Bible* (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1983), Chapter 22.

إن القلق الرئيسي يتأتى من انتشار المرض. بدأت الثورة الجنسية جزئياً بسبب توفر موانع الحمل المؤثرة والأمينة ـ كي ينتهي الخوف من الحمل وتوفر المضادات الحيوية القادرة على تقليل الإصابة بمرض التعقيبة والسفلس. ولكن الانتشار السريع لمرض نقص المناعة المكتسبة (الأيدز) زاد من القلق المبرر على الصحة العامة. لو أن انتشار مرض ما مضى من دون فحص وزاد اتساعه، فمن حق المجتمع أن يحد من السلوك الذي ينقل المرض ويعزز التعليم العام حول الممارسات الجنسية السليمة. إن الإصابة بفايروس الأيدز لا يعود إلى غضب الرب وهو ليس عقاباً لحياة ضالة، بل ليس أكثر من السرطان أو باقي الأمراض المميتة التي هي عقاب للأفراد الذين يتعودون عليها. لقد أزاح تهديد الأيدز أسلوب الشذوذ الجنسي الذكوري العلاقات الجنسية العشوائية ذات الليلة الواحدة بين الجنسين ودفعها نحو الزواج الأحادي بين الجنسين المبني على العلاقات المتينة بين الزوجين.

ليس من الحري إدانة الشاذين جنسياً بكونهم مذنبين أو شريرين أو بكونهم ليسوا من البشر. ليس صحيحاً أنهم منحلون أخلاقياً، يسهمون في فساد النسيج الاجتماعي. إن الشاذين جنسياً، كباقي الناس، هم من أكثر الناس نزاهة، ولهم القابلية على الامتياز الأخلاقي ومن الواعين للآداب الأخلاقية. ولو أزحنا جانباً ميولهم الجنسية، نجدهم قادرون على الإسهام في المجتمع بكونهم منتجين ومبدعين ومواطنين مسؤولين. وبناء على ذلك فهم يستحقون التسامح، وأن حقهم في الخصوصية واجب كما هي حقوق الآخرين في العائلة الإنسانية.

6. *البغاء:* فيما يتعلق بالبغاء فإن قضية اللاأخلاقية الجنسية لها اهتمام خاص بالنسبة للعامة. فعلى الرغم من أن الإنسان قد يرى أن البغاء من المفترض أن يكون قضية خاصة بين اثنين أو أكثر من البالغين المتفقين فيما بينهم، فتصبح مسألة عامة عندما تمارس البغي تجارة الجسد في الشوارع أو في الأماكن العامة، أو تسهم في نشر الأمراض. في هذه الحالة يكون البغاء مؤذياً للآخرين.

من المفترض أن لا يكون البغاء مصدر قلق للدولة مادام لا يتورط مع الصغار والعبودية والعنف. لو أن اثنين من الأفراد يرغبان في ممارسة الجنس، فهذا شأنهما، على افتراض أن يتم ذلك بخصوصية وليس علناً ليخدش الآداب والنظام. ففي فرنسا وباقي الدول، هنالك بيوت خاصة (مباغي أو أماكن للعناية بالجسد) مكرسة للبغاء. وقد أضحى من المعروف أن الناس الذين يمارسون هذه الأشياء يميلون إلى الجريمة كالسطو أو الابتزاز وقد يقومون بإيذاء زبائنهم غير الحذرين. والبعض من الدول تطلب إقامة الفحص على البغايا على نحو دوري خشية تفشي الأمراض وتفرض أن يتزودن بالمانع الذي يوضع على الذكر. ويتحتم حمايتهم من العصابات التي تنادي بمكافحة الرذيلة وتكافح البغاء. ومن الطبيعي أن يكون هنالك قلق من العامة بشأن الصحة، ولكن من الأحرى السماح بالحرية الجنسية، ما لم يكن هناك حذر من تفشي مرض يهدد الصحة العامة. وما عدا ذلك، ينبغي أن يكون هناك عدم تشدد في التشريع والقيود.

7. *المواد المثيرة للجنس:* وهذا ميدان آخر لنزاع محتدم. هل يتطلب من الدولة الرقابة على الأشياء التي يعدها البعض من الناس فاحشة أو تميل أساساً نحو المتع الشهوانية؟ قد يكون المعيار في بعض الأحيان محدود جداً، وقد يختلف الناس المتعقلون في مستويات الذوق والحشمة.

من المؤكد أن علينا أن نميز بين العام والخاص في وجود مواد مثيرة للجنس (الصور العارية والأفلام وما شابه). لا يمكن للمرء أن يصر على أن كل التعبيرات العامة للسلوك الجنسي يمكن أن يسمح بها من دون تنظيم، لأن بعض العروض العامة قد لا تسيء فقط لأحاسيس الأفراد ضمن الجماعة بل أيضاً تمزق النظام العام. فامرأة شهوانية ترقص عارية تماماً في الجادة الخامسة قد تزعج بعض الناس أو تسبب الزحام، وعليه فمن حق المجتمع تحريم ذلك. ونفس السلوك في بيت الشخص (والنوافذ مغلقة) يمكن أن يكون بمنأى عن

المنع القانوني. لماذا لا يمنع التعري في المسارح والنوادي الليلية المفتوحة للبالغين، الذين يتم تبليغهم بنوع العرض الذي في الداخل ومن يرغب في أن يدفع من أجل ذلك؟

هنالك دفاع قوي يمكن أن يقام ضد أي جهد لفرض رقابة على التعبير في الكتابة أو الفن. لابد أن يكون للناس الحق في قراءة أو مشاهدة ما يرغبون فيه من دون أن يفرض أخ كبير مصادقاته. من الصعب معرفة أين يرسم خط في تعريف الفحش. وما قد يكون مزعجاً لأحاسيس شخص ما قد يكون مثيراً وممتعاً أو مثيراً للاستطلاع لدى آخر. فقد يجد البعض من الناس أن مجلة (هستلر) مثيرة للاشمئزاز، وكذلك مجلات (بلاي بوي وبنتهاوس. ربما اعترض البعض على روايات مثل لوليتا ويوليسس ومدام بوفاري. ولكن ماذا عن تمثال ديفيد لميكائيل أنجلو الذي يقف عارياً في فلورنسا أو العاريات على سقف كنسية سيستين في الفاتيكان؟ وماذا عن حواريات أفلاطون التي تدافع عن الشذوذ الجنسي، أو الكتاب المقدس، الذي ضم الكثير من المقاطع التي تتعلق بالتعري؟ نحن نقرأ في «تكوين» أن بنات لوط جعلنه مخموراً ونمن معه كي يلدن منه أولادا. ولم تتم إدانة سفاح القربى هذا. وهناك الكثير من المقاطع في العهد القديم تصف تعدد الزوجات واتخاذ المحظيات ـ التي يجدها الكثير من الناس من الممقوتات. هل يجب فرض الرقابة على الكتاب المقدس؟

إن الجنس موضوع ذو اهتمام إنساني عميق وثابت. وإن يكن الكتاب أو المجلة أو الأغنية أو الفيديو أو الفلم يميل أساساً إلى المتع الشهوانية ولا تكاد تكون لها فائدة اجتماعية أو أخلاقية أو أدبية أو سياسية أو جمالية أو قيمة فكرية، فلا يعد هذا مبرراً لمنعها. فقد يجد البعض من الناس أن المثيرات الجنسية ممتعة. لماذا لا يسمح لهم بأن يثيروا متعهم الشهوانية ـ إن قاموا بذلك على نحو خاص؟ أولئك الذين ينزعجون من المثيرات الجنسية ليسوا مجبرين على مشاهدتها أو سماعها. لماذا يتوجب أن تفرض «أذواقهم» بشأن ما قد

يجده الآخرون ممتعاً؟ بمعنى ما أن الأدب الأكثر شناعة هو ذلك الذي يصور أفعال الرغبة نحو القتل وأفعال العنف. فالشخص نفسه الذي يحتج ضد المثيرات الجنسية قد يتقبل باتزان رامبو الذي يجز رقاب المئات من جنود الأعداء أو راعي البقر الذي يقتل الهنود بعشوائية. إن يبدأ الإنسان بمنع الكتب والأفلام والمسرحيات بسبب المثيرات الجنسية لماذا لا يتم منع تلك التي تقدم العنف كذلك؟ لماذا لا نوسع هذه الرقابة على أساطير الدين المزيفة التي يوهم بها المشعوذون الدينيون الناس البسطاء؟ لماذا يمنعون الإلحاد أو التجديف؟ لماذا لا ندين غير النزوع الجنسي؟

من الواضح أن هذا لا ينطبق على الأطفال الصغار، وعلى العائلة والدولة واجب حمايتهم من المثيرات الجنسية. على أية حال، سيكون من المضحك فرض معايير طفل الثانية عشر عاماً على مجتمع البالغين بأكمله. ما يعرضه الكثير من دعاة الرقابة تفيد أن أغلب أنواع التعبير الجنسي هي شريرة وتحمل الخطيئة. وعلى العكس من ذلك، يؤمن الإنسانيون أن مادامت الإيروتيكية تسهم في سعادة الإنسان، فعلى الدولة أن لا تمنع التعبير الأدبي والفني عنه.

في السنوات الراهنة، تعقد ميدان النزاع، لأن البعض من المنظمات النسوية قد التحقت مع القوى التي تطالب بالرقابة. مثل هؤلاء النساء يؤكدن أن المثيرات الجنسية مخزية، ويمكن للمرء أن يقدر قلقهن واشمئزازهن. إن اعتراضهن ينطبق على أدب الإثارة الجنسية والأفلام التي تعامل النساء بكونهن مجرد «أشياء» لإشباع شهوة الرجل أو لتصوير كيفية العنف ضدهن. أشكال متنوعة من هذا من المؤكد أنها تعد مبتذلة وتثير الاشمئزاز. ولكن ماذا عن «اغتصاب نساء سابين»، اللوحة المعلقة في متحف المتروبوليتان للفن، أو قصة الكتاب المقدس في العهد القديم في قصة ذبح نساء وأطفال من جماعة المديانايت الذين لم يكن عذراوات؟ الكثير من الناس لا يجدون غضاضة من الجسد العاري، لا بل هو ممتع، فيما إذا كان فينوس دي ميلو أو عاريات

روبنس الشهوانيات. كل ذلك يعتمد على الذوق. وتكمن المشكلة في أنه ما أن يبدأ القانون في فرض «المعايير» الأخلاقية لأحد ما على الأدب والفن والإعلام، حتى يتم انتهاك حق الآخر في أن يقرأ ما يريد أو يمتع نفسه بحرية.

يقول الرقيب أنه يريد منع المثيرات الجنسية التي تتعلق بالعملية الجنسية الواضحة لا الإيحاء بها. ولكن من يحكم ما هي «العملية الجنسية الواضحة»؟ لماذا لا نترك ذلك للمؤلفين والكتاب والمنتجين والمشاهدين، كي يحددوا فيما إذا كانوا يريدون نشر أو إنتاج أو قراءة أو مشاهدة شيْ، من دون فرض لمعايير ضيقة للأخلاقية على أي أحد؟

اعترض البعض على الحقيقة بأن هنالك بعض المجلات أو الأفلام التي تعرض أطفالاً صغاراً أو مراهقين يمارسون الجنس بحالة مزرية. وأولئك الذين يستخدمون الأطفال في إنتاج مثل هذه الأشياء ينتهكون قوانين حماية الطفل ولابد من مقاضاتهم، لأن الحرية الجنسية تنطبق فقط على البالغين المتفقين فيما بينهم. وتنطبق الاعتبارات نفسها على أفلام الحركة العنيفة التي تصور الجرائم الحقيقية. وهذه الأشياء تعد من الجرائم ويجب أن لا يتم التسامح بها. وعلى أية حال، هنالك فرق في أن تقاضي منتجي الأفلام الجنسية المهتمين بالنشاطات الإجرامية وبين أن تمنع الإنتاج الأدبي بعد أن تم نشره.

وهنالك سؤال خاص لابد ان يطرح حول المثيرات الجنسية في التلفزيون، لأن هذا الجهاز على العكس من السينما، حيث يمكن للمرء أن يختار بوعي في أن يدفع للحضور لعرض على المسرح، فإن التلفزيون متوفر لأي أحد يدير مزولة التلفون. ويمكن العمل على تحديد الأفلام الجنسية الفعلية التي تبث عبر خدمة التلفزيون، حيث بإمكان الشخص أن يدفع للحصول على هذه الخدمة. وكذلك حري بالدولة أن لا تمنع بيع وشراء أشرطة الفيديو المثيرة للجنس. لسوء الطالع، أن في أغلب الدول، يكون الإعلام الواسع مكاناً كبيراً للفساد، فينشر فيها (الهاكرز) الذين يبيعون كل شيء من الجوارب النسائية إلى البيرة،

من البسكويت إلى الخلاص الديني. أفترض أن أفضل تأمين في المجتمع الحر يأتي من رفع مستوى الذوق والتقدير لدى المستهلكين والمؤلفين والكتاب والمنتجين سوية، لأننا نتحمل المسؤولية في حصاد مستويات عالية من الأخلاق في الميدان العام.

5. حرية الإنجاب

1. *التحكم بالإنجاب:* لا يحتاج هذا الجزء إلى معالجة منفصلة لولا وجود القوى اللاهوتية المتسلطة التي تبحث في منع سيطرة الرجال والنساء على الإنجاب. وللكنيسة الكاثوليكية على الأخص مبدأ أخلاقي صارم يحرم منع الحمل والإجهاض والعقم والتخصيب خارج الرحم عبر الأنابيب وباقي الوسائل في التدخل في عملية الإنجاب. إن القانون الطبيعي، كما يدعون، يحدد الجماع الجنسي من أجل التناسل وكل أشكال الجنس الأخرى لابد من تحريمها. ولكن الناس المتعقلين يمكنهم أن يقرروا فيما إذا كانوا يريدون التكاثر ومتى. يمارس الرجال والنساء العملية الجنسية ليس من أجل الإنجاب فحسب بل من أجل القناعة النفسية والمتعة الإيروسية التي ينالونها من الجنس.

وهذا يعني أن الرجل والمرأة من حقهما استعمال أساليب منع الإنجاب إذا كانوا يرغبون في ذلك. ومادامت طريقة التوقيت غير مضمونة فقد تستخدم طرق المانع البلاستيكي أو غيره من الموانع. إن الأشخاص الذين يمارسون الجنس لابد أن يتمكنوا من أن يحصلوا على الاستشارة في أفضل وسيلة لعدم حصول الحمل. وبضمن ذلك أن يختاروا العقم.

2. *الإجهاض:* إن الحق في الإجهاض مكفول ضمن حقوق أخرى: حق الخصوصية وحق تحكم الإنسان بجسده. ومن الناحية التاريخية فقد تحكم الرجل بالمرأة اقتصادياً واجتماعياً وجنسياً، وسعى إلى أن يتولى القرار بحمل المرأة ومتى. ولكن الجنين ينمو في جسد المرأة وليس الرجل، وليس لدى

المجتمع أي حق أخلاقي في أن يطلب منها الاستمرار في أي حمل لا ترغب في أن تلده لهم.

وفيما إذا يكون الإجهاض قضية خطيرة؛ يمكننا أن نناقش أنه لا يجب اللجوء إليه من قبل النساء من دون تفكير متأمل، ومن دون استشارة الأب، إن كان على علم. وينبغي أن لا تستعمل هذه الطريقة على أنها الطريقة الأولية في التحكم بالإنجاب، بل فقط لتكون الحل الأخير، فيما إذا فشلت طرق المنع. لابد أن يكون قراراً مسؤولاً، ويتم بعد الأخذ بكل الاعتبارات. ولكن حين تقرر المرأة، بعد دراسة متأنية، أن تقوم بالإجهاض، فلابد أن يكون ذلك من حقها، وليس من حق الدولة أو المجتمع منعها عن ذلك. لا أعتقد أن اللجوء العشوائي للإجهاض يمكن أن يبرر على أسس أخلاقية. بالتأكيد، أن من الممكن أن يناقش المرء أن تحت ظروف معينة، يكون من الخطأ أن تقرر المرأة الإجهاض، خصوصاً إن بدأ الحمل نتيجة لقرار واع من المرأة وزوجها.

على الرغم من ذلك، وعلى أساس مبدأ تحكم الإنسان بجسده، فالمرأة نفسها ولا أحد غيرها التي لها الحق الشرعي في اتخاذ القرار. وهناك مواقف كثيرة يتوجب فيها الإجهاض ـ عندما تكون المرأة مغتصبة، وعندما يكون الجنين معاقاً إلى حد كبير أو مصاباً بعاهة ولادية، وعندما تكون هناك حالة خطرة، وعندما تكون المرأة غير متزوجة، أو أنها غير قادرة على إعالة الطفل. ليس من حق المجتمع إجبارها في ظروف يكون الإجهاض فيها أمراً مطروحا.

هنالك قلق مبرر فيما إذا يتم الإجهاض عندما يكون الحمل متأخراً، عندما يكون الجنين حيوياً ويمكنه أن يعيش خارج الرحم. إنني أتفق، عدا الحالات غير العادية، أن يتم الإجهاض قبل الأشهر الثلاثة الثانية، وإن كان ممكناً قبل الشهر الرابع. من الصعب معرفة متى يكون الجنين إنساناً متكاملا، ومتى تبدأ الحياة. من الثابت أن الجنين (حتى الشهر الثالث) ليس إنساناً كاملاً، كما بدأت تصر الكنيسة الكاثوليكية حديثاً. ولا الجنين (الذي في الشهر الرابع) هو إنسان

يستحق منا حقوق الحماية كما هو حال الطفل الذي ولد. ومع ذاك، فإن الإجهاض في المرحلة المتأخرة من الحمل لا يبدو لي أمراً حكيما.

الأمر الذي لابد أن نضعه في بالنا أن المبادئ الأصولية لا تساعدنا في أي من طرفي الجدل: لا الإجهاض حسب الطلب ولا التحريم المطلق، بل بالأحرى يبدو التوازن بينهما مشروعا. لقد قضت المحكمة الأمريكية العليا في قضية روي وويد أن في اللحظة التي بدأت فيها الحياة تتحول القضية إلى قضية ميتافيزيقية ودينية، وبناءاً على مبدأ الخصوصية، علينا أن نسمح لكل امرأة أن تقرر فيما إذا تريد الإجهاض. يبدو لي أن هذه هي السياسة المعقولة. أولئك النسوة اللائي يعارضن الإجهاض لسن مجبرات عليه، ولكنهن يتبعن ضمائرهن. ولكن حق الضمير ذاته حري به أن يمنح إلى النساء اللائي لا يعتبرن الإجهاض جريمة. إن مبدأ التسامح له علاقة خاصة بالمجتمع التعددي الديمقراطي الذي يحترم حق الفرد المستقل في الاختيار الأخلاقي.

هل يتوجب أن يكون للمراهقين الحقوق نفسها في هذا المجال؟ يسمع الإنسان الكثير حول ازدياد نسبة حمل المراهقات والعدد الكبير للولادات خارج الزواج. ربما حدث هذا جزئياً بسبب أن في الأيام الأولى كانت النساء القادرات على الحمل يتزوجن مبكرا. الشباب، الذين يصلون سن البلوغ في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، لم يعودوا يستمتعون بالجنس اليوم كما كان حال أجدادهم ـ وهم يتزوجون فيما بعد. وفي قناعتي أن من الأفضل للشباب أن يمتنعوا عن ممارسة الجنس حتى يبلغوا، حينما يكونون قادرين أفضل على أن يطوروا علاقة مع أحد من الجنس الآخر. غير أن البنات في سن المراهقة اللائي يكن ذوات فعالية جنسية لهن الحق في تلقي معلومات عن عدم التخصيب وبعد استشارة آبائهن والأطباء، كلما أمكن ذلك، من الأحرى السماح لهن بالإجهاض. فهن أيضاً لهن الحق في التحكم بأجسادهن.

3 . *التخصيب الصناعي:* لقد أدانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التقنية الطبية الواسعة التي تساعد المتزوجين المصابين بالعقم في أن يكون لهم أطفال: من خلال التخصيب الصناعي داخل الرحم أو خارجه، وكذلك من خلال الأم البديلة. ويتأسس اعتراض الكنيسة على ما تعدها «قوانين الرب غير القابلة للتغيير والانتهاك». من المفترض أن الحمل يحدث فقط عبر الجماع الجنسي في الزواج، وأن عملية الإنجاب «تتحقق فقط في الزواج عبر الممارسات الزوجية»[1]. ولذلك فأن يدفع الرجل إلى الاستمناء والسماح للعلماء أو الأطباء بتخصيب بويضة في داخل الرحم أو خارجه في أنبوب سيكون ذلك غير مقبول. وكذلك تدان الأم البديلة التي تقبل بأن تجعل من بويضاتها مخصبة بعملية طبية والتي تحمل الطفل لفترة معينة.

لقد اعترضت الكنيسة على استعمال «تقنيات غير طبيعية صناعية»، مع أن البابا يتباهى بأسنانه الصناعية ونظاراته، التي هي من المؤكد صناعية، وقد يضع الكهنة والمطارنة جهاز منظم ضربات القلب في أبدانهم. فهم لا يعترضون على هذه الأشياء بل يتلقونها، مادامت تحسن من العملية الطبيعية بينما تعطل وسائل الإنجاب الصناعية الوظيفة الطبيعية. ولو أن «تعطيل العملية الطبيعية» يعد معياراً، فعلينا تجنب شرب النبيذ أبداً، لأنه قد يضع غشاوة على وظائف الإدراك. وعلينا أن نحول دون دوران علماء الفضاء حول الأرض بالأقمار الصناعية أو الطواف بلا وزن في الفضاء، لأن ذلك تجاوز على قوانين الجاذبية. فضلاً عن ذلك، أن عمليات التخصيب داخل الرحم أو خارجه هي تحسين لعمليات الطبيعة ووظائفها وليست إعاقة لها.

فإن كان السبيل الوحيد في الإنجاب هو من خلال تلقيح مني الرجل

(1) "Instruction on Respect for Human Life in Its Origin and on the Dignity of Procreation: Replies on Certain Questions of the Day", Cardinal Joseph Ratzinger and Archbishop Alberto Bovone (The Vatican) February 22, 1987.

لبويضات المرأة عبر فعل الجنس، فلماذا جعل الرب مريم العذراء حبلى وتحدى قوانينه الطبيعية؟ وكذلك أليس الرب هو سيد الإجهاض، الذي يدمر الجنين البريء ـ إذ أن ثلث الحمل لدى السيدات ينتهي بالإجهاض!

إن حرية الإنجاب تتضمن أيضاً الحق في الاستشارة الجينية. فمن الممكن الآن التأكد إلى حد كبير بشأن الجنين، بضمن ذلك نوعه الجنسي وفيما إذا كانت لديه عيوب جينية. والأزواج الذين يتلقون الاستشارة الجينية ـ ويجدون أنفسهم في خطر ـ يكونون قادرين على أن يقرروا فيما إذا كانوا راغبين في الإنجاب، وفيما إذا كان الحمل قد تم وفيما إذا كانوا يرغبون في الإجهاض. إن كل أشكال البحث التجريبي الجنيني وإجهاض الجنين المصاب بالعيوب الخلقية ستتواصل من قبل الداعين إلى الحق في الحياة. فضلاً عن ذلك، أعلنت الفاتيكان أنها ستحاول أن تقنع المشرعين المدنيين في مختلف البلدان في العالم أن يفرضوا القانون الطبيعي والإلهي كما يفسره البابا. وكل هذا انتهاك فاضح لمبدأ الخصوصية.

6. العناية الصحية

1. *الاتفاق المعلوم:* كل بالغ له عقل راجح له، من الرجال والنساء، له الحق في أن يقرر ما الذي يجب فعله بجسده. ينطبق هذا بمعنى خاص على نوع الرعاية الطبية أو العناية الصحية التي سوف يتقبلها أو تتقبلها. وينبغي أن لا يعالج المرضى من دون موافقتهم؛ يجب أن لا يجبروا على الخضوع إلى علاج يرفضونه. الموافقة على العلاج أو البحث يجب أن تكون طوعية وتتم هذه الموافقة من قبل بالغين لهم الكفاءة العقلية والعلم السابق. ويفترض هذا المبدأ أن يكون الشخص ناضجاً بما فيه الكفاية كي يقرر، وأنه واع وله القدرة على التحكم بقدراته. وهي تعني أيضاً أن القرار سيكون مبلغ عنه، مبني على أساس عرض يقدمه طبيب عن الحقائق الضرورية للمرض. وينبغي أن يتضمن ذلك تشخيصاً للأعراض وتحليلاً للمخاطر المحتملة والتعقيدات للعلاج المقترح

وعن الأساليب البديلة للعلاج، واحتمالية الفشل والنجاح. ومادام أغلب الطب فن يعتمد على تخمينات مدروسة، ففي بعض الحالات ليست هنالك يقينيات بشأن ما سينتج. ومع ذاك، فالقرار الأخير يعود للمريض، بعد عملية إقناع.

في الماضي، كانت الأبوية تؤخذ على أنها الأنموذج الذي حري به أن يستخدم في حقل الطب. فالطبيب يعلم ما هو الأفضل لمرضاه، وهو الذي يقرر سياق العلاج، ربما باستشارة مجموعة من الأخصائيين. كان هذا هو الأنموذج التسلطي. تأهل الطبيب في أن يقرر بدلا عن مريضه كانت تقوم على الخبرة والمعرفة: والمريض موقفه سلبي وخاضع لقرار الطبيب. يفترض مبدأ الموافقة المعلومة أن المريض كائن مستقل، وأن علاقته بالأطباء والعيادات أو المستشفيات هي علاقة تعاقد. وأي شيء يعمل له يتم بناء على موافقته. أفضل عملية هي تلك التي تكون المساهمة متبادلة: فالطبيب يعرض، ولكن المريض هو الذي يجب أن يوافق في اللحظة الأخيرة على الشروع فيها.

كل قاعدة عامة لها استثناءاتها. ينطبق هذا المبدأ حينما يحين الوقت لاتخاذ القرار؛ وفي الحالات الطارئة، عندما يكون المريض فاقداً للوعي ولا وقت هناك للانتظار كي يستعيد وعيه، فعلى الأطباء والممرضين استشارة أقرب الناس من عائلته، على الرغم من أنه في المواقف التي يتحدد فيها مصير حياة الإنسان، لابد من وجود استثناء لهذا الأمر.

تكون للموافقة المعلومة جدوى فقط عندما يكون المريض قادراً على فهم المخاطر ولا يتمكن من اختياره أو اختيارها خلال الألم الشديد أو التأثر العاطفي. ويكون من الأفضل لو أن القرار قد جاء بناء على تفكير مدروس وبناء على موافقة حرة. وهذا يفترض أن يكون المريض راغباً وقادراً على القيام باختياره أو اختيارها. وفي بعض الحالات قد لا يرغب المريض في أن يعلم بالتفاصيل الكاملة وقد يرغب في أن يترك القرار للطبيب، الذي يعرف أنه «يعلم ما هو الأفضل».

هل ينبغي أن يكون الطبيب نزيهاً ومؤتمناً مع المريض في كل الأحوال؟ لا يستطيع الإنسان أن يقدم التوكيد المطلق هنا. كل الأشياء الأخرى تعد متساوية، هذا المبدأ الأولي لابد أن يقود سلوكه، ولكن في بعض الحالات قد لا يكون المرضى قادرين على تفهم التشخيص العكسي. هل سيتألم المريض من الناحية النفسية لو نقلت له الحقيقة بكاملها؟ هل ستسبب له الكآبة الشديدة واليأس؟ وحينما يعرف الطبيب المريض وأهله فقد يقرر استخدام قرار حذر، يكشف فيه فقط عن ما يعتقد أن بمقدور المريض استيعابه وتقبله. إن القاعدة العامة هي أن عليه أن يكون صادقاً، ولكن يجب أن يوازن هذا الواجب مع باقي الوقائع.

2. *الإلزام غير الطوعي*: هل ينبغي على المريض الالتزام مع المستشفى ضد رغبته؟ هل يتحتم أن يجبر على الدواء؟ مبدأياً كلا. ولكن قد تكون هناك استثناءات، خصوصاً فيما يتعلق بالمرضى العقليين، الذين قد يكون قرارهم مزدوجاً فيكونون غير قادرين على اتخاذ قرار حكيم. لو أن مريضاً يعاني من اضطراب عاطفي أو نفسي ويرفض العلاج، وهو يهدد بإيذاء الآخرين أو نفسه ربما يلزم مؤقتاً بالمراقبة والعلاج الممكن، ولكن فقط حتى يعاد إليه توازنه. هنالك خطر من أن الإلزام الإجباري سوف يستخدم من قبل المجتمع السلطوي لمعاقبة الأفراد المنشقين وحجزهم من دون ما يقتضي الأمر ذلك. على المجتمع التسامح بشأن السلوك غير المعتاد والانشقاق من دون أن يوضع ذلك في خانة «الجنون».

وعموماً فإن بعض الأفراد قد يكونون مرضى لدرجة أنهم غير قادرين على أن يقرروا بأنفسهم فيما إذا كانوا بحاجة إلى علاج، وقد يقاومونه على الرغم من الجهود الكبيرة التي يبذلها طبيبهم وأقاربهم لتوفير الرعاية المطلوبة. إن حقوق المرضى العقليين لابد من حمايتها من الحجز الاعتباطي والعلاج الإجباري. وأحد قادة الحركة ضد الإلزام غير الطوعي هو توماس زاس، وقد اشار مباشرة

إلى أن المستشفيات العقلية كانت في السابق تعمل كالسجون وغالباً ما يتم التنكر لحقوق المرضى[1]. وكانت علاجات الصدمة للوبوتوميز، وباقي الأشكال الأخرى من العلاج المثير للتساؤل قد اجريت بشكل روتيني على المرضى اليائسين، الذين هم غير قادرين على حماية أجسامهم والذين هم مجردين من الشعور بالكرامة. ينبغي أن لا يتم التعامل مع المحللين النفسيين وأطباء النفس بكونهم كهنة لا يخطأون ولا يمكن أن تخضع أحكامهم للتساؤل.

يجب أن لا يكون المرء إطلاقياً: البعض من المرضى غير قادرين على العناية بأنفسهم، ومع ذاك يقاومون أي علاج طبي أو مساعدة من ذلك النوع. وفي مثل هذه الحالات، واعتماداً على نصيحة من اثنين أو أكثر من علماء النفس أو الأطباء وتبعاً إلى الحماية القانونية التي تقرها المحكمة، فإن مثل هؤلاء المرضى، قد يحجزون لفترة موقتة لصالح أنفسهم أو لحماية المجتمع، ولكن يجب أن يتحرروا من الحجز بعد تلك الفترة. ويكون من المفيد إن كانت لدى المجتمع بعض الوسائل في الرعاية لهؤلاء الذين يعانون من نقص المؤسسات التي ترعاهم. فهنالك العديد من الحالات المأساوية لآباء أو أقارب ممن لا يتلقون أية مساعدة كالأشخاص الذين يعانون من فصام الشخصية الشديد أو الاضطرابات النفسية.

لا تنطبق الموافقة المعلومة على الأطفال الصغار، ولا على الأشخاص المعاقين بدرجة كبيرة أو على الأشخاص الشديدي الإعياء أو الخرفين. هنا يقوم أقاربهم أو الأوصياء الشرعيين عليهم بالمساعدة في عملية تقدير العلاج الممكن.

إن الموافقة المعلومة تفترض من قبل مستوى معيناً من التعليم الطبي. والأمر

---

(1) Thomas Szasz, *The Therapeutic State* (Bufallo, N.Y.: Prometheus Books, 1984), and also Thomas Szasz, *The Theology of Medecine* (New York: Harper and Row, 1977).

الأمثل هو نشر مستوى عال من الثقافة العلمية للجماهير كي يكونوا واعين إلى حقيقة أنهم يكونون مسؤولين عن رعاية أنفسهم. إن الرعاية الطبية ينبغي أن تكون متبادلة بين كل من الطبيب والمريض.

7. الحق في الموت

1. *المساعدة على الموت الطوعي:* إن الموافقة المعلومة هي الأكثر حيوية اليوم، مع التقدم الكبير الحاصل في التقنية الطبية التي تمكن الأطباء من الإبقاء على حياة المرضى الذين من دون ذلك يكونون قد ماتوا. وغالباً ما تطرح الأسئلة التالية: متى يتوجب على الأطباء أن يكفوا عن العلاج؟ ماذا لو أن المريض لم يعد يرغب في الحياة؟ هل من واجب الطبيب أن يجبر المريض على العلاج رغماً عنه؟ هل ينبغي على الأطباء أن يسمحوا للمريض بأن يموت أو يسرعوا بموته إن طلب ذلك؟ إن مصطلح «الموت الرحيم» (Euthanasia) يعني حرفياً «الصحة الجيدة». هل يتوجب علينا أن نساعد الناس على الموت، وبذلك نخلصهم من معاناتهم؟

إنني أسلم أن «الموت الرحيم» يمكن السماح به، وربما يكون ملزماً من الناحية الأخلاقية، ولكن فقط عندما (أ) يحتضر المريض من أثر مرض عضال أو حادثة، وتكون حالته نهائية؛ (ب) هنالك ألم شديد ومعاناة؛ (ج) المريض عاقل ومدرك وعالم بحالته؛ (د) يكون اختياره طوعيا.

يعني الموت الرحيم المسلم به ببساطة عدم استعمال الوسائل البطولية أو غير العادية للبقاء على حياة المريض إن لا يرغب هو في استعمالها. وهو يعني أيضاً عدم استعمال أي علاج آخر غير ذلك الذي يقلل الألم؛ وتزال حتى أنابيب المغذيات. لا فائدة من أي جهد لإنعاش الشخص إذا توقف قلبه أو رئتيه. إذا رغب المريض في مغادرة المستشفى من أجل أن يموت في بيته، فلا ينبغي منعه من ذلك. إن الموت الرحيم الطوعي مبدأ أخلاقي الآن ومقبول على نحو واسع

من المجتمع المتحضر. وفهم مثل هذا الحق قد جاء بعد معركة حامية. ولكن لا تزال هناك مقاومة كبيرة من الأصوليين الذين يصرون أن الرب وحده يمكنه أن يقرر متى يمكن أن يموت الإنسان. ويزعم البعض أن هنالك نوعاً من الفضيلة في الألم، كما كان المسيح يعاني على الصليب. وجواباً على ذلك، أننا قد نحاججهم أن الذين يريدون المعاناة حتى الرمق الأخير يمكنهم ذلك، ولكن أولئك الذين يرغبون في الموت بنوع من الكرامة وأقل ما يمكن من المعاناة علينا أن نمنحهم ذلك الحق.

لذلك من واجبنا أن نساند الشخص الذي يعبر عن رغبته في اختيار الموت الرحيم المسلم به ولا نطيل عذابه. ومبدأ الإحسان له علاقة هنا. فلابد لنا أن نكون عطوفين ورؤوفين وحيثما يكون هناك ألم علينا العمل على تقليله. هنالك قصص مرعبة كثيرة عن مرضى طالما يعاملون ضد رغبتهم ويجعلون يتحملون الأسابيع والشهور الطويلة من الاحتضار بسبب إصرار الأطباء الذين يؤمنون أن من واجبهم الأولي إبقاء المريض على قيد الحياة. كلنا ندرك أن لدينا واجب أخلاقي لمنع القسوة على الحيوانات ونعمل بكل رحمة على تخليصها من تعاستها لو كانت مجروحة أو تحتضر. هل علينا أن نعمل أقل من ذلك لأناسنا الذين يرجوننا للخلاص من آلامهم ونجعلهم يموتون؟

في أمثلة عديدة يقع المرضى الذين يعاملون ضد رغباتهم ضحية عقاب قاس وغير عادي. وأحد الحالات المشهورة هو دونالد سي الذي أصابه العمى والحرق وتقطعت أطرافه بسبب انفجار. وكان يجبر على العلاج كل يوم على الرغم معارضته الشديدة لذلك ومعاناته من الألم المبرح. كان من الممكن أن يتخلص دونالد من محنته، ولكنه احتج على انتهاك كرامته كإنسان[1]. ومثال آخر عن طبيب أصيب بسرطان وكان يعاني منه بشدة. وإذ كان يعلم بمسار

(1) C. Levine and R. M. Veatch, *Cases in Bioethics: The Hastings Center Report* (Hastings - on - Hudson, N,Y., 1982).

مرضه، طلب أيقاف العلاج. ولكن طاقم المستشفى كانوا يخشون تلبية رغبته، وينعشونه عدة مرات. والتمس بغضب ويأس أن يسمح له بالموت، وهو ما فعله بالنهاية، على الرغم من الجهود البطولية المستمرة في إنقاذه[1].

إن مهمة الطبيب تكمن في تطبيق مهاراته الفنية على قدر ما يستطيع؛ وليس من واجبه القضية الأخلاقية فيما إذا يتوجب عليه أن يسمح للمرضى بأن يموتوا. بل من المؤكد أن من واجب الطبيب الأولي احترام رغبة المريض إذا كانت حالة هذا الأخير ميئوساً منها. ولا يمكنه تجاوز قرار المريض إلا إذا كان يستطيع إبداء نوع من السبب الأخلاقي الذي يعوض المريض.

ويظهر مبدأ أخلاقي آخر يؤدي إلى الاختيار: عدم ارتكاب عمل محضور. فليس من المفترض بالطبيب أن يؤذي المريض، مع أن إبقاء المريض حياً ضد رغبته أو رغبتها هو نوع من الأذى. وليس شرطاً أن يكون البقاء حياً أفضل من السماح بالموت؛ ومن خلال إجبار شخص يحتضر على الحياة وتحمل الألم فإن الطبيب يجرحه. والمبدأ المتضمن هنا هو بالطبع أن من حق الإنسان التحكم بجسده.

الموت الرحيم الإيجابي يأتي عندما يذهب المريض بعيداً ويطلب الاستعجال في موته. فهل يتوجب على الإنسان أن يتوافق مع رغباته ويساعده على الموت؟ هل من الصحيح استعجال العملية؟ في بعض الحالات المأساوية، يشعر الأفراد بواجب أخلاقي لمساعدة من يحبونهم الذين يصرخون لطلب النجدة. ويصدق هذا خصوصاً إذا كان هو أو هي من أفراد العائلة. يعتبر الأصولي أن هذا جريمة قتل، وإن وقف المرء جانباً ويسمح للمريض بأن يقتل نفسه، فهو يساعد على عملية انتحار، وهي كذلك مدانة من قبله.

رغم ذلك فإن المأزق الأخلاقي الذي نواجهه هو مأزق طارئ: إن كان

---

(1) Ibid.

تشخيص الموت أكيداً وإن كانت الحياة ضئيلة جداً بسبب المعاناة الشديدة، فلماذا يجبر الأفراد على الحياة؟ لو تقبل المرء الموت الرحيم الطوعي المسلم به على أسس أخلاقية، فلماذا لا يتقبل كذلك الموت الرحيم الإيجابي؟ إن لم يتم إنعاش أو تغذية الإنسان بالقوة، فهل يمكن أن يعطى المريض جرعة أكبر من المورفين لتعجيل الموت؟ هل يتوجب على القريبين من الشخص التدخل لإنهاء حياته؟ يعتمد ذلك على ما يستلزم ذلك. ربما قد يشتري شخص آخر الدواء الضروري لذلك الأمر، ولكن من المستحسن لو أن الشخص الذي يريد الموت يطلب الدواء لنفسه. «لا تطلب مني أن أتسبب بالجرح الذي سيقتلك».

ولكن ماذا لو أن الشخص الذي أحبه غير قادر على رفع يده لشرب الجرعة أو أن يحقن الدواء في أوردته؟ ماذا أفعل؟ ليست لدي إجابات تساعدني في اتخاذ ذلك القرار الفضيع. قد لا يرغب البعض في أن يكونوا طرفاً في موت شخص آخر، ولكن آخرين يكونون مذهولين من طلب من يحبونهم لإسعافهم فيستجيبون لرغباتهم. رجل ما، كانت زوجته تعاني من حالة متقدمة من الزهايمر، فأطلق عليها النار. وشاب آخر كان أخاه مشلولاً تماماً بسبب حادث دراجة، ولم يعد قادراً على تحمل توسلات أخيه، ففعل الأمر نفسه. وهنالك حالة ديريك همفري وزوجته جين، التي كانت تعلم أنها مصابة بالسرطان وطلبت من ديريك أن يأتيها بالسم، الذي جرعته حين أتى به[1]. وفي هولندة هنالك أطباء وموظفون للرعاية الصحية الذين، يكونون تحت طلب المريض، يساعدون الناس الذين يحتضرون على الموت.

كل مشكلة من هذا النوع تكون منفردة، وكل شخص يختلف عن غيره. البعض من الناس قد يختار النزاع مع ظلام الليل، ولا يخضع أبداً للموت راغباً، بل بدلاً عن ذلك، يبقى يتنفس حتى الرمق الأخر. أما آخرون فيشعرون

(1) Derrick Humphrey and Ann Wickett, *Jean's Way* (London: Quartet Books).

باليأس ويرغبون في تقليل قلقهم وقلق أهاليهم، وقد يرغبون في تسريع النهاية ويطلبون المساعدة ممن يحبونهم.

هنالك بالطبع مخاطر كبيرة على المجتمع أن يعيها. وهنالك مناقشة ذات «منحدر زلق». أولاً، علينا أن لا نعيق الجهود الطبية المكرسة لوجود طرق لإنقاذ ومساعدة الحياة؛ فأن نستسلم ونقبل بالاندحار فهذا معناه تقويض مهنة الطب، المهتمة بالبحث وإيجاد العلاجات. نحن نتحدث بالطبع عن الحالات التي لا أمل فيها، مادمنا نستطيع أن نقرر أنها ميئوس منها. ومع ذلك، لا يزال هنالك شيء يثير الاضطراب بشأن مستشفيات أضحت أماكن لأشخاص يذهبون إليها كي يموتوا بدل أن يحيوا، وهنالك خشية، لها ما يبررها، وهي النظرة إلى الأطباء بأن يكونوا قتلة إن كانوا يرغبون في تدبير عملية الموت بالسم.

ربما يكون من الأفضل ترك هذه الأسئلة إلى مناقشات خاصة بين المريض وأهله والأطباء، وعدم جعل كل حالة على أنها عامة. لقد جرب الأطباء في الماضي حكمهم، وهنالك حالات لا حصر لها من الموت الرحيم الصامت، المباشر وغير المباشر، من دون الفحص العام. ولكن هذا من الصعب اليوم بسبب مراقبة مؤيدي حركة الحق في الحياة، وبسبب أن الأطباء يخشون من شكاوى سوء التصرف أو التبعية القانونية من الدولة.

إن الموت الرحيم يقع في خطر الإيذاء الجسدي. هنالك دائماً الخطر من أن شخصاً ما سوف يحاول تسريع موت العمة ميلي من دون موافقتها، من أجل الميراث. فضلاً عن ذلك، هنالك مشكلة أن البعض من الناس قد يخطأون في فحص حالتهم الصحية ويستنتجون أنهم مصابون بمرض لا علاج له. والبعض من الناس قد لا يتحملون الألم وقد يفضلون الموت ولا يستمرون في المعاناة، على الرغم من أن التشخيص العام قد يشير إلى الشفاء. وعليه، على المجتمع أن يسير بحذر فيما يخص التشجيع على الموت الرحيم وفق الطلب.

ومع ذلك، إنني أسلم بأن علينا احترام الحق في الموت الرحيم ـ مع بعض

التحفظات. وفوق كل شيء يجب أن يقوم على الموافقة المعلومة ولا يتم باندفاع أو تحت طائل الإكراه. لابد لهذا القرار أن يكون نتيجة تفكير عميق بعد فترة من الوقت. إن الأمور تكون معقدة عندما يكون الشخص مصاباً بصدمة أو يكون في غيبوبة، ونكون غير قادرين على التأكد من رغباته. كان والد زوجتي، فرنسياً نشيطاً في الثانية والسبعين، في صحة واضحة، وقد أصيب بصدمة مفاجئة وأصابه الشلل الكامل. كان غير قادر على التحكم بأحشائه أو التكلم. وبقي على هذه الحال لأربعة أشهر. وأشارت الفحوصات أنه قد أصيب بتلف دماغي كبير وان فرصة شفائه معدومة. وفي الكاثوليكية الرومانية جنوب فرنسا لا يكاد المرء ينطق بكلمة الموت الرحيم. ولذلك عانى الرجل الوقور المتفاخر بنفسه حتى النهاية بنوع من المذلة وتوقف الحياة إلا النزر اليسير. ففي مثل حالته لا يتوجب سؤاله عما يجب فعله: هل يجب أن يحيا أو يموت؟ هل ينبغي إنعاشه؟ (وقد أنعش لمرات عدة). هل ينبغي إزالة الأنابيب المغذية؟ (من الواضح أنها كانت مؤذية). أحد الحلول هو ترك وصية تتعلق بهذه الأمور قبل الوقوع في صدمة مرضية. وغير ذلك أن يعلم الشخص من حوله بما يريد، وهذا ما يخدم على أنه توكيل.

وإحدى التعقيدات هي الحقيقة بأن في بعض الحالات لا يمكن معرفة أن الشخص سيموت أو يشفى. فقد يُكتشف علاج جديد، أو أن المريض قد يستحث قدرات كافية ليعيش ويحيا حياة ممتعة لسنوات من دونما إعاقة بعد عمليات تأهيل. إن أخطاء قد ارتكبت في الماضي وسترتكب في المستقبل. ومن الأمثلة المناسبة هنا هي حالة الفيلسوف الأميركي المميز سدني هوك، الذي كان يعاني من ضعف القلب والسكتة القلبية. وتوصل إلى أن وقته انتهى وراح يصر على زوجته وأبنائه أو يسحبوا المأخذ الكهربائي. وكان هذا القرار قد جاء بناء على تفكير طويل في الاعتقاد الأخلاقي بالموت الرحيم. ولكن أفراد عائلته رفضوا الانصياع لطلبه. وبقي هو عنيداً وبقوا هم ينكرون عليه رغبته. وتجاوز هوك تلك الحالة وعاش لسنوات عديدة تالية ليعيش حياة

منتجة، يمتن لها من يعرفونه. ورغم ذلك، فقد أصر في مقالة كتبها بعد عدة سنوات من تلك الحادثة أن طلبه كان يجب أن يلبى، وأن حدث الشيء نفسه ثانية فينبغي أن يسمح له بالموت. فهو يقول أن الاستثناء يجب أن لا يلغي القاعدة ويؤكد أن القرار يجب أن يكون له[1]. ولكن في حالات أخرى يطلب آخرون المساعدة. الأسئلة التي تثار هنا هي: ما هي الحالة الأخلاقية عند الانتحار لأسباب طبية؟ هل يتوجب على الآخرين المساعدة؟ هل ينبغي عليهم البحث في منع المريض من أن يسلب حياته؟

2. *الانتحار*: إن الحق بالانتحار مثير الجدل إلى حد بعيد، خصوصاً عندما يتم تأمله من الشباب. ويصر الأخلاقيون الدينيون أن الرب وحده يمكن أن يقرر فيما إذا كنا نموت أم نحيا. وهذه الحجة خادعة، إذ لو كان الرب وحده يمكنه أن يقرر، فلا ينبغي لنا محاولة درء الموت؛ وسينهار علم الطب، مادام الأطباء يتدخلون في مشيئة الرب. ولا يمكن لأحد أن يقوم بدور البطولة في معارك من أجل المثل، إذ أن ذلك هو في الغالب المخاطرة في طريق انتحاري. لقد جربت اليابان طريقة الهاري كاري في الانتحار، ورجال عسكريون مثل الروائي ميشيما قد عدوها من أعلى الفضائل. وأيد فلاسفة من سقراط إلى شوبنهاور السماح بالانتحار بطريقة ما أو أخرى، بناء على أساس اختيار مدروس.

في الأيام الأخيرة لسقراط وهو ينتظر تنفيذ حكم الإعدام به على أيدي الأثينيين، صار الجدل فيما إذا يتوجب عليه الهروب من أثينا، كما حثه طلابه ومؤيدوه، أو البقاء والخضوع لما كان يراه بأنه حكم غير عادل. وقد طلب منه طلابه الفرار والعيش في المنفى، وهو ما مال إلى تنفيذه. ومن خلال إجباره على جرع السم، فقد اختار موته بحرية، بمعنى أنه رفض أن يكون متمرداً مدنياً

---

(1) Sidney Hook, "In Defense of Voluntary Euthanasia", *New York Times*, March 1, 1987.

وينتهك قوانين أثينا. لم يكن خائفاً من الموت. لقد قال، ليس هنالك شر يمكن أن يطيح برجل صالح، وعبر عن ارتباطه الصميمي بالخلود[1]. وتوصل فلاسفة آخرون أيضاً إلى أن في حالات ما يكون الموت أفضل من الحياة: فإنسان عاقل حر وناضج تماماً يمكن أن يجعل من انتحاره قضية.

يجب أن أعترف أنني، شخصياً، أعتقد أن الانتحار فعل كامل الحماقة. فإن لم يكن لدينا غير الحياة وإن كنا لا نتوهم بمسألة الخلود، فينبغي أن نعيش حياتنا كاملة بأقصى قدراتنا. إن الحياة ثمينة جداً، وسخية ولا تستحق تبديدها قبل الأوان. هنالك دائماً الأمل بغد أبهى، مع فرص جديدة لمغامرة خلاقة وإنجاز ومتعة. ولهذا أعتقد أن الاستسلام لرغبة الانتحار أمر مأساوي ولا أرى أي مبرر له. ولا يكون له أي معنى خصوصاً عندما يقترفه الشبان. نحن نتساءل في هذه الحالة: أين خذلناهم؟ لماذا لم ندرك أنهم في مأزق؟ كما أن من الغريب أن يقدم شخص ما في منتصف العمر وفي قمة قدراته على إنهاء حياته! لدي صديق هو بايت هاين هيوبينز، محرر شاب لامع تأثر بصحفي ألماني، كان مهتماً بالباراسيكولوجي وقد كتب مقالات مهمة عديدة، لكنه قام بالانتحار. وقد اندهش كل أصدقائه وزملائه، خصوصاً لأنه كان في الثلاثينات من عمره. وقد عرفنا فيما بعد أنه كان يعاني منذ سنوات من الكآبة، وقد أفصح لزوجته في مناسبات عديدة أنه سينهي حياته في يوم ما. وحين فعل ذلك، سكت كل الذين من حوله وشعروا بالعجز من إحساسه باليأس.

لا أرى أن ثمة مبرراً لمثل هذه الأفعال. لدينا واجب أخلاقي أولي في البقاء أحياء، ليس من أجل أنفسنا فحسب، بل أيضاً من أجل الذين من حولنا؛ إن الانتحار خيانة وجرح لأولئك الذين يحبوننا. لست أصولياً هنا، لأن البعض قد يجدون مواقفهم الشخصية لا تطاق ولذلك من دون أن يستردوا المعنى أو الأمل في الحياة يقدمون على إنهاء حياتهم. من الواضح أن ذلك ليس شيئاً سأفعله.

---

(1) Plato, *Citro, Phaedo.*

ولكنه يبقى قراراً شخصياً، قد يوازن فيه أحد ما قيمه وواجباته ويتوصل إلى أن من الأفضل له أن يغادر الحياة. ولكن، وفي قائمتي الشخصية للفضائل والرذائل، أعد الانتحار أكثر الذنوب التي يقترفها الإنسان اشمئزازاً. ولكن من يستطيع أن يسبر غور أعماق الإنسان اليائس والدوافع التي تقود إلى تدمير الذات؟ مما لاشك فيه أن بعض أشكال اليأس كيمياوية في أصلها؛ والأخرى تنطوي على اضطراب نفسي وتنهش في أعماق الشخص، وقد لا يكون قادراً على التحكم باختياراته. ولكن بالنسبة للذين يستطيعون، لا أجد أي مجد أو مشاعر بطولية في أفعالهم.

ويبقى السؤال: هل ينبغي أن تعد محاولة الانتحار غير قانونية؟ أظن أن الجواب هو نعم، مادام من الممكن أن يؤذي آخرين. فمثلاً لو أن أحداً وقف على قمة برج التجارة العالمي وهدد بالقفز، وذلك ما سوف يؤذي آخرين حتماً، هل يتوجب علينا أن نعمل على منعه؟ نعم؛ من خلال استشارة أطباء النفس وأمثالهم، علينا أن نقنعه بعدم القفز. هل ينبغي أن نقوم بغسل معدة من جرع السم؟ ليس هنالك جواب سهل، ولكن مرة أخرى أقول نعم. فنحن لا نعرف دوافعه وربما يمكننا، من خلال اهتمامنا العاطفي، نساعد في عودته إلى الحياة؛ ربما في يوم ما سيكون ممتناً لإنقاذنا له.

لو أن شخصاً يرغب في الانتحار ونجح، فلا نملك شيئاً لنفعله. ولكننا قد نقوم ببعض الأسى الانفعالي لبعض الوقت والكثير من المحاولات الفاشلة في طلب الإسعاف. علينا إن أردنا أن نغذي الروح الحزينة والشخص الانتحاري بالاستمرار في حياة منتجة وذات قيمة.

التبرير الأهم للانتحار، من وجهة نظري، هو فيما يتعلق بالموت الرحيم المباشر وغير المباشر. ولكن هذا العمل يجري عندما يكون الإنسان يحتضر من قبل، وهو يعاني من ألم مبرح، وأن الحياة تتضاءل لديه. في ظل مثل هذه الظروف، يمكن أن ينظر إلى الانتحار بكونه عمل معقول مبرر على أساس أخلاقي.

وحالة أخرى للانتحار لابد لنا من الانتباه إليها. لدي في ذهني مواقف ليأس كامل، يتعلق بأناس عانوا من التعذيب إلى درجة لا تحتمل، وهم متيقنين أنهم سيواجهون الموت. أنني أفكر بالحالات المأساوية الكثيرة للانتحار خلال الحرب العالمية الثانية، حيث كان الضحايا يساقون إلى اليأس من قبل النازيين واليابانيين، إلى درجة إدخالهم في غرف التعذيب أو غرف الغاز، فيقررون استعجال الموت لإنهاء معاناتهم أو منع العدو من التحكم بحياتهم. إنني أفترض أن تحت هذه الظروف، قد يستنتج الإنسان المتعمق بالتفكير من الأفضل له ممارسة حرية الاختيار، حتى لو كانت الأداة لموته هو نفسه.

3. *قتل الرضيع:* وقد تثار مسألة الموت الرحيم في بعض الأحيان فيما يتعلق الأمر بالأطفال الصغار، واضعين في البال أنهم غير قادرين على أن يقرروا بأنفسهم. ما الذي نفعله عند ولادة طفل معاق تماماً ومصاب بعيوب جينية أو معاق بشدة؟ هل يمكن السماح بإنهاء حياته؟ هل أن قتل الرضيع مبرر؟ لقد مارست شعوب كثيرة هذا الأمر من قبل. فقد كان اليونانيون القدماء، على سبيل المثال، يضعون الأطفال غير المرغوب فيهم عند سفح الجبل كي يموتوا. لا أعتقد أن قتل الأطفال مبرر من الجانب الأخلاقي، ما لم يكن الطفل معاقاً إلى درجة كبيرة ويحتضر أيضاً. وبالنسبة للأطفال المعاقين جينياً، وحينما يتم التأكد من ذلك، فأفضل طريقة هي إجهاضهم قبل الولادة. ولكن هذه المعرفة قد لا تكون متوفرة دائما.

ومن وجهة نظري، أن الإعاقة ليست سبباً كافياً لقتل الطفل. فنحن يترتب علينا واجب الحفاظ ومساعدة الحياة البشرية البريئة، ونحاول أن نعلم هؤلاء الأشخاص غير المحظوظين من خلال الحب والتعليم للوصول إلى أي إمكانيات لديهم. لهم حقوق كبشر وكرامة وقيمة. وهم ليسوا أقل قيمة في الاعتبارات الأخلاقية من الأطفال العاديين.

في بعض الحالات، على أية حال، قد يكون الرضيع مصاباً بمرض عضال أو عيب ولادي (كأمراض العمود الفقري الشديدة) ويكون التشخيص أنه سيموت إن لم تعمل له عملية جراحية تقويمية أو علاج طبيعي طويل الأمد. إن استطاعت الجراحة التقويمية أو الرعاية المكثفة أن تأخذ بالطفل إلى مستوى معين من العمل كي تكون له حياة ذات ميزة، فإن هذه الطريقة تكون مفضلة، ونحن يتوجب علينا مراقبة تنفيذها. وفقط عندما يكون الرضيع مشوهاً تماماً وغير قادر على القيام بوظائفه من دون آلات ومن المحتم أنه سيموت سريعاً عندها قد نسمح بموته بالسرعة الممكنة. والطريقة الملائمة هي الانقطاع عن العلاج، والسماح بالطبيعة بأن تقوم بعملها. إن العمل على إطالة حياة الطفل هو ليس إلا إطالة لعذابه. والمبادئ الأخلاقية المطبقة هنا هي «عمل الإحسان» (فنتصرف بدافع العطف لمنع استمرار العذاب والألم) وعدم ارتكاب ما هو محظور (فلا نرغب في إيذاء الرضيع). إن كل قرار حرج فيما يخص الحياة أو الموت ينبغي أن يترك للوالدين باستشارة الأطباء الذين يتولون هذه الحالة الخاصة؛ إن إبقاء جميع الأطفال أحياء لا ينبغي أن يصبح أمراً مشوشاً للسياسة العامة، كما تؤكد جماعات الحق في الحياة.

٨. الجمعيات الطوعية

من حق الأفراد الدخول في علاقات مع الأفراد الآخرين في مختلف المستويات في المجتمع. هذا أمر تطوعي يقرره الفرد بوعي الارتباط والتحالف مع من يوافقونه الرأي. قد تصنف العلاقات من الوحدة الصغيرة في العائلة إلى النادي، والمنظمة الأخوية والمدرسة والحزب السياسي أو الشركة. وعندما تكون مثل هذه التجمعات بدرجة كبيرة ولها تأثير على العامة وتضم أو تؤثر على الأفراد في المجتمع، فيمكن أن تنظم أو تدرس جيدا. ليس لدى هذه التجمعات حصانة من قوانين الإجرام، وإن كانت تقوم بوظيفة عامة أو شبه

عامة، فليس من حقها استبعاد الأفراد على أساس عرقي أو عقيدة أو اتجاه ديني أو أصل قومي.

٩. الملكية الشخصية

يتضمن حقل السلوك الخاص الحق في امتلاك ملكية خاصة واستعمال الممتلكات الشخصية كما يريد الإنسان، مادام ذلك لا يتدخل أو يتطفل على حقوق الآخرين. ويندرج ضمن الملكية الشخصية الملابس والأثاث ووسائل النقل والبيوت والأعمال الخاصة والمكاتب المهنية. ويكون الحق في الامتلاك محدداً بقواعد تنظم استخدامها. ويجب أن تكون الملكية قانونية متأتية قانوناً إما بالشراء أو الوراثة ويمكن نقل ملكيتها قانوناً أيضا. ويمكن للمجتمع أن يضع تحديدات بخصوص كيفية حيازة الممتلكات (فالاحتيال، على سبيل المثال، غير قانوني). فضلاً عن ذلك، من الممكن أن تخضع الثروة والدخل والموروثات للضريبة، وفي بعض الحالات من الممكن تحديد المضاربات العامة التي يمكن أن يدخلها الشخص. إنني أقصر مناقشتي على الملكية الخاصة، وليست المشتركة، التي تتضمن بعداً عاماً، على الرغم من أنه في بعض الأحيان من الصعب التمييز بين الحقلين. وباسم المصلحة العامة، يحق للمجتمع أن ينظم حيازة الملكية واستعمالها، خصوصاً إذا تعلق الأمر بتشغيل أناس آخرين أو تتضمن عملية إنتاج وتوزيع أو استهلاك. إن الجدل بين الأخلاقية الرأسمالية والاشتراكية لا يهمنا هنا. فالبعض من الاشتراكيين يرون تحديد الملكية الخاصة، ولكن حتى هنا لابد أن يكون واضحاً أن الدولة لا ينبغي لها أن تنزع ملكية الفرد الشخصية من دون إجراءات معينة.

إن المجتمعات الديمقراطية تقدر وتفهم حقوق الأفراد في إدارة حياتهم ويحققون قيمهم ويعملون من أجل بحث أهدافهم وغاياتهم لبحث حياة سعيدة. إنهم يرغبون في تشجيع زيادة حرية الاختيار للفرد بالتنسيق مع احترام

النظام العام والمصلحة العامة. إن الحق في الخصوصية مبدأ أساسي، وبالتأكيد أن المجتمع الأفضل هو ذلك الذي يسعى إلى بحث الاستقلالية أو الاختيار الحر. وعموماً، أن مثل هذا المجتمع يفترض أن الأفراد الذين فيه يقودون أنفسهم بكونهم ذوي مسؤوليات أخلاقية، وأنهم يتصرفون وفق الآداب العامة وأنهم يتسامحون ويحترمون حقوق الآخرين. وليست هنالك ضمانة أن ذلك سوف يتحقق، لأن السلوك الأخلاقي لا ينشأ في الفراغ. إن أعداء المجتمع الحر جشعون ولا يشعرون بحاجات الآخرين ولا يركزون إلا على إرضاء حاجاتهم ومتعتهم، مستسلمين لذواتهم المضخمة على حساب الآخرين. ولذلك فإن الشيء الأساسي أن يعمل المجتمع الإنساني على تعزيز الفضيلة والآداب العامة لدى مواطنيه، كي يتمكنوا من أن يعيشوا حياة مسؤولة.

[٩]

شجرة الحياة

معنى الحياة

لقد سعيت خلال هذا الكتاب أن أدافع عن أخلاق «الإنسانية» من الذين ينتقصون منها. هنالك كم كبير من الحكمة الأخلاقية والتجربة الجوهرية بالنسبة للجنس الذي نشترك فيه جميعا. وثمة أيضاً مبادئ وقيم أخلاقية جديدة تبرز في البحث النقدي ويمكن أن تتأسس على أسس عقلانية. إن الآداب الأخلاقية العامة ومعايير السعادة والمسؤوليات وتطور الشخصية وحقوق الإنسان الأساسية (بضمنها الحق في الخصوصية) توفر مستويات موضوعية للاختيار الأخلاقي. لذلك فإن الأخلاقيات «الإنسانية» تعرض بديلاً حيوياً للأنظمة المتسامية للسلوك الأخلاقي.

وعلى أية حال، فإن نقاد «الإنسانية» قد يقولون أننا لم نستجب للسؤال الوجودي *المطلق* الذي وضعه اللاهوتيون والمتشككون معا. فمجرد أن تقول، مثلاً، أن هنالك مسؤوليات تقع على الفرد في حياته، وإن لم ينفذها فهو غير متطور من الناحية الأخلاقية، أو أن هنالك حقوقاً إنسانية عامة قابلة للتطبيق على كل المجتمعات في العالم، لا تجيب على تساؤل المتشكك الأخلاقي عن تبرير *أعمق* للسلوك الأخلاقي. وعليه فنحن مجبرون على أن نحفر في الحجر الأساس لافتراضاتنا عن الواقع الإنساني. ليس ثمة انحراف عن مطالب

المتشكك، لأنه يرغب في أن يبقى متعمقاً، متشككاً فيما إذا كنا نكتشف الأسس للحياة الأخلاقية. إنه لا يتساءل ببساطة عن تبرير للبنية الكاملة للمسؤوليات الأخلاقية، بل يبحث أساساً عن حل للسؤال عن «معنى الحياة».

أن يقال من قبل «الإنساني» أنه إذا أكل أحد فاكهة من شجرة معرفة الخير والشر فلسوف يجد معرفة أخلاقية متفهمة للآخر هو أمر جيد وصالح. ولكن هل هنالك أمر آخر؟ ما هو معنى وغرض الحياة نفسها إذا تجاوزنا واجباتنا ومسؤولياتنا إزاء الآخرين؟ لقد تطلع الكهنوتي إلى شجرة أخرى في مركز جنة عدن: *شجرة الحياة*. ولو أكلنا من الثمرة المحرمة لتلك الشجرة، فهل سنكتشف الأسرار المطلقة للحياة؟

في «تكوين» يغضب الرب من آدم لأنه أكل من شجرة معرفة الخير والشر، وطرده من جنة عدن. يتذمر الرب: «أنظر، ها هو الإنسان أصبح كأي واحد منا يعرف الخير من الشر» [تكوين. ٣: ٢٢]. وإذ يخشى الرب أن يتمادى في تسلم السلطة وربما يبدأ المنافسة معه بلغته وينص الرب، «والآن كي لا يمد يده أطول ويتناول أيضاً من شجرة الحياة ويعيش إلى الأبد،» ويطرد الإنسان من عدن، واضعاً الملائكة والسيوف المشتعلة لغلق كل الطرق من أجل إبعاده من الدخول إلى طريق شجرة الحياة والأكل من فاكهتها.

ما هي شجرة الحياة؟ هنالك القليل من الإشارات إليها في العهد القديم. في «أمثال»، نحن نواجه الخطاب: «طوبى لذلك الإنسان الذي يجد الحكمة ويتفهم» [٣: ١٣]. وحين نستمر بعد قليل نقرأ، «هي شجرة حياة سعيد من يمسكها ويتمسك بها» [أمثال: ٣: ١٨]. يبدو هذا مثل نصيحة حكيمة لإنساني مهتم في استخدام الذكاء النقدي الأخلاقي وبعد قليل نقرأ أن الشخص الصالح سينال النعيم أما الشرير فلا. من المؤكد أن «فاكهة الصلاح هي شجرة الحياة» [أمثال. ١١: ٣٠]. وهذا يعزز مرة أخرى السلوك الأخلاقي بكونه مصدراً للثراء الروحي.

وتعود الاستعارة لشجرة الحياة للظهور في «رؤيا يوحنا» الكتاب الأخير من العهد الجديد، ولكن ثمة تحول جذري في معناها. هنا ترتبط شجرة الحياة بعدم خلود الروح، التي تصبح مركزية بالنسبة لقانون الخلاص المسيحي بأكمله؛ ولكن هذا يمكن أن يتم من خلال المسيح وحده. يزعم مؤلف «رؤيا يوحنا» أن من يقبل بالإنجيل سوف يسمح له ب «أن يأكل من شجرة الحياة، التي هي في وسط فردوس الرب» [٢: ٧]. في الإصحاح الأخير من «رؤيا يوحنا»، يقال لنا أن في المدينة السماوية هنالك شجرة الحياة، التي تحمل أثنا عشر نوعاً من الفواكه؛ وأوراق الشجرة «لشفاء الأمم» [٢٢: ٢]. وليس غير أولئك الذين يطيعون الرب لهم الحق في شجرة الحياة ويسمح لهم في دخول المدينة [٢٢: ١٤].

بالنسبة لرجل الدين، المعنى الكامل للحياة كامن في الدور الذي يقوم به الإنسان في المشروع الإلهي. كل شخص يعمل وفقاً لدوره أو لدورها في هذه الدراما، ويمكنه أن ينال الخلاص الأبدي وفقا لها. هذه الحكاية الأسطورية عن الهبوط من نعيم الرب وعن الافتداء بالمسيح تتشابك مع الواقع. إنه الإغواء المتسامي يخرب الروح ويتوق إلى العثور على العزاء من عذاب الموت ويجد فيه شكلاً جديداً لحياة أبدية ما بعد هذه. ليس ثمة دليل على أن الروح خالدة. وقد تعرض النقد الفلسفي والعلمي لهذه القصة على ما هي عليه: إنها وهم كبير تغذيه الرغبة في التحقق. على أن الأنظمة الدينية المتعلقة بالإيمان قد ركزت على قصة خلاص متخيل. يشكك «الإنساني» بهذا الادعاء: إنه يتساءل «لماذا تتأسس الحياة على الوهم؟»

في التحليل الأخير فإن رجل الدين لا يجد في الحياة معنى ذا قيمة. إنها بالنسبة له لا معنى لها في ذاتها. الحياة هنا والآن لا أمل فيها، قاحلة ومهجورة؛ إنها مليئة بالمآسي واليأس. ولا يجد رجل الدين المعنى إلا عندما يفارق الحياة هذه نحو العالم المتسامي الذي بعد القبر. إن العالم الإنساني

يجده فارغاً من «الغرض المطلق» ولهذا فهو لا معنى له. ولذلك فإن اللاهوتية محاولة للهروب من الشرط الإنساني؛ إنها خدعة حزينة. الموت بالنسبة لرجل الدين ليس حقيقياً؛ إنه ليس نهائياً وهو مأساة يمكن إصلاحها. هنالك دائماً أمل في نعمة الإنقاذ. وإذ يعيش المؤمن في هذا العالم، وهو غير قادر على التأقلم مع مصاعبه ومصائبه وصراعاته، فهو يقفز إلى عالم آخر، أقرب إلى أوهامه ـ على الرغم من أنه لا يملك فكرة واضحة عما تفعله روحه في الفردوس الأبدي.

أعتقد أن هنالك تنافراً بشأن الخلاص المتسامي معبر عنه في الشعر الديني. فالرب اللامرئي وال «أنا» الذي يواجهه موسى في جبل سيناء والمسيح الذي يصلب على الصليب ويبعث في الكهف الخالي وجبريل الذي يزور محمد بكونه رسول الله ويسلمه القرآن كل هذه أوهام مختلقة حاكها الخيال الإنساني. إن الإيمان بهذه القصص يوفر الراحة من الواقع. يزعم المؤمنون بوجود وحي تاريخي وليس لديهم الدليل الكافي على ذلك، وهنالك دافعان نفسيان لما يفعلونه: إيمان متصلب وأمل بغد خالد. مما لا شك فيه أن أجيالاً بعد أجيال من الرجال والنساء قد تقبلوا بنود هذه العقيدة من دون مناقشة: وأضحى لديها تراث قوي ومؤسسات دينية تدعمها، وصار هنالك، من الناحية التاريخية، معارضة شديدة لأي هرطقة أو انحراف عن هذه النظرة. لقد بذلت جهود هائلة لتوسيع وإدامة هذه الأسطورة ولقمع أي شكوك بخصوص شرعيتها. ولكن، في التحليل الأخير، سرعة التصديق عند المؤمنين الذين يرفضون واقعية الموت ويقبلون الإيمان بالحياة بعد الموت، هي التي تجعل ذلك ممكنا.

مثل هذا الإيمان الديني مرضي. وحقيقة أن أجيالاً من الرجال والنساء قد امتدحوا سرعة التصديق الحكيمة وأدانوا الشكوكية بشأن هذه القصص هي علامة أخرى لمرض داخلي يقرض القلب من الداخل. إن رجل الدين الذي يسأل السؤال، «ما معنى الحياة؟» ويلح أن من دون أن يكون للحياة هدف إلهي

ستكون لا معنى لها فهو لا يخفي فقط عدم طمأنينته بل أيضاً يعرض استجابته الطفولية؛ لديه إيمان ضعيف بقدراته العقلية العاجزة وثقته الهشة في قدرته على حل مشاكل الحياة بنفسه. ومادام الإنسان يعتمد على الرب في حياته فلا تكون لحياته أهمية في ذاتها. وهذا الأمر يصح تماماً لو أن هذه الحياة أرضية اختبار أو غرفة انتظار للحياة الأخرى، محطة في الطريق نحو الجحيم أو الفردوس.

هذا لا يعني أن المؤمن بالدين هو من دون أي حماسة لخطط ومشاريع يسعى لتنفيذها، أو هو متجرد من العاطفة أو الاندفاع أو الرغبة في الحياة أو غير راغب في حل المشكلات الحياتية. فرجال الدين أيضاً، لديهم جبهات واسعة وأوجدوا إمبراطوريات إما باسم الرب أو شر الثروة. إن دافع الحياة هو أيضاً فعال إلى درجة ليس من السهولة بمكان قمعها، ورجال الدين أيضاً يحتاجون إلى التأقلم بأفضل ما يمكنهم مع التحديات التي يواجهونها. على أن هذا الباعث يدعى بأنه طارئ بالنسبة لهدفهم الأساسي الأكبر ضمن سياق النظام الإلهي، وهناك يكمن دائماً وهم الخلود والوعد بشيء آخر ـ يمنعهم من التناول الكامل لفاكهة من شجرة الحياة هنا والآن.

إن يكن الرب ميتاً وليست هنالك حياة آخرة، فهل يمتلك الإنسان الشجاعة على المثابرة؟ لو أنه رفض الإيمان بالرب، فهل سيكون مهجوراً، واقفاً وحده بعيداً في البرية، ضائعاً، من دون معنى أو أمل؟ هل عار أمام الموت، وسوف يتآكله القلق حتى يذوب في الهباء؟ هل يمكن للرب، إله الإيمان والصلاة، أن يعيد للإنسان الحياة كاملة ويمنحه الشجاعة كي يواجه المحن والمآسي؟ أو يستجمع الإنسان كل دهائه ويدعم نفسه كي يعيش حياة كاملة و«يصبح» كما يريد؟ لا يرى رجل الدين إنه يمكنه ذلك، إذ إن لم يكن هناك رب، فلن يكون للحياة هدف مطلق من خلال منظور الأبدية. هل أن حياة الإنسان مجرد فرصة للدوران في محيط زمن المجرة، مجرد ومضة بين نسيانين ـ المطرقة والسندان؟ هل هو عبث من دون إيقاع أو عقل؟ إن لم يكن الرب أساس الحياة الأخلاقية،

فهل هو المسلمة الفعالة للحياة ذات المعنى؟ ولو أنه أزيل في الأخير، فهل سيتداعى كل شيْ في الظلام واللامعنى؟ وهل ستختفي كل القيم الإنسانية والمثل والآمال والطموحات؟ هل أن الإيمان بالسبب الأول والحكم الأخير ضروري بكونه دعماً نفسياً ومعرفيا؟ ألهذا السبب تعيش الأساطير الدينية التي تعمل بدأب على إغواء البشر بالوهم العقيم أن شجرة الحياة يمكنها أن تمنحنا الخلود؟

العيش في عالم من دون إله

لقد أزاح العلم الحديث إله الدين القديم وتحدى فكرة أن الكون له نظام ثابت من الأهداف. كانت العلوم الطبيعية في القرن السادس عشر قد عملت من خلال علم دراسة الأسباب في معرفة المادة الكونية: ولم تكن هناك حاجة لمسوغ لمعرفة الأغراض من وصف الظاهرة الطبيعية. لقد تبعت قوانين الكتلة والطاقة القوانين التنبؤية؛ ولم يكن للظاهرة المادية من أهداف لتحققها. وفي القرن التاسع عشر حلت نظرية القيمة محل الشروح التقليدية للحياة: فلم تكن هناك أنواع ثابتة أو قوى مانحة للحياة الكاملة، بل تقويم متدرج بوساطة التحول القائم على الصدفة أو التكاثر الحر والتكيف والبقاء. وإثر النقد المنطقي للفلاسفة، انهارت البراهين القديمة على وجود الرب. لو كان الرب موجوداً خارج الكون الطبيعي لكونه أرضية متسامية، فلا نكاد نعرف عنه أو عن خططه للبشر شيئا. ولذلك فإن الإيمان بالرب مسألة اعتقاد ولا تستند إلى برهان. إن النقد الأكاديمي للإنجيل والقرآن قد أظهر أن هذه الكتب لا تمثل إصبع الرب الذي يحفر طريقه في التاريخ البشري، بل هو نتاج الاختراع البشري.

لا يقر الملحدون بوجود الرب التقليدي. ويصرح المتشكك ببساطة أن ليس هنالك من دليل كاف على وجود الرب المتسامي، وأن فكرة أنه خلق الكون لينفذ خطة لديه ليس لها من أساس.

وإن تكن هذه هي الحال، فما هو مصير الكائنات البشرية؟ ما مصير الأرض، التي هي الكوكب الأصغر من الشمس، تسير في الفضاء في درب التبانة، الذي هو أحد المجرات من النجوم من بين بلايين المجرات. ربما تكون مسألة أن هنالك حيوات أخر، قد تكون أشد ذكاء، في أنحاء أخرى من الكون باقية قيد الاكتشاف والفحص. ولكن أن تفكر أن كل شيء على هذا الكوكب الصغير وفي الكون بأكمله قد خلق من أجل الإنسان هو تضخيم لذواتنا. أليس ذلك فرض بمركزية الإنسان وليس ثمة من دليل يسنده؟ حتى لو أننا بحثنا في أن نوضح أن الضربة الكبيرة في الفيزياء كانت قد جاءت من أثر دراسة الفضاء لأغراض استخبارية، فهذا لا يؤهلنا إلى أن نوظف مثل هذه القوة المجردة في أي من الصفات الأخلاقية التي يمتلكها البشر. ولا تسمح لنا أن نستنبط الوجود الإنساني المقصود بالإشارة فقط إلى هذا المبدأ. إنه تعبير إنساني غريب أن تؤمن أن الرب قد خلق الإنسان على صورته. إن الأمر على العكس من ذلك، فقد خلقنا الرب على صورتنا كي نحقق أحلامنا وآمالنا في الخلود. إن مبدأ الأنثروب (المبدأ الذي يرى أن الوجود الحياتي يحدد نمط الكون) يعبر عن الكبرياء الذي لدى البشر المتضخم حتى درجته الأخيرة. إن أدعيتنا وكتب الصلوات لدينا تعبر بحماس عن الأمل بوجود الرب والأب وأننا جزء من نظامه. إن كل هذا الجهد عقيم لأن رب رجال الدين الأرثوذكسيين لم يصدق به الإنساني العلمي.

إن كان الرب اللاهوتي ميتاً بالنسبة للمتشككين بالدين الذين فكروا بالمسألة، فما هو المخبأ لنا؟ من أين يأتي مصير الإنسان؟ هل يمكن أن يكون للحياة أي معنى في مثل هذه الظروف؟

دعوني أقول أن السؤال غامض في الإطار التاريخي. إن المعنى، كما أراه، مفهوم نسبي. إنه شيء لا «معنى» له في ذاته بالمعنى المنفصل أو المجرد، أو في الكون عموما. إن المعنى، كالفضيلة، مرتبط بنوع معين من الحياة الحسية،

التي تمكنه من الترابط والتأويل وتوصيل الأشياء. أن تقول أن شيئاً ما له معنى يتضمن أن له معنى أو له دلالة لكائن يمتلك وعيا. يتعلم الكائن الحي من التجربة السابقة أن أجزاء معينة من تجربته مرتبطة بالآخرين. إن الرعد المفاجئ والبرق هي علامات لعاصفة موشكة. وهذه لها معنى للكائن الحي الذي قد يهرع نحو ملجأ. الكلب المزمجر علامة خطر، والقطة التي تموء مسرورة تثير الراحة. هذه الأحداث قد تؤول بما قد يتبع ذلك، بسبب ارتباطاتها بالأحداث الطبيعية ونتائجها. في السياق البشري، أنها ليست مجرد علامات طبيعية تم تأويلها، ولكن أيضاً رموزاً تضطلع بالفروق الصغيرة الثابتة ضمن عمليات التواصل اللساني.

ربما هنالك مستويات من المعنى تستدل من علاقاتها الوظيفية. إن البديهيات والمسلمات والنظريات الرياضية قد وضحت بجلاء المعاني ضمن نظام منطقي. وتعبر استعارات الشعراء عن نوع آخر من المعنى. من الصعب التأكد من الحجة التي ترى أن المعاني تبقى مستقلة بكونها جواهر متجسدة في الحقل المتسامي. إن المعاني تعمل ضمن سياقات من التفكير والاتصال. فيكون لها معنى ضعيف او تجردت منها. فما الذي سيكون عليه الكون لو لم تكن هناك الكائنات الحية؟ هذا سؤال صعب الإدراك، إذ أن تقول أن شيئاً ما له معنى فمعنى ذلك أنه يعني شيئاً ما ـ من خلال الاستجابة والفهم ـ من قبل شخص ما.

يتساءل الإنساني العلماني: لو أن الإله أخلى الكون، فهل سيبقى للأشياء معنى؟ نعم، بالطبع، ولكن فقط عبر العلاقة مع الكائنات الحية وخصوصياتها واستجاباتها. إن الظواهر الطبيعية لا معنى لها منعزلة عن غيرها أو في ذاتها، بل فقط من خلال علاقتها بنا (أو باقي الكائنات). فنحن قد نسأل ما معنى الغروب، نهر يتهادى ببطء، بركان يتفجر، أو انفجار النجم الكبير الذي يتفجر بعيداً في أرخبيلات المجرات؟ هذه الأحداث كلها ظواهر طبيعية من الممكن تفسيرها وفقاً لعلاقات منتظمة وأسباب مادية. إنها تحدث بكل بساطة.

والغروب لا يحدث كي يستمتع الإنسان بجماله، ولا يثور البركان كي يثير الخوف. إن سبب الغروب هي القدرة التي نراها تطلق من الشمس حين تدور الأرض مبتعدة عنها وهي على محورها؛ والبركان يثور ويطلق غازات وحمماً بسبب الضغط الذي يولده باطن الأرض. وفيما إذا نجد النهر يتهادى «كسولاً» أو انفجار النجم «مهولاً» فذلك يعتمد على وجهة نظرنا. فنحن الذين نستجيب لمؤثرات الظواهر الطبيعية. وقد نقرأ فيها بالطبع ما نريد. وهي فيها ما هو ممكن لأن يرى من قبل الكائنات التي تملك الحس، فقد ينظر إليها على أنها جميلة أو مروعة، مهجورة أو مخيفة. ولكن الكائن العاقل هو الذي يستطيع أن يعبر على نحو خلاق لنفسه ولغيره المعاني التي يستشفها من الأحداث الطبيعية.

نحن غالباً ما نتساءل: ما معنى الحياة «نفسها» في الكون على سعته؟ ولكن مرة أخرى لا معنى لهذا السؤال بالانفصال عن الكائنات الحية (بضمن ذلك الكائنات الأخرى) التي تعمل وتجرب الحياة. إن المعاني هي تلك التي نجدها في الحياة و/ أو ما نختاره كي نستثمر فيه الحياة. الحياة لها معنى أساساً للكائنات التي تمتلك الحس؛ إنه نسبي وفق حاجاتها واهتماماتها ورغباتها ومعاناتها ومسراتها.

إن رجال الدين الذين يزعمون أنهم يستقون المعنى من الرب، هم مجرد يقرأون في الطبيعة مفاهيمهم عن الإله. ومادام الدين من صنيعة الخيال البشري، منسوج من مواد من العاطفة الإنسانية ـ كالخوف والتنبؤ بالشر والقلق والأمل والأشواق والأحلام ـ فالرب له معنى في الكون فقط مادمنا ننسب إليه المعاني التي نرنو إليها. نتمنى أن يستجيب لصلواتنا ويخفف آلامنا ومعاناتنا وينقذنا من الموت. لو أننا استغنينا عن فكرة الرب، فإن المعنى لن ينهار، ذلك لأن المعنى من اختراع البشر. إن البشر مبدعون في اختراع أنواع مختلفة لا محدودة من أنظمة الإيمان التي تمكننا من التعامل مع المشاكل التي نواجهها في الحياة. العقل الإنساني حاذق في سبك الحكايات التي تواسيه وتلهمه. إن

الطبيعة هي الطبيعة: لكننا نضيف لها ونزخرفها. وما الثقافة إلا شبكة المعاني المتداخلة التي ننسجها.

خلق معانينا الخاصة

إن الحياة لا معنى لها في ذاتها؛ فهي على العموم تقدم لنا اختيارات لا تحصى، يمكننا أن نبددها أو نتراجع عنها مأسورين بغزارتها. إن معنى الحياة غير موجود في الصيغ الغامضة التي أوجدها الأنبياء القدماء أو الكهنة، الذين تراجعوا عنها إلى التأمل الهادئ والاسترخاء. ولكن من الممكن اكتشافه من أي أحد وكل أحد يمكنه رفع الغطاء عن نكهة الحياة الفطرية. إنه موجود في ضمن الحياة نفسها، وهو يتوصل إلى خلق حالات جديدة للتجربة. إن أكل فاكهة شجرة الحياة يمنحنا الحماسة الوافرة للحياة. والقيمة «المطلقة» لـ «الإنساني» هي القناعة أن الحياة يمكن أن توجد طيبة في نفسها. كل لحظة لها نوع من القيمة الثمينة والجذابة. لذلك فإن ما يدعى بسر الحياة يمكن أن تفك طلاسمه من أي إنسان. فهو موجود في تجارب الحياة: في التمتع بمأدبة جميلة وفي مشقة الجهد المبذول في العمل الصعب وفي الألحان المؤثرة في الموسيقى السيمفونية وفي القناعة بعمل الغير وفرح الكائن الحي وفي تألق البرهان الرياضي وفي المغامرة النشطة في تسلق الجبل ومتعة الاسترخاء الهادئ وفي الغناء المثير لترنيمة وفي التشجيع القوي للمنافسة الرياضية وفي قراءة قصيدة رقيقة ومسرات الأبوة ومتع الصداقة وفي القناعة الهادئة في خدمة الناس ـ وفي كل هذه الأنشطة وأكثر.

ربما لأن رجل الدين الصارم والمرعب يركز كل «المعنى» في الرب وعلى أمله في الحياة المستقبلية فلا يتمكن من التمتع بهذه التجارب، ومن هنا، وإذ يضع نفسه في دائرة الإثم، يتحتم عليه أن ينظر إلى خارج الحياة بحثاً عن المعنى.

إن غنى الحياة يمكن أن يتمثل ويدرك في اللحظة الراهنة للتجربة وهي تثمر بالإضافة إلى ذاكرة التجارب الماضية وتوقع التجارب المستقبلية. إن معنى الحياة هو ذلك الذي يمكن أن يعد صالحاً وجميلاً ومثيراً حسب شروطه بالنسبة لنا ولأحبائنا وباقي الكائنات ذات الحس. إنه موجود في متع النشاطات الخلاقة والحكمة والحق. لا يحتاج الإنسان إلى أكثر من ذلك ولن يستقر حاله بأقل من ذلك.

إن معنى الحياة مرتبط بحميمية بخططنا ومشاريعنا، الأهداف التي ننطلق نحوها بأنفسنا، أحلامنا وثمراتها. إننا نخلق معانينا الواعية؛ إننا نسبغ تأويلاتنا الخاصة على عوالمنا الثقافية والطبيعية. إننا نكتشف الطبيعة ونستغلها ونضيف إليها. إن المعنى كامن في حياة المصريين القدماء، في ثقافتهم ـ المصنفة في «الدين» ـ المتأسسة حول إيزيس وأوزيريس والأهرام ـ أو في الأفكار المستعادة من الأنبياء القدماء في العهد القديم. إنها تتمثل لدى الفيلسوف الأثيني الذي يقف في الأكروبوليس يثقف بالقدر والمدينة ـ الدولة. المعنى كامن في بنية المدينة القروسطية المتأسسة على الاقتصاد الزراعي والإقطاع والخلفية الثقافية المسيحية. إنه مجرب لدى المحارب الساموراي في سياق الثقافة اليابانية وفي آمال وأحلام شعب الأنكا في بيرو، ولدى مواطن قبائل الواتسو في أفريقيا، ولدى الثقافتين الإسلامية والهندوسية في الهند وجنوب آسيا. وهو متمثل بشكل جديد في الحضارات ما بعد الحداثوية في عالم اليوم، الذي يمنحنا مواد ثقافية جديدة وفرصاً جديدة للمغامرة.

كل هذا يوضح الحقيقة بأن البشر قد عثروا على معانيهم ضمن سياق التجربة الثقافية التاريخية، وفي كيفية تمكنهم من العيش والمشاركة فيها. الحياة لها معنى بالنسبة للبشر؛ ولا يختلف إلا المضمون؛ بينما كان الشكل والوظيفة متشابهان. إن الحياة عندما تعاش كاملة في ظل ظروف ثقافية متنوعة، يمكن أن تكون سعيدة وتدعو للتفاؤل؛ إنها يمكن أن تكون حقيقية ومبهجة في ذاتها، ويمكن أن يكون من الممتع تجريبها ومن المدهش النظر إليها.

إن رجل الدين هو على العموم متشائم إلى حد بعيد؛ فهو يعرض أن كل ذلك غير كاف. فالحياة، الحياة الحقيقية، هي في الأخير فارغة وخالية من الهدف أو المعنى. إن الناقد الرافض والمنعزل والقدري وغير القادر على الاشتراك الكامل بالحياة قد يرفض إمكانية بحث السعادة هنا والآن. قد يجد في الجنس والمغامرة و التجربة الفنية كلها غير مقنعة في نفسها. إنه مهتم بالقيم الروحية وقدره المتسامي المطلق، الذي، عندما يقارن مع القيم المادية والطبيعية التي في هذه الحياة يجدها باهتة ولا معنى لها.

هنالك اتهام أساسي يوجهه الإنسان اليائس والمتشائم ضد الحياة. إنه محطم من قبل الشيطان في العالم ومما يعده الذنب الأصيل. كفة الشرور بالنسبة له أثقل من الخير. إنه يركز على النتائج السيئة لمجهوداتنا وما نتوق إليه.

دعونا نتفحص الخطوط الرئيسية لاتهام المتشائم:

1. *حجة وادي الدموع:* الحياة مليئة بالعناء والألم والقلق. إنها ليست مصدراً للضحك والمتعة، بل الحزن والمأساة والازدواجية والقسوة والأمراض والظلم والشر. هنالك الفشل والخيبة. ثمة حوادث ومآس واندحارات. هنالك صراع مستمر وحرب وعنف وعداء وكراهية.

2. *البشر ضعفاء:* هنالك بعض الأشياء التي هي بحدود قابلياتنا، ولكن أغلب الأشياء المهمة التي تحدث لنا نحن مجبرين عليها ولا يمكننا منعها: كالمرض المفاجئ والحادثة غير المتوقعة والشواذ التي لا يمكننا تقديرها. الحياة غامضة، مليئة بالحوادث الطارئة. لا أحد يمكنه التنبؤ بالمستقبل أو الاستعداد لمصيبة. ما سيكون سيكون؛ إن مد القدر والظلم سوف يغمراننا. وليس لدينا إلا القليل الذي يمكن أن نفعله إزاءهما سوى الخضوع والعناء. لا

يمكننا إلا أن نعي باستسلام هول الكون وربما من خلال الصلاة والدعاء يتم إنقاذنا من المآسي الأشد سوءاً التي قد تحدث لنا.

3. *أسطورة سيزيف:* الحياة مليئة بالتكرار الذي لا نهاية له والعمل المجهد، ومع ذاك فإن ما نكسبه لا يبقى. كان سيزيف قد عوقب برفع الحجر الكبير إلى أعلى الجبل ولكنه ظل إلى الأبد غير قادر على إكمال عمله، لأنه ما إن يصل القمة حتى يسقط منه الحجر ليجبره على أن يعيد الكرة ويعود لرفعه ثانية وهكذا إلى ما لا نهاية. المحصلة هنا أننا نعمل بجد ونكدح ولكن من دون نجاح نهائي أو حل، ولا راحة لأرواحنا المتعبة ولأنفسنا المتألمة.

4. *معضلة شوبنهور:* إننا نتقلب بين عدم الراحة والضجر. تنخسنا الرغبات، نكدح من أجل بحث أهدافنا؛ ونشعر بالضيق من خضم ذلك. ولكن ما إن نشبع رغباتنا سرعان ما نزهدها ونضجر. ليس هنالك أي توقف عن العملية المجنونة، بل حالة ثابتة من التدفق بين طرفين مشؤمين. ولا شيء غير النرفانا أو العدم يمكن أن يخلصاننا من تعطيل الرغبة وعذاب عدم القناعة.

5. *عدم ثبات الأشياء:* نحن نكتشف أن لا شيء ثابت أو مطلق؛ كل الأشياء التي تنشأ تذوي أيضاً. الشجيرة الصغيرة تنمو في شجرة السنديان الهائلة الحجم، ولكنها بالنتيجة تموت. المهر الفحل يصبح حصاناً عاجزاً وعجوزا. البنت الشابة الجميلة تصبح عجوزاً هرمة؛ الفتى الوسيم، يتحول إلى الخرف والأحمق. الطفل الذي على الساحل يبني بطفولة قصراً من الرمال، ولكن سرعان ما تحطم أمواج المحيط هذا القصر ويتداعى شكله الجميل. كل المؤسسات والدساتير تتلاشى مع الزمن.

إن بقايا البنى المعمارية الكبيرة للحضارات العظيمة في الماضي هي لا شيء اليوم غير ذكرى متلاشية لمجدها الذي كان عظيماً في وقت من الأوقات ـ فهي

لا حياة لها في نفسها. إن القدر الذي لا مهرب منه لكل المؤسسات البشرية هو الفناء. في السباق الطويل، كل المثل المهتزة التي عاش فيها الرجال والنساء ستختفي بالنتيجة، إذ، من خلال عين الخلود، مهما عملنا اليوم سيتلاشى وينسى.

6. *نهائية الموت:* في الاعتبار الأخير، أن الواقع الأكثر ترويعاً الذي يواجهنا هو فناؤنا والموت المحتم. إن القلق الوجودي الذي يواجه كل شخص هي الحقيقة أنه هو وأحبائه سوف يدفن في يوم ما أو يحرق وسيتحلل. ومن خلال الموقف من الموت، فإن كل شيء يبدو لا معنى له. فما الهدف من كل الكدح والمثابرة، وكل الآمال والتهليل؟ كل شيء نعمله في حياتنا سوف يتآكل ويتحطم. كل شيء سوف يتراجع إلى أبسط أجزائه ويعود إلى التدفق الأبدي. من الرماد إلى الرماد ـ ونحن أيضاً سوف نغطس في بحر الزمن اللانهائي.

يجد رجل الدين أن هذه الوقائع لا تطاق، ولذلك سوف يفترض وجود إله سيحرره من العيوب ـ الشر والمأساة ـ التي يواجهها. سوف يمد رغباته وأحلامه إلى حياة أخرى ليس فيها قلق أو ضجر، لا عجز جنسي أو شر، بل بالأحرى حياة طيبة خالدة ومطلقة البقاء. من الناحية الواقعية، عموماً، فإن نظام اعتقاده هو حلم عقيم في نفسه وسوف يصطدم بحواجز أخرى تنتصب لتدعم تصدع الزمن. لو أن كل الأشياء فانية فكذلك هي النصب الدينية التي أوجدها البشر.

إن عالم رجل الدين هو عالم الحلم فقط؛ إنه هروب ضعيف نحو المستقبل الذي لن يأتي. إنه غير قادر على أن يعيش هذه الحياة كاملة، ومن هنا فقد بدد جزءاً منها. إنه مستهلك بالإحساس بالذنب والخطيئة أو القلق من الغد الذي قد لا يأتي أبداً، فهل كان، في التحليل الأخير، يخون الوعد الملازم لحياته لأنه قد آمن بالأسطورة؟ هل سيكون في حالة موسرة من دون عزاء أوهامه؟

وإذ امتلك الناس الميل إلى حبك حكايات الخلاص للتعزية، يمكننا أن نرفع بجدية السؤال فيما إذا كنا نستطيع العيش من دونها. لو أننا تخلصنا من أوهامنا، هل سيكون من الأفضل لنا أن نكون قادرين على أن نتعلم التأقلم مع الفشل والاندحار وعدم البقاء والموت، ولا نتخلى عن العالم الحقيقي؟ هل يمكننا نحن البشر أن نستجمع قوانا النفسية وشجاعتنا لنعيش معتمدين على أنفسنا ونواجه الكون بواقعية؟

إن رد الإنساني على المتشائم هو التفاؤل: إنه يؤكد *أن الحياة تكون، أو يمكن أن تكون، تستحق أن تعاش*.

السؤال الذي من المفترض أن يسأل هو فيما إذا تكون الحياة تستحق أن تعاش وفق شروطها من دون أي أوهام بالخلود. وللأسف أن هذا السؤال لا يمكن أن يحل تماماً بالعقل. هنالك حجج عقلانية يمكن أن يقدمها الإنسان للروح المنعزلة المسحوقة بالأحداث وغير قادرة على التأقلم معها. من المحتم أن القدرة على العيش كإنساني قد تكون فقط مسألة شجاعة ودافع، وإن يكن الدافع ضعيفاً أو غائباً، فثمة القليل الذي يمكننا عمله لتوليده. إن الشجاعة المطلقة هي التي تكون والتي «تلائم» على الرغم من الواقع الوجودي، والتغلب على المحن ونعمل كل ما بوسعنا كي نبتهج.

المتع الوافرة

من الممكن الرد على قائمة المتشائم لشرور الحياة عبر تقديم خطاب مقابل يضم الإمكانيات المتنوعة والمتع.

1. *إمتلاء الحياة:* فيتعادل وادي الدموع بقمة الفرح، وأحزان الحياة بالإنجازات التي فيها وأعماق اليأس بقمم النجاح. فلو أن للحياة أبعادها المأساوية، فلها أيضاً تجاربها الجوهرية ذات القيمة العالية. وعلى الرغم من أننا نعاني الأسى أحياناً فنحن في الأحيان الأخرى نمارس السخرية والضحك

والمتعة والسرور. ورغم أن الكهنة يذكروننا بالفشل واندحار الوجود الإنساني فإن الساخرين يبتهجون بالمرح ويمكننا أن نستمتع باللحظة ونعثر على اللحظات السعيدة بالممارسة. هنالك فسحة للدموع في الحياة، ولكن بدلاً من الخضوع لقدرنا، يمكننا أن نخلق حياة أفضل عبر التفكير العميق وبذل الجهد وعبر تقليل الجهل والجوع والحرمان والمرض والصراع. لذلك فإن الكثير من أمراض الحياة يمكن أن تعالج وتغدو أفضل؛ إن ما هو خير يمكن أن يرجح ويبعد الشر، ويمكن أن تعادل الدموع بالأفراح.

2. *قوة الإنسان:* إننا نحتاج إلى معنى مناسب لقوانا الخاصة. على الرغم من أن هناك أشياء هي أبعد من قدراتنا فلا نتمكن من تجاوزها أو التحكم بها ـ كالموت، إن لم يفرض فرضا ـ ويوضح تاريخ الحضارة أن الثبات والعقل إذا استعملا بحكمة سيمكناننا من التغلب على المحن. ربما كانت الحضارات المبكرة متشائمة بإفراط حول الذنب والفساد والكوارث الطبيعية. ولكن العلم والتكنولوجيا مكنانا من أن نفهم أسباب الظواهر والعثور على العلاجات المناسبة لها. بالنسبة إلى العقل البدائي يبدو أن ليس هناك إيقاع أو سبب للأشياء. فالفيضان يجرف المحاصيل؛ والقرية تصيبها المجاعة. ربما من الأفضل لنا أن نضحي بطفل أو حمل كي نهدئ من غضب الرب ـ هكذا هو «التفكير» البدائي. والناس الذين «يفكرون» هكذا يخضعون لقدرهم على أمل أن الآلهة تقوم بإنقاذهم. يشعر الإنسان أنه بحاجة إلى أن يطور فكرة ما عن النظام الإلهي لتكون سبيلاً للتقليل من قلقه.

ولكن علينا أن نفهم أنه على الرغم من أننا قد نعاني من سوء الطالع، هنالك دائماً إمكانيات لحسن الطالع. فحزن اليوم قد يفسح الطريق لطالع الغد. إن دراما الحضارة البشرية تكشف أيضاً عن قدرات كامنة لمعرفة اكتشافات جديدة وطاقات. ربما تكون وسيلة لعمل خلاق يمكننا من التغلب على البلاء؛ لدينا الطاقات التي تمكننا من تغيير الأشياء نحو الأحسن. نحن بحاجة إلى جمع

قوانا بعد الهزيمة ونكافح من جديد. إن الإرادة البشرية «يمكنها» تجاوز المحنة. يعتمد المستقبل على المثابرة والإبداع والروح الإنسانية التي لا تقهر.

3. *قناعة الكفاح:* لقد ضخمت أسطورة سيزيف المأزق، لأن هناك متعة واضحة وغنى في العمل من أجل الوصول إلى أهدافنا. لا يحتاج إنجاز مهمة على نحو متكرر إلى أن تكون عملاً شاقاً ومؤلماً، بل مصدراً للقناعة الكبيرة ـ كما يكتشف ذلك الرياضيون في الساعات اللانهائية من التدريب من أجل المنافسات الرياضية. وربما يكون البحث ذاته هو المورد الرئيسي لثراء الحياة. فالعاشق يتابع حبيبته، ويبني المقاول مصنعاً جديداً، ويقضي الروائي السنوات الطوال لإنجاز رائعته. إننا نجد الجذب في الأعمال المبدعة نفسها. قد لا يكون ما ننجزه هو المهم بل قد تكون النشاطات التي ننجزه بها هي الأهم. إن الوسيلة التي نستخدمها لبحث أهدافنا لا يمكن فصلها عن أهدافنا نفسها. علينا أن لا ندين كل العمل بكونه حمل ثقيل ساحق. من المؤكد أن البطالة في جنة عدن مكافئة للحال في الجحيم.

4. *التوقع والإدراك:* إن مأزق شوبنهور من الممكن الرد عليه بالطبع. ففكرته تعبر عن ردود أفعال لإحساس منهك. ماذا عن وجهة النظر المبهجة، التي تكتشف المزايا المعاكسة في الحياة؟ هنالك توقعات عظيمة ومفرحة ورغبات تحفزنا نحو العمل، وهنالك مسرات عظيمة في تجريبها والكفاح من أجلها. عندما نحقق هدفنا في الأخير تظهر لنا سعادات الاكتمال، الرضا الكبير في إطفاء عطشنا، إشباع جوعنا وانطلاق عواطفنا. فضلاً عن ذلك، حين نحقق أهدافنا، تظهر لنا دائماً أهداف جديدة ممتعة. إننا نقف بين لذات التوقع ومسرات الإدراك.

5. *الجدة:* في الرد على حجة عدم الثبات، قد يجيب المرء أنه على الرغم

من أنه من الصحيح أن لا شيْ يدوم، فإن جريان التغيير له نوع من القيمة التعويضية.

الاستخدامات العديدة للتاريخ: أولاً، أن جهود الحضارات المبكرة لا تنسى تماماً؛ فهي تبقى في الذاكرة الإنسانية، في الأعمال الحرفية والفنون والكتب والنصب التي تخلد. إنها تصبح جزءاً من عالم الثقافة، ونحن نقدر الفائدة منها. وبعض عمل الخير الذي نقوم به قد يخلدنا، وقد تكون أجيال المستقبل مدينة لنا لما أورثناهم إياه. ومن خلال استخدام علم الأثنولوجي (العلم الذي يقارن بين الثقافات المختلفة) وعلم الأركيولوجي (علم الحفريات أو العلم الذي يدرس الحضارات القديمة من خلال آثارها)، نكون قادرين جزئياً على كشف وإعادة بناء الحضارات القديمة. يمكننا أن نضعها في زاوية نظر واسعة بكونها جزءً من تاريخ العالم، منذ رسومات الكهوف لأناس ما قبل التاريخ في فرنسا وأفريقيا وأستراليا وحتى اللحظة الراهنة. ومن هنا فإن الماضي يصبح له مغزى في الحاضر، لكون كل ثقافة تستوعب وتقدر وتعيد تأويل تراثها لصالحها.

ومع ذاك، فإن عدم ثبات الأشياء هو جزء من الواقع متعذر محوه. يمكن للمرء أن يرى ذلك في علم الفلك، حيث يكون المشهد الكوني مشهد ولادة وموت لنجوم ومجرات، كلها تتحرك بأقصى سرعتها في كون شاسع. ربما أن كل شيء كان موجوداً في وقت مضى يمكن إعادة اكتشافه في الوقت الحاضر.

تقدير الجدة: ثانياً، هنالك دائماً ما هو جديد تحت الشمس. ويمكن أن نرى ذلك في عالم الأشياء المصنعة، حيث نكون منتظرين بتوقع كبير لآخر المستجدات والنماذج؛ فمنتج الأمس قد يمسي خارج الحداثة، وقد يكون نمط الغد أكثر تكاملاً. وقد يكون هذا وهماً بلا شك، بيد أن النماذج الأخيرة للأزياء والكتب والأناقة تفسح الطريق لتلك النماذج التي ستأتي. إن شجرة جوز الهند الهائلة ستهلك لا محالة، ولكن هنالك أشجاراً جديدة تحل محلها. قد يموت القيصر وقد نتأسى عليه جميعاً، ولكن أوغست سوف يتقلد الحكم. هنالك

دائماً الفرحة بما هو جديد ـ وقد يصدمنا هذا الجديد بجرأته في البداية. ومن المسلم به أن ليس هناك جلال في الأساليب القديمة، ولكن هذه الأساليب تبدل بنماذج مختلفة من التعبير، وهذه نفسها يقدر لها أن تصبح أشياء مميزة وتبقي على حياة منتقديها. لذلك هنالك بعض الفضل في عدم الثبات. إن التفرد والفردية والجدة كلها لديها مكان في العالم التعددي ويمكن الاستمتاع بها لذاتها بينما هي باقية. لا شيء يبقى إلى الأبد، هكذا يئن السوداوي. وأجيب نعم، وكم هو جميل ذلك الشيء الجديد إذ يبرز ظاهراً ليأخذ مكانه!

6. شجرة *الحياة:* يتم تذكيرنا، أن آخر كل ذلك يأتي الخرف والموت والعدم، هذا ما ينتظر كل إنسان. تلك حقيقة قاسية، ولا مهرب منها. يمكننا أن ندفع الموت ونطيل الحياة من خلال الطب الحديث، وفي المستقبل قد تجد الكائنات الحية طرقاً جديدة في مد الحياة إلى ما هو أبعد من الستين من خلال الغذاء والتمارين والعناية الطبية. ونأمل أن تكون هناك خروقات لأجيال المستقبل سوف تزيد من طول العمر بفعالية كي يعيش النساء والرجال ويستمتعون بحياتهم لعقود أكثر بصحة معقولة. المتشائمون يذكروننا بالموت، والمتفائلون يذكروننا بالحياة. وإذ نعي حقيقة الموت، لابد أن يكون تركيزنا على الحياة ـ لا أن ننتظر نهايتها، بل نعد كل لحظة فيها ثمينة.

الحياة تستحق أن نعيشها!

قد تقع كلمتي هنا على آذان مصابة بالصمم. فالبعض من الأفراد أبعدتهم تحديات الحياة ومسؤولياتها حتى أنهم زعموا أنها لا طعم لها ومتعبة وكئيبة. لقد أثقلتهم أوزار الحياة فغدت استجابتهم سلبية. إنهم مرعوبون من الشخص السعيد وقد يحقدون عليه. إنهم يمقتون المرح أو الضحك؛ فهم جادون دائما. وقد يفكر البعض منهم، في لحظات يأس، بالانتحار.

كيف نرد على هؤلاء الذين لا يجدون أن الحياة تستحق أن نعيشها؟ أعتقد أن المنطق يفشل في نقطة ما، ولا يمكننا أن نثبت لهم أي شيء بالحجة؛ لأن الرغبة في الحياة غريزية وليست إدراكية. وإن غابت هذه فلابد أن هنالك علة جسدية أو نفسية داخلية تقضمهم من اللب. إن الإحساس المأساوي الذي يزيد الأمور سوءاً له أسباب عديدة، ومن يستطيع أن يقول متيقناً أي سبب راسخ قد قاد إلى الإحساس المشوه بالواقع؟ ربما يكون سبب الكآبة الشديدة جسدياً أو حتى وراثياً في الأصل. ولكن أصلها قد يكون موجوداً بسبب الإحباط في الحصول على الحاجات الرئيسية. ربما تكون جذورها في عدم التوازن الداخلي، أو الكبت الجنسي وفقدان الحب والصداقة أو الروح الاجتماعية، أو الفشل في احترام النفس، أو عدم القدرة في العثور على عمل خلاق أو سبب مرغوب للكفاح من أجله أو فقدان الحكمة. من المفترض لو أن هذه الحاجات تم إشباعها، من الممكن أن ينمو الإنسان ويتطور، وقد يجد نوعاً من الأساس الإبداعي لحياة ثرية ولها مغزى. لو أن رجلاً لا يجد حياته الحالية تستحق أن تعاش، فلربما يتوجب عليه أن يضع نفسه في موضع حيث يجدر به أن يكون.

عدد لا يحصى من الأفراد قد غنوا المدائح إلى شجرة الحياة في الماضي وسوف يستمرون في ذلك مستقبلا. إن شجرة الحياة هائلة ووافرة الغذاء، وفي أكلها نجد أن سرها هو أن «الحياة طيبة غريزيا». هذا هو حجر الزاوية عند أخلاقيات «الإنسانية». كل شخص يحتاج إلى خلق الشروط التي تمكنه من أن يعيش حياة غنية وممتعة. وهذا، في التحليل الأخير، هو الغرض من كل القواعد والتنظيمات السلوكية والأخلاقية. إنها صالحة وطيبة ليس في نفسها بل أيضاً في نتائجها ـ لما يمكن أن تجعله ممكناً: حياة كاملة وإبداعية وسعيدة. إن الآداب العامة والمسؤوليات لابد من احترامها لكونها ضرورية لأي إطار للحياة في المجتمع. لكن اختبار النظام الأخلاقي هو أيضاً فيما إذا كان يمكن الأفراد أن يعيشوا بفرح. جيل بعد جيل من البشر في الماضي قد وجدوا أن الحياة ثمينة، ومما لاشك فيه أن جيلاً بعد جيل سوف يستمرون في أن يفعلوا ذلك في

المستقبل. لسنا بحاجة إلى الهرب إلى النرفانا أو نبحث عن الخلاص في مكان آخر ـ الذي هو في الحقيقة هروب إلى *لا مكان*. إن أعمال الحياة الخلاقة، بضمن ذلك الاشتراك بالحياة مع الآخرين هي القيمة النهائية للحالة البشرية. هذا هو الرد الذي يقدمه «الإنساني» لرجل الدين. لاشيء هناك متكامل ومطلق بعد العيش في حياة كاملة: *إنها في نفسها المكافأة*.

ملحق بالبربرية: الجانب المظلم من القمر

ربما يكون ما طرحته هنا متفائلاً جدا. وربما لدي معنى مشوهاً عن التواصلات الإيجابية للأخلاقيات «الإنسانية» أو عن الإمكانية الغريزية للبشر في بحث ما هو صالح. ومما لا شك فيه أن المتشائم سوف يواجه ما طرحته بابتهال كبير عن الرعب الغادر الذي في التاريخ البشري وعن الاتجاه في فترات معينة نحو الجرائم الأخلاقية التي لا يمكن الحديث عنها. كل هذا يزعم أنه يشير إلى فشل الإنسانية الصافية أو الأخلاقيات العلمانية في مواجهة الشر. إن التوضيح الشديد للشر البشري هو محاولة جريمة الإبادة: المذبحة الرومانية للقرطاجيين، الغارات البربرية لروما، الحروب الدموية الصليبية، محاكم التفتيش، الذبح التركي للأرمنيين في الحرب العالمية الأولى، تصفيات ستالين لملايين في الغولاغ، التطرف النازي إزاء اليهود، الزحف القسري الذي فرضه الخمير الحمر في كامبيوديا.

ليس لدي معيار عن الذنب الأول. لا أومن أن البشر قد ولدوا فاسدين. وليست لدي وجهة النظر الساذجة المناقضة بأن كل البشر طيبين بالفطرة، وأنهم يسعون بطبيعتهم إلى ما هو صالح، وأن الخطيئة هي ببساطة نتيجة الجهل. إن البشر لم يولدوا طيبين ولا أشراراً، ولكنهم قادرون على الإثنين.

على الرغم من أننا قادرون على إدراك أخلاقي راسخ، فإن الوحشية الحيوانية تبدو أيضاً كامنة في الداخل، وهي قابلة للقفز عندما تكون غير موضوعة في

قفص وتقترف أعمالاً لا أخلاقية. ربما يكون الباعثان كلاهما موجودان داخل صدر الإنسان. كيف لنا أن نتأكد أن أياً منهما سيتم التعبير عنه؟ هل يعتمد ذلك على الظروف في البيئة، فيما إذا تكون هنالك اتجاهات ايجابية وحسنة ستقدم نفسها؟ أو يتوجب علينا أن نمنح وصفاً وراثياً للشر؟ هل نحتاج إلى أن نطبق تصديقات اجتماعية قوية لكبح جماح اتجاهات الشر في الداخل؟

لقد أزيح أغلب أعماق الفساد الإنساني في الوقت الحاضر: ففترة النازية هي أحد الشواهد على الشر البشري. هل كان ذلك انحرافاً في التاريخ أم أن ذلك يخبرنا شيئاً عن الطبيعة البشرية التي اخترنا تسليط الضوء عليها؟

إن تجربتي الشخصية عن جرائم هتلر وأتباعه تلفح ذاكرتي وأنا أتذكر أحداث الحرب العالمية الثانية. يمكنني أن أشهد على الرعب في مذبحة الهولوكست. كنت ضمن الجيش الأمريكي، لا يتجاوز عمري الثامنة عشر، وأخدم في الجيش التاسع والثالث الذي حرر أوربا وساعد في اندحار الجيش النازي. وصلت داكو وباخنفالد بعد أيام من تحرير تلك المعسكرات المكثفة. عندما زرت داكو أولاً، وقفت في الحفرة التي كان يتناثر فيها رماد وعظام آلاف الضحايا. رأيت الركام العالي للملابس والأحذية التي نزعت من الضحايا. وزرت فيما بعد باخنفالد وفيما بعد كنت مع الجيش الذي استولى على مدينة بلسن في الجيك وهي من الناحية الفعلية آخر مدينة كبيرة تحرر من الجيش الألماني. تحدثت إلى «الأشخاص المشردين» كما كانوا يدعون بمهانة، ضحايا القسوة الألمانية، الذين عانوا عذاب معسكرات الإبادة، الذين وصفوا هامسين حكايات الرعب: رجال ونساء وأطفال شحنوا في شاحنات لنقل القطيع، ماتوا من الجوع والضرب وسيقوا إلى قاعات الغاز، ثم تم تحويلهم إلى رماد.

إحدى العجائز الجيكيات التي قابلتها في سودتنلاند أخبرتني عن ابنها الذي قالت أنه كان شيوعياً وسجن من قبل الجستابو قبل أربع سنوات ولم تعد تسمع عنه أي شيء منذ ذلك الحين. فسألتني، الآن والحرب توشك أن تنتهي فهل من

الممكن أن يكون لازال حياً؟ لم يطاوعني قلبي أن أقول لها أنه قد توفي على الأكثر. وشخص آخر يهودي كان يدعى ليبرمان، لم يكن يرتدي غير قميص داخلي وسروال حين قابلته. بدأ العمل مساعداً في مستشفى وحدتنا في ميونخ. كان لديه مسكن قريب من داكو، حيث عمل لأربع سنوات في المحرقة. لم تكن داكو تحديداً معسكراً للموت مثل أوشخوتز، التي من الواضح أنها قد اتهمت بإبادة «غير المرغوب فيهم». ومع ذاك كانت المجاعة والتيفوس والعذاب والسياط تفتك بالناس، كان جرس الموت يرن عالياً في داكو. وروى لي رعب النازية في معسكرات العمل. ما هو ذلك الذي يجعل البشر ينتقصون من الآخرين إلى درجة أدنى من البشر ويعاملونهم بطريقة همجية أسوأ من الحيوانات، من دون أي كرامة؟ كيف يمكننا أن نوضح الاشتراك الصامت بالجريمة لملايين الناس الذين سهلوا ذلك العمل؟

كنت في الوحدة العسكرية المسؤولة عن تطويق جماعة من الأسرى من ضباط الجيش الألماني. كانوا مهذبين ومحترمين في علاقاتهم معنا ـ كانوا بالطبع بقايا جيش يفتخر بنفسه. تحدثت مع ضابط ذي مرتبة عالية كنت تعرفت عليه. وقد روى لي أنه كان من فريق الطيران المقاتل. قلت أنني من الممكن أن أفهم حجز الرجال كأسرى حرب وربما أفهم حتى أن يجبروا على العمل ضمن الجهد الحربي الألماني، ولكن كيف له أن يوضح لي، أو على الأقل يبرر، الإبادة الجماعية لنساء وشيوخ وأطفال أبرياء؟ نظر إلي وأجاب، «كان ذلك أمر ضروري، فلا أحد يعلم ما الذي يأتي به الرحم اليهودي». فوقفت مرعوبا. فهذا رجل، على الرغم من كل ما يبدو عليه من مظهر، متحضر ومثقف. تبعاً إلى المعايير العنصرية عن التفوق الآري والتدني اليهودي، كان يعتقد أنه قادر على تبرير الإبادة الجماعية. هل كان منحرفاً، أم أن هنالك شيئاً خسيساً وشريراً في أعماق النفس البشرية يمكن أن يبرز في شخصية طاغية منفلت مثل هتلر؟

في ذلك الوقت كان ثمة الملايين من العمال الأجانب الذين جلبوا إلى ألمانيا

وكانوا يعملون في الحقول والمصانع. أطلق عليهم الحلفاء «العمال العبيد». وقد حرر جيشنا الآلاف منهم في منطقة مونستر. ما أحزنني أنهم ما أن تحرروا حتى بدأوا بالسلب في الريف واغتصاب وقتل المدنيين؛ وتحتم علينا أن نطوقهم ونحجزهم في معسكرات. لم يرغب الكثيرون منهم العودة إلى الاتحاد السوفيتي، لأن الحياة في ألمانيا النازية كانت أفضل لهم. لقد أصابني الرعب من القصص التي أخبروني بها عن معسكرات عمل ستالين، والرعب والاضطهاد اللذان كان يعاني منهما أصدقاؤهم وأقاربهم، وخوفهم من العودة. واكتشفنا فيما بعد أنهم أجبروا من قبل قوات الحلفاء على العودة إلى الاتحاد السوفيتي وهناك سجنوا أو أعدموا عند وصولهم.

كيف نفهم هذه الوحشية؟ هل يمكن أن يمنعها النظام الديني للأخلاق وحده؟

هنالك ثلاث مقومات حاضرة في السجون النازية والستالينية. الأول هو التعصب الأيديولوجي، الذي سمح لمجموعات كاملة من الناس بأن يوصفوا بالأعداء ـ اليهود والغجر من قبل النازيين؛ والرأسماليين أو الغولاق من قبل الماركسيين الستالينيين. وهذا منطق منحرف وقيد أخلاقي يمكن أن يبرر من خلاله أي نوع من الوحشية. إن الكراهية والحقد يؤججان الناس وتتم تعرية الناس الآخرين ويحطمون من قبل معذبيهم بهمجية. قال النازيون أن المسألة اليهودية يمكن أن تحل فقط بإبادة جماعية، وقال الستالينيون أن أعداء الثورة الطبقيين لابد من تصفيتهم. ثانياً، كانت تلك مجتمعات شمولية تركز فيها كل السلطة بيد مجموعة دكتاتورية صغيرة. ليس ثمة حق شرعي بالمعارضة، ولا يسمح بالنقد الديمقراطي كي يقيد السلطة غير المحدودة. تم التخلي عن المبدأ الديمقراطي بالتسامح ليحل محله الرأي الواحد الانفعالي والشر الوحشي. ثالثاً، كان المبدأ السيء السمعة المقبول هو أن المرء يمكنه استعمال أي وسيلة ـ بضمن ذلك الإرهاب والإبادة الجماعية ـ لبتحقيق الأهداف. وهذا ما قاد إلى تدني الآداب الأخلاقية العامة والمبادئ الأخلاقية وحقوق الإنسان. وتم التنكر

للتطور الأخلاقي وأقحم مبدأ الأمر والطاعة. وصار من واجب الفرد اتباع الأوامر، كما قال النازي أدولف أيخنمان، الذي فهم من ذلك أن القطارات قد وصلت في وقتها إلى معسكرات الموت. وكذا الحال مع رفاق الحزب الذين يتوجب عليهم إطاعة أوامر الكنيسة المقدسة للماركسية اللينينية من أي تعبير عن عدم الإخلاص. فلا مكان للمعارضة أو الانشقاق.

هل ثمة وحش يسكن عميقاً في داخل الطبيعة الإنسانية التي تولد مثل هذه الجرائم الشنيعة؟ إنني أفضل الاعتقاد أن «مثل هذا الرعب أمر شاذ ومناقض لحسنا الأخلاقي العميق». (آمل أنني لا أتهم بالمثالية الإنسانية المبالغة). لقد حاول النازيون أن يخفوا جرائمهم الشنيعة وقاموا بالإبادة سرا. وسعى الستالينيون أن يخفوا أعمالهم الرهيبة، كما بينت محاكمات موسكو في أواخر الثلاثينيات، كما لو أنهم كانوا يعلمون أنهم يستخفون بالمثل الأخلاقية الأولية الضرورية لأي مجتمع متحضر. كانوا مجانين يطفحون بالرؤى المنحرفة وليسوا مبشرين بعصر جديد من الأخلاقية؛ إنهم مستبدون يأكلهم الحقد وفاسدون بالفشل بسبب فقدانهم للحكمة الأخلاقية. لا أعتقد أن الأخلاق تتأسس فقط على إله ديني يمكن أن يحد من البهيمية في العمق ـ خصوصاً ونحن نتأمل في الحروب البربرية المستلهمة من المتعصبين الدينيين الذين ملئوا الأرض بدم البشر الذين، من المفترض، أنهم خلقوا من قبل ربهم. لسوء الطالع، في ظل ظروف اجتماعية معينة أطلق العنان الكامل للسلوك الشيطاني، وأن البواعث لأخلاق فاضلة قد تلاشت.

هذه الحقائق الحزينة هي السبب الأقوى الذي يدعو لتطوير الأخلاق الإنسانية ـ أخلاق لا تستند إلى اللاهوتية أو الأيديولوجيا بل إلى اهتمام شرعي بالناس الآخرين والرغبة في التسامح بشأن التنوع والاختلاف. إن الأخلاقيات الإنسانية مرتبطة بعمق بالمبادئ والقيم، وهي تمقت أي استخفاف بالآداب العامة. وفي الجوهر من هذه الأخلاقيات هو الفهم بأن حقوق الإنسان تنطبق على «كل»

الرجال والنساء. وليس سوى في مثل هذه البيئة الأخلاقية يمكننا أن نأمل في إدراك امتلاء الحياة للجميع. يتوجب علينا، في ظل الظروف الصعبة، أن نتذكر أن الوجه الآخر للقمر يسبح بضوء الشمس.

خلاصة

سأعمل الآن على تلخيص فكرتي. هنالك على الأقل مصدرين رئيسيين للأخلاقية قد نشئا تاريخيا: الأنظمة اللاهوتية المتسامية المتأسسة على وصايا الإيمان وبنيت على أساس التقاليد؛ والمبادئ والقيم المعيارية المبنية على البحث النقدي الأخلاقي.

الأنظمة اللاهوتية للأخلاق غير قادرة على التأقلم بدقة مع الصراعات في العالم الحديث. إنها تحاول أن تلزم الرجال والنساء بعبودية الرؤى الأخلاقية المحدودة التي نتجت في طفولة الجنس البشري. إنهم ينصحون أو يلمحون إلى التراجع في شرنقة مراوغة هي قضية الخلاص. ولا تنطبق الحقائق القديمة تماماً على الوقائع الجديدة في العالم الذي صار عرضة للتغير السريع في التكنولوجيا والاقتصاد والمجتمع والثقافة والسياسة.

ويمكن اكتشاف مصادر جديدة للحكمة الأخلاقية، ولكن ليس إلا من خلال أكل فاكهة شجرة معرفة الخير والشر. ومادام الإنسان قد طرد من عدن فله الاختيار المثير في أن يكون شخصاً مسؤولاً من الناحية الأخلاقية، مما يساعده على حل التحديات في المستقبل باستعمال الفكر النقدي.

إن أخلاقيات الإنسانية مستقاة بعمق من منبع الحكمة الفلسفية ـ لليونان وروما وعصر النهضة والتنوير والدراسة العلمية الحديثة. يوفر البحث النقدي الأخلاقي مؤشرات ذات مغزى للاختيار الأخلاقي؛ فنحن نحتاج إلى استعارة أفضل ما هو في الماضي ـ الآداب الأخلاقية العامة التي لدى التراث الجماعي للحضارة، فضلاً عن معايير السعادة التي تتمثل في الأشخاص العقلاء والمستقلين. تدرك

الإنسانية أن للأفراد مسؤوليات إزاء أنفسهم وإزاء الناس الآخرين، وكذلك أننا بحاجة إلى تطوير الشخصية، تذويت العاطفة وتفهم شعور الآخر لدى أطفالنا، واستثمار قدرتهم في الفهم الأخلاقي. وفي التحليل الأخير ليس بغير تطوير مبادئ جديدة ذات صلة بالعصر الجديد يتمكن العقل من أن يخدمنا على أفضل وجه.

إن المفاهيم الأخلاقية للغد لابد أن تكون كونية حقاً في منظورها. يجب علينا أن نتعالى على حدود الولاءات الضيقة والشوفينية الأبرشية التي كانت في الماضي وندرك أن حقوق الإنسان الأساسية هي ذات منظور عالمي، لأن كل الأشخاص هم أبناء المجتمع البشري.

لا نحتاج إلى أن نخضع للتشاؤم أو اليأس. يمكننا أن نعيش بامتلاء ومغزى هنا والآن. إن أكل ثمرة الحياة يجعلنا نكتشف أن المعاني الغريزية تظهر في العمليات الخلاقة للعيش. وفيما إذا كان شخص قادراً على تعزيز الحياة الصالحة فذلك يعتمد عليه وعلى ما يعمله. كل شخص مسؤول عموماً عن قدره أو مسؤولة عن قدرها. كل شخص بإمكانه أن يحصد متع الحياة الوافرة. وهذا يصح على الجميع، علينا أن نتعلم كيف نعيش ونحب ونعمل معاً في مجتمعات أخلاقية متعاونة. وذلك أمر صحيح لأولئك الذين طوروا ليس الإحساس بقيمتهم الشخصية فحسب بل أيضاً بالقيمة الشخصية والاحترام لكل الأشخاص الآخرين في المجتمع العالمي.

الفهرس

هذا الكتاب

في رواية الجريمة والعقاب لفيدور دوستويفسكي، يسطو راسكولينيكوف ويقتل إمرأتين عجوزين، لأنه لا يجد أية بنية أخلاقية تحد مشاعره. إن قاعدة المنفعة ـ الذاتية ليس لها حدود؛ لقد تحول المؤمن الشاب إلى عدمي. فيصيح دوستويفسكي، «إن الحياة والعالم ليس لهما من معنى من دون الرب». من دون قانون إلهي للجزاء والخلاص، لايجد دوستويفسكي أية أرضية للواجب الأخلاقي، لا إحساس بالواجب أو المسؤولية تجاه الآخرين.

